من مؤلِّف "لعبة العروش" المُستوحى منها المسلسل التليفزيوني الضخم

GEORGE R. R. MARTIN

چورچ ر. ر. مارتِن

FEVRE DREAM

حلم فيڤر



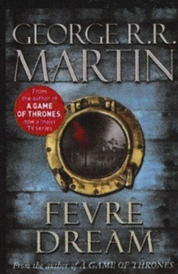
ترجمة: شيرين هنائي

FEVRE DREAM

حلم فيڤر

عندما تلقى كابتن أبنرَ مارش عرض شراكة من ثَري أرستقراطي، شكَّ في أن الأمر مُريب، لكن عندما قابل هذا الثري چوشوا يورك، الأنيق الشاحب، ذا النظرات القوية الحازمة، تأكَّد مما ارتاب فيه؛ يورك لا يعبأ بما حطَّمه شتاء عام 1857 من أسطول بواخر مارش الذي تجمَّد حوله النهر، ولا يهمُّه أن يجني أرباحًا مما سيستثمره في هذه الشراكة.

ليورك أسبابُه الخاصة التي تدفعه إلى استكشاف نهر المسيسيبي العَصي، وعلى مارش ألا يسأله عن شيء مهما تبدَّى له من تصرفات غريبة مثيرة للشكوك.



فكَّر مارش في رفض عرض الشراكة، لكن زلزل عزيمته الوعد بالذهب وبباخرة جديدة تسطر تاريخه في سجل رجال النهر. في منتصف رحلته الأولى على متن باخرته "حلم فيڤر"، يكتشف مارش أنه انضم دون أن يدري إلى مَهمَّة مُخيفة نبيلة في آنٍ واحد، تضاهي أكثر كوابيسه روعةً، وأكثر أحلام البشرية استحالةً.

غلاف: محمود هشام



www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb

FEVRE DREAM
حلم فيفر

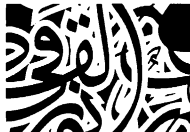




- العنوان الأصلي: Fevre Dream
- العنوان العربي: حلم فيفر

- الطبعة الأولى: يناير/2025م

- ترجمة: شيرين هنائي
- تحرير: أحمد حسين
- تدقيق لغوي: سلسبيل بهاء الدين
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- رقم الإيداع: 20491/2024م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-419-9



إلى هُوارد والدروب.

الكاتب الحاذق، والصديق الصدوق،

والحالم المحموم لو أن لشخص كهذا وجودًا.

واحد



سانت لويس
أبريل 1857

طَرَق أبنر مارش مكتب استقبال الفندق بخفَّة -رأس عصاه المصنوعة من خشب الجوز- لجذب نظر الموظف، ثم قال: «أنا هنا لمقابلة رجل يُدعى يورك، چوش يورك كما يطلق على نفسه. أخبرني. هل لديكم نزيلًا بهذا الاسم؟».

الموظف مُسِن يضع نظارة. أجفل لدى سماعه صوت الطرقة، ثم التفت يواجهه مبتسمًا وقال في ود: «يا إلهي، كابتِن مارش! لم نرَك منذ نصف عام يا كابتِن. رغم ذلك سمعت عن بَليَّتك. الأمر مريع. جَد مُريع. أنا هنا منذ عام 36، ولم أشهد غُصَّة جليدية[1] مثل تلك».

قال أبنر مارش مُتَبَرِّمًا: «لا عليك».

كان قد توقَّع تعليقات مشابهة. «بيت المزرعة»[2] فندق رائج بين رجال البواخِر. اعتاد مارش تناول غدائه هناك قبل ذاك الشتاء القاسي، لكن منذ غُصَّة الجليد صار يتجنَّبه، هذا بالإضافة إلى الأسعار. رغم حبه لطعام بيت المزرعة، لم يتوافق مع نوعية الصُّحبة من بحَّارة وقباطنة ورفاق وعاملين في

---

(1) الغصة الجليدية: كتل من الجليد تسد مجرى الأنهار مما قد يتسبب في فيضانات كارثية. (المترجمة)

(2) بيت المزرعة، أو «البيت الكبير» كما كان يطلق عليه العبيد في الماضي، هو البيت الرئيسي في المزارع والضيعات الكبيرة، وغالبًا ما يكون مسكن مالك الضيعة. (المترجمة)

النهر، وأصدقاء وخصوم قدامى. كلهم يعرفون مأساته. لا يرغب أبنر مارش في شفقة أحد.

قال للموظف بنبرة قاطعة: «أخبرني فقط بمكان غرفة يورك».

رفع الموظف رأسه مضطربًا وقال: «لن يكون السيد يورك في غرفته يا كابتِن. ستجده في غرفة الطعام يتناول وجبته».

نظر مارش إلى ساعة الفندق المزخرفة وسأله: «الآن؟ في هذه الساعة؟».

ثم فتح زِر معطفه النحاسي وأخرج ساعة جيبه الذهبية مُضيفًا في رَيبة: «بعد منتصف الليل بعشر دقائق. وتقول إنه يأكل؟».

- أجل يا سيدي، يأكل. السيد يورك يختار مواعيده، وهو ليس من النوع الذي تُرفَض طلباته يا كابتِن.

أطلق أبنَر مارش صوتًا حلقيًّا وقِحًا، ثم دسَّ ساعته في جيبه، واستدار على عقبيه دون كلمة أخرى يقطع عرض الصالة الفاخرة بخطوات طويلة ثقيلة. هو رجل ضخم، لكنه ليس رجلًا صبورًا، ولا يألف مقابلات العمل بعد منتصف الليل. حمل عصاه في زهو كأنه لم يتعرَّض لنكبَة قط، كأنه لم يتغير فيه شيء.

حجرة الطعام شاسعة بَذِخة كقاعة باخرة رئيسية، تتدلى من سقفها ثريَّات بلورية، ووحدات إضاءة من النحاس اللامع. مناضدها مغطاة بشراشف بيضاء، وأدوات طعام من أفخر أنواع الخزف الصيني والكريستال.

خلال الساعات المعتادة، تُحاط المناضد بالمسافرين ورجال البواخر، لكنها الآن شاغرة، وأغلب الأنوار مُطفأة. فكَّر مارش في مزية للاجتماعات الليلية؛ على الأقل لن يعاني التعازي.

قرب باب المطبخ نادلان زنجيان يتهامسان. تجاهلهما مارش واتجه نحو ركن القاعة القَصي حيث يتناول رجل غريب أنيق طعامه.

لا بد أن الرجل سمع خطواته تقترب، لكنه لم يرفع ناظريه. تشاغل في اغتراف حساء سلاحف مُقلَّد[1] بالملعقة من صحن عميق. قصَّة معطفه

(1) حساء السلاحف المقلد طبق إنجليزي عتيق يحاكي حساء السلاحف الأخضر، وعلى عكس الأخير، لا يحتوي على لحم سلاحف، بل قطع من الأعضاء الداخلية للعجل وقطع من لحم رأسه. (المترجمة)

الأسود الطويل تشي بأنه ليس من العاملين في النهر. ربما هو من الشرقيين، أو أجنبي تمامًا. رآه مارش رجلًا ضخمًا، لكن ليس في مثل ضخامته. جلسته تعطي انطباعًا بطول القامة، لكنه ليس فارعًا كمارش.

في البداية ظن مارش أنه مُسِن بسبب شعره الأشيب، لكن بعدما اقترب فطِن إلى أنه ليس أشيب على الإطلاق، بل أشقر شاحبًا، فبدا له الغريب بغتةً صِبياني الطلعة. يورك حليق، بلا شارب حتى أو سالفين على جانبي وجهه الطويل البارد، الباهت كشعره. رأى مارش كفيه كأكُف النساء وهو يقف أمامه خلف الطاولة.

طرق المنضدة بعصاه. كتم قماش الشرشف الصوت وجعله يبدو كدعوة لفت نظر رقيقة.

سأله: «أنت چوش يورك؟».

نظر چوش إلى أعلى، فتلاقت أعينهما.

حتى نهاية اليوم تذكَّر أبنر مارش تلك اللحظة؛ تلك النظرة الأولى إلى عيني چوشوا يورك. أيًّا ما كان لديه من أفكار، وأيًّا ما كان لديه من مخططات رسمها لحديثهما امتصَّته عينا يورك. الصبي والشَّيخ والمتأنِّق والأجنبي، كل هؤلاء اختفوا في طرفة عين، ولم يتبقَّ سوى يورك، الرجل نفسه، قوَّته، الحُلم، الشِدَّة.

عينا يورك رماديتان، داكنتان بشكل مذهل وسط شحوب وجهٍ كهذا. حدقتاه ضيقتان كرأسي دبوسين، حالكتا السواد وقد اخترقتا مارش مباشرة، وأثرت في الروح بداخله. الرمادي حوله بدا حيًّا، يتحرك كضباب فوق نهر في ليلة ظلماء، إذ تختفي الضفتان، وتختفي الأضواء، ولا يتبقى شيء من العالم سوى باخرتك والضباب.

وسط تلك الغشاوة رأى مارش أشياء؛ رؤى تبزغ ثم تختفي. ذكاء من نوع ما يُطل من تلك الغشاوات، لكنه أبصر وحشًا أيضًا، غامض ومُرعِب، مُسلسَل وحانق، هائج وسط الضباب. الضحك والوحدة والشغف القاسي، رأى يورك كل هذا في عينيه.

لكن أقوى ما ظهر في تلك العينين؛ العزيمة. عزيمة مُنكَرة، قوية لا تهمد ولا ترحم، مثلها كمثل الجليد الذي حطَّم أحلام مارش. في مكان ما من

الضباب استشعر مارش حركة الجليد البطيئة، المُتمهلة، وسمع صوت تحطُّم بواخره المريع ومعها كل آماله.

حدَّق أبنَر مارش مطولًا إلى الرجل في ذاك اليوم، وظل مُعلقًا بعينيه لأطول مُدَّة، قبضت كفه على عصاه بقوة حتى خشي أن تنفلق. لكنه أخيرًا أشاح.

دفع الرجل خلف الطاولة حساءه، وأومأ ثم قال: «كابتِن مارش. كنت في انتظارك. تفضَّل بالانضمام إليَّ».

صوته هادئ، ناعم، راقٍ. قال مارش بهدوء مبالغ فيه: «حسنًا».

جذب المقعد المقابل ليورك وجلس. مارش رجل ضخم، طوله ستة أقدام، ووزنه ثلاثمائة رطل. وجهه أحمر، تحيطه لحية كثيفة، أطالها لتُخفي أنفه المُسطَّح الغائر في وجهه المغطى بالبثور، حتى السالفين الطويلين لم يساعدا كثيرًا في ذلك، وقيل عنه إنه أكثر الرجال قبحًا في النهر، وهو يعرف هذا.

في معطف الرُّبان الأزرق الثقيل بصفَّي أزرار نحاسية، بدا ثاقبًا مُقتحمًا، لكن عينَي يورك صفَّته من بريقه كله. قرر مارش أن الرجل مُتطرف؛ لقد رأى مثل عينيه من قبل في أوجه المجانين والوعاظ المتشددين، ومرة في وجه رجل يُدعى چون براون في كانساس. لا يريد مارش أي صلة بالمُتطرفين، ولا بالوُعَّاظ، ولا بالمناهضين للعبودية ولا بمكافحي الكحول.

لكن عندما تكلم يورك لم يبدُ متطرفًا.

- اسمي چوشوا أنتون يورك، قبطان. يطلقون عليَّ في العمل اسم كابتِن چ. أ. بالنسبة إلى أصدقائي أنا چوشوا. أتمنى أن نصير زميلي عمل وصديقين، كل في وقته.

نبرة صوته وديَّة متعقِّلة.

قال مارش غير واثق: «سنرى هذا الأمر».

العينان الرماديتان عبر الطاولة تبدوان متحفظتين مستمتعتين، وأيًّا ما رآه فيهما من قبل قد زال الآن. شعر بحيرة.

- أظنك تسلَّمت خطابي؟

أجاب مارش: «هو معي».

أخرج الظرف المطوي من جيب معطفه. بدا العرض، ضربة حظ هائلة عندما وصله، خلاصًا من كل ما يخيفه أو يخشى ضياعه. والآن لم يعد واثقًا.

قال وهو يميل إلى الأمام: «تريد أن تنضم إلى عمل البواخر، أليس ذلك؟».

ظهر نادل يسأله: «هل تتناول العشاء مع السيد يورك يا كابتِن؟».

رجاه يورك: «من فضلك اقبَل».

قال مارش: «أعتقد أنني سأفعل».

يمكن أن يغلبه يورك في التحديق، لكن ليس في النهر من رجل يستطيع أن يغلبه في الأكل.

- سآخذ مثل هذا الحساء، ودستة محَّار، ودجاجتين مشويتين مع البطاطس والأطباق الجانبية المرفقة. اقلِها جيدًا حتى تُقرمش، لا تنس. وأريد مشروبًا أبتلع به كل هذا. ماذا تشرب يا يورك؟

- بُرجندي.

- جيد. أحضر لي زجاجة من الشيء نفسه.

بدا يورك مستمتعًا وهو يقول: «شهيتك هائلة يا كابتِن».

قال مارش بحرص: «هذه بلدة هائلة، ذات نهر هائل يا سيد يورك. على المرء أن يحافظ على قوَّته. هذه ليست نيويورك أو لندن».

- أعي هذا جيدًا.

- حسنًا، أتمنى ذلك إن كنت ستعمل في البواخر التي هي أكثر شيء هائل هنا.

- هل نتكلم في العمل مباشرة إذًا؟ أنت تمتلك خط بواخر، وأريد أن أشاركك بالنصف. أفهم من وجودك هنا أنك مهتم بعرضي.

وافقه مارش.

- أنا مهتم إلى حد بعيد، ومُتحيِّر أيضًا إلى حد بعيد. تبدو ذكيًّا، وأعتقد أنك بحثت ورائي قبل كتابة خطابك هذا لي.

طرق الطاولة بإصبعه مضيفًا: «المفترض أنك تعرف أن الشتاء الماضي أهلكني».

لم يُعلق يورك، لكن شيئًا في وجهه حث مارش على الاستمرار في الحديث، فقال: «شركة خطوط نهر فيڤر الملاحية. هذه شركتي، وقد أسميتها نسبة

إلى مكان ميلادي؛ نهر فيڤر، قرية جالينا، لا نسبة إلى أنني أعمل في ذاك النهر فقط. لذا، لدي ست بواخر تعمل أغلبها في تجارة أعالي المسيسبي، من سانت لويس إلى سانت بول، إضافة إلى بعض الرحلات في أنهار فيڤر وإلينوي وميسوري. كانت الأحوال جيدة، وكنت أضيف إلى أسطولي باخرة أو اثنتين سنويًّا، وفكرت في الانتقال إلى تجارة أوهايو أو حتى نيو أورلينز. لكن في يوليو الماضي انفجرت غلاية سفينتي النهرية ماري كلارك فاحترقت قرب دوبوك، وألهبت سطح الماء، فسقط مائة رجل صرعى. وفي هذا الشتاء، الذي كان قاسيًا، لحق بها أربعٌ من سفني هنا في سانت لويس؛ نيكولا بيرو، دنليث، وفيڤر الحلوة، إليزابِيث أ. وقد كانت الأخيرة جديدة، لم يمر عليها في الخدمة سوى أربعة أشهر، وقد كانت جميلة، بطول 300 قدم، واثنتي عشرة غلاية، وكانت سريعة كأي باخرة أخرى في النهر. كنت فخورًا حقًّا بسيدتي إليزابيث. كلفني شراؤها مائتي ألف دولار، لكنها استحقَّت كل مليم».

وصل الحساء. تذوق مارش ملعقة منه ثم أجفل، وقال: «ساخن جدًّا. حسنًا، على أي حال، سانت لويس مكان جيد للإبحار الشتوي. لا يتجمد النهر تمامًا هنا، وليس لوقت طويل. ولكن، ذاك الشتاء كان مختلفًا. أجل يا سيدي. شتاء قارس جمَّد النهر تمامًا».

مد مارش يدًا ضخمة حمراء مفرودة عبر الطاولة، ثم كور قبضته ببطء.

- ضع بيضة هنا وتفهم الفكرة يا يورك. هشَّم الجليد البواخر والسفن بأسهل مما يمكنني تهشيم بيضة في قبضتي. عندما ذاب صار الوضع أسوأ، إذ انجرفت الجسور عبر النهر وحطَّمت المرافئ والحواجز والبواخر وكل شيء تقريبًا. انتهى الشتاء وقد فقدت سُفُني، أربعتها. أخذها الجليد مني.

سأله يورك: «ماذا عن التأمين؟».

رفع مارش ملاعق من حسائه إلى فمه وراح يرشف بصوت مزعج. بين الرشفات هز رأسه وقال: «لست ممن يحبون المقامرة. لم أومن قط بالتأمين؛ هو قمار لا أكثر، إلا أنك تقامر ضد نفسك. ما كسبته وضعته في بواخري».

أومأ يورك.

- أعتقد أنك ما زلت تملك سفينة بخارية.

- أجل.

أنهى مارش حساءه وأشار إلى النادل ليحضر له الطبق التالي.

- اسمها إيلي رينولدز، حمولة خمسين طنًّا ذات عجلات دفع خلفية. كنت أستخدمها في نهر إلينوي لأنها لا تحمل الكثير، وكانت تُبحر ذاك الشتاء في بيوريا فنجت من الجليد. هي كل ما تبقى لي يا سيدي، وهي رأس مالي. المشكلة يا سيد يورك أن إيلي رينولدز لا تساوي شيئًا. لقد اشتريتها جديدة بخمس وعشرين ألف دولار في الخمسينيات.

قال يورك: «منذ سبع سنوات. ليس منذ زمن بعيد».

هزَّ مارش رأسه.

- سبع سنوات زمن طويل بالنسبة إلى البواخر. أغلبها لا يعيش أكثر من أربع أو خمس سنوات. النهر يذويها. إيلي رينولدز أفضل من أغلبية مثيلاتها، على ذلك لم يتبق لها من العمر الكثير.

بدأ مارش في التهام المحَّار، يغترفها في نصف صدفة المحارة ثم يبتلعها كاملة، ثم يشرب وراء كل منها جرعة خمر عظيمة.

- لذا أنا متحير يا سيد يورك.

ثم أكمل بعدما اختفت نصف دستة المحار: «تريد مشاركتي نصف خط بواخري، الذي لم يتبق منه سوى واحدة عتيقة صغيرة. ذكرت في خطابك ما تعرِض دفعه، وهو مبلغ ضخم. ربما عندما كان أسطولي من ست بواخر ليستحق هذا المبلغ، لكن ليس الآن».

ابتلع محَّارة أخرى وأردف: «لن تسترد قيمة استثمارك ولو بعد عشر سنوات مع باخرة مثل رينولدز، لا يمكنها نقل حمولة بضائع أو رُكاب كبيرة».

مسح مارش شفتيه بمنديله، ونظر إلى الغريب عبر الطاولة. أنعشه الطعام، والآن يشعر كأنه عاد إلى نفسه مرة أخرى، واستعاد دفَّة الموقِف. عينا يورك حادتان بالفعل، لكن لا شيء فيهما يخيفه.

قال يورك: «أنت تحتاج إلى مالي يا كابتِن. لماذا تخبرني كلَّ هذه التفاصيل؟ ألا تخشى أن أبحث عن شريك آخر؟».

أجاب مارش: «لا أعمل بهذه الطريقة. لقد عملت في الأنهار ثلاثين عامًا يا يورك. بدأت من نيو أورلينز وقت كنت صبيًّا، وعملت على متن سفن مُسطحة قبل عملي على البواخر. تولِّيك كل الوظائف يعني انغماسك التام في العمل، لكني لم أكن شيئًا واحدًا؛ غشاشًا.

قال يورك بما يكفي من حدة في صوته دفعت مارش للتساؤل ما إن كان يستهزئ به: «أنت رجل شريف. أنا مسرور كونك وثقت بي لتخبرني حال شركتك يا كابتِن. لكن تأكد من أنني كنت أعرفه بالفعل، وما زال عرضي كما هو».

سأل مارش مُحتدًّا: «لماذا؟ الأحمق هو من يخسر ماله، وأنت لا تبدو لي أحمق».

وصل الطعام قبل أن يتمكن يورك من إجابة السؤال. دجاج مارش مقلي بدقة، والبطاطس مقرمشة كما يحبها. انتزع من الدجاج وركًا والتهمه في جوع بادٍ. قُدِّم ليورك شريحة لحم مشوي سميكة حمراء بالكاد مطهوَّة، تسبح في العصارة والدم. راقبه مارش وهو يفترسها بسهولة. ينزلق سكينه في اللحم كأنه زُبد، ولا يتوقف أبدًا لتعديل المسار أو النَّشر مثلما يفعل مارش عادةً. كان يستخدم شوكته كما يستخدمها النبلاء، ينقلها من يساره إلى يُمناه بعدما يضع السكين جانبًا. في يدي يورك الطويلتين الشاحبتين قوة وفخامة أثارت إعجاب مارش. تعجَّب كيف ظن أنهما شبيهتان بأيدي النساء. كانتا بيضاوين لكن قويتين صلبتين كمفاتيح البيانو الكبير البيضاء في مقصورة الباخرة «شفق» الرئيسية.

قال مارش: «حسنًا، أنت لم تُجب عن سؤالي بعد».

توقَّف چوشوا يورك عن الأكل لحظة، ثم قال أخيرًا: «كنت أمينًا معي يا كابتِن مارش، ولن أقابل أمانتك بالأكاذيب كما انتويت سابقًا. لكني لن أثقِلك بالحقيقة أيضًا. ثمة ما لا أستطيع إخبارك إياه، وأمور لا تُهمك معرفتها. دعني أوضح لك شروطي ولنرَ إن كنا سنتفق. إن لم نفعل، فسنفترق على وِد».

انتزع مارش صدر دجاجته الثانية وهو يقول: «تكلَّم، لن أرحل».

أعاد يورك شوكته وسكينه إلى مكانهما، ولامس أطراف أصابع كفيه إحداهما بالأخرى.

- لأسبابي الخاصة، أريد أن أكون صاحب باخرة. أريد أن أبحر على طول النهر العظيم في خصوصية وراحة، لا راكبًا بل رُبَّانًا. لدي حلم، غاية. أبحث عن أصدقاء وحلفاء، ويلاحقني أعداء... كثيرون. ليست التفاصيل مما يهمك. لو ضغطتني لمعرفتها سأخبرك أكاذيب. لا تضغطني.

تصلَّبت نظرته للحظة، ثم عادت إلى طبيعتها وهو يبتسم ويقول: «ما يهمك هو رغبتي في امتلاك باخرة وقيادتها يا كابتِن. كما تستنتج، لست من رجال النهر، ولا أعرف شيئًا عن البواخر أو عن نهر المسيسبي إلا ما قرأته في بعض الكتب وتعلَّمته خلال الأسابيع التي أمضيتها في سانت لويس. واضح أنني أحتاج إلى مرافق، خبير بالنهر وبناسِه. شخص يمكنه إدارة مهام الباخرة اليومية، ويترك لي حرية اتباع غايتي. يجب أن يكون لهذا المرافق بعض الصفات. أريده صموتًا، إذ لا أود أن تصير تصرفاتي -التي قد تبدو غريبة أحيانًا- حديث المرافئ. أريده أهلًا للثقة إذ سأمنحه كل صلاحيات الإدارة. أريده جسورًا، لا أرغب في مرافق متخاذل أو مُتطيِّر، أو مُتدين إلى حد زائد. هل أنت مُتدين يا كابتِن؟».

أجاب مارش: «لا، لم أكترث قَط بوُعَّاظ الأناجيل ولم يكترثوا بي».

ابتسم يورك.

- نفعي، أريد رجلًا نفعيًّا. أريد رجلًا جل تركيزه على وظيفته ولا يسألني كثيرًا عما أفعل. أقدِّر خصوصيتي، ولو بدت تصرفاتي غريبة أحيانًا أو شاذة أو غير منطقية، لا أريده أن يقف في وجهها. هل تفهم متطلباتي؟

داعب مارش لحيته شاردًا.

- ماذا لو وافقت؟

- سنصير شريكين. دَع محاميك وموظفين يديرون نصيبك، وستسافر معي عبر النهر. سأكون أنا القبطان ويمكن أن تعتبر نفسك الرُّبَّان والبحار ومساعد القبطان وأي وظيفة أخرى تراها. إدارة الباخرة الحقيقية ستكون بين يديك. أوامري ستكون قليلة، لكن عندما آمر يجب أن تطيع دون أسئلة. معي أصدقاء سيسافرون معنا في المقصورة بلا مقابل. ربما أمنحهم مناصب على الباخرة بمهام مناسبة حسب رؤيتي. لن تجادلني في تلك القرارات. ربما يركب معنا آخرون في أثناء الرحلة، وسترحب بهم. إن كنت موافقًا على هذه الشروط يا كابتِن مارش، سنثرى معًا وسنجوب نهرك بسهولة وفخامة.

ضحك أبنر مارش: «حسنًا، لكنه ليس نهري يا سيد يورك، وإن كنت تظن أننا سنبحر في فخامة على متن إيلي رينولدز العجوز، فستُصدم عندما تصعد على متنها. ما هي إلا قارب تعس بمرافق وأثاث فقير، ولطالما امتلأت بركاب

غرباء. لم أركبها منذ عامين، كابتِن يورچر العجوز يديرها بدلًا عني، لكن آخر مرة ركبتها كانت تفوح منها رائحة نتنة. إن كنت تريد الفخامة والرفاهية الأفضل أن تشارك في الباخرة شفق أو الباخرة چون سيموندس».

رشف چوشوا يورك خمره وابتسم: «أنا لم أضع إيلي رينولدز في حسباني يا كابتِن مارش».

- لكنها الباخرة الوحيدة التي أمتلك.

أنزل يورك كأسه وقال: «تعالَ. لنجلس في مكان أكثر خصوصية. يمكننا استكمال حديثنا في حجرتي، ومناقشة التفاصيل إلى حد أبعد».

احتج مارش احتجاجةً ضعيفة؛ بيت المزرعة يقدم تحلية ممتازة، وهو يكره أن تفوته، لكن يورك أصرَّ.

حجرة يورك جَناح شاسع من أفضل الأجنحة في الفندق، وغالبًا يُحجز لحساب أصحاب المزارع الأغنياء من نيو أورلينز. قال يورك آمِرًا: «سيدي». وأشار إلى مارش ليجلس على مقعد وثير ضخم في غرفة المعيشة. جلس مارش بينما دخل مُضيفه إلى غرفة داخلية وعاد بعد لحظات حاملًا صندوقًا صغيرًا مُدعَّمًا بالحديد، وضعه على المنضدة وراح يفتح قِفله وهو يقول: «اقترب مني»، لكن مارش كان قد قام بالفعل ووقف جواره. فتح يورك غطاء الصندوق، فغمغم مارش: «ذهب!». مد يده ولمس العملات الذهبية، قلَّبها بين أصابعه مستمتعًا بملمس المعدن الأصفر الناعم وبريقه. قرَّب عُملة من فمه وتذوقها ثم قال بعدما بصق: «حقيقية كفاية». ثم طوَّحها إلى الصندوق. قال يورك: «عشرون دولارًا ذهبيًّا بقيمة عشرة آلاف دولار. لدي صندوقان مماثلان، إضافة إلى خطابات ائتمان من مصارف في لندن وفيلادلفيا وروما بمبالغ أكبر بكثير. اقبل عرضي يا كابتِن مارش، وستحصل على باخرة ثانية، باخرة أكبر من إيلي رينولدز، أو ربما الأدق أن أقول إننا سنحصل على سفينة ثانية».

وابتسم. انتوى أبنَر مارش رفض عرض يورك. هو في حاجة شديدة إلى المال، لكنه رجل مُرتاب لا يحب الغموض ولا الألغاز، ويورك طلب منه أن يحمل كثيرًا على ثقته به. العرض عظيم أكثر من اللازم، لذا عرف مارش أن الخطر مُخبَّأ بداخله في مكان ما ينتظره لو قَبل. لكن الآن، وهو يحدق إلى لون ثروة يورك، شعر بعقله تردد. قال بصوت ضعيف: «تقول باخرة جديدة؟».

- أجل. وهذا فوق ثمن شراكتي معك بالنصف في خط البواخر.

قال مارش: «كَم...» ثم جفَّت شفتاه، فلعقهما في عصبية وأكمل: «كم ستدفع مقابل بناء هذه الباخرة الجديدة يا سيد يورك؟».

سأل يورك بهدوء: «وكم يتطلب بناؤها؟».

اغترف مارش حفنة عملات، ثم تركها تنساب من بين أصابعه إلى الصندوق. فكَّر في بريقها ولا شيء آخر، لكنه قال: «ما كان عليك أن تحمل كل هذا المال معك يا يورك. اللصوص قد يقتلونك لأجل عملة *واحدة* منها».

قال يورك: «أستطيع حماية نفسي».

رأى مارش النظرة في عينيه فشعر ببرودة، وأشفق على اللص الذي قد يحاول سرقة ذهب يورك.

- هلا تمشَّيت معي؟ عند المرفأ؟
- لم تمنحني أي إجابة بعد يا كابتِن.
- ستحصل على إجابتك، لكن تعالَ أولًا. أريد أن أريك شيئًا.
- لا بأس.

أغلق يورك الصندوق، فانطفأ البريق الأصفر الذي كان يضيء الحجرة، وبدت فجأة مغلقة معتمة.

هواء الليل بارد رطب. صدح صدى قرعات حذاءيهما وهما يمشيان في ظلام الشوارع الخاوية. خطوات يورك واثقة، وخطوات مارش ثقيلة مُتسلطة. كان يورك يرتدي معطف رُبان واسعًا، مع قبعة من فراء قُندس طويلة عتيقة تلقي ظلًّا طويلًا تحت ضوء المَحَاق. حدق مارش إلى الحارات المظلمة بين المخازن الحجرية رطبة الجدران، وحاول إظهار الصلابة والقوة اللازمتين لإخافة المتطفلين والمتسكعين.

المرفأ مزدحم بالبواخر، على الأقل أربعون باخرة مربوطة إلى رصيف الميناء. حتى في هذه الساعة المتأخرة لم يكن كل شيء هادئًا. الحمولات الضخمة تلقي ظلالها السوداء تحت ضوء القمر، ومرًّا بحمَّالين يتكئون على الصناديق وأكوام القش، يمررون زجاجة خمر بينهم من يد إلى يد، أو يدخنون غلايين أكواز الذُرَة[1]. الأضواء تتوهج بعد في أكثر من دستة من مقصورات

---

(1) يستخدم بعض الأمريكيين أكواز الذرة المحفورة المجوفة في صنع غلايين. (المترجمة)

البواخر. أسطول نهر ميزوري المُسمى ويِاندوت مضاء وينفث البخار. رأيا رجلًا يقف عاليًا فوق مهاجع الطاقم على ظهر باخرة ذات رفاسات جانبية، ينظر إليهما في فضول. قاد أبنَر مارش مرافقه يورك ليمر من أمامه، ومن أمام موكب البواخر الصامت المظلم، بمداخنه العالية على خلفية النجوم، كأنها صف أشجار مُظللة ذات أزهار غريبة فوق قممها.

أخيرًا توقَّف أمام باخرة مزخرفة هائلة، ذات رفاسات جانبية، يعلو سطحها الرئيسي حمولتها المكوَّمة عاليًا. منصة عبورها مرفوعة تمنع عنها الدخلاء والمتطفلين، وبدنها يلامس رصيف الميناء الكالح إثر التعرض المستمر للهواء والماء. حتى مع عتمة المحَاق فخامتها جلّية، لا تضاهيها أي باخرة أخرى في المرفأ بهاءً وضخامة.

قال چوشوا يورك في احترام وبهدوء: «نعم؟». ظن مارش لاحقًا أنه فهم ما يرمي إليه من الاحترام البادي في صوته.

قال مارش: «هذه هي شفق. انظر، اسمها على مقصورة القيادة». وأشار بعصاه مردفًا: «هل يمكنك قراءته؟».

- بوضوح. رؤيتي الليلية ممتازة. هذه باخرة مميزة إذًا!
- يا للجحيم، هي حقًّا مميزة. هذه شفق. كل رجل وصبي لعين في هذا النهر يعرفها. هي مُسنَّة الآن، بُنيت في عام اثنين وخمسين، منذ خمس سنوات، لكنها بعد قوية. قيل إن تكلفة بنائها 375,000 دولار، وتستحقها عن جدارة. ليس هناك أضخم ولا أفخم ولا أروع من هذه الباخرة أمامك الآن. لقد درستها وركبتها، لذا أنا موقن مما أقول. مساحتها 365 قدمًا في 40، ومقصورة ضيافتها الرئيسية بطول 330 قدمًا، ولن ترى شيئًا مثلها. عند أحد طرفيها تمثال ذهبي لِهنري كلاي[1]، وعند الآخر تمثال لآندي چاكسن[2]، كلاهما يحدق إلى الآخر طوال الوقت. في الباخرة بلور وفضة وزجاج ملون أكثر مما قد يحلم به بيت المزرعة. فيها أيضًا لوحات زيتية، وطعام لن تتذوق له مثيل، ومرايا... مرايا عظيمة، لكن كل هذا لا يقارن بسرعتها.

---

(1) محامٍ ومالك مزارع ورجل دولة أمريكي. (المترجمة)

(2) رئيس الولايات المتحدة السابع من 1829 إلى 1837. (المترجمة)

أسفل سطحها خمس عشرة غلَّاية، بمكابس تقطع مسافة أحد عشر قدمًا في الشوط. كما أقول لك، ليس من باخرة في أي نهر تستطيع مضاهاتها سرعةً عندما يقودها كابتِن ستورچِن بأقصى قدرتها. وصلت سرعتها 18 ميلًا في الساعة بسهولة. في عام ثلاثة وخمسين سجَّلت رقمًا قياسيًّا من نيو أورلينز إلى لويسڤِل. أحفظ هذا الرقم عن ظهر قلب؛ أربعة أيام، وتسع ساعات، وثلاثون ثانية، وجاوزت أ. ل. شوتويل اللعينة بخمس عشرة دقيقة، على سرعة شوتويل الشهيرة.

استدار مارش ليواجه يورك مضيفًا: «تمنيت يومًا أن تجاوز باخرتي إليزابِيث الباخرة شفق يومًا ما سرعة، أو تسابقها رأسًا لرأس، لكنها لم تكن لتقدر على هذا. أعرف هذه الحقيقة الآن. كنت فقط أخدع نفسي. ليس لدي مال لبناء باخرة تضاهي شفق. امنحني هذا المال يا سيد يورك، وستحصل على شريك. هذا هو جوابك يا سيدي. تريد أن تشاركني في نصف أسطول نهر فيڤر، وتريد مرافقًا يدير الأمور في هدوء ولا يسألك عن شؤونك الخاصة؟ لا بأس. أعطني المال إذًا لأبني باخرة مثل تلك».

حدق چوشوا يورك إلى الباخرة الضخمة ذات الرفاسات الجانبية، إذ تقف ساكنة هادئة في الظلام، تطفو بيُسر على الماء، جاهزة لأي تحديات. عاد إلى أبنَر مارش بابتسامة على شفتيه، ووهج خافت في عينيه الداكنتين. لم يقل سوى: «اتفقنا». ثم مد يده.

هشَّ وجه مارش بابتسامة عريضة تكشف عن سِن مكسورة، ولفَّ يد يورك البيضاء الغضَة في يده اللحيمة واعتصرها وهو يهتف بصوت عالٍ: «اتفقنا إذًا». ووضع كل قوته الهائلة في العصر والضغط كما يفعل دائمًا في اتفاقات العمل ليختبر عزيمة الرجال الذين يتعامل معهم وجسارتهم، فيعتصر أكفَّهم حتى يرى الألم في أعينهم.

لكن ظلت عينا يورك صافيتين وكفه قابضة بقوة مدهشة على كف مارش. ظل يورك يضغط ويضغط، بينما العضلات واللحم الشاحب يلتف ويلتوي كزنبرك حديدي. ابتلع مارش ريقه وحاول ألا يصرخ. أخيرًا أطلق يورك يده وقال: «تعالَ»، وضرب ما بين كتفي مارش بقوة هزَّته بعض الشيء، وأردف: «لدينا خطط نعدها».

***

اثنان



نيو أورلينز
مايو 1857

وصل بيلي تيبتون الشهير بالشرس إلى صالة مزادات «البورصة الفرنسية» بُعيد العاشرة صباحًا، وشهدهم يعرضون في المزاد أربعة براميل خمر، وسبعة صناديق من الأطعمة المجففة، وحمولة أثاث، قبل أن يُدخلوا العبيد إلى منصة العرض. وقف صامتًا، يستند بكوعيه إلى الحاجز الرخامي الطويل المُمتد عبر نصف مساحة البهو، يشرب خمر الأبسنث بينما يراقب المزايدين يصطادون بضائعهم بلغتين. بيلي الشرس ضخم، وجهه الطويل كوجه الحصان تشوهه حُفر الجُدري الذي أصيب به طفلًا، وشعره بني خفيف مهوَّش. نادر الابتسام، وعيناه مرعبتان بلون الجليد.

هاتان العينان، هاتان العينان الباردتان الخطرتان هما وسيلة حماية بيلي الشرس. البورصة الفرنسية مكان ضخم، أكثر ضخامة من أن يتحمله ذوقه، والحقيقة الراسخة هو أنه يبغض الذهاب إلى هناك. البهو في فندق سانت لويس، أسفل قبة عالية ينساب عبرها ضوء النهار كشلال، ليضيء المزاد والمزايدين. عرض القبة ثمانون قدمًا على الأقل. تحيط البهو أعمدة عالية، ترفع القبة من الداخل، والسقف شاهق مزخرف، والحوائط مُغطاة بلوحات عجيبة. الحاجز رخامي مصمت، والأرضية رخامية، ومكاتب عارضي المزاد رخامية. المُزايدون أنفسهم في مثل فخامة المكان. مُلاك مزارع من أعالي الأنهار، وأثرياء الكريوليين[1] من المدن القديمة. كره بيلي الشرس الكريوليين

(1) البيض من أصول أوروبية بخاصة أبناء المستعمرين من الإسبان والفرنسيين ممن حافظوا على لغاتهم وتراثهم. (المترجمة)

بملابسهم الفخمة وعجرفتهم وأعينهم الداكنة المغوية، وكره مخالطتهم؛ دماؤهم حارة، ويثيرون المشكلات دائمًا، حتى إن بعضًا من شبابهم قد يُهين بيلي الشرس بسبب الطريقة التي يشوه بها لغتهم أو ينظر بها إلى نسائهم، أو بسبب تأمرُكِه الوضيع الشائن. ثم تلتقي الأعين بعينيه الشاحبتين المحدقتين المُشعَّتين بالخبث، ثم... يرتدُّون على أعقابهم.

على ذلك، ولو تُرِك لشأنه، لاختار شراء الزنوج من البورصة الأمريكية في سانت تشارلز، حيث التصرفات أقل رقيًّا، وحيث يتحدثون الإنجليزية بدلًا عن الفرنسية، ما يقلل إحساسه بالاغتراب. لم تبهره عظمة بهو سانت لويس، فيما عدا جودة المشروبات التي يقدمونها.

يذهب بيلي الشرس إلى هناك مرة كل شهر، ولا خيار له في ذلك. البورصة الإنجليزية مكان جيد لشراء أيدٍ مُزارعِة أو طُهاة من أصحاب البشرة السوداء كما يفضلونهم، لكن شراء فتاة جميلة، واحدة من الصبيات الأوكتارونيات[1] الحسناوات اللاتي يفضلهن چوليان يتطلب الذهاب إلى البورصة الفرنسية. يريد چوليان الحُسن ويُصِر عليه.

هكذا فعل بيلي الشرس ما أمره به دامون چوليان.

كانت الساعة الحادية عشرة عندما نقلوا آخر براميل الخمر إلى مشتريها، وبدأ التجار عرض بضاعتهم المنقولة من محال العبيد في مدينتي مورو وإسبلانيد، ومن شوارع المُستعبدين[2]. عرضوا الرجال والنساء، الشباب والشيوخ، وعددًا من الأطفال غير متناسب مع السابق ذكرهم، فهم ذوو بشرة فاتحة ووجوه بيضاء. عرف بيلي الشرس أنهم أيضًا أذكياء وربما من متحدثي الفرنسية. صُفُّوا عند جانب من جوانب البهو للعرض والفحص، ودار بينهم بعض الكريوليين، يتفحصون ويتبادلون الآراء والتعليقات عن بضاعة اليوم. مكث بيلي الشرس عند الحاجز وطلب كأس أبسنث أخرى. لقد زار أغلب المزادات أمس وعرف ما يعرضونه. إنه يعرف جيدًا ما يريد.

---

(1) الأوكتارون هو الشخص الثُّمن أسود، بمعنى أن أسلافه القدامى من السود. (المترجمة)

(2) يعيش العمال من العبيد في ذلك العصر في شوارع مخصصة لهم، وتسمى شوارع العامة أو شوارع العبيد، والعبيد المُحررون يعيشون فيما يُطلق عليها شوارع الأحرار. (المترجمة)

هوى أحد مديري المزاد بمطرقته على مكتبه الرخامي، فأوقف المزايدون غمغماتهم على الفور وأولوه انتباههم. أشار بيده، فاعتلت شابة في بداية العشرينيات صندوقًا قريبًا مُترنحةً. كانت كوادرونية[1]، ذات عينين واسعتين، وجمال خاص بها، تلبس فستانًا متعدد الألوان، وتربط شعرها بشريط أخضر. بدأ مدير المزاد في التغني بمحاسنها. شاهد بيلي الشرس دون اهتمام بينما كريوليان يرفعان قيمة المزايدات عليها، حتى بيعت أخيرًا بألف وأربعمائة دولار.

بعدها عُرضت امرأة أكبر سنًّا، قيل إنها طاهية بارعة، لكنها لم تُبَع. تلتها أمٌّ شابة مع طفلين بيعوا معًا. انتظر بيلي الشرس حتى انتهت عدة صفقات تالية. بعد انتصاف الظهيرة بربع ساعة اكتظت البورصة الفرنسية بالمزايدين والمتفرجين، حتى عُرضت مَن اختارها.

اسمها إيميلي كما أعلن مدير المزاد.

- انظروا إليها أيها السادة. فقط انظروا إليها. يا له من حسن كامل! مرت أعوام منذ بيعت بضاعة مماثلة هنا. أعوام! وستمر أخرى قبل أن تروا مثيلًا لها.

لم يكن في وسع بيلي الشرس سوى موافقته. إيميلي في السادسة عشرة أو السابعة عشرة بحسب تقديره، لكن معالم الأنوثة بادية عليها. بدت مرتعبة قليلًا فوق منصة العرض، لكن بساطة ملبسها الداكن أبرز جسدها بشكل أفضل. وجهها جميل، عيناها رقيقتان واسعتان، وبشرتها بلون القهوة بالحليب. لا بد أنها ستعجب چوليان.

انطلقت المزايدات. لم يكن لأصحاب المزارع رغبة في فتاة مثلها، لكن ستة أو سبعة كريوليين سعوا إليها حبوًا. لا شك أن العبيد الآخرين قد أعطوا إيميلي فكرة عما ينتظرها. هي جميلة بما يكفي لتحصل على فرصة عِتق مع الوقت، فيحتفظ بها واحد من غنادير الكريوليين في بيت صغير في شارع رامبارت، على الأقل حتى يتزوج. سترتاد مراقص الكوادروليين في صالات أورلينز، وتلبس فساتين حريرية بأشرطة وربطات فراشية، وتصير مثارًا للمزيد من الشجار حولها. ستكون لبناتها بشرتها نفسها، أو ربما أفتح، وسيترعرعن في

(1) رُبع زنجية. (المترجمة)

الحياة الرغدة ذاتها. ربما حين تكبر في العمر ستتعلم تصفيف الشعر، أو إدارة الأنزال. رشف بيلي الشرس من مشروبه بوجه جامِد.

واصلت العطاءات ارتفاعها حتى بلغت ألفي دولار، وتساقط المزايدون من السباق حتى لم يبقَ سوى ثلاثة. وقتها، طالب رجل أصلع داكن البشرة بأن تتعرى الفتاة. نطق مدير المزاد بالأمر واجب التنفيذ، ففكت إيميلي إزار فستانها فسقط عنها، وخطت خارجة منه. صاح أحدهم بإطراء بذيء انطلقت على إثره ضحكات الحضور. ابتسمت الفتاة في وهن، واتسعت ابتسامة مدير المزاد مضيفًا تعليقه الخاص عليها. ثم استُكمل المزاد.

بوصول العطاءات إلى ألفين وخمسمائة دولار، انسحب الأصلع وقد اكتفى بما رآه منها، فخلَّف مُزايدَين، كليهما من الكريوليين. زايد كلاهما على الآخر ثلاثًا حتى وصل الثمن إلى ثلاثة آلاف ومائتي دولار، ثم جاء التردُّد. اغتصب مدير المزاد عطاءً أخيرًا من أصغر المُزايدَين؛ ثلاثة آلاف وثلاثمائة دولار.

غمغم غَريمه: «ثلاثة آلاف وأربعمائة».

تعرَّفه بيلي الشرس. هو الكريولي الرشيق المدعو مونريو؛ مقامر مشهور ومُبارِز.

هزَّ الرجل الآخر رأسه معتبرًا أن المزاد قد انتهى. ابتسم مونريو لإيميلي مُترقِّبًا. انتظر بيلي الشرس لحظات حتى كادت المطرقة تهوي مُغلقة المزاد، ثم وضع كأس الأبسنث جانبًا وقال بصوت عالٍ واضح: «ثلاثة آلاف وسبعمائة».

نظر مدير المزاد والفتاة مدهوشين، وسدَّد إليه مونريو وعدد من أصدقائه نظرات مُهددة خبيثة. قال مونريو: «ثلاثة آلاف وثمانمائة».

فقال بيلي الشرس: «أربعة آلاف».

هذا ثمن باهظ، حتى بالنسبة إلى فتاة بهذا الحُسن. قال مونريو شيئًا لمرافقين يقفان جواره، فاستدار الثلاثة على أعقابهم مغادرين البهو دون كلمة أخرى، وقرعات أحذيتهم الغاضبة تدوي فوق الرخام.

قال بيلي الشرس: «يبدو أنني فزت بها. ألبِسوها وأعِدُّوها للمغادرة».

ظل الآخرون يرمقونه، وقال مدير المزاد: «بالطبع!».

قام مدير مزادات آخر من خلف مكتبه، واستدعى بمطرقته فتاة جميلة أخرى جذبت أنظار الحضور، وطَنَّت البورصة الفرنسية مجددًا. قاد بيلي

تيبتون إيميلي عبر الرواق الطويل الذي يصل البهو بشارع سانت لويس، مرورًا بالمتاجر الحديثة حيث رمقهما المارة والمسافرون الأثرياء بنظرات فضولية. عندما خرج إلى ضوء النهار، رامشًا أمام وهج الشمس، لحقه مونريو هاتفًا: «مسيو...[1]».

أجاب بيلي الشرس بحدَّة: «تحدث بالإنجليزية إن أردت أن تتحدث إليَّ. أنا السيد تيبتون يا مونريو».

ارتعشت أصابعه الطويلة، ونظر إلى الآخرين بعينيه الباردتين.

قال مونريو بصوت مُسطح وبإنجليزية خالية من اللكنات: «سيد تيبتون».

وجهه محمر قليلًا، يقف من خلفه رفيقاه متصلبين. قال الكريولي: «لقد ضاعت مني فتيات من قبل. هي مذهلة، لكن لا مشكلة إن ضاعت مني، لكني تضايقت من الطريقة التي زايدت بها يا سيد تيبتون. لقد أهنتني هناك، وسخرت مني بالانتصار عليَّ وكأنني أحمق».

قال بيلي الشرس: «هكذا إذًا...».

حذره مونريو: «أنت تلعب لعبة خطرة. هل تعرف مَن أكون؟ لو كنت نبيلًا لاستدعيتك لمبارزة أيها السيد».

قال بيلي الشرس: «المبارزات ليست قانونية يا مونريو. ألم تسمع بهذا؟ وأنا لست نبيلًا».

استدار نحو الفتاة الكوادرونية التي كانت تقف جوار حائط الفندق تراقبهم، وقال: «هيا».

سار على الرصيف وتبعته. صاح مونريو من خلفه: «ستدفع ثمن هذا غاليًا يا مسيو».

لم يكترث بيلي الشرس لتهديده، وانعطف عند الزاوية. سار في نشاط، وقد كان اختياله غير ظاهر داخل بهو البورصة الفرنسية. الشوارع هي المكان الذي يعتبره بيلي الشرس بيته، فيها ترعرع، وفيها تعلَّم فنون النجاة. هرولت الأَمَة إيميلي خلفه بأسرع ما تستطيع، قدماها الحافيتان تضربان حجارة الرصيف. أرصفة ڤيو كاريه مُعبَّدة بالحجارة، وعلى جانبيها تصطف المنازل ذات الشرفات الواسعة المُسيَّجة بالحديد، تتدلى فوق الأرصفة الضيقة، بهجةً

(1) سيدي بالفرنسية. (المترجمة)

للناظرين. لكن الشوارع نفسها لم تكن مرصوفة، والأمطار الأخيرة أحالتها إلى بحر وَحل. على امتداد الرصيف بالوعات مفتوحة، ووهدات ممتلئة بالماء الراكد، تفوح بالعطن ورائحة المجاري.

مرًّا بمتاجر أنيقة صغيرة، ومحابِس عبيد بنوافذ مُسيَّجة، وفنادق فاخرة، ودكاكين تبغ مكتظة بالزنوج المُحرَّرين بالطبع. مرًّا بالحواري الرطبة المغلقة، وبالكريوليات المتأنقات مع مرافقيهِن ووصيفاتهن، وجوقات العبيد الهاربين، مُصفَّدين بأصفاد الأعناق والكواحِل، يجرُّون السلاسل خلفهم ومعها الوحل، يراقبهم رجل أبيض قاسي النظرات يمسك كرباجًا.

سرعان ما غادرا الحي الفرنسي بأكمله، داخلين القطاع الأحدث، الخام، الأكثر أمرَكَة من نيو أورلينز. كان بيلي الشرس قد ترك حصانه مربوطًا خارج متجر كحوليات. اعتلاه، وأمر الفتاة بالسير إلى جواره. لزما طرق المدينة الجنوبية حتى غادرا الشوارع الرئيسية، ولم يتوقفا إلا مرة واحدة سريعة ليريح بيلي الشرس حصانه، ويأكل شيئًا من الخبز الجاف والجبن من جراب السِّرج، وترك إيميلي تجرع بعض الماء من جدول.

سألته حينها بإنجليزية جيدة إلى حد مدهش: «هل أنت سيدي الجديد؟».

أجاب بيلي الشرس: «أنا مشرف. ستلتقين چوليان الليلة يا فتاة. بعد حلول الظلام». ثم ابتسم مردفًا: «ستعجبينه».

ثم أمرها أن تخرس.

كانت مسيرتهما بطيئة إذ إن الفتاة حافية، لذا وصلا إلى مزرعة چوليان قرب الغسَق. كان الطريق محاذيًا للجدول، حتى اخترق صف أشجار سميكًا، ذات فروع مُثقلة بالطحالب الإسبانية المتدلية. دارا حول شجرة بلوط عارية من الأوراق، حتى وصلا إلى الحقول المشوبة بحَمَار الشمس الغاربة. اتبعا طريقهما من هناك تجاه المنزل. يوجد مرفأ متآكل، وباحة أخشاب جوار قنطرة تسمح للبواخر بالعبور. خلف المنزل صف عُشش لإيواء العبيد، إلا أنه ليس من عبيد فيها، ولم يعمل أحد في الحقول منذ سنوات. لم يكن المنزل هائلًا كباقي منازل المَزارع، وليس كبيرًا بشكل ملحوظ، بل مجرد مكعب

مُتبلِّد من الأخشاب الرمادية، طلاؤه مُقشَّر عند الجوانب، لا شيء يميزه سوى برجه العالي، يحيطه دَرَج الأرامل[1].

قال بيلي الشرس: «لقد وصلنا إلى البيت».

سألت الفتاة إن كان للمزرعة اسم، فأجابها: «كان لها واحد منذ سنوات، عندما كانت مملوكة للسيد جارُو. لكنه مرض ومات، هو وأبناؤه، ولم يعد للمزرعة اسم. والآن اخرسي وأسرعي».

قادها إلى ما خلف المنزل؛ إلى مدخله الخاص، ثم فتح القفل بمفتاح يعلقه في سلسلة حول عنقه. لديه ثلاث حجرات في قسم الخدم من المنزل. جذب إيميلي إلى غرفة النوم وصاح فيها: «اخلعي هذه الملابس!».

أطاعت الفتاة وهي تنظر إليه بعينين خائفتين. قال لها: «لا تنظري إليَّ هكذا. أنت مِلك چوليان، ولن ألمسك. سأسخِّن بعض الماء. في المطبخ حوض. اغتسلي من قذارتك ثم البسي شيئًا».

فتح خزانة ملابس مصنوعة بالكامل من الخشب المحفور، وأخرج ثوبًا داكنًا من الاستبرق.

- البسي هذا. مقاسك.

شهقت ثم قالت: «لا يمكنني لبس هذا، هذا ثوب سيدة بيضاء».

- أغلقي فمك وافعلي كما تؤمرين. چوليان يريدك جميلة يا فتاة.

ثم غادرها متجهًا إلى القسم الرئيسي من المنزل.

وجد چوليان في المكتبة، يجلس هادئًا في الظلام على مقعد جلدي ضخم، ممسكًا كأس براندي في يده، تحيطه كتب رينيه جارُو وأبناؤه المُغبَّرة. لم يُمَسُّوا منذ سنوات؛ دامون چوليان لا يكترث للقراءة.

دخل بيلي الشرس ووقف في احترام على مسافة، وظل صامتًا حتى تكلم چوليان. أتاه صوته من الظلام يسأل أخيرًا: «حسنًا؟».

- أربعة آلاف، لكنها ستعجبك. شابة هي، لطيفة ورقيقة، حسناء، حسناء بحق.

---

(1) أبراج منازل العاملين في البحر تُعتبر نقطة مرتفعة تصعد إليها زوجاتهم لتراقب حركة السفن وتنتظر الأزواج الذين لا يعود أغلبهم للأسف، فسُمي الدَّرج المؤدي إليه بدَرَج الأرامل. (المترجمة)

- سيصل الآخرون قريبًا. آلين وچين هنا بالفعل. أحمقان. الظمأ يسيطر عليهما. أرسلها إلى قاعة الرقص عندما تستعد.

قال بيلي الشرس بسرعة: «حسنًا. وقعت مشكلة في المزاد يا سيدي چوليان».

- مشكلة؟

- كريولي، يُدعى مونريو. أرادها لنفسه أيضًا، ولم يتقبل فوزي. ربما ينتابه الفضول بشأني. هو مقامر، رأيته مرارًا في قاعات اللعب. هل تريدني أن أتولى أمره في ليلة ما؟

- أخبرني عنه.

صوته سائل، ناعم، عميق، حسِّي، غني، راقٍ كالكونياك.

- شاب، داكن البشرة، عيناه سوداوان، أسود الشعر، طويل. يقال إنه مُبارِز. رجل صلب، قوي، رشيق، لكن جميل الوجه كمثل أغلبهم.

قال دامون چوليان: «سأتولى شأنه».

- أجل يا سيدي.

ثم عاد بيلي تيبتون الشرس إلى غُرَفه.

تحوَّل حال إيميلي بمجرد أن ارتدت الثوب الفخم، واختفى منها سمت العبودية والطفولة، فصارت امرأة ذات جمال غامض أثيري. تفحصها بيلي الشرس بدقة.

- ستنفعين. تعالي، ستذهبين إلى حفل راقص.

قاعة الرقص هي أكبر غرف المنزل وأعظمها، تضيئها ثريات مزينة بالكريستال المُشذَّب يدويًّا، تتوهج بمئات الشموع الدقيقة. مناظر المرافئ مرسومة بألوان غنية في لوحات معلقة على الحوائط. الأرضيات خشبية لامعة. عند نهاية القاعة باب ضخم ذا ضلفتين يُفضي إلى بهو، وعند الجهة المقابلة للباب دَرَج هائل يرتفع ثم يتفرع إلى كلا الجانبين، يلمع درابيزنه لافتًا الأنظار.

كانوا مترقبين عندما أدخلها بيلي الشرس.

تسعة هم، منهم چوليان نفسه؛ ستة رجال وثلاث نساء. يلبس الرجال بدلات سوداء على طراز أوروبي، وترتدي النساء أثوابًا فاتحة مخملية. كانوا

ينتظرون جميعًا على الدَّرج ساكنين صامتين، فيما عدا چوليان. يعرفهم بيلي الشرس جميعًا. النساء الشاحبات هن أدريان، وسينثيا، وڤاليري. ذو الوجه الطفولي الوسيم رايموند، وكُرت هو صاحب العينين المتوهجتين كجمرتين. واحد منهم يُدعى چين، يرتجف بعض الشيء في وقفته، شفتاه منحسرتان عن أسنان طويلة بيضاء، وكفه تتشنج. يبدو أن الظمأ قد أثر فيه بقوة، لكنه ثابت، ينتظر دامون چوليان. كلهم ينتظر دامون چوليان.

قطع چوليان القاعة إلى الأَمَة إيميلي. تحرَّك بخفة قِط، وببهاء ملك، وبانسياب الظلمة، وبرقَّة الماء. كان –بطريقة ما- داكنًا رغم شحوبه، شعره أسود مموج، ملابسه قاتمة، عيناه برَّاقتان.

توقف أمامها وابتسم. لچوليان ابتسامة ساحرة راقية. قال ببساطة: «فاتنة».

احمر وجه إيميلي وتلعثمت، فصاح فيها بيلي الشرس بحدة: «اخرسي. لا تتحدثي أبدًا حتى يأمر السيد چوليان».

مرَّر چوليان إصبعه على خدها الناعم الأسمر، فارتجفت الفتاة وحاولت تمالك نفسها. مسَّد شعرها برقة، ثم رفع وجهها إلى وجهه وترك عيناه ترتشف من عينيها. خجلت إيميلي وبكت دون إنذار، لكن چوليان وضع كفيه على جانبي وجهها ولم يتركها تشيح عنه.

- جميلة. أنت حسناء أيتها الصغيرة. نحن نُقدِّر الجمال هنا. كلنا نُقدِّره.

أطلق سراح وجهها، ثم التقم كفها في كفه ورفعها، قبَّلها وانحنى يطبع قبلة على رسغها.

ظلت الأَمَة ترتجف، لكنها لم تقاوم. أدارها چوليان قليلًا، ثم أعطى بيلي الشرس ذراعها.

- هلا أديت التشريفة يا بيلي؟

مدَّ بيلي الشرس يده إلى ما خلف ظهره، وجذب سكينًا من غَمد صغير معلق في حزامه. جحظت عينا إيميلي السوداوان هلعًا، وحاولت الفرار، لكن قبضته القوية وسرعته باغتتاها. لمحت النصل بالكاد، ثم ابتَل فجأة بعد مروره السريع الخفيف فوق معصمها، حيث مسَّها چوليان بشفتيه. انبجست الدماء من الجرح وسالت على الأرض في قطرات تردد صداها وسط سكون القاعة.

تمايلت الفتاة لحظة، وقبل أن تفهم ما يحدث، أعاد بيلي الشرس سكينه إلى غمدها وأفسح الطريق لچوليان كي يمسك يدها مجددًا. رفع ذراعها النحيلة مرة أخرى، ومال واضعًا شفتيه على معصمها، وشرع يمتَص.

تراجع بيلي الشرس إلى الباب، ترك الآخرون مواضعهم على الدَّرج واقتربوا، تمسح أثواب النساء الأرض بخفة. تحلقوا حول چوليان وفريسته جوعى، أعينهم مظلمة، حارة. عندما فقدت إيميلي الوعي، انطلق بيلي الشرس نحوها وحملها من تحت ذراعيها ليسندها. لم يكن لها وزن تقريبًا.

- يا لها من حسناء.

هكذا غمغم چوليان وهو يفترق عنها بشفتين مبللتين، وعينين راضيتين ثقيلتين، وابتسم.

رجاه المدعو چين وهو يرتجف كالمحموم: «رجاءً يا دامون».

سالت الدماء ببطء على ذراع إيميلي وهو ينظر إلى چين نظرة باردة خبيثة، ويقول: «ڤاليري. أنت التالية».

تقدَّمت الشابة ذات الفستان الأصفر والعينين البنفسجيتين، ثم ركعت وراحت تلعق التدفق الرهيب. ما إن نظَّفت الذراع لعقًا، حتى ضغطت شفتاها الجرح المفتوح.

برحيل چوليان، تلاها رايموند، ثم أدريان، ثم چورچ. أخيرًا، وبعدما انتهى الجميع، عاد چوليان إلى چين بابتسامة وإيماءة. هجم عليها وانتزعها من بين ذراعي بيلي الشرس، وبدأ ينهش لحم عنقها الرقيق. أجفل دامون چوليان متقززًا وقال لبيلي الشرس: «بعدما ينتهي، نظف المكان».

***

ثلاثة



نيو ألباني- إنديانا
يونيو 1857

الضباب كثيف فوق النهر، والهواء رطب بارد. أخيرًا وصل چوشوا يورك من سانت لويس بُعيد منتصف الليل، وقابل أبنر مارش في ساحة بناء السفن في نيو ألباني. كان مارش ينتظره منذ نصف ساعة عندما خطا يورك من الضباب كشبح شاحب، ومن خلفه أربعة صامتون كالظلال.

ابتسم مارش مبديًا أسنانه وقال: «چوشوا».

وأومأ تحية للآخرين. كان قد قابلهم سريعًا في أبريل في سانت لويس، قبل أن يسافر إلى نيو ألباني ليشرف على بناء حلمه. هم أصدقاء يورك ورفاق سفره. مجموعة غريبي أطوار. اثنان منهم في منتصف العمر، يحملان اسمين أجنبيين عصيين على النطق أو التذكُّر، اسماهما سميث وبراون. اعتادا الثرثرة معًا بِبَربَرة مُبهمة غريبة. الثالث أجوف الخدين، من شرق أمريكا، مَلابسِه كملابس الحانوتيَّة، يُدعى سيمون، ولم يتكلم قَط. المرأة، كاثرين، قيل إنها بريطانية. طويلة، مُحدَودِبة نوعًا، تبدو مريضة مُتحلِّلة. ذكَّرت مارش بمظهر النسور البيضاء الضخمة. لكنها صديقة يورك، كلهم أصدقاؤه، وقد حذَّره يورك أن أصدقاءه من نوعية مُنتقاة غريبة، لذا أمسك أبنر مارش لسانه.

قال يورك: «عمت مساءً يا أبنَر».

توقف وجال بنظره في أرجاء الساحة، حيث ترقد البواخر نصف المبنيَّة كهياكل ضخمة خلف الضباب الرمادي.

- ليلة باردة، أليس كذلك؟ بالنسبة إلى شهر يونيو؟

- نعم، كانت رحلتك طويلة؟

- اتخذت جناحًا في فندق بيت جالت في لويسڤيل لنرتاح فيه، ثم استأجرنا قاربًا لينقلنا عبر النهر.

تفحَّصت عيناه البادرتان الرماديتان أقرب باخرة في فضول.

- هل هذه باخرتنا؟

نَخَر مارش وأجاب: «هذا الشيء الصغير؟ بحق الجحيم، لا بالطبع. ما هذه إلا باخرة متواضعة ذات رفاسات خلفية، يبنونها لأجل شركة تجارة سينسيناتِّي. هل تظنني سأركِّب رفاسات خلفية لعينة لباخرتنا؟».

ابتسم يورك وقال: «اغفر لي جهلي. أين باخرتنا إذًا؟».

أجاب مارش مشيرًا في فخر بطرف عصاه: «اتبعني».

قادهم عبر الساحة، ثم أشار هاتفًا: «ها هي».

انقشع الضباب لأجلهم، وها هي تنتصب شاهقة شامخة، مُقزِّمة كل البواخر الأخرى حولها. تلمع مقصوراتها وإفريزها بالدهان الجديد الأبيض كالجليد، الناصع حد الإشراق من خلف الضباب المُسدَل. فوق مهاجع الطاقم، عاليًا قرب النجوم، مقصورة التوجيه تتألق كمحراب بلُّوري. قُبَّتها مُزخرفة بالكامل، مُطعَّمة بالنقوش المحفورة في الخشب بدقة متناهية كأنها دانتيلًا أيرلندية. مدخنتاها عمودان ينتصبان أمام مهاجع الطاقم، بارتفاع مائة قدم، وبلون أسود حالك أنيق. حافتاهما العلويتان ملويتان إلى الخارج كزهرتين معدنيتين داكنتين. بَدَن الباخرة رشيق التصميم، يمتد إلى ما بدا كأنه اللانهاية؛ يغطي الضباب طرفها الخلفي. كمثل بواخر الدرجة الأولى، رفاساتها الجانبية عريضة. عند منتصف هيكلها، حجرات التوجيه تُطل عملاقة، تشي بقوَّة نواعيرها[1].

والآن، لا ينقص الباخرة سوى الاسم الذي سيُنقش عليها قريبًا.

في الليل ووسط الضباب، وبين كل هذه البواخر الصغيرة البسيطة، بدت كخاطر قلب من أحلام ملَّاح. فكَّر مارش في أنها حقًّا تخلب الألباب وتُبهر الأنفاس.

رَطَن سميث، فأجابه براون برطانة مماثلة، لكن چوشوا يورك ظل يحدق فقط. حدَّق طويلًا ثم أومأ.

---

(1) ما يشبه عجلة الساقية في نهاية الباخرة، تمنحها قوة دفع وسرعة هائلة. (المترجمة)

- لقد صنعت شيئًا خلَّابًا يا أبنر.

فابتسم مارش. أكمل يورك: «لم أتوقع أن أجدها وقد أوشكت على الاكتمال».

- نحن هنا في ساحة نيو ألباني، ولهذا قصدتها بدلًا عن وِرش البواخر في سانت لويس. لقد كانوا يبنون البواخر هنا منذ كنت طفلًا، وبنوا اثنتين وعشرين منها العام الماضي، وسيبنون مثلها هذا العام على الأرجح. كنت موقنًا أنهم قادرون على إتمام ما نريد. ليتك كنت هنا. جئتهم بأحد صناديق الذهب الصغيرة تلك، وألقيتها على مكتب المُشرِف، وقلت له. قلت له: أريد بناء باخرة، وأريد الانتهاء من بنائها بسرعة، وأريدها أن تكون أسرع باخرة وأبهى باخرة لعينة بنيتموها، هل تسمعني؟ والآن اجلب لنا مهندسين، أفضل ما لديك منهم، ولا يهمني لو اضطررت إلى جَرِّهم من مواخير لويسڤيل إلى هنا لنبدأ حالًا. واجلب لي أفضل نجَّارين لعينين وأمهر صبَّاغين وصانعي غلايات، وكل مَن نحتاج، لأنك إن لم تجلب لي سوى الأفضل ستأسَف طوال عمرك.

ضحك مارش مُردِفًا: «ليتك رأيته. لم يدرِ أينظر إلى الذهب أو يستمع لي. أرعبه كلاهما حتى الموت. لكنه نفَّذ على أكمل وجه. حقًّا».

أومأ تجاه الباخرة وأضاف: «بالطبع لم تكتمل بعد. تحتاج إلى إتمام طلاء الزخارف باللونين الأزرق والفضي، لتتناسق مع كل اللون الفضي الذي طلبته في مقصورات الضيوف، ونحن في انتظار وصول الأثاث الفاخر والمرايا التي طلبتها من فيلادلفيا، ومثل هذه الأمور. لكنها الآن شِبه كاملة يا چوشوا، وشِبه جاهزة. تعالَ، سأريك».

ترك العُمَّال مصباحًا فوق كومة أخشاب جوار مؤخرة الباخرة. حكَّ مارش عود ثقاب في ساق سرواله، وأوقد المصباح، ثم دفعه في عجرفة إلى براون، وقال: «هاك. احمل هذا!».

عبر لوحًا خشبيًّا إلى سطح السفينة، وتبعه الآخرون. قال: «انتبه مما قد تلمَس. بعض الطلاء لم يجف بعد».

سطح الباخرة الرئيسي ممتلئ بالماكينات. توهَّج المصباح بضوء ثابت صافٍ، لكن ظل براون يتحرك به في كل صوب، فتحَّركت ظلال الماكينات

الضخمة بدورها وتراقصت بشكل مريب، وكأن الحياة قد دبَّت فيها. أمره مارش: «ثبِّت المصباح!».

عاد إلى يورك وبدأ يشير بطرف عصاه كأنه إصبع ضخمة تجاه الغلَّايات والأسطوانات التي تمتد على جانبي مقدمة سطح الباخرة. قال مارش في فخر: «ثماني عشرة غلَّاية. أكثر مما في الباخرة شفق بثلاث. كل واحدة منها بعرض ثماني وثلاثين بوصة، وطول ثمانية وعشرين قدمًا. بُنيَت الأفران بالآجر الحراري وألواح الحديد، وأبعدتها عن سطح الباخرة لتقليل فرص اشتعال الحرائق».

تبع خطوط أنابيب البخار فوقهم، والتي تصل الغلايات في الخلف بالمُحركات، وكلها تتجه إلى نهاية الباخرة.

- ركَّبنا أسطوانات تتحمل الضغط العالي، تمامًا كما في شفق. أقول لك؛ ستلتهم هذه الباخرة النهر العجوز.

رطن براون، وبَربَر سميث، وابتسم چوشوا يورك.

قال مارش: «تعالوا. لا يبدو أن أصحابك مهتمون بالمحركات، لكن ما سيرونه في الأعلى سيروقهم».

الدَّرج عريض مُزخرف، مصنوع من البلوط المدهون بطبقة لامعة، يحدُّه من الجانبين درابزين فخم. يبدأ الدَّرج من عِند القوس، يخفي عرضه الغلايات والمحركات عن الرُّكَّاب، ثم يتفرع إلى فرعين، وينحني بقوة ليُفضي إلى طابق الباخرة الثاني. مشوا بمحاذاة الميمنة، يتقدَّمهم مارش بعصاه، وبراون يحمل المصباح، تقرع أحذيتهم خشب الممشى القاسي وهم يتأملون تفاصيل الأعمدة والأفاريز الدقيقة على الطراز القوطي، كلها من الخشب المحفور يدويًّا بنقوش الأزهار والتعاريج وثمار البلوط. أبواب الغرف تمتد أمامهم وخلفهم في صف بالغ الطول، مصنوعة من خشب الجوز الأسود، والنوافذ مغطاة بزجاج ملون.

قال مارش وهو يفتح بابًا يقود إلى إحدى الغرف: «لم تؤثث حجرات الضيوف بعد، لكننا لن نؤثثها بشيء إلا بأفضل الحشوات والوسائد المحشوة بالريش، وبالمرايا ومصابيح الزيت في كل غرفة. مقصوراتنا أكبر من المعتاد لتحمل عددًا أكبر مما تحمله البواخر الأخرى من الحجم نفسه. يمكن لمن يريد مساحة أكبر لنفسه أن يدفع مقابلها».

في كل غرفة بابان، واحد يُفضي إلى سطح الباخرة، والآخر داخلي، يؤدي إلى القاعة الكبرى؛ مقصورة الباخرة الرئيسية.

قال مارش: «ما زال أمام القاعة الكبرى وقت حتى يكتمل تجهيزها، لكن تعال وألقِ نظرة على أي حال».

دخلوا، ثم توقفوا بينما يرفع براون المصباح عاليًا ليضيء المساحة الشاسعة أمامهم. تمتد القاعة الكبرى بلا توقف ولا حواجز بطول سطح الباخرة السفلي الذي يحوي الغلايات، حتى منتصفها، حيث ممر. وضَّح مارش: «الجزء الأمامي مخصص للرجال، والخلفي للسيدات. ألقِ نظرة. لم تكتمل بعد، لكنها ستكون مذهلة. الحاجز الرخامي هناك بطول أربعين قدمًا، وسنضع مرآة خلفه بالحجم ذاته. طلبت صناعتها بالفعل. سنركِّب مرآة ذات إطار فضي مزخرف خلف باب كل غرفة أيضًا، ومرآة بارتفاع اثنتي عشرة قدمًا هناك في القسم المخصص للسيدات. لا يمكنك رؤية شيء الآن مع الظلام وكل شيء، لكن مساقط الضوء العلوية مصنوعة من الزجاج الملون، تغطي كامل طول القاعة. سنفرش الأرضية ببساط فاخر بروسلي، وسنضع واحدًا منه في كل غرفة. اشترينا أيضًا مُبرد مياه فضيًّا، وأكوابًا فضية ستُصَف فوق منضدة خشبية، واشترينا بيانو، ومقاعد بتنجيد مخملي جديدة، وشراشف قطنية أصلية. لم يصل أيها بعد».

مع خلوها من الأبسطة والمرايا والأثاث، بدت القاعة مهيبة. مشوا عبرها ببطء وفي هدوء، وفي أثناء حركة المصباح تتجسد لهم تفاصيل الفخامة من خلف الظلمة، ثم تختفي مرة أخرى خلفهم. تأملوا السقف المقوَّس الشاهق بأعمدته المنحوتة بتفاصيل دقيقة كالدانتيلا الرقيقة، وأصفف القضبان التي ترفع أبواب الغرف، والرخام الأسود بتعرجاته الملونة، ولمعة الخشب الأسود الزيتية، صفَّي الثُريَّات التي تتدلى من كل واحدة منها كرة بلورية مُعلقة من أذرع حديدية ملتوية مزخرفة على هيئة شبكة عنكبوت، لا ينقصها سوى الضوء حتى تبعث المرايا الحياة في القاعة في عالم من الفخامة والعظمة.

قالت كاثرين فجأة: «ظننت الغرف أصغر من اللازم، لكن هذه القاعة ستكون هائلة».

عقد مارش حاجبيه وقال: «الغرف كبيرة يا سيدتي، بمساحة ثمانية أقدام مربعة، بينما المعتاد مساحة ستة أقدام. هذه باخرة كما تعرفين».

أولاها ظهره، وأشار متجاهلًا: «سيكون مكتب الكاتِب هناك عند المقدمة، المطبخ ودورات المياه قرب غرفة التحكم. أعرف طاهيًا ممتازًا أيضًا، كان يعمل على متن باخرتي إليزابيث».

الطابق العلوي من السفينة يعلو الطابق الذي يحوي الغلايات، ارتقوا إليه عبر دَرج ضيق نحو المداخل العملاقة السوداء، ثم صعدوا سلمًا أصغر إلى مهاجع الطاقم التي تحتل المسافة بين المداخن وغرفة التحكم. قال مارش غير مكترث لجولة فيها: «مهاجع الطاقم».

فوق المهاجع مقصورة القيادة. قادهم إليها ثم أدخلهم.

من هناك، صارت الساحة كلها مكشوفة، بقواربها المسربلة بالضباب، مياه نهر أوهايو الحالكة، وما وراءها أضواء لويسڤيل البعيدة تضوي كأشباح. مقصورة القيادة كبيرة مُتقنة الصنع، واجهاتها من أفضل البلور وأنقاه، يلمع الخشب الداكن في كل مكان فيها، وتتألق في أرجائها الفضة تحت ضوء المصباح.

أما مقود التوجيه لم يظهر منه سوى نصفه العلوي لضخامته، وحتى هذا النصف قد بلغ ارتفاعه طول قامة مارش نفسه، في حين أن النصف السفلي منه مخفي داخل فتحة في الأرضية الخشبية. صُنع المِقوَد من خشب الساج البارد الناعم، بَرَامقه المُزينة بحلقات فضية مزخرفة، بدا كأنما يطالب بيدَي قبطان بارع.

تقدم چوشوا يورك من المِقود ولمسه، مرر يده الشاحبة على خشبه الأسود وفضته، ثم أمسكه كأنه القبطان نفسه. للحظات طالت وقف مكانه، المقود بين يديه، وعيناه الرماديتان ترنوان إلى الليل وضباب يونيو الذي حلَّ في غير موعده. عم الصمت الآخرين، ولوهلة شعر أبنر مارش أن الباخرة تتحرك على صفحة نهر عَقله، في رحلة غريبة أبدية.

استدار چوشوا يورك إليهما وقاطع تعويذة الصمت التي حلَّت بهم.

- أبنر. أريد أن أتعلم قيادة هذه الباخرة. هلا علَّمتني الإبحار؟

- الإبحار؟

تفاجأ مارش. هو لا يعاني صعوبة في تخيل يورك قُبطان الباخرة وسيدها، لكن الإبحار شيء آخر، إلا أن الطلب نفسه قرَّبه من شريكه، وجعله مفهومًا أكثر بالنسبة إليه. يعرف أبنر مارش كُنه الرغبة في الإبحار.

- حسنًا يا چوشوا، لقد نلت نصيبي من الإبحار، وهو أعظم شعور في العالم. لكن سيادة السفينة لا تقارن بالإبحار بها، وهو شيء لا يمكن التقاطه بالممارسة، هل تعرف ما أتحدث عنه؟

- سهل التحكم في المقوَد.

ضحك مارش وقال: «يا للجحيم، أجل، لكن ليس المقود ما يُحمَل هَم التحكم فيه، بل النهر يا يورك. النهر. المسيسبي العجوز نفسه. لقد أبحرت ثماني سنوات قبل أن أشتري بواخري، ومعي رخصة الإبحار في أعالي المسيسبي ونهر إلينوي، لكن ليس في أوهايو أو أدنى المسيسبي، ومع كل ما أعرفه عن الملاحة بالبواخر لا يمكنني الإبحار بباخرة في أيهما؛ لا أعرف عنهما شيئًا. تطلبت معرفتي بالأنهار التي خبرتها سنوات طوالًا، ولا يتوقف التعلم أبدًا. والآن، وقد ابتعدت عن قمرة القيادة لفترة طويلة، عليَّ أن أتعلم كل شيء من البداية. النهر يتغير يا چوشوا. حقًّا يتغير، ولا يثبت على حال، ويجب أن تعرف كل بوصة فيه».

اتجه مارش إلى المقود ووضع كفه عليه في شغف مردفًا: «والآن، أخطط للإبحار بهذه الباخرة على الأقل مرة. لطالما حلمت بها، حلمت بضمِّها بين ذراعيَّ. عندما نسابق شفق أنتوي أن ألازِم مقصورة القيادة، حقًّا أنتوي هذا. لكن هذه الباخرة أكبر من أي شيء في خط تجارة نيو أورلينز، وهذا يعني الإبحار بها في قرب مصبَّات الأنهار، لذا سيتوجَّب عليَّ البدء في تعليم نفسي كل قدم لعينة فيها. سيحتاج الأمر إلى وقت ومجهود».

ثم نظر إلى يورك مضيفًا: «هل تريد الإبحار بعدما عرفت ما يعنيه الأمر؟».

أجاب يورك: «يمكن أن نتعلم معًا يا أبنر».

تململ أصحاب يورك، وجالوا من نافذة إلى أخرى. نقل براون المصباح بين يديه، وظل سيمون كئيبًا كجثة. قال سميث شيئًا ليورك بلغته الغريبة، فأومأ يورك ثم قال: «يجب أن نعود».

نظر مارش حوله مرة أخيرة غير راغب في المغادرة الآن، ثم قادهم إلى خارج مقصورة القيادة.

في منتصف طريقهم إلى ساحة بناء السفن، استدار يورك ونظر إلى باخرتهما حيث تستند إلى دعائمها، باهتة على خلفية العتمة. توقف الآخرون أيضًا وانتظروا صامتين.

سأل يورك مارش: «هل تعرف بايرون؟».

فكَّر مارش هنيهة ثم قال: «أعرف واحدًا يُدعى بلاكچاك بيت، عمل قبطانًا على متن جراند تُرك. أظن اسم عائلته براين».

ابتسم يورك وهو يقول: «ليس براين، بل بايرون. اللورد بايرون؛ الشاعر الإنجليزي».

- أوه! هذا. لست ممن يقربون الشعر. مع ذلك أظنني سمعت به، الأعرج، أليس كذلك؟ تهيم به النساء حبًّا.

- هو يا أبنر. رجل مُدهش. حالفني الحظ والتقيته مرة. ذكَّرتني باخرتنا بقصيدة كتبها.

ثم بدأ يتلو...

تسير مُختالة مثل ليلة.. تنقشع فيها الغيوم وتتألق النجوم.

أجوَد ما في الظلمة والسَّناء.. يلتقي في طلعتها وعينيها.

ويلين لرقة نورها، ما ضنَّت به السماء لبهرج النهار.

- كتب بايرون قصيدة عن امرأة بالطبع، لكن الكلمات تناسب باخرتنا أيضًا، أليس كذلك؟ انظر إليها يا أبنر! ماذا تظن؟

لم يعرف أبنر مارش ماذا يظن؛ البحَّارة لا يتفاهمون بأبيات الشعر هكذا، ولا يعرفون ماذا يقولون عندما يفعل أحد هذا أمامهم. أخيرًا قال: «الأمر مثير يا چوشوا».

سأل يورك وعيناه مثبتتان على الباخرة، وشبح ابتسامة يلوح على شفتيه: «بماذا نُسمِيها؟ هل أوحت القصيدة إليك بشيء؟».

قطب مارش وقال في عجرفة: «لن نُسميها بوحي من كلمات بريطاني أعرج، إن كنت في هذا تفكِّر».

قال يورك: «لا، لم أكن لأقترح هذا. في بالي اسم على غرار السيدة الغامضة، أو...».

قاطعه مارش: «ولدي أنا أيضًا اسم. بشكل ما نحن من خط سفن نهر فيڤر، وهذا الباخرة هي حلم قد تحقق».

ثم رفع عصاه وأشار نحو غرفة التحكم وقال: «سنكتب الاسم هنا، بخط كبير وباللونين الأزرق والفضي: *حلم فيڤر*».

ثم ابتسم مضيفًا: «حلم فيڤر تنافس شفق. سيتكلم الناس عن هذا السباق حتى نموت جميعًا».

للحظة تحرَّك شيء غريب ومخيف في عيني چوشوا يورك الرماديتين، ثم اختفى بسلاسة كما ظهر. قال: «حلم فيڤر، ألا ترى أن هذا الخيار نوعًا... مشؤوم؟ اسم يوحي بالمرض بالنسبة إليَّ. الحُمى والموت والهلوسات. أحلام، أحلام لا يجوز أن يحلم المرء بها يا أبنر».

عقد مارش حاجبيه.

- لا أعرف عمَّا تتكلم. يُعجبني الاسم.

- هل سيركب الناس باخرة باسم كهذا؟ معروف أن البواخر قد تكون موبوءة بالتيفويد والحمى الصفراء. هل تود أن تُذكِّرهم بشيء مثل هذا؟

- لقد ركبوا باخرتي المُسماة فيڤر الحُلوة، وركبوا نسر الحرب، والشبح، وركبوا حتى البواخر التي تحمل أسماء الهنود الحُمر. سيركبونها.

قال الواجم الشاحب المدعو سيمون شيئًا بصوت خشن كصوت منشار صدئ، وبلغة غريبة على مارش، مُختلفة عن تلك التي يرطن بها براون وسميث. أنصت إليه يورك، وظهر على وجهه أنه يفكر، لكن لم يختفِ عنه همُّه. ردد: «حلم فيڤر. أمِلت في اسم... أكثر صِحةً، لكن سيمون قال ملاحظة وجيهة. لك ما تريد يا أبنر. هي حلم فيڤر إذًا».

- عظيم.

أومأ يورك في شرود وقال: «لنتقابل غدًا على العشاء في فندق بيت جالت، في الثامنة. سيمكننا وقتها التخطيط لرحلتنا إلى سانت لويس، ونناقش تفاصيل الطاقم والإمدادات إن كان هذا يناسبك».

غمغم مارش موافقةً، وغادر يورك ورفاقه مُختفين في الضباب. بعدما غادروا، وقف مارش مطولًا في الساحة، يحدق إلى البواخر الساكنة الصامتة. قال بصوت عالٍ: «حلم فيڤر». كأنما يستسيغ الكلمات في فمه. لكن للغرابة، ولأول مرة، شعر بأن الاسم غريب على أذنيه، مُفعم بإيحاءات لا تروقه. ارتجف لسبب لا علاقة له بالبرد، ثم نَخر وغادر إلى فراشه.

***

أربعة



على متن الباخرة حلم فيڤر
نهر أوهايو
يوليو 1857

غادرت حلم فيڤر مرفأ نيو ألباني عند حلول الظلام، في ليلة قائظة من ليالي بداية يوليو. خلال سنواته الطويلة في الأنهار، لم يشعر مارش بأنه حَي إلى هذه الدرجة كما شعر ذاك اليوم. أمضي الصباح في لويسڤيل ونيو ألباني يراجع تفاصيل الدقائق الأخيرة قبل الإقلاع، وحَلَق شعره، وتناول الغداء مع رجال ساحة بناء السفن، وأرسل مجموعة خطابات.

في حَر الظهيرة، استقر في مقصورته، وأجرى آخر فحص للباخرة ليتأكد من أن كل شيء سليم. حيًّا بعض الرُّكَّاب وقت وصولهم، ثم تناول أخيرًا العشاء في عجالة وانطلق إلى سطح الباخرة الرئيسي ليتحقق من عُمَّال الغلايات، وليشرف على مسؤول تحميل آخر الحمولات.

غربت الشمس سريعًا، وتعلَّق الهواء فوق الجميع كثيفًا ساكنًا، فلمَع العرق على أجساد الحمَّالين وهم ينقلون الصناديق والرُّزَم والبراميل فوق ألواح التحميل الرفيعة، بينما المشرف يلعنهم طوال الوقت. خلال إبحارهم إلى لويسڤيل، علم مارش أن بواخر أخرى تُحمِّل بضائع أو تغادر أيضًا؛ الباخرة چاكوب ستْرادر ذات ضغط الغلايات المنخفض التابعة لخطوط بريد سينسيناتِّي، والباخرة السريعة المسماة بالجنوبية التابعة لشركة خطوط سينسيناتِّي ولويسڤيل الملاحية، بالإضافة إلى نصف دستة قوارب. راقب إن كان أي منهم سيتجه نحو مصب النهر، شاعرًا بالحماس رغم الهجير وأسراب البعوض التي نشطت عند الغروب.

ازدحم سطح الباخرة الرئيسي بالحمولات في المقدمة والمؤخرة، فامتلأت كل الأماكن التي لا تشغلها الغلايات والمداخن والمحركات. تتضمن الحمولة مائة وخمسين طنًّا من أوراق التبغ فاتحة اللون، وثلاثين طنًّا من القضبان الحديدية، وما لا يُحصى من براميل السُّكَّر والدقيق وخمر البراندي، وصناديق أثاث فاخر لحساب بعض أثرياء سانت لويس، بالإضافة إلى الملح ولفافات الحرير والقطن، وبعض الكتب والورق والمُجففات، ودستة براميل ضخمة من دهن الخنزير النقي. لكن لم يكن دهن الخنزير ضمن الحمولة المنقولة لحساب الغير، بل اشتراه مارش بنفسه وأمر بتخبئته على متن السفينة.

اكتظ سطح الباخرة الرئيسي بالركاب أيضًا، رجال ونساء وأطفال في كثافة أسراب البعوض، يحومون ويتدافعون بين البضائع. احتشد قرابة ثلاثمائة منهم، وقد دفع كل واحد دولارًا أجرة نقله إلى سانت لويس. أكل الركاب ما كانوا يحملون معهم، والمحظوظون منهم وجدوا مكانًا ينامون فيه في العراء. أغلبهم من الأجانب، أيرلنديون وسويديون وهولنديون ضِخام، يتصايحون فيما بينهم بلغات لا يعرفها مارش، ويشربون ويتلاعنون ويلطمون أطفالهم. من بينهم أيضًا صائدو فراء وعُمَّال باليومية، لا يملكون إلا السفر على سطح الباخرة بشروط مارش.

دفع رُكاب الغُرَف عشرة دولارات للراكب، على الأقل من سيذهبون منهم إلى سانت لويس. امتلأت أغلب الغرف حتى مع سعر السفر المرتفع هذا. أخبر الكاتب مارش أن في الباخرة مائة وسبعة وسبعين راكبًا في الغرف، وهو رقم ممتاز بالنسبة إلى مارش خاصة مع كل السبعات فيه. ضمَّ سجل ركاب الغُرف دستة مُلاك مزارع، وصاحب شركة تجارة فراء ضخمة في سانت لويس، ومصرفيِّين، وثريًّا بريطانيًّا مع بناته الثلاث، وأربع راهبات متجهات إلى أيوا. من الركاب أيضًا واعِظ، لكن لا بأس بهذا ما داموا لا يحملون معهم فرسًا رماديًّا؛ معروف بين البحارة أن ركوب واعظ وفرس رمادي في باخرة واحدة يعني كارثة.

سُر مارش من أداء الطاقم. القبطانان الحاليان بلا مَيزات خاصة؛ هما فقط مُستأجران مؤقتًا ليقودا الباخرة إلى سانت لويس بما أنهما قبطانان خبيران بنهر أوهايو، وحلم فيڤر تعمل ضمن خطوط تجارة نيو أورلينز، واستأجر أيضًا قبطانين خبيرين بأدنى نهر المسيسبي ينتظرانه في فندق بيت المزرعة. بقية الطاقم في جودة أي طاقم باخرة أخرى في أي نهر

في العالم، تأكد مارش من هذا. مهندس الباخرة يُدعى بليك الأشيب، رجل ضئيل يخالط شعره الشيب، سالفاه الأشعثان الأبيضان ملطخان دومًا بشحم المحركات. عمل الأشيب مع أبنر مارش على متن الباخرة إيلي رينولدز، ثم مؤخرًا في إليزابيث أ. وحلم فيڤر، وليس من مهندس آخر يفهم في محركات البواخر أكثر منه. كاتب الباخرة؛ چوناثان چيفرز ذو عوينات ذهبية، وشعر بُني مصفف إلى الخلف وغطاء كتفين أنيق بأزرار، لكنه كان فذًّا في الحِساب والمفاوضة، ولا ينسى أبدًا أي شيء، وعُرف ببراعة مساوماته وبلعب الشطرنج. عمل چيفرز في مكتب الخطوط الملاحية الرئيسي حتى أرسل إليه مارش يطلب منه الحضور للعمل على متن حلم فيڤر، فجاء على الفور. رغم مظهره الأنيق وسيفه الرفيع المخفي في عصاه ذات المقبض المُذهَّب، چيفرز رجل أنهار في أعماق نفسه المتخمة بالأرقام.

الطاهي زنجي مُحرر يُدعى توبي لانيارد، عمل مع مارش طوال أربعة عشر عامًا. منذ تذوق مارش طهيه في ناتشز اشتراه وأعتقه. وكيل الرُّبان يُدعى مايكل ثيودور دَن، على ذلك، لا ينادِيه أحد إلا بمايك المُشعِر، فيما عدا الحمالين الذين ينادونه السيد دَن، سيدي، وهو رجل من أكثر الرجال لؤمًا وعندًا في النهر. طوله يقارب ستة أقدام، عيناه خضراوان وسالفاه أسودان، يغطي ذراعيه وساقيه وصدره الشعر الداكن الأجعد. لسانه بذيء، سريع الغضب، ولا يذهب إلى أي مكان دون هراوة حديدية سوداء بطول ثلاث أقدام. لم يَره مارش يضرب شخصًا بالهراوة إلا مرة أو مرتين، لكنه يمسكها دومًا، ويُشاع بين الحمَّالين أنه شج بها رأس رجل أسقط -دون قصد- برميل براندي في النهر. دَن وكيل رُبان قاس، ولا يُسقط أحد شيء في أثناء وجوده. كل من في النهر يحترم مايك دَن المُشعِر.

رجال حلم فيڤر ممتازون بحق. منذ اليوم الأول أدوا مهامهم بكفاءة، وحين غطَّت النجوم السماء فوق نيو ألباني، كانت الحمولة والركاب على متن الباخرة وكل شيء مُدوَّن في سجلاتها. تصاعد البخار من المداخن وهدرت الأفران متوهجة بحرارة كافية لتسخين سطح الباخرة الرئيسي فيصير أكثر حرارة من ليل ناتشِز القائظ، وأُعدَّت في المطبخ وجبات لذيذة.

تحقق أبنَر مارش من كل هذا، وعندما رضي، صعد إلى مقصورة القيادة المتألقة السامية فوق كل الفوضى بالأسفل. أمر القبطان: «لننطلق!».

فأمر القبطان بدوره بالمزيد من البخار، وشغَّل الرفاسات الجانبية. وقف أبنَر مارش خلفه في تبجيل بينما تتهادى حلم فيڤر عبر ظلام نهر أوهايو ومياهه اللامعة بانعكاس النجوم عليها.

بمجرد انتظامهم في المسير، عكس القبطان دوران الرفاسات، وجهها إلى الإبحار في تيار النهر، فاهتزَّت الباخرة العملاقة، ثم انزلقت إلى مجراها بنعومة تسر القلوب. أصدرت الرفاسات صوت *تشانكاتشانكا تشانكاتشانكا* إذ تدور وتُقلِّب الماء، فتتحرك الباخرة أسرع وأسرع مع سرعة التيار وتدفق البخار، تطفو بنعومة حلم بحار، بنعومة شفق ذاتها. فوق الرؤوس أطلقت المداخن الدخان الأسود والشظايا التي سرعان ما اختفت خلفهم إذ هوَت إلى النهر وماتت كأنها آلاف اليراعات الحمراء والبرتقالية.

بدا الدخان والبخار والشظايا لعيني أبنر مارش أبهى من مناظر الألعاب النارية التي رآها في لويسڤيل في احتفالات الرابع من يوليو. مدَّ القبطان يده وأطلق الصافرة، فصدحت الصرخة الطويلة تصم آذانهم، لكنها صافرة عظيمة ذات سمت جامح، وصدى يمكن سماعه من بعد أميال.

ما إن اختفت أضواء لويسڤيل ونيو ألباني، حتى جَرَت حلم فيڤر بين الضفاف المظلمة الخاوية كما كانت منذ قرون مضت، وأدرك أبنر مارش أن چوشوا يورك قد لحق بهم إلى مقصورة القيادة ويقف إلى جواره.

كان متأنقًا بشدة، في سرواله وسترته طويلة الذيل الناصعين، وصدريته ذات الزُّرقة الصافية، وقميصه الأبيض المزين بالكرانيش والتطريز، وربطة عنقه الزرقاء الحريرية، وسلسلة الساعة المُمتدة عبر صدريته الفضية. وضع يورك في يده الشاحبة خاتمًا فضيًّا ضخمًا ذا فص أزرق براق. الأبيض والأزرق والفضي؛ ألوان الباخرة، فبدا يورك جزءًا منها.

ستائر مقصورة القيادة باللونين الأزرق والفضي، الأريكة الضخمة الوثيرة في الخلف زرقاء، وكذلك الشرشف. قال مارش: «لكن يعجبني هِندامك يا چوشوا».

ابتسم يورك قائلًا: «أشكرك. أنت أيضًا تبدو مذهلًا».

وكان مارش قد اشترى لنفسه سُترة قبطان جديدة ذات أزرار نحاسية لامعة، وقبعة وُشِّيَ اسم الباخرة عليها بالخيوط الفضية. قال مارش «أجل».

لم يكن بارعًا قط في الرد على الإطراء؛ السباب أسهل وأكثر راحة بالنسبة إليه.

- حسنًا. هل كنت مستيقظًا عندما أقلعنا؟

كان يورك نائمًا طوال النهار في غرفة القبطان ضمن مهاجع الطاقم، بينما كان مارش يتعرَّق ويؤدي كل مهام القبطان الفعلية. اعتاد مارش نوم يورك ورفاقه طوال النهار والاستيقاظ طوال الليل، فقد قابل أشخاصًا لهم العادة نفسها، وفي المرة الوحيدة التي سأل يورك عن الأمر، ابتسم وكرر قصيدة بايرون مرة أخرى.

- كنت واقفًا على السطح العلوي أمام المداخن، أراقب كل شيء. بَرَدت الحرارة بالأعلى بمجرد تحرُّكنا.

- للباخرة المُسرعة رياحها. مهما كانت درجة الحرارة ومهما صهَدت الأفران، الجو بارد بالأعلى. أحيانًا أشعر بالأسف تجاه رُكاب سطح الباخرة الرئيسي، لكن ليذهبوا إلى الجحيم؛ هم لا يدفعون سوى دولار واحد.

وافقه يورك قائلًا: «بالطبع».

واهتزت الباخرة قليلًا مطلقة الصوت: *تشانك*. سأل يورك: «ما هذا؟».

- عبرنا من فوق جذع طافٍ غالبًا.

ثم سأل القبطان: «أليس كذلك؟».

- هشمناه يا كابتِن، لا تقلق. لم يقع أي ضرر.

أومأ أبنَر مارش ثم استدار نحو يورك.

- والآن، هل ننزل إلى القاعة الرئيسية؟ الركاب سيخرجون للمشاهدة، هكذا الأمر في أول ليلة إبحار. يمكننا مقابلة بعضهم والتحدث إليهم لنتأكد من أن كل شيء يسير على ما يرام وكما توقعنا.

- سيسرني ذلك. لكن هلا انضممت إليَّ في غرفتي لنتناول شرابًا؟ حَري بنا أن نحتفل بالإقلاع، ألا تتفق معي؟

هزَّ مارش كتفيه وقال: «شراب؟ حسنًا، لا مانع».

ثم مسَّ طرف قبعته وقال للقبطان: «عمت مساء يا سيد دالي. سآمُر لك بكوب قهوة إن رغبت في ذلك».

وغادرا مقصورة القيادة إلى غرفة القبطان. توقَّفا هنيهة حتى يفتح يورك قِفل الباب الذي أصر على تركيبه على أبواب غرف المسافرين. كان هذا طلبًا غريبًا بعض الشيء، لكن عزم مارش على الطاعة دون نقاش. لم يكن يورك معتادًا الإقامة في باخرة قبل كل شيء، وأغلب طلباته مُبرَّرة، على سبيل المثال المرايا والفضة التي زُينت بها القاعة الكبرى منحاها مظهرًا رائعًا.

غرفة يورك في مساحة ثلاث من غرف الرُّكاب، وضِعفَي عرضها، لذا تُعتبر شاسعة بمقاييس البواخر. هذه هي المرة الأولى التي يدخلها فيها أبنر منذ وضع يورك أغراضه فيها، لذا نظر حوله في فضول. مصباحا زيت معلقان على حائطي الغرفة المتقابلين يمنحانها ضوءًا مريحًا دافئًا. النوافذ العريضة ذات الزجاج الملون مُظلمة الآن، والستائر السوداء الثقيلة المُسدلة تبدو ناعمة غنية في ضوء المصباح. في ركنٍ خزانة طويلة ذات أدراج، ومرآة بإطار فضي على الحائط. الفراش ضيق مريح، حشيته ووسائده محشوة بالريش، وبالقرب منه مقعدان جلديان كبيران، ومكتب ضخم من خشب الورد ذو أدراج عديدة ومخابئ، على الجدار خلف المكتب خريطة حوض المسيسبي الدقيقة. سطح المكتب مغطى بدفاتر ذات أغلفة جلدية، وأكوام صحف. هذه أيضًا من تصرفات چوشوا يورك الغريبة؛ إنه يقرأ عددًا هائلًا من الصحف. صحف من إنجلترا وصحف بلغات غريبة. يقرأ جريدة تريبون وجريدة هيرالد النيويوركية أيضًا، وكل صحف سانت لويس ونيو أورلينز، وكل منشورات مدن النهر الصغيرة الأسبوعية. تصله صناديق جرائد يوميًّا. ثم إنه يقرأ الكتب ولديه مكتبة في غرفته، مُتخمة الأرفف، والمزيد من الكتب مكومة على منضدة مجاورة للفراش بجوار نصف شمعة قراءة ذائبة. لم يضيع أبنر مارش وقتًا في النظر إلى الكتب. قرب المكتبة رف خمور خشبي يحمل عشرين أو ثلاثين زجاجة مُصطَفَّة مائلة. الزجاجات بلا علامات أو إشارة لصانع، والسائل فيها أحمر داكن أقرب إلى الأسود، مُغلقة بفلين محاط بالشمع. سأل يورك وهو يدير إحدى الزجاجات بين يديه: «معك سكين؟».

- لا أعتقد أن الشراب المُعتَّق هذا سيعجبك.

كان يورك يحمل صحفة عليها كأسين فضيين، وإناء خمر.

- لدي شراب كريز رائع هنا. لماذا لا نشربه بدلًا عن ذاك؟

تردد مارش. مشروب الكريز ممتاز ويكره أن يفوِّته، لكن معرفته بچوشوا أكدت له أن أي خمر يحتفظ به لاستعماله الخاص سيكون خارقًا للمعتاد.

بالإضافة إلى هذا فقد أُثيرَ فضوله. نقل الزجاجة من يد إلى يد، وتحرك السائل فيها ببطء لزج كأنه شراب حُلو مُركَّز. سأله عاقدًا حاجبيه: «ما هذا على أي حال؟».

- خمرٌ مركَّزة مصنوعة في المنزل. بعضها نبيذ، وبعضها براندي ومنقوعة مُحلَّاة، ولا يشبه طعمها أيًّا من مكوناتها. شراب نادر يا أبنر. أنا ورفاقي مولعون بها، ولا تعجب ذوق أغلب الناس. أنا متأكد أنك ستفضل عليها الكرز.

قال مارش: «حسنًا، أي شيء تشربه سيروقني يا چوشوا. أنت حقًّا تستحق شراب كرز جيد. أقول لك، لسنا متعجلين، وأشعر بعطش شديد، لماذا لا نجرب كليهما؟».

ضحك چوشوا يورك ضحكة مُبتهجة عفوية، عميقة موسيقية.

- أبنر. أنت استثنائي ومذهل. تعجبني جدًّا. شرابي البسيط لن يعجبك، لكن على أي حال يمكننا تجربة الاثنين.

جلسا على المقعدين الجلديين، ووضع يورك الصَّحْفَة بينهما على منضدة منخفضة. ناوله مارش زجاجة الخمر أو أيًّا كان ما بها. أخرج يورك من بين طيَّات بدلته البيضاء سكينًا رفيعة ذات مقبض عاجي ونصلًا فضيًّا طويلًا، أزال بها الشمع، ثم طعن الفلينة بالسكين وأخرجها. صُبَّ السائل ببطء، يسيل كأنه عسل أحمر مسوَد إلى الكأسين الفضيتين. الشراب غير شفاف ممتلئ بالذرَّات السوداء. رفع أبنَر كأسه وتشممها، فأدمع الكحول عينيه.

قال يورك رافعًا كأسه: «يجب أن نقترح نخبًا».

قال مارش مازحًا: «في صحة المال الذي سنجنيه».

هتف يورك في جدية: «لا».

بدت كآبة عميقة في عينيه الشيطانيتين الرماديتين، وتمنى مارش ألا يردد تلك القصيدة مرة أخرى.

- أبنر. أعرف ما تعنيه حلم فيڤر لك، وأريدك أن تعرف أنها تعني لي الكثير أيضًا. اليوم هو بداية حياة جديدة عظيمة لي. أنا وأنت، معًا، خلقناها على ما هي عليه الآن، وسنستمر في تحويلها إلى أسطورة. لطالما حلمت بالجمال يا أبنر، لكن هذه هي المرة الأولى التي أخلقه

فيها، أو أشارك في خلقه. شعور عظيم أن تجلب الحسن إلى هذا العالم، خاصة بالنسبة إليَّ. يجب أن أشكرك على هذا.

رفع كأسه وهتف: «لنشرب نخب حلم فيڤر وكل ما تُمثل يا صديقي. الجمال، الحرية، الأمل. في صحة باخرتنا والعالم الأفضل!».

- في صحة أسرع باخرة في النهر!

وشرِبا. ما كاد أن يبتلع حتى سرى مشروب يورك في حلقه كالحمم، حارقًا بلعومه، ناشرًا لهيبه في أحشائه، لكنه استشعر فيه حلاوة زائدة، وشيئًا من رائحة خبيثة لم تفلح القوة ولا الحلاوة في تغطيتها. فكَّر أبنر في أن الطعم يبدو كأن شيئًا قد تعفَّن داخل الزجاجة.

أفرغ چوشوا يورك كأسه في جرعة واحدة برأس مائل إلى الخلف، ثم وضعها جانبًا ونظر إلى أبنر ضاحكًا.

- انظر إلى وجهك يا أبنر، كم هو غريب. لا تُجبر نفسك على إبداء رأي إيجابي؛ لقد حذرتك. لماذا لا تشرب بعض الكرز؟

- سأفعل. لا بد أن أفعل.

وبعدما مسح كأسَي خمر الكرز طعم شراب يورك من فم مارش، تحدثا.

- ما خطوتك التالية يا أبنر بعد وصولنا إلى سانت لويس؟

- ميناء نيو أورلينز. لا مسار لبواخر بهذه الضخامة سوى هذا.

هزَّ يورك رأسه وقال: «أعرف هذا يا أبنَر. أشعر بفضول لمعرفة ما تنتويه لهزيمة شفق. هل ستبحث عنها وتعرض تحديها؟ أنا موافق ما دمنا لن نتأخر أو نخرج عن مسارنا».

- أتمنى لو أن الأمر بهذه البساطة يا چوشوا. يا للجحيم. في النهر آلاف البواخر وكلها يتوق إلى هزيمة شفق، لكن لديها ما تعمله مثلنا، فهي تحمل رُكابًا وبضائع. لا يمكن أن تتسابق طوال الوقت. على أي حال، سيكون قبطانها أحمق لو استمع إلى تحدينا. من نكون؟ أصحاب باخرة جدد من نيو ألباني التي لم يسمع عنها أحد. ستخسر شفق كل شيء، ولن تجني شيئًا بتحدينا.

أفرغ كأسًا أخرى ثم مد يده بها إلى يورك ليعيد مَلْأَها.

- لا، يجب أن نستمر في عملنا أولًا ونكتسب سمعة، ونُعرف في أرجاء النهر بأننا باخرة فائقة السرعة. سرعان ما سيتحدث الناس عن سرعتنا ويتساءلون عن نتيجة سباق بين حلم فيڤر وشفق. ربما تقابلنا مصادفة مرة أو اثنتين مثلًا فنتجاوزها، فيشيع الخبر وتبدأ المراهنات. ربما نسير في مسارات شفق نفسها ونتفوق على الوقت الذي قطعتها فيه. البواخر السريعة تجذب العمل كما تعرف، والتجار وأصحاب المزارع يريدون نقل بضائعهم في أسرع وقت، وكذا الركاب، هم يرغبون في ركوب أشهر البواخر لو لم يكن معهم أجرتها. بعد وقت سيظن الناس أن باخرتنا هي الأسرع في أدنى النهر، وسيتحرك العمل تجاهنا، وستتأذى شفق قليلًا بسبب هذا. وقتها ستجلس وتشاهد كيف سيكون طلب التحدي سهلًا لتتويج الأسرع.

- فهمت. إذًا ستبدأ سمعتنا بالذهاب إلى سانت لويس إذًا؟

- أنا لا أحاول تسجيل وقت قياسي بها الآن. هي باخرة جديدة وعلينا أن نترفَّق بها. ليس معنا حتى قبطان يألف قيادتها، ونحتاج إلى وقت كي يكتشف الأشيب مشكلات المحركات الصغيرة ويُدرب العُمال على تشغيلها. لكن هذا لا يعني أننا لن نبدأ بطريقة ما. لدي أفكار أخرى. انتظر وسترى.

قال يورك: «عظيم. هل تريد المزيد من الكرز؟».

- لا، يجب أن ننزل إلى القاعة الكبرى على ما أظن. سأدعوك إلى شراب هناك، وأضمن لك أن طعمه سيكون أفضل من شرابك اللعين هذا.

ابتسم يورك وقال: «بكل سرور».

لم تكن تلك الليلة كسائر الليالي بالنسبة إلى أبنر مارش. كانت ليلة ساحرة كحلم. بدت الأمسية ممتدة كأنها أربعين أو خمسين ساعة، كاد يقسم على هذا، وكل ساعة فيها لا تقدر بثمن. سهر مع يورك حتى الفجر، يشربان ويتحدثان بلا توقف، يجوبان آفاق دهشتهما من الباخرة التي بنياها. استيقظ مارش في اليوم التالي يتذكَّر بالكاد نصف ما حدث الليلة السابقة، لكن بعض اللحظات قد حُفِرت في ذاكرته.

تذكر دخوله القاعة الكبرى، وكيف كان أفضل من دخول أرقى فنادق العالم. الثُّريات متوهجة، والمصابيح متألقة تلقي الأشعة هنا وهناك. جعلت

المرايا القاعة الطويلة تبدو كأنها في ضعفَي عرضها. اجتمع حشد حول المشرب، يتحدثون عن السياسة وما شابه، انضم إليهم مارش بعض الوقت واستمع إلى شكواهم من مشروع إلغاء العبودية، وما إذا كان الأفضل أن يتولى ستيفن أ. دوجلاس الرئاسة، بينما تحدث يورك مع سميث وبراون الجالسين إلى واحدة من الطاولات يلعبان ببطاقات لعب مع بعض أصحاب المزارع والمقامرين المعروفين. عزف أحدهم على البيانو الكبير، وانفتحت أبواب غرف الضيوف وأغلقت بلا انقطاع، وامتلأ المكان بالنور والزهو والضحكات.

لاحقًا، نزلا إلى عالم آخر على سطح الباخرة الرئيسي. الحمولات مكوَّمة في كل مكان، العمال والحمَّالون نائمون على لفافات الحبال وأجولة السكر، عائلة مجتمعة حول موقد يطهون شيئًا، مخمور فاقد الوعي خلف الدَّرج. استعرت غرفة المُحرك بلهيب الأفران، وكان الأشيب في منتصف كل هذا، بقميص غارق بالعرق، ولحية ملطخة بالشحم، يصرخ في عُمَّاله بصوت يعلو فوق فحيح البخار وصوت *تشنكاتشنكا* الصادر عن النواعير إذ تمضغ المياه.

شاهد هو ويورك ما يجري مدة، حتى ما عادا يتحملان اللهيب ورائحة زيت المحركات أكثر.

في وقت لاحق صعدا إلى طابق الباخرة العلوي، وهما يتشاركان شُرب زجاجة خمر، ويتحدثان بمزاج رائق. كانت النجوم براقة كتاج على رأس أميرة، وراية نهر فيڤر ترفرف على صاريتَي مقدمة الباخرة ومؤخرتها، والنهر من حولهما أكثر سوادًا من أكثر العبيد الذين رآهم مارش سُمرةً.

أبحروا طوال الليل، ودالي يقف فوق شرفة المراقبة العالية أعلى مقصورة القيادة، يحافظ على مسار رحلتهما وسط اللاشيء المُعتم، الذي لا يريان شيئًا فيه ولو حاولا. كان مارش يبرع في هذا في أثناء إبحاره وسط نهر أوهايو.

كانت الرحلة كمَسيرة المسحور، بلا عقبات ولا تمايُل عنيفًا ولا حواجز رملية تعوقهم. مرتان فقط اضطرا إلى إطلاق قارب استطلاع أمامهم للتأكد من أمان الطريق، وفي المرتين لم يجدا سوى المياه الآمنة، ومَخَرت حُلم فيڤر متقدمةً.

ظهرت لمحات من بضعة منازل عند الضفة، أغلبها مظلم ومُغلق النوافذ في الليل، لكن نافذة عالية لواحد منها كانت مضاءة. تساءل مارش عمَّن يكون ساهرًا هناك، وفيَم سيفكِّر عندما تمر به الباخرة. لا بد أن منظرها يسُر القلوب، بطوابقها المُضيئة، وأصوات الضحكات والموسيقى تسري فوق

صفحة الماء، والشَّرر والدخان ينبعثان من مداخنها، واسمها واضح فوق غرفة التحكم؛ حلم فيڤر، بخط مزخرف أزرق، تحيطه زينة فضية. كاد يتمنى أن يكون عند الضفة ليراها.

جاء أقصى حماس الليلة قُبيل انتصافها، عندما رأوا باخرة أخرى أمامهم. فور أن أبصرها مارش، أمسك بكوع يورك وساقَه إلى مقصورة القيادة. كانت الغرفة مزدحمة؛ دالي خلف عجلة التوجيه يرشف القهوة، مع قبطانين آخرين وثلاثة رُكاب يجلسون على الأريكة خلفه. ليس القبطانان ممن استأجرهم مارش، بل قبطانين ركبا بالمجان كما هو عُرف النهر، وقد اعتادا الصعود إلى مقصورة القيادة للدردشة مع الرجل خلف عجلة التوجيه، ومراقبة المياه. تجاهلهما مارش وقال لقبطانه: «سيد دالي. باخرة أخرى أمامنا».

أجاب دالي في اقتضاب: «أراها يا كابتِن مارش».

- تُرى أي باخرة هي؟ هل لديك فكرة يا دالي؟

أيًّا كانت، هي ليست كبيرة. مجرد باخرة برفاسات خلفية، ومقصورة قيادة مُكعَّبة كصندوق بسكوت مملح.

أجاب القبطان: «ليست لدي فكرة بالـتأكيد».

استدار أبنر مارش إلى چوشوا يورك وقال: «چوشوا، أنت القائد الحقيقي الآن، ولا أريد تشتيتك بالكثير من المُقترحات، لكن الحقيقة هي أنني أشعر بفضول مريع لمعرفة أي باخرة تلك. لماذا لا تطلب من دالي اللحاق بها لأجلنا؟ فقط لأرتاح قليلًا».

ابتسم يورك وقال: «بالتأكيد. سيد دالي، لقد سمعت ما قال كابتِن مارش. هل تعتقد أن حُلم فيڤر قادرة على اللحاق بهذه الباخرة؟».

أجاب القبطان: «يمكنها اللحاق بأي شيء».

طلب من المهندس المزيد من البخار، ثم جذب حبل الصافرة مرة أخرى، فصدحت صرخة البانشي[1] الرنانة فوق النهر، وكأنها تحذير للباخرة أمامهم أن حلم فيڤر ستلحق بها.

---

(1) كائن أسطوري أيرلندي وذُكر في أساطير الشمال الأخرى، صرخته الحادة تُنذر بموت قريب. (المترجمة)

الصافرة كانت كافية لدفع الركاب للخروج من القاعة الكبرى إلى سطح الباخرة، كما حثَّت الركاب العاديين إلى الوقوف فوق أجولة الدقيق بعد رقادهم. حاول راكبان الصعود إلى مقصورة القيادة، لكن مارش طاردهما إلى أسفل، وطرد الثلاثة الآخرين الذين كانوا بالأعلى.

بينما هرع الركاب إلى مقدمة الباخرة، ثم إلى المَيسرة لاحقًا عندما تبدَّى لهم أن الباخرة الأخرى ستمُر من تلك الجهة، غمغم مارش: «يا للركَّاب اللعينين. لا يجوز لهم الانطلاق هكذا على سطح باخرة. يومًا سيتكوَّمون في جهة واحدة فيُسقطون بعض البحَّارة المساكين. أقسم على هذا».

رغم كل تلك الشكاوى، مارش مسرور. دفع الأشيب بالمزيد من الأخشاب بالأسفل، فهدرت الأفران، وتسارعت حركة الرفاسات. انتهى الأمر في طرفة عين، وبدت حلم فيڤر كأنما تلتهم الأميال بينها وبين الباخرة الأخرى، وعندما جاوزتها، تردد صدى صيحات التشجيع من الطابق السفلي كالموسيقى العذبة بالنسبة إلى أذني مارش.

بينما يتجاوزون الباخرة الصغيرة ذات الرفاسات الخلفية، قرأ يورك اسمها المكتوب على مقصورة القيادة.

- يبدو أن اسمها ماري كاي.

- حسنًا. كنت لأراهن على ذلك.

- هل هي باخرة معروفة؟

- أبدًا. لم أسمع بها من قبل.

قبل انتهاء الليل، مرَّت حلم فيڤر بنصف دستة بواخر وجاوزتها، منها واحدة ذات رفاسات جانبية، تقارب ضخامتها، لكن الأمر لم يكن في حماس اللحاق بماري كاي.

قال مارش ليورك بعدما غادرا مقصورة القيادة: «كنت تريد أن تعرف كيف سنبدأ رحلة شهرتنا، حسنًا يا چوشوا، ها قد بدأنا».

قال يورك وهو ينظر خلفه إلى حيث تتضاءل ماري كاي في الأفق: «أجل. بالفعل لقد بدأنا».

***

خمسة



على متن الباخرة حلم فيڤر
نهر أوهايو
يوليو1857

مع إصابته بصداع أو من دون ذلك، أبنر مارش رجل نهر أكثر براعة من أن ينام النهار، خاصة لو نهار بأهمية الحالي. استيقظ قرابة الحادية عشرة صباحًا بعد نوم عدة ساعات، وغسل وجهه بماء من الحوض فوق منضدة الفراش الجانبية، ثم لبس ملابسه. أمامه أعمال تُنجَز، ولن يستيقظ يورك قبل الغروب. اعتمر مارش قبعته على رأسه، ورمق انعكاسه في المرآة وهو يفرق شعر لحيته الرطب، ثم أمسك عصاه وخرج من حجرته إلى طابِق الغلايات. عرَّج على دورة المياه أولًا، ثم تراجع إلى المطبخ وقال للطاهي الذي كان يُعِد الغداء بالفعل: «فاتني الإفطار يا توبي. هلا طلبت من واحد من صبيانك أن يطهو لي ست بيضات، وقطعة لحم خنزير ويرسلها إلى حجرتي في مهجع الطاقم؟ أريد قهوة أيضًا. كثيرًا منها».

شرب مارش كأسًا أو اثنتين سريعًا في القاعة الكبرى، ما جعله يشعر بتحسن نوعي. غمغم ببضع كلمات مهذبة للركاب والنُّدُل، ثم عاد إلى غرفته لينتظر طعامه.

بعدما أكل، شعر أبنَر مارش أنه عاد إلى نفسه مرة أخرى.

صعد إلى مقصورة القيادة بعد الإفطار. تغيَّرت الوردية، ووقف خلف عجلة التوجيه القبطان الآخر، مع واحد من الحمَّالين يُسليه. قال مارش لقبطانه: «عمت صباحًا يا سيد كيتش. كيف الأحوال؟».

أجاب القبطان: «أنا لا أتذمَّر. باخرتك هذه كالريح في سرعتها يا كابتِن، اذهب بها إلى نيو أورلينز واستأجر لها قباطنة أفضل. هي تحتاج إلى يد ماهرة على عجلة توجيهها».

أومأ مارش. لم يكن هذا خارج مجال التوقعات؛ البواخر الأسرع أصعب في التوجيه، لكن هذا لم يضايقه. لا يوجد قبطان يعرف ما قد يتورط فيه بقيادتها سيرغب في الاقتراب من عجلة توجيه حلم فيڤر.

سأل مارش: «بأي سرعة نبحر؟».

أجاب القبطان بهزَّة كتفين: «سرعة مناسبة. يمكنها السير بسرعة أكبر بالطبع، لكن السيد دالي أخبرني أنك غير مُتعجِّل، لذا نحن نتبختر».

أمره مارش: «سنرسو في ميناء مدينة بادوكا عندما نصل إليه، سينزل راكبان وسنبادل بعض الحمولات».

أمضى بضع دقائق أخرى يثرثر مع القبطان، ثم عاد أخيرًا إلى طابق الغلايات.

تجهَّزت القاعة الكبرى للغداء، وانصبَّ ضوء الظهيرة الساطع عبر قباب سقفها في شلالات ألوان، وبالأسفل صفوف موائد طويلة بطول القاعة. وضع النُّدُل أدوات المائدة الفضية وأطباق الخزف في أماكنها إلى جوار الكؤوس البلورية اللامعة تحت النور.

شمَّ مارش من ناحية المطبخ روائح رائعة يسيل لها اللعاب. توقَّف يراجع قائمة الطعام، ثم قرر أنه جائع بعد. إلى جانب هذا، يورك لم يظهر حتى الآن، واللياقة تقضي بأن يشارك أحد قباطين الباخرة الركاب طعامهم.

الغداء بالنسبة إلى مارش كان ممتازًا. ملأ مارش طبقًا كبيرًا بلحم الغنم المشوي بصلصة البقدونس، وحمامة صغيرة، ومغارف من البطاطس الأيرلندية والذرة الخضراء والبنجر، مع قطعتين من فطيرة توبي الشهيرة بالبيكان. بانتهاء الغداء شعر برضًا تام، حتى إنه أذِن للواعظ بإلقاء محاضرة قصيرة عن تبشير الهنود الحمر بالمسيحية، رغم أنه في الظروف الطبيعية لا يتحمَّل أي هراء ديني على سطح بواخره. كان عليه تسلية الركاب بطريقة ما، وحتى أفضل المناظر يُمَل منها بعد فترة.

في بداية ما بعد الظهيرة، رست حلم فيڤر في بادوكا، التي تقع على ضفة النهر في ولاية كنتاكي، حيث يصب نهر تينيسي في نهر أوهايو. كانت هذه

ثالث محطة يتوقفون فيها خلال رحلتهم، لكنها أطول مدة توقفوا فيها في ميناء. كانوا قد رسوا في عجالة في ميناء مدينة روسبورو ليلًا لإنزال ثلاثة ركاب، ثم حمَّلوا الأخشاب وحمولة خفيفة من بلدة إيڤانسفيل بينما مارش نائمًا. لكن في بادوكا أنزلوا حمولة اثني عشر طنًّا من أسياخ الحديد، وبعض أجولة الدقيق والسكر، وشُحنة كتب، حيث تنتظرهم هناك قرابة أربعين أو خمسين طنًّا من الخشب ليحمِّلوه.

بادوكا مدينة تشتهر بالأخشاب، تسد نهر تينيسي القريب منها قوارب مُسطحة تحمل جذوع الأشجار، وتقطع مسار البواخر. مثله كمثل أغلب رجال النهر، لا يحب أبنَر مارش القوارب المُسطحة ولا يجد لها نفعًا؛ أغلب الوقت لا تبدي أي إشارة ضوئية في الليل، فترتطم بها البواخر التعسة، ويضطر قباطنتها إلى السَّب واللعن ورميها بالأغراض.

لحسن الحظ، لم يكن من قوارب مُسطحة حيث رسوا في بادوكا وربطوا الباخرة. ألقى مارش نظرة واحدة على الحمولة التي تنتظر على الرصيف، والتي تضم أكوام صناديق وأجولة تبغ، وقرر أن الأسهل تحميل المزيد من البضائع على سطح الباخرة الرئيسي. سيكون عارًا –في رأيه– الإقلاع من بادوكا وترك كل هذه الحمولات لباخرة أخرى.

كانت حلم فيڤر مربوطة بإحكام إلى رصيف الميناء، وأسراب الحمَّالين يفرغون الحمولات بعد صفِّ ألواح العبور. تحرك مايك المُشعِر بينهم يهتف: «سريعًا، لستم رُكابًا كي تتسكعوا هكذا! أسقِط هذا يا ولد وسأنزل بهذه الهراوة الحديدية على رأسك».

بالإضافة إلى عبارات مشابهة أخرى بينما ينزل الركاب بادوكا.

استقرَّ مارش على قراره، فقصد مكتب الكاتب، حيث وجد هناك چوناثان چيفرز يعمل على عدد من الفواتير. سأله: «هل ضروري أن تنهي هذا العمل الآن يا سيد چيفرز؟».

– الوقت يتسع بالكاد يا كابتِن مارش.

خلع عويناته ثم مسحها في منديل قماشي مضيفًا: «هذه حمولة كايرو[1]».

---

(1) مدينة في إلينوي. (المترجمة)

قال مارش: «جيد. تعالَ معي. سنذهب للبحث عن مالك هذه الحمولات هناك تحت الشمس، وإلى أين يريد نقلها. أعتقد أنها ستُرسل إلى مكان على طريق سانت لويس، ويمكننا نقلها نحن وجَني بعض المال لأنفسنا».

- عظيم.

قام عن مقعده وهندم معطفه الأسود، وتأكد من أن الخزينة الحديدية مُقفلة، ثم حمل عصاه ذات السيف وقال وهو يغادر: «أعرف حانة جيدة في بادوكا».

وُفِّق مارش إلى العثور على صاحب حمولة التبغ بسهولة، وأخذه إلى الحانة، حيث أقنعه مارش بنقل بضاعته على متن حلم فيڤر، وساومه چيفرز حتى حصلوا على سعر مناسب. احتاج الأمر إلى ثلاث ساعات، لكن مارش كان مسرورًا بما حصَّلاه من عمل وهو يسير مع چيفرز إلى الميناء ثم يركبان حلم فيڤر.

كان مايك المُشعر يدخن سيجارًا وهو يتحدث مع أشخاص من طواقم البواخر الأخرى عندما قال مارش وهو يشير إلى حمولة التبغ بطرف عصاه: «هذه ملكنا الآن. اجعل صبيانك يحمِّلونها سريعًا حتى ننطلق».

مال مارش على سور طابق الغلايات في سعادة ورضا، وراح يراقبهم وهم يترنحون بحمولة الأجولة القماشية، بينما الأشيب يتجهَّز للمغادرة. ثم واتته فرصة ملاحظة أمر آخر؛ صف من حافلات إقامة تجرها الخيول، تنتظر على الطريق قرب موقف الباخرة. حدق إليها مارش في فضول للحظات وهو يفتل سالفيه، ثم صعد إلى مقصورة القيادة.

كان القبطان يأكل شريحة فطيرة مع كوب قهوة. قال له مارش: «سيد كيتش. لا تُقلِع حتى أخبرك».

- لماذا يا كابتِن؟ لقد حمَّلنا البضائع، والبخار جاهز.

قال مارش وهو يشير بعصاه: «انظر إلى هناك. الحافلات تجلب المزيد من الركاب إلى الميناء، أو تنتظر وصولهم. ليسوا ركابًا عاديين على أي حال كما أخمِّن، ولا ينتظرون باخرة بائسة صغيرة أيضًا. حدسي يخبرني هذا».

بعد لحظات، تأكَّد صدق حدسه، إذ ظهرت في الأفق باخرة طويلة باذخة، ذات رفاسات جانبية، تنفث الشَّرر والدخان والبخار. تعرَّفها مارش على

الفور قبل أن يقرأ اسمها حتى؛ الباخرة «الجنوبية»، من أسطول سينسيناتّي ولويسڤيل.

- كنت أعرف! لا بد أنها غادرت لويسڤيل بعد مغادرتنا بنصف يوم. سرعتها فاقتنا.

ثم تحرك إلى النافذة الجانبية وأزاح الستار الذي يحجب حرارة شمس ما بعد الظهيرة، وربطه، وراح يراقب. قال لقبطانه: «لن تتوقف كثيرًا، فلا حمولة تُنزلها. مجرد رُكاب. دعها تُقلِع أولًا، مفهوم؟ دعها تُبحر قليلًا في النهر ثم اتبعها».

أنهى القبطان آخر فطيرته، ومسح حشو الميرانج عن رُكن فمه بمنشفة.

- تريدني أن أترك الجنوبية تنطلق أمامنا، ثم أحاول اللحاق بها؟ يا كابتِن، سنستنشق بخارها طوال الطريق إلى كايرو. بعد ذلك ستختفي عن الأنظار.

غام وجه مارش أبنَر كسُحب رعدية على وشك الانفجار وهو يقول: «ماذا تقول يا سيد كيتش؟ لا أريد الاستماع إلى كلام مثل هذا. إن كنت غير ماهر كفاية لفعل ذلك، اعترف بهذا، وسأركل السيد دالي موقظًا إياه، وسأصعد به إلى هنا ليتولى القيادة».

أصر كيتش: «لكنها الجنوبية!».

صاح مارش: «وهذه حلم فيڤر، لا تنس هذا!».

ثم عصف خارجًا من الغرفة يسُب. القباطنة اللعينون يظنون أنفسهم ملوك النهر. هم كذلك بالطبع بمجرد نزول البواخر إلى الماء، لكن هذا لا يبرر لهم التذمر من سباق صغير والتشكيك في قدرات باخرته.

خفتَ غضبه عندما رأى الجنوبية تُحمِّل الركاب بالفعل. كان يأمل في شيء كهذا لحظة لمح الجنوبية عبر النهر في لويسڤيل، لكنه لم يجرؤ على التمني بصدق. لو سبقت حلم فيڤر الباخرة الجنوبية لوصلت سمعتها إلى منتصف الطريق بمجرد أن يسمع رجال النهر بما حدث. الباخرة الأخرى وشقيقتها المسمَّاة «الشمالية» فخر أسطولهما؛ هما باخرتان مميزتان، بُنيتا في عام 1858 خصوصًا لتناسبا السرعات الفائقة. هما أصغر حجمًا من حلم فيڤر، ومارش يعرف أنهما الباخرتان الوحيدتان اللتان لا تحملان بضائع، بل ركابًا فقط. لوهلة لم يدرك الطريقة التي تدران بها الأرباح، لكن الأمر

غير مهم. المهم هو سرعتهما. حققت الشمالية رقمًا قياسيًّا جديدًا في قطع المسافة بين لويسڤيل وسانت لويس في عام 1854، وكسرت الجنوبية الرقم ذاته في العام التالي، وصارت الأسرع على الإطلاق بقطعها المسافة في يوم وتسع عشرة ساعة. مقصورة قيادتها مُتوَّجة بقرني وعل مُذهَّبين، وهو تاج أسرع باخرة في نهر أوهايو.

كلما فكَّر مارش في مسابقتها، ازداد حماسه. خطر على باله بغتة أن هذا أمر لم يكن چوشوا يورك ليُفوِّته، سواء كان نائمًا أو لا. انطلق مارش إلى غرفة يورك، عازمًا على إيقاظه. طرق الباب بحِدَّة بمقبض عصاه.

لم يتلقَّ إجابةً، فطرق مرة أخرى بطريقة أكثر عنفًا وإصرارًا وهو يهتف: «يا مَن بالداخل! انهض من فراشك يا چوشوا، فقد حصلنا لأنفسنا على سباق!».

ولم يصدر أي صوت من داخل غرفة يورك. حاول مارش فتح الباب لكن وجده مُقفَلًا. هزَّه، وضرب الحوائط، وطرق على النوافذ المؤصدة، وصرخ بلا مجيب.

- ملعون أنتَ يا يورك! هيا انهض وإلا فوَّت الأمر.

ثم خطرت له فكرة، فعاد إلى مقصورة القيادة وصاح: «يا سيد كيتش، سيدي».

يستطيع أبنر مارش الصراخ بقوة عاتية إن استخدم جل قوة رئتيه. أطَل كيتش برأسه من الباب ونظر إليه بالأسفل. أمره مارش: «أطلق الصافرة، واستمر في إطلاقها حتى أشير إليك، أتسمعني؟».

ثم عاد إلى باب يورك المغلق وطرقه مُجددًا، ثم انطلقت صافرة البخار صارخة. مرة، مرتين، ثلاث. عويل طويل غاضب. واستمر مارش في الطرق بعصاه.

ثم انفتح باب غرفة يورك.

نظر مارش نظرة واحدة إلى عيني يورك، وانفتح فمه فيما يشبه الصرخة الخرساء. انطلقت الصافرة مرة أخرى، فلوَّح بسرعة بذراعه حتى صمتت. قال چوشوا بهمسة باردة: «ادخل».

دخل مارش، وأغلق يورك الباب خلفه، وسمعه مارش يُزلِجه، لكنه لم يره. لم يرَ أي شيء. ما إن أغلِق الباب حتى صارت غرفة يورك حالكة كحُفرة،

بلا حتى شعاع نور يتسلل من فرجة الباب أو ستائر النوافذ. شعر مارش أنه أصيب بالعمى، لكن راودته رؤية آخر ما أبصر قبل أن يحيطه الظلام: چوشوا يورك يقف عند الباب عاريًا كيَومِ وُلِد، بشرته بيضاء كالرخام، شفتاه منحسرتان عن تكشيرة حيوانية، عيناه شقان رماديان يُطلان على الجحيم.

قال مارش: «چوشوا، هلا أضأت قنديلًا؟ أو فتحت ستارًا أو أي شيء؟ لا أرى شيئًا».

أجابه صوت يورك من الظلام خلفه: «أنا أرى جيدًا».

لم يسمع مارش حركته. استدار فارتطم بشيء. أمره يورك بقوة وغضب: «اثبت مكانك».

ولم يجد مارش مفرًّا سوى تلبية الأمر.

- هاكَ، سأضيء لك نورًا قبل أن تحطم غرفتي.

واشتعل عود ثقاب في منتصف الغرفة، مسَّ به يورك طرف شمعة القراءة، ثم جلس على طرف فراشه. كان قد لبس سروالًا بطريقة ما، لكن وجهه كان قاسيًا مريعًا.

- والآن، *لماذا أنتَ هنا؟* لقد حذرتك! ليت لك عذرًا مُقنعًا.

ازداد غضب مارش؛ لم يكلمه أحد بهذه الطريقة. لا أحد. انطلق يقول: «الجنوبية أمامنا مباشرة يا يورك. أسرع باخرة لعينة في هذا النهر، وهي متوَّجة بالقرنين وكل شيء. أخطط لإرسال حلم فيڤر في عقبها، وظننتك ستحب مشاهدة السباق. إن كنت لا ترى في هذا عذرًا كافيًا لإيقاظك، فأنت لست من رجال البواخر، ولن تكون واحدًا! وتأدَّب معي، أتسمعني؟».

توهَّج شيء في عيني چوشوا، ونهض مستديرًا وهو يقول: «أبنر...».

ثم توقَّف عابسًا، وأضاف: «معذرة. لم أقصد التقليل من احترامك، أو إفزاعك. نيتك سليمة».

أجفل مارش عندما رأى قبضته تتكور في عنف قبل أن يسيطر عليها. قطع يورك عرض الغرفة بثلاث خطوات سريعة قوية. على مكتبه مشروبه الخاص، ذلك الذي دفعه مارش لفتحه ليلة أمس. صبَّ لنفسه كأسًا مُترعة منه، وطوَّح رأسه إلى الخلف وصبَّها في حلقه. استدار مرة أخرى ليواجه مارش وقال: «أبنر، لقد منحتك باخرة أحلامك، لكنها ليست هدية. لقد عقدنا

اتفاقًا على أن تطيع أوامري وتحترم غرابتي ولا تسأل أي أسئلة. هل تنتوي تنفيذ ما وعدت؟».

قال مارش بحدة: «أنا رجل مربوط بكلمتي!».

- جيد. والآن أنصت. نيتك حسنة، لكن ما كان لك أن توقظني كما فعلت. لا تفعل ذلك مرة أخرى. أبدًا. ولا لأي سبب.

- لو انفجرت الغلايات واشتعلنا، سأتركك تُشوى هنا، أليس كذلك؟

لمعت عنيا يورك في الضوء الخفيض.

- لا، لكن ربما الأفضل لك لو تركتني. أنا مُنفلت الأعصاب إن أوقِظت بشكل مفاجئ. لا أسيطر على نفسي. يُعرف عني أنني أفعل أمورًا في تلك الأوقات أندم عليها لاحقًا. أعتذر عنها، لكنها قد تتكرر مرة أخرى، أو ما هو أسوأ. هل تفهمني يا أبنر؟ لا تأتِ إلى هنا أبدًا والباب مؤصد.

قطب مارش، لكنه لم يجد ما يُقال. لقد عقد اتفاقًا قبل كل شيء، ولو أراد يورك أن يغضب إلى هذا الحد لأنه أيقظه، فهو حُر.

- أفهم. اعتذارك مقبول، ولو أردت سأعتذر إليك. والآن، هل تريد الصعود ومشاهدتنا ونحن نتفوق على الجنوبية؟ أرى أنك استيقظت.

قال يورك بوجه متجهم: «لا، ليس الأمر كما لو أنني لست مهتمًّا يا أبنر، أنا مهتم. لكن عليك أن تفهم أنني أحتاج إلى وقت راحتي، ولا أحب النهار؛ الشمس قوية، حارقة. هل أصبت بحرق قوي من قبل؟ لو حدث هذا، ستفهمني. أنت ترى مدى بياض بشرتي، وأنا والشمس لسنا على وفاق. هذا مرض يا أبنر، ولا أريد التحدث عنه».

- لا بأس.

شعر مارش أن الأرضية تحت قدميه ترتج، وانطلقت الصافرة مرة أخرى. قال: «نحن نستعد. يجب أن أذهب. آسف يا چوشوا على إزعاجك. حقًّا أنا آسف».

أومأ يورك وأشاح بوجهه، ثم صب لنفسه المزيد من شرابه البغيض. قال بعدما رشف منه: «أعرف. اذهب أنت، وسأراك في المساء على العشاء».

تحرك مارش صوب الباب، لكن نداء يورك أوقفه قبل أن يفتحه.

- أبنر.

- نعم؟

أبدى له يورك ابتسامة شكر شاحبة وقال: «اهزمها يا أبنر. فُز عليها».

ابتسم مارش، وغادر الغرفة.

عندما وصل إلى مقصورة القيادة، كانت حلم فيڤر قد ابتعدت عن المرفأ وتعكس حركة رفاساتها، أما الجنوبية ففي وسط النهر بالفعل. القمرة مكتظة بستة قباطين، يتحدثون ويلوكون التبغ، ويتراهنون على نتيجة السباق. حتى إن السيد دالي قد قطع استراحته ليصعد ويراقب. أدرك الركاب أن شيئًا على وشك الحدوث، فازدحمت الطوابق السفلى على طول السور.

أدار كيتش عجلة التحكم الضخمة المُطعَّمة بالفضة، فاتخذت حلم فيڤر سبيلها في القناة الرئيسية، تتهادى فوق الماء. طلب المزيد من البخار، فرمى الأشيب الأخشاب في الأفران، فقدَّم مشهدًا جذب أنظار الركاب، إذ انطلقت الأدخنة السوداء كثيفة. وقف أبنر مارش خلف القبطان مرتكزًا على عصاه، يحدق إلى الأمام. انعكست شمس ما بعد الظهيرة على مياه النهر الصافية أمامهم، فأرسلت انعكاساتها التي تعمي الأعين في كل مكان فيما عدا حول رفاسات الجنوبية التي تمضغ الانعكاسات فتهشمها إلى آلاف الشظايا.

بدا الأمر يسيرًا لبضع دقائق. نفثت حلم فيڤر الدخان والبخار، ورفرفت الرايات الأمريكية عند مقدمتها ومؤخرتها، ولطمت بدالاتها الماء في تسارع عظيم، فتقلَّصت المسافة بينها وبين الباخرة الأخرى تدريجيًّا بشكل ملحوظ، لكن الجنوبية ليست كالباخرة ماري كاي، ولا كأي باخرة ذات رفاسات جانبية. لم يمر وقت طويل حتى أدرك قبطانها وضابطه ما يحدث، وجاءهم ردَّها على هيئة زيادة سرعة رهيبة، وأعتم دخانها وصارت أكثر شراسة في التهام الماء مما موَّج النهر بقوة خلفها. أبعد كيتش حلم فيڤر قليلًا ليتفادى الموج، مما أفقده مساعدة التيَّار، فاتسعت المسافة بينهما مرة أخرى، ثم ثبتت.

قال مارش لقبطانه وقد بدا له بوضوح أن الباخرتين تلتزمان بمكانيهما: «اتبعها».

وغادر مقصورة القيادة بحثًا عن مايك دَن المُشعِر، حتى وجده عند مقدمة سطح الباخرة الرئيسي، يرفع حذاءيه على صندوق ويدخن السيجار. قال له مارش: «مُر العُمال والبحَّارة بتعديل زاوية ارتفاع مقدمة الباخرة».

أومأ مايك المُشعر وقام يدعس سيجارته، ثم بدأ يهدر بالأوامر.

بعد لحظات وقف البحَّارة والعُمال عند مؤخرة الباخرة وجانبها الأيسر لتعويض توزيع وزن الركَّاب، خاصة الذين احتشدوا عند المقدمة ليشاهدوا السباق.

غمغم مارش: «سُحقًا للركاب!».

صارت حلم فيڤر الآن متوازنة قليلًا، وبدأت تتسلل مقتربة أكثر من الجنوبية، فعاد مارش إلى القبطان.

تجري الباخرتان متنافستين بقوة الآن، سرعتهما متماثلة تقريبًا، وفطِن أبنَر مارش إلى أن حلم فيڤر أقوى، لكن هذا ليس كافيًا؛ الباخرة مُثقلة بالحمولة، وتغوص في الماء وفي التموجات الصادرة عن الجنوبية مما أبطأها، بينما تمخر الجنوبية بسهولة بما يسر النفوس، بلا شيء على متنها سوى الرُّكاب، وبلا شيء أمامها سوى النهر الصافي. الأمر الآن متروك للقباطنة.

كيتش مرابط خلف عجلة التوجيه، يتحيَّن كل فرصة لاقتطاع بضع دقائق من السرعة، من خلفه دالي والقبطانين من الركَّاب يُدلون بنصائحهم عن النهر والطريقة المُثلى للإبحار فيه.

لأكثر من ساعة طاردت حلم فيڤر الباخرة الجنوبية، تفقد مرآها مرة أو اثنتين عند المنعطفات، وتقترب منها حد التماس مرات. في مرة اقتربوا كفاية حتى تبيَّن مارش أوجه الركاب الذين يميلون على السور الخلفي، ثم انطلقت الجنوبية إلى الأمام مرة أخرى، لتستعيد المسافة بينهما.

قال كيتش وهو يبصق كتلة تبغ في مبصقة قريبة: «أراهن على أنهم يبدِّلون القباطنة. هل ترى كيف تعافت هناك فجأة؟».

تذمَّر مارش قائلًا: «أرى. والآن أريد أن أرانا ونحن نتعافى أيضًا».

ثم نالوا أخيرًا فرصتهم. في لحظة كانت الجنوبية تحتفظ بالمسافة بينهما، تدور حول منعطف خشبي، ثم بغتة علَت صافرتها وتباطأت سرعتها فتمايلت، وبدأت رفاساتها الجانبية في التراجع.

قال دالي لكيتش: «احترس».

بصق كيتش مرة أخرى، وحرَّك عجلة التحكُّم بحرص، فاتسع قوس دوران حلم فيڤر كيلا ترتطم بالجنوبية. عندما وصلوا منتصف المنعطف، رأوا مُسبب المشكلة؛ باخرة ضخمة أخرى، سطحها مدفون تحت أكوام التبغ، جَنَحت إلى

تل رملي، ونزل منها بحَّارتها وعُمالها يحملون العتلات والعوارض الخشبية، يحاولون انتزاعها من مغرزها. كادت الجنوبية أن ترشق فيها.

لدقائق طويلة تحوَّل النهر إلى فوضى. الرجال يصرخون ويتصايحون، وتراجعت الجنوبية بمهارة شيطانية، بينما اتجهت حلم فيڤر إلى مُتسع النهر الخالي. ثم عكست الجنوبية دوران مجاديفها مرة أخرى، واستدار رأسها كأنما تحاول أن تقطع الطريق أمام حلم فيڤر.

صاح كيتش: «يا للأغبياء المُنحلين!» وأدار عجلة التوجيه قليلًا، وأمر الأشيب أن يخفف الحمولة عن جانب الباخرة الأيسر، لكنه لم يتراجع أو يتوقَّف.

اقتربت الباخرتان الضخمتان إحداهما من الأخرى أكثر فأكثر. يستطيع مارش سماع الركاب يصيحون في قلق بالأسفل، وللحظة ظن أنهما ستتصادمان.

لكن الجنوبية تباطأت، وأعاد قائدها توجيه مقدمتها إلى مجرى النهر، فاقتربت مقدمتا الباخرتين للحظات بفاصل قدم بينهما، وبدا أن أحدهم يُهلل فرحًا بالأسفل.

غمغم مارش كيلا يسمعه أحد: «استمر في الحركة».

نثرت رفاسات الجنوبية رذاذ الماء، وتعقبتهم بفاصل مسافة قليل، كونها بلا حمولة تقريبًا. هرع كل ركاب حلم فيڤر اللعينون إلى الخلف بالطبع، فاضطر الطاقم إلى الحركة سريعًا إلى الأمام للموازنة، فتمايلت الباخرة وتأرجحت.

اكتسبت الجنوبية تسارعًا كبيرًا وهي تقترب من جانب باخرتهم الأيسر وتسير بمحاذاته من الخلف، تُناطِح مقدمتها مؤخرة حلم فيڤر. كان جانبا الباخرتين قريبًا كفاية حتى يستطيع الركاب العبور بين الباخرتين بسهولة لو أرادوا، لكن حلم فيڤر كانت أضخم.

غمغم مارش عندما كادت الباخرة تجاوزهم: «اللعنة. يكفي هذا. كيتش، اطلب من الأشيب استخدام شَحم الخنزير؛ شَحمي».

نظر القبطان خلفه وتساءل: «شحم يا كابتِن؟ أوه! كنت أعرف كم أنت ماكر!».

نبح بأوامره عبر أنبوب نقل الصوت الذي يصل مقصورة القيادة بغرفة المحرك.

تتناطح الباخرتان رأسًا برأس الآن. قبضة مارش على عصاه مبتلة بالعرق. بالأسفل يتجادل العُمال مع بعض الأجانب الذين تكأكؤوا حول براميل الشحم، وعليهم إبعادهم حتى يجرُّوها إلى الأفران. استعر مارش بنفاد الصبر، حار كما لشحمه أن يكون. الشحم الجيد باهظ الثمن، لكنه سهل الاستخدام على متن البواخر. يمكن للطاهي أن يستخدمه، ويستفيد من شدة اشتعاله، وهذا ما يحتاجون إليه الآن؛ حرارة قوية تُولِّد ضغط بخار عاليًا لا يمكن توليده من الأخشاب وحدها.

عندما استخدموا الشحم، لم يراود الشك مَن في مقصورة القيادة. انبعث بخار أبيض كثيف من المواسير، وانطلق الدخان كثيفًا من المداخن العالية، فقذفت حُلم فيڤر اللهب وتمايلت، ثم خلَّفت الشَّرر وهدر صوت *تشانكا تشنكا تشنكا* متواليًا كصوت عجلات قطار.

طارت الباخرة أمام الجنوبية، وعندما ابتعدت عنها مسافة كافية، أراحها كيتش وتركها تركب التيار تدفعها أمواجه. راح القباطنة والركاب عديمو القيمة يهتفون ويتشاركون السجائر، ويتحدثون عن سرعة حلم فيڤر الشيطانية، بينما الجنوبية تتراجع خلفهم، وأبنَر مارش يبتسم كالأبله.

عندما رسَوا في ميناء مدينة كايرو، حيث تندمج مياه نهر أوهايو الرائقة مع مياه نهر المسيسبي الكَدَرة الموحلة، كانت المسافة بينهم وبين الجنوبية عشر دقائق. وقتها كان أبنَر مارش قد نسي تقريبًا ما حدث مع چوشوا يورك وما رآه منه.

***

ستة



مزرعة چوليان، لويزيانا
يوليو 1857

كان بيلي تيبتون بالخارج، يرمي سكينه إلى الشجرة الكبيرة الميتة التي تواجه الممر المُعبَّد بالحصى، عندما اقترب الخيَّالة. كانوا في الصباح، لكن الجو حار كالجحيم، وبيلي الشرس يتصبب عرقًا من المجهود، وهو يفكر في النزول للسباحة بعدما يُنهي تمرين الرماية بالسكين. عندما أبصر الخيَّالة يخرجون من الغابة حيث يدور الطريق القديم، اتجه إلى الشجرة العجوز وانتزع سكينه، ثم أعادها إلى غمدها خلف ظهره، وقد نسي كل خواطره عن السباحة.

تقدَّم الخيَّالة ببطء شديد، وبجرأة، يمتطون أظهر الخيل شامخين كأن الأرض أرضهم. فطن بيلي الشرس إلى أنهم ليسوا من الجوار؛ كل جيرانهم يعلمون أن دامون چوليان لا يحب دخول أرضه دون إذنه. بينما هم بعيدون إلى حد صعوبة تبيُّن هوياتهم، تساءل ما إن كانوا بعض أصدقاء مونريو الكريولي وقد أتوا لإثارة المشكلات. لو صح حدسه، سيندمون.

ثم اتضح له سبب بطء مسيرة الخيَّالة، وارتاح بيلي الشرس. العَبدان في أغلالهما يترنحان خلف شخصين على ظهر الخيل. عقد ذراعيه ومال مستندًا إلى الشجرة، ينتظر وصولهم إليه.

اقترب الرَّكب. نظر أحد الرَّاكبين إلى المنزل بطلائه المقشر ودرجاته الأمامية نصف النخرة، وبصق عصارة التبغ مستديرًا نحو بيلي الشرس يسأله: «هل هذه مزرعة چوليان؟».

هو رجل أحمر الوجه، ذو بثور على أنفه، يلبس ملابس جلدية نتنة، ويعتمر قبعة مهترئة.

أجاب بيلي الشرس: «بالـتأكيد». لكنه كان ينظر إلى ما خلف الراكب؛ إلى صبي أحمر الخدين ربما يكون ابنه. سار نحو الزنجيين رثي المظهر، المقيدين بالسلاسل، وابتسم بيلي الشرس وهو يقول: «ليلي وسام! ولم أفكر قط في أنكما ستعودان مرة أخرى. مر عامان منذ فررتما. سيسعد السيد چوليان بعودتكما».

رفع سام، الرجل العَفي الضخم، رأسه ونظر إلى بيلي الشرس، لكن لم يكن من تحدٍّ في عينيه، فقط الخوف. قال الرجل أحمر الوجه: «وجدناهما في أركانساس، أنا وابني، وحاولا الادعاء أنهما زنجيين مُحررين، لكنهما لم يخدعاني لحظةً. لا يا سيدي».

نظر بيلي الشرس إلى صائدي العبيد وأومأ قائلًا: «أكمِل!».

- كم هما عنيدان، هذان. لم أستطِع أن أرغمهما على إخباري بهويتهما لوقت طويل. عذبتهما، واستخدمت بعض الحيل التي أعرفها. عادة ما يحتاج الأمر مع الزنوج إلى بعض التعذيب حتى يكشفوا كل شيء. لكن ليس مع هذين.

ثم بصق مُردفًا: «لكن أخيرًا استخرجنا منهما المعلومات. أرِه يا چيم».

- ترجل الفتى، ثم اتجه إلى المرأة ورفع ذراعها اليمنى. ثلاثة أصابع مفقودة من كفها، إحدى السُّلَّاميات ظاهرة، بدماء متخثرة عليها. قال الرجل: «عندما لاحظنا أنها عسراء، بدأنا بيدها اليُمنى؛ نحن لا نريد أن نُقعِدها تمامًا كما تفهم، لكنها لم تعترف بشيء، ولم تبرز أي أوراق، لذا... قصدنا الإصبع الثالثة كما ترى، فانهار الرجل وأخبرنا. لعنته المرأة بسُبة بغيضة. على أي حال، ها هما. عَبدان هكذا يستلزمان مكافأة لنا كوننا اعتقلناهما. هل السيد چوليان في المنزل؟».

أجاب بيلي الشرس وهو ينظر تجاه الشمس: «لا».

ما زال أمام المساء ساعتان. قال أحمر الوجه: «حسنًا. يبدو أنك المُشرف، صحيح؟ مَن يدعونه بيلي الشرس».

- هذا أنا. هل تحدث سام وليلي عني؟

ضحك صائد العبيد مرة أخرى وقال: «أوه، لقد تحدثا كثيرًا بمجرد أن عرفنا من أين أتيا. تحدثا طوال الطريق إلى هنا حتى. أخرسناهما مرة أو اثنتين –أنا وولدي– ثم عاودا الثرثرة مرة أخرى وحكيا بعض القصص أيضًا».

نظر بيلي الشرس إلى الهاربين بعينيه الخبيثتين الباردتين، لكن لم ينظر أيهما إلى عينيه. قال الرجل: «ربما الأفضل أن تتولى أمر هذين، وتمنحنا مكافأتنا، فنعود إلى حيث أتينا».

قال بيلي تيبتون: «لا، يجب أن تنتظرا. سيود السيد چوليان أن يمنحكما شكره بنفسه. لن يتأخر. سيكون هنا بحلول الظلام».

قال الرجل: «بحلول الظلام، هه؟».

تبادل وابنه النظرات، ثم أضاف: «هذا غريب يا سيد بيلي الشرس، فقد قال هذان الزنجيان إنك ستقول الشيء ذاته. لقد حكيا حكايات غريبة عما يحدث بعد الظلام. أنا وولدي نفضل أن نأخذ مالنا ونرحل إن كان الأمر يناسبك».

- لن يناسب السيد چوليان، ولا أستطيع منحك المال أيضًا. هل ستصدق حكايات سخيفة يرويها زنجيان؟

قطب الرجل وهو يلوك تبغه في نشاط، ثم قال: «حكايات الزنوج شيء لا يصدق طبعًا، لكن بعض الزنوج يقولون الحقيقة من وقت لآخر. والآن، ما سنفعله يا سيد بيلي الشرس هو أن ننتظر كما اقترحت حتى يعود السيد چوليان إلى البيت. لكن لا تظننا سنسمح بخداعنا».

ومسَّ مسدسه المعلق إلى جانبه مردفًا: «سأكون برفقة صاحبي هذا بينما أنتظر، ومع ابني مثله، وسكاكيننا في متناول أيدينا، مفهوم؟ أخبرنا هذان الزنجيان ما تفعله بسكينك المخفية خلف ظهرك، فلا تحاول مد يدك إليها مفتعلًا الحكَّة أو شيء، وإلا حكَّتنا أصابعنا أيضًا. لننتظر كلنا ونكن أصدقاء».

أدار بيلي الشرس عينيه نحو صائد العبيد، وحدق إليه ببرود، لكن الرجل الضخم أغبى من أن يلاحظ. قال بيلي الشرس مُظهرًا أن يديه بعيدتان عن ظهره: «سننتظر بالداخل».

قال صائد العبيد: «لا بأس». ثم ترجَّل مضيفًا: «اسمي توم چونستون بالمناسبة، وهذا ولدي چيم».

- سيُسر سيدي چوليان لمقابلتكما. اربطا حصانيكما وأدخِلا الزنجيين. حاذرا الدَّرج، فهي نخرة في بعض المواضع.

بدأت المرأة تنوح إذ تُقاد إلى الداخل، لكن چيم چونستون لطم فمها فصمتت مرة أخرى.

قادهم بيلي الشرس إلى المكتبة، وأزاح الستائر ليسمح ببعض الضوء بالمرور إلى الغرفة المعتمة المُتربة. جلس العبدان أرضًا، بينما تمدد الصائدان على المقاعد الجلدية الوثيرة. قال توم چونستون: «المكان بالداخل لطيف حقًّا».

قال الصبي: «كل شيء مُترب عفِن هنا يا أبي، كما قال الزنجيان تمامًا».

قال بيلي الشرس وهو ينظر إلى الزنجيين: «هكذا إذًا؟ السيد چوليان لن يروقه ما تنشران عن منزله من حكايات. سوف تُجلدان لهذا».

وجد الضخم العَفي سام جرأة ليرفع رأسه محملقًا في سخط، وقال: «لست خائفًا من الجَلد».

فابتسم بيلي الشرس قائلًا: «حسنًا إذًا، لدينا ما هو أسوأ من الجَلد يا سام. لدينا حقًّا ما هو أسوأ».

فاقت مقولته احتمال المرأة ليلي، فنظرت إلى الصبي هاتفة: «هو يقول الحقيقة يا سيدي چيم، هو صادق. يجب أن تُنصِت. لنخرج من هنا قبل الظلام. يمكننا أن نكون عبدين لك ولأبيك، لن نهرب. نحن زنجيان طيبان، لم نكن لنهرب لولا... لا... لا تنتظر حلول الظلام يا سيدي، لا تنتظر وإلا فات الأوان».

ضربها الصبي بقوة بكعب مسدسه، مُخلِّفًا كدمة على خدها، فهوت إلى الخلف مفترشة البساط حيث تجلس، وراحت ترتجف وتنتحب. صرخ فيها: «أخرِسي فمك الزنجي الكاذب!».

سأله بيلي الشرس: «هل لك في شراب؟».

ومرَّت الساعات، وفرغت زجاجتان من أفضل زجاجات خمر چوليان إذ شرباها كأنها ويسكي رخيص. أكلا. تحدثا، ولم يتفوه بيلي الشرس إلا بأسئلة لاستدراج توم چونستون المخمور، الواقع في غرام صوته. صائد العبيد من مدينة نابليون، ولاية كانساس، لكنه لم يعش هناك طويلًا إذ ارتحل من مكان لآخر. تحدث عن السيدة چونستون التي مكثت في الديار مع ابنتهما، ولم يكترثا لإخبارها بالكثير عن عملهما.

- ليس للمرأة أن تعرف شيئًا عن إياب زوجها وذهابه. لو أخبرتهما شيئًا فلن تأمن إلحاحهن في معرفة أسباب تأخرك، فلا تجد مفرًّا من لطمِهن.

ثم بصق مضيفًا: «الأفضل أن تتركهن لاستنتاجاتهن، فتسرهن عودتك».

ترك چونستون انطباعًا لدى بيلي الشرس أنه يفضِّل اعتلاء الزنجيات، فلم تعد زوجته ذات نفع له أو أهمية.

بالخارج، الشمس تغوص نحو الغرب.

عندما افترشت الظلال الغرفة، قام بيلي الشرس وأسدَل الستائر، وأضاء بعض الشموع.

- سأذهب لأحضِر السيد چوليان.

بدا الصبي بالنسبة إلى بيلي الشرس شاحبًا للغاية وهو ينظر إلى أبيه ويهمس: «أبي، لم أسمع صوت أي ركوبة بالخارج».

قال بيلي تيبتون: «انتظروا».

غادرهم وسار عبر قاعة الرقص المهجورة المظلمة، ثم صعد الدَّرج العظيم. دخل إلى حجرة نوم بالأعلى، ذات نافذتين فرنسيتين عريضتين، وفراش مزخرف مسربل بالستائر المخملية السوداء.

نادى برفق من عند الباب: «سيدي چوليان».

تحرك شيء خلف الستائر، ثم أزاحها، وظهر دامون چوليان بشحوبه وهدوئه وبروده. بحثت عيناه الداكنتان حوله عبر الظلام حتى التقت عيني بيلي الشرس. قال بصوت ناعم: «نعم يا بيلي؟».

أخبره بيلي الشرس بكل شيء. ابتسم دامون چوليان ثم قال: «أرسلهم إلى غرفة الطعام، وسأنضم إليكم خلال لحظات».

في غرفة الطعام ثريا ضخمة عتيقة، لكنها لم تُضَأ قَط حسب ما يتذكر بيلي الشرس. بعدما أدخَل صائدي العبيد، عثر على بعض الثقاب، فأشعل بها قنديلًا صغيرًا يتوسَّط الطاولة الممتدَّة، فأضاء حلقة صغيرة فقط من الشرشف الأبيض، تاركًا باقي الغرفة الضيقة ذات السقف العالي غارقة في الظلال. اتخذ الرجل وابنه مقعديهما، وراح الصبي ينظر إلى ما حوله في قلق، لا تغادر يده مسدسه. ضم الزنجيان أحدهما الآخر في بؤس عند نهاية الطاولة.

سأل توم چونستون في ضيق: «أين چوليان هذا؟».

أجاب بيلي الشرس: «اصبر يا توم. انتظر».

لم يتحدث أحد عشر دقائق، ثم هتف چيم متهدج الأنفاس: «انظر يا أبي! انظر! أحدهم يقف عند ذاك الباب!».

يفضي الباب إلى المطبخ. المكان مظلم، والليل قد حل، ومصدر الضوء الوحيد في هذا الجزء من المنزل القنديل على الطاولة. لا يمكن لشيء أن يُرى خلف باب المطبخ إلا العتمة والظلال المُهدِّدَة، وشيء يبدو كإنسان يقف ساكنًا.

ناحت ليلي، فضمَّها الزنجي سام إلى صدره أكثر. وقف توم چونستون بوجه جامد، دافعًا المقعد إلى الخلف فحكَّ الأرضية الخشبية. استل مسدسه هاتفًا: «من أنت؟ اخرج إلى النور!».

قال دامون چوليان: «لا داعي للقلق».

التفتوا جميعًا، وقفز چونستون فزعًا. كان چوليان يقف عند مدخل الردهة، يؤطِّره الظلام، يبتسم ابتسامة ساحرة، يرتدي بدلته الداكنة، مع ربطة عنق مخملية حمراء تلمع حول عنقه. عيناه غامضتان، ينعكس عليهما ضوء القنديل. أضاف چوليان: «هذه ڤاليري فقط».

ارتفع صوت حفيف ثوبها على الأرض وهي تتقدم لتقف عند باب المطبخ، شاحبة هادئة، ذات جمال أخَّاذ. نظر إليها چونستون ضاحكًا وقال: «آه. ما هي إلا امرأة. معذرة يا سيد چوليان؛ حكايات الزنجيين أقلقتني».

- أتفهَّم هذا.

همس چيم چونستون: «خلفه آخرون».

رأياهم جميعًا الآن، أجرام معتمة، غامضة، هائمة في الظلام خلف ظهر چوليان الذي قال باسمًا: «هم فقط أصدقائي».

تقدَّمت امرأة في فستان أزرق إلى يمينه، فقال: «هذه سينثيا». ووقفت امرأة أخرى في رداء أخضر إلى يساره فأضاف: «وهذه أدريان».

ثم عرَّف الباقين بإشارات من ذراعه.

- هؤلاء هم رايموند، وچين وكُرت.

ظهروا إلى النور معًا خارجين من حجرات تطوِّق القاعة الطويلة، يتحركون بلا صوت كالقطط.

- ومن خلفي إيلين، وچورچ وڤينسيت.

دار چونستون حول نفسه. ما زال آخرون يظهرون خلف چوليان، ولا صوت سوى صوت حفيف الملابس الذي يصدر مع حركتهم. كلهم يحدقون، ويبتسمون في ود.

ولم يكن بيلي الشرس يبتسم، رغم تسليته البادية من مراقبة توم چونستون يقبض على مسدسه، جاحظ العينين كحيوان مذعور. قال: «سيدي چوليان. يجب أن أخبرك أن السيد چونستون هنا لا ينتوي أن يُخدَع. معه مسدسه يا سيدي چوليان، وكذا ابنه، وكلاهما ماهر في الرماية بالسكين».

قال دامون چوليان: «آه...».

انخرط الزنجيان في توسلهما، ونظر چيم چونستون إلى دامون چوليان واستلَّ مسدسه.

- لقد أعدنا إليك عَبديك، ولن نطالب بمكافأة. سنرحل فقط.

قال چوليان: «ترحلان؟ وهل سأترككما ترحلان دون مكافأة، وقد جئتمانا من أركانساس خصوصًا لتعيدا إلينا أسوَدين؟ لن أسمح بهذا».

عَبَر الحجرة، فتعلَّقت عينا چيم چونستون بعينيه، ولم يتحَّرك. انتزع چوليان المسدس منه ووضعه على الطاولة، ثم مسَّ خده الفَتي وقال: «أرى وسامتك التي يغطيها الوَسَخ أيها الصبي».

هتف چونستون آمرًا: «ما الذي تفعل بولدي؟ ابتعد عنه!».

صوَّب إليه مسدسه، فنظر دامون چوليان حوله وقال: «لابنك جمال جريء مميز، وأنت -على الجانب الآخر- ليس لك سوى البثور».

قال بيلي تيبتون: «بل هو بثرة».

حدق إليهم توم چونستون، فابتسم دامون چوليان وقال: «هو حقًّا كذلك. كم أن هذا مُسلٍّ يا بيلي».

ثم نظر نحو ڤاليري وأدريان، فتحركتا نحوه، وأمسكت كل واحدة منهما بذراع من ذراعي الصغير چيم چونستون.

سأل بيلي الشرس: «هل تود مساعدة؟».

أجاب چوليان ممتنًّا: «لا، أشكرك».

ثم رفع يده ومَس بها عنق الصبي الطويل بخفة. صدر عن چيم صوت اختناق، وظهر خط دماء رفيع على الفور عبر حلقه؛ طوق عنق أحمر صغير، حبَّاته قانية، تكبر تدريجيًّا أمام أعينهم حتى تنفجر، فتسيل. حاول چيم التملُّص لكن قبضات المرأتين الحديدية ثبتته. مال دامون چوليان إلى الأمام وضغط فمه على السيل ليرشف الدماء الحارَّة.

أصدر توم چونسون صوت زئير حيواني ملتاع من صدره، وتطلب منه الأمر وقتًا طويلًا حتى يأتي برد فعل. أخيرًا رفع مسدسه وصوَّبه. وقف ألين في طريقه، ثم جواره ڤينسيت وچين، ووضع رايموند وسينثيا أكفهما الباردة على ظهره. سبَّهم چونستون، ثم أطلق الرصاص. مرَّ أمامه ومضة، ثم دخان، وتراجع ألين النحيل كعود إلى الخلف ثم هوى تحت تأثير دفعَة الرصاصة. نَزَّت دماء داكنة من خلف قميصه المزركش. لمس ألين صدره وهو نصف جالس على الأرض، ثم أبعد يده مضمخة بالدماء.

كان رايموند وسينثيا قد قبضا على چونستون بقوة، وأخذ منه چين السلاح بحركة ناعمة سريعة. لم يقاوم الرجل الضخم ذو الوجه الأحمر؛ كان يحدق إلى ألين، وقد توقَّف تدفق الدماء. ابتسم ألين مبديًا أسنانًا بيضاء طويلة، مرعبة حادة. قام واقفًا ثم اقترب منه. صرخ چونستون: «لا! لا! لقد أطلقت عليك الرصاص! كان يجب أن تكون ميتًا الآن، لقد قتلتك!».

قال بيلي تيبتون: «يصدُق الزنوج أحيانًا يا سيد چونستون. كل ما قالوه حقيقي. كان عليك أن تُنصِت».

مد رايموند يده تحت قبعة چونستون المهترئة وجذب شعره، ليميل رأسه إلى الخلف كاشفًا عنقه السمين الأحمر. ضحك ألين، ومزَّق حلق الرجل بأسنانه، ثم التف الآخرون يحذون حذوه.

أخرج بيلي الشرس سكينه من غمده، ثم قال للزنجيين: «هيا. سيدي چوليان لا يحتاج إليكما الليلة، لكنكما لن تهربا مرة أخرى. إلى القبو... هيا. أسرِعا وإلا تركتكما هنا معهم».

حثَّهما كلامه على الحركة فورًا، وكان بيلي الشرس واثقًا من هذا.

القبو مظلم رطب، وعليكَ أن تعبر من خلال باب أرضي لتصل إليه. الأرض هنا رطبة أكثر مما يتحمَّله قبو، الأرضية مغطاة ببوصتين من الماء الآسِن،

والسقف منخفض فلا يستطيع الرجل أن يقيم ظهره تحته. الحوائط خضراء من أثر العفن. سَلسَل بيلي الشرس الزنجيين أحدهما بالقرب من الآخر، ووجد في هذا لفتة طيبة من نفسه، وجلب لهما عشاءً ساخنًا أيضًا.

بعدما أعدَّ عشاءه الخاص، ابتلعه بما تبقى من زجاجة الخمر الفاخرة التي فتحها لچونستون. كان ينهي وجبته عندما دخل ألين المطبخ. جفَّت الدماء على صدر قميصه، ومن تحتها تبدى ثقب أسود محترق حيث دخلت الرصاصة، فيما عدا ذلك بدا ملبسه جيدًا. قال له ألين: «انتهى الأمر. يريدك چوليان في المكتبة».

دفع بيلي الشرس طبقه وقام مُلبيًا الاستدعاء. تحتاج غرفة الطعام إلى تنظيف عاجل. أدريان وكُرت وأرماند يستمتعون بالخمر في الهدوء هنا، والجثتان -أو ما تبقى منهما- على مقربة منهم. البعض الآخر في غرفة الرسم يتسامرون.

المكتبة معتمة. توقَّع بيلي الشرس أن يجد دامون چوليان وحده، لكن عندما دخل اكتشف ثلاثة آخرين وسط الظلال، اثنان جالسان وواحد واقف. عجز عن تبين هوياتهم. انتظر عند الباب حتى قال چوليان: «في المستقبل، لا تُدخل أمثال هؤلاء إلى مكتبتي. لقد خلَّفا رائحة عِفنة».

استشعر بيلي الشرس طعنة خوف عابرة. قال مواجهًا المقعد الذي سمع من جهته صوت چوليان: «أجل يا سيدي. معذرة يا سيدي چوليان».

بعد هنيهة صمت، قال چوليان: «أغلق الباب يا بيلي. اقترب. يمكنك استخدام مصباح الزيت».

المصباح مصنوع من زجاج مطلي بالأحمر، بعث لهبه نورًا أحمر مُتربًا أشبه بلون الدماء الجافة. يجلس دامون چوليان على مقعد عالي الظهر، أصابعه الجميلة الطويلة معقودة أسفل ذقنه، وابتسامة باهتة على شفتيه. تجلس ڤاليري عن يمينه، وقد تمزَّق كُم فستانها في أثناء الصراع، لكن يبدو أنها لا تلاحظ. ظن بيلي الشرس أنها أكثر شحوبًا من المعتاد. على بعد عدة أقدام، يقف چين خلف مقعد آخر، يبدو متوترًا، يدير خاتمًا ذهبيًّا حول إصبعه.

سألت ڤاليري چوليان وهي ترمق بيلي الشرس سريعًا بعينيها الكبيرتين البنفسجيتين: «هل يجب أن يكون هذا حاضرًا؟».

مدَّ چوليان يده وأمسك كفها، فارتجفت وزمَّـت شفتيها. قال: «لقد استدعيت بيلي ليُطمئنك».

استجمع چين شجاعته، وحدق إلى بيلي الشرس مُحنقًا وقال: «لچونستون هذا زوجة».

إذًا الأمر كذلك. سأله بيلي الشرس متهكمًا: «هل أنت خائف؟».

لم يكن چين ضمن المقربين لچوليان، فلا بأس من السخرية منه. أضاف بيلي الشرس: «له زوجة لكنها ليست مما يثير القلق. هو لا يتحدث إليها كثيرًا، ولم يخبرها قَط مكان ذهابه أو موعد عودته. لن تأتي على إثره».

غمغم چين: «لا يعجبني الأمر يا دامون».

سألت ڤاليري: «ماذا عن العبدين؟ لقد فرَّا عامين، وحكيا أمورًا لآل چونستون... أمورًا خطرة. لا بد أنهما تحدثا مع آخرين أيضًا».

سأل چوليان: «بيلي؟».

هزَّ بيلي الشرس كتفيه وأجاب: «أتوقع أن يكونا قد حكيا قصصًا لكل زنجي لعين قابلاه في طريقهما من هنا حتى أركانساس. هذا لا يقلقني أبدًا. مجرد قصص زنوج لن يصدقها أحد».

قالت ڤاليري متوجهة نحو دامون چوليان في رجاء: «دامون، أرجوك. چين مُحِق. لقد مكثنا هنا مطوَّلًا، وهذا خطر. تذكَّر ما فعلوه مع تلك المرأة لالاوري في نيو أورلينز. تلك التي كانت تعذب عبيدها للذَّتها؟ لقد عثروا عليها بسبب ما أشيع عنها، وما فعلته لا يقارن بما...».

ترددت، ثم ابتلعت ريقها، ثم أضافت بهدوء: «لا يُقارن بما نفعل. تلك الأمور التي نضطر إلى فعلها».

وأشاحت بوجهها بعيدًا عن چوليان.

ببطء ورقة، مد چوليان يدًا شاحبة ولمس خدها مداعبًا، ثم أمسك ذقنها وجعلها تنظر إليه.

- هل أنت جبانة إلى هذا الحد يا ڤاليري؟ أيجب أن أذكرك مَن تكونين؟ هل سلَّمتِ عقلك لچين مرة أخرى؟ هل هو السيد الآن، سيد الدماء؟

اتسعت عيناها البنفسجيتان أكثر من أي وقت مضى، وقالت في خوف: «لا، لا».

سألها چوليان، وعيناه مُثقلتان مُتعبتان ترمقانها بحدة: «من هو سيد الدماء يا عزيزتي ڤاليري؟».

همست: «أنت يا دامون. أنت».

- انظري إليَّ يا ڤاليري. هل تظنينني سأخاف من قصص يحكيها شرذمة عبيد؟ هل أهتم بما يقولونه عني؟

فتحت ڤاليري فمها، ولم تخرج منه أي كلمات. أرخى چوليان قبضته عليها وقد اطمأن. ثمة علامات حمراء على لحمها حيث ضغطت أصابعه. ابتسم بيلي الشرس بينما تراجعت ڤاليري في مقعدها.

- ما قولك يا بيلي؟

نظر بيلي تيبتون الشهير بالشرس إلى قدميه، وتململ متوترًا. كان يعرف ما عليه قوله، لكنه كان يفكر كثيرًا مؤخرًا، ولديه ما يخبر إياه چوليان من أمور لن يسر الأخير سماعها. ظل يؤجل اللحظة التعسة، الآن لا خيار أمامه. قال في وهن: «لا أعرف يا سيدي چوليان».

- لا تعرف يا بيلي؟ ما هذا الذي لا تعرفه؟

صوت چوليان بارد مُهدِّد. رغم ذلك، أكمل بيلي الشرس قائلًا في جرأة: «لا أعرف كم نستطيع الاستمرار في البقاء هنا يا سيدي چوليان. كنت أفكر في الأمر منذ فترة، ثمة ما لا يروقني. هذه المزرعة كانت تدر ربحًا هائلًا عندما كان يديرها جارو، لكنها الآن بلا فائدة تقريبًا. تعرف أنني أستطيع إدارة أي عدد من العبيد، ولأُلعَن إن لم أستطع، لكني لا أستطيع مباشرة العمل مع فرار العبيد أو موتهم. منذ بدأت ورفاقك في أخذ أطفالهم من العُشش، أو طلب جميلات نسائهم للحضور إلى البيت الكبير ثم لا يراهن أحد بعد ذلك، ظهرت المشكلات. ليس لديك أي عبيد منذ عام تقريبًا، فيما عدا الجميلات اللاتي لا يعشن طويلًا».

ضحك في عصبية مضيفًا: «ليس لدينا أي محاصيل. لقد بعنا نصف المزرعة، النصف الأفضل من الأرض. تلك الجميلات اللاتي تشتريهن يا سيدي چوليان باهظات الثمن. نحن نواجه مشكلات مادية عظيمة، ليس هذا كل شيء. فعل ما تفعلون لإرواء العطش مع الزنوج شيء، وفعله مع البيض شيء آخر. هذا خطر. ربما الوضع آمن في نيو أورلينز، لكن أنا وأنت نعرف أن كارا قتلت ابن هنري كاساند الأصغر؛ جارنا يا سيدي چوليان. الكل يعرف أن شيئًا غريبًا يجري هنا. إن بدأ أبناؤهم وعبيدهم في الموت سنقع في مشكلة حقيقية».

سأل چوليان: «مشكلة؟ نحن عشرون أقوياء، بالإضافة إليك. ماذا قد يفعل القطيع معنا؟».

- سيدي چوليان، ماذا لو باغتونا نهارًا؟

لوح چوليان بكفه غير مكترث وقال: «لن يحدث هذا. ولو حدث، نتعامل معهم بما يستحقون».

أجفل بيلي الشرس. ربما لا يكترث چوليان، لكن المخاطرة تقع على كتفي بيلي الشرس. قال في حزن: «ربما هي مُحِقَّة يا سيدي چوليان. أعتقد أن علينا الانتقال إلى مكان آخر. لقد صَفَّينا هذا المكان، والمكوث هنا صار خطرًا».

قال چوليان: «أنا مرتاح هنا يا بيلي. أنا أتغذى على القطيع، ولا أهرب منهم».

- المال يا سيدي. ماذا سنفعل في أمر المال؟

- ترك ضيفانا حصانين، خذهما إلى نيو أورلينز غدًا وبعهما، لكن تأكَّد أن لا أحد يعرف مالكهما. يمكنك أن تبيع المزيد من الأرض أيضًا. قد يريد نيڤيل من بلدة بايو كروس الشراء مرة أخرى. تواصل معه يا بيلي. أو ادعه حتى على العشاء هنا لنناقش التفاصيل. اطلب منه أن يجلب زوجته الجميلة وابنهما الصغير. سيُضيِّفهم سام وليلي، وسيبدو الأمر كما كان، قبل هرب العبيد.

فكَّر بيلي الشرس في أن سيده يتهكَّم، لكن التعامل مع أي من أوامر چوليان باستخفاف خطر. قال بيلي: «البيت. سيأتون للعشاء وسيرون حالته. الوضع ليس آمنًا. سيخبرون الجميع ما سيرونه عندما يعودون».

- لو عادوا يا بيلي.

قال چين مرتجفًا: «دامون. لا أظنك تعني...».

الحجرة الغارقة في الضوء الأحمر حارَّة، وغرق بيلي الشرس في عرقه.

- نيڤيل... رجاء يا سيدي چوليان، لا يمكن أن تقتل نيڤيل. لا يمكن أن تقتل الجيران حولنا لتشتري فتيات حسناوات.

قالت ڤاليري بصوت خفيض: «مخلوقك هذا مُحق للمرة الأولى. استمع إليه».

أومأ چين موافقًا، وقد اطمأن إلى وجود آخرين في صفه. قال بيلي: «يمكن أن نبيع المكان بالكامل. لقد تعفَّن على أي حال، ثم ننتقل إلى نيو أورلينز

كلنا. سيكون الوضع أفضل هناك، في وجود الكريوليين والزنوج المُحرَّرين وعُمال النهر. لن يلاحظ أحد اختفاء بعضهم. أليس كذلك؟».

قال دامون في برود بصوت قاطع: «لا».

وعرف بيلي الشرس أنه لن يتحمَّل سماع المزيد، فسكت بسرعة. بدأ چين يداعب خاتمه مرة أخرى بوجه مرتعب.

لدهشتهم، هتفت ڤاليري: «لنرحل نحن إذًا».

أدار چوليان رأسه تجاهها متسائلًا: «نحن؟».

- أنا وچين. أبعدنا عن هنا. سيكون هذا... أفضل، لك ولنا. سيكون المكان أكثر أمنًا بوجود عدد أقل منا، ستدوم فتياتك الجميلات لفترة أطول.

- أبعدكما يا ڤاليري العزيزة؟ سأفتقدك وسأنشغل عليكِ. إلى أين قد تذهبان؟

- إلى مكان ما. إلى أي مكان.

قال چوليان ساخرًا: «أما زلتِ تأملين في العثور على مدينتك الآمنة المكنونة داخل كهف؟ إيمانك مؤثر يا صغيرة. هل ستستبدلين بالإيمان بملكك الشاحب الإيمان بچين الضعيف التعس؟».

- لا، نحن نريد أن نرتاح فقط. أتوسل إليك يا دامون. لو مكثنا جميعًا لعثروا علينا وآذونا وقتلونا. دعنا نبتعد.

- أنت استثنائية الحُسن يا ڤاليري.

قالت مرتجفة: «أرجوك. أبعدنا... أرِحنا...».

- يا لڤاليري المسكينة الصغيرة. ليس لنا راحة. أينما ذهبت، سيتبعك ظمؤك. لا، ستمكثين.

- رجاءً. يا سيد الدماء...

ضيَّق چوليان عينيه بعض الشيء، وبهتت ابتسامته.

- إن كنت تتوقين إلى هذا الحد إلى الرحيل، ربما يجب أن أمنحك ما تريدين.

نظر إليه چين وڤاليري آملين.

- ربما أرسلكما بعيدًا. كليكما. لكن ليس معًا، لا. أنت بارعة الحسن يا ڤاليري وتستحقين من هو أفضل من چين. ما رأيك يا بيلي؟

ضحك بيلي الشرس وأجاب: «أرسلهم جميعًا إلى أي مكان يا سيدي چوليان. لست في حاجة إلى أيهم. أنا لديك. أبعدهم ليروا كيف ستكون حياتهم».

قال چوليان: «هذا مثير. سأفكر فيه. والآن اتركوني وحدي جميعًا. بيلي، اذهب وبِع الحصانين، وتحدث مع نيڤيل بشأن الأرض».

سأل بيلي الشرس وقد تنفس الصعداء: «بلا عشاء؟».

- لا.

بيلي الشرس آخر من وصل إلى الباب، من خلفه أطفأ چوليان المصباح، فعمَّ الظلام الغرفة. تردد بيلي الشرس قليلًا، ثم استدار وسأله: «سيدي چوليان. لقد مر على وعدك لي أعوام... متى؟».

- في الوقت الذي لن أحتاج فيه إلى خدماتك يا بيلي. أنت عيناي نهارًا. تفعل ما لا أستطيع. كيف أفقدك الآن؟ لكن لا تخف. لن يطول الوقت، وسيبدو الزمن بلا قيمة عندما تنضم إلينا. الأيام والسنوات سواء في حياة الخالدين.

ملأ الوعد صدر بيلي الشرس بالطمأنينة، فغادر لينفذ أوامر چوليان.

في تلك الليلة راوده حلم. في حلمه رأى نفسه غامضًا مهيبًا كمثل چوليان ذاته، أنيق مُفترس. الوقت ليلًا دائمًا في أحلامه، وفيها كان يجول في شوارع نيو أورلينز تحت البدر. كانوا يراقبون عبوره من خلف نوافذهم وأسوار شرفاتهم المُزخرفة، وشعر بأعينهم تتحسسه. قلوب الرجال مفعمة بالخوف، وقلوب النساء شغوفة بقوته الغامضة. تعقَّبهم في الظلمات، سرى بلا صوت فوق الأرصفة المُعبَّدة بالحجارة، ينصت إلى صوت خطواتهم الفزعة ولهاثهم. تحت لهب مصباح زيت متراقص، اصطاد رجلًا متبخترًا ومزق حلقه هو يضحك. رأته كريولية حسناء عن بعد، فتعقَّبها خلال الحواري والساحات وهي تعدو أمامه. أخيرًا، في باحة مُضاءة بمصابيح معلقة على أعمدة حديدية مزخرفة، أدارت وجهها نحوه. بدت شبيهة بڤاليري، ذات عينين بنفسجيتين متوهجتين. هاجمها، ونال منها. الدماء الكريولية حارة شهية كمثل الطعام الكريولي. الليل ملكه، وكل الليالي التالية، وإلى الأبد، وظمؤه الأحمر رفيقه فيها.

عندما استفاق من حلمه، كان محمومًا وأغطيته مبتلة بالعرق.

***

سبعة



سانت لويس
يوليو 1857

توقفت حلم فيڤر في سانت لويس اثني عشر يومًا. كان الوقت عصيبًا ممتلئًا بالعمل بالنسبة إلى الطاقم كله، إلا چوشوا يورك ورفاقه غريبي الأطوار.

استيقظ أبنَر مارش كل صباح في نشاط، وخرج إلى الشارع في العاشرة يجري اتصالات مع أصحاب البضائع وموظفي الفندق، يُصيِّن باخرته ويُنعش أعماله. كان قد طبع مجموعة منشورات ترويجية لخط بواخر نهر فيڤر -وقد عاد الخط خطًّا بانضمام باخرته حلم فيڤر إلى إليزابيث أ. -واستأجر بعض الصبية لتوزيعها في المدينة. شرب مارش وأكل في أرقى الأماكن، وحكى مرة تلو الأخرى كيف سبقت حلم فيڤر الباخرة الجنوبية، كي يتأكد من أن الخبر وصل إلى جميع الأرجاء، حتى إنه أعلن الأمر في ثلاث صحف محلية.

بمجرد أن رست حلم فيڤر في ميناء سانت لويس، ركب القبطانان اللذان وظفهما أبنَر مارش لقيادة الباخرة في أدنى النهر، وحسبا أجرهما منذ الوقت الذي ركبا فيه منتظرين الإقلاع. القباطنة ذوو أجور باهظة، خاصة أمثال هذين الاثنين، لكن مارش لم يُجادل في أجرهما كثيرًا، فهو يريد الأفضل لباخرته. بمجرد أن حصلا على المال، استكملا خمولهما، إذ لا يفعل القبطان أي شيء حتى تُبحر الباخرة، وأي شيء أدنى من الإبحار يُعتبر تهديدًا لكرامتهم.

لكل واحد من القبطانين اللذين استأجرهما مارش طريقته في الخمول. ركب دان أولبرايت الأنيق المُتزمت قليل الكلام يوم رَسَت حلم فيڤر. مسح الباخرة وراجع المحركات ومقصورة القيادة ثم أومأ في رضا، وهرع للاسترخاء في حجرته على الفور. أمضى أيامه في القراءة في مكتبة الباخرة الممتلئة بالكتب، ولعب بضعة أدوار شطرنج مع چوناثان چيفرز في القاعة

الكبرى، وهزمه چيفرز بسهولة. أما كارل فرام -على جانب آخر- الذي لن تعثر عليه إلا في قاعات البلياردو المتناثرة في مدن ضفة النهر، يبتسم في خبث تحت قبعته عريضة الحافة، ويتباهى بأنه وباخرته الجديدة سيسبقان أي باخرة أخرى في النهر. لفرام سُمعة ماجنة، ولطالما مزح عن زواجه ثلاث نساء في آن واحد، واحدة في سانت لويس، وواحدة في نيو أورلينز، وأخرى في ناتشيز، عند سفح التل.

لم يكن لدى أبنَر مارش وقت ليفكر فيما يفعله قبطاناه، فقد انشغل بمهامه. لم ير چوشوا يورك ورفاقه كثيرًا، لكنه كان يعرف أن يورك يحب المشي في أرجاء المدينة ليلًا، برفقة سيمون الصموت أغلب الوقت. تعلَّم سيمون أيضًا خَلط المشروبات منذ أخبر چوشوا مارش أنه راغب في العمل ساقيًا ليليًّا في مشرب الباخرة، خلال فترة إبحارهم إلى نيو أورلينز.

قابل مارش شريكه عدة مرات على العشاء الذي طلب چوشوا يورك تناوله مع طاقم القيادة في القاعة الرئيسية، قبل أن يهجع إلى غرفته الخاصة أو يذهب إلى المكتبة لقراءة الصحف التي تُرسل إليه يوميًّا عبر البواخر الأخرى.

في مرة أعلن يورك أنه ذاهب إلى المدينة لمشاهدة مجموعة لاعبي شطرنج، ودعا أبنر مارش وطاقم القيادة لمصاحبته، لكن مارش لم يكن مهتمًّا، فذهب مع چوناثان چيفرز.

غمغم مارش محدثًا مايك دَن المشعِر: «الشِّعر والشطرنج يجعلان المرء يتساءل عن مصير النهر اللعين ورجاله».

بعدها، بدأ چيفرز في تعليم يورك لعب الشطرنج. قال لمارش بعد بضعة أيام، في صباح يومهم الثاني في سانت لويس: «عقله صافٍ يا أبنر».

- مَن؟

- چوشوا طبعًا. علَّمته المبادئ منذ يومين، وليلة أمس رأيته في القاعة الكبرى يلعب ببراعة شديدة، ويضاهي الأرقام القياسية التي يقرأ عنها في صُحفه. رجل غريب هو. كم تعرف عنه؟

عقد مارش حاجبيه؛ لا يريد أن يُثار فضول طاقمه تجاه چوشوا يورك. هذا جزء من الصفقة.

- لا يحب چوشوا الحديث عن نفسه، وأنا لا أسأله. ماضي الناس ليس من شأني، وأرى أنه الأفضل أن تحذو حذوي يا سيد چيفرز. في الحقيقة، يجب أن تفعل هذا.

رفع الكاتب حاجبيه الداكنين الرفيعين، وقال: «كما تأمر يا كابتِن».

لكن الابتسامة على شفتيه أقلقت أبنر مارش.

لم يكن چيفرز الوحيد الذي سأل. جاء مايك المشعر إلى مارش أيضًا، وقال إن العُمال والحمَّالين يشيعون حكايات غريبة عن چوشوا وضيوفه الأربعة، وسأله إن كان يرغب في أن يفعل شيئًا حيال تلك الشائعات.

- أي نوع من الحكايات؟

هز مايك المشعر كتفيه وقال: «عن كونه لا يظهر إلا ليلًا. عن أصدقائه غريبي الأطوار أيضًا. هل تعرف توم المسؤول عن مخزن التحميل الأوسَط؟ كان يردد هذه القصة، ويقول إنه في الليلة التي غادرنا فيها لويسڤيل... حسنًا... أنت تعرف كم أن البعوض هنا ثخين. يقول توم إنه رأى سيمون على سطح الباخرة الرئيسي، يتسكَّع هنا وهناك، وحطَّـت بعوضة على يده، فسحقها بيده الأخرى. أنت تعرف أن البعوض ينتفخ بالدماء أحيانًا، وعندما تسحقه ينفجر. قال توم إن هذا ما حدث مع بعوضة سيمون التي لطَّخت كفه. وقتها -كما يزعم توم- حدق سيمون إلى يده مطوَّلًا، ثم رفعها إلى شفتيه ولعقها حتى نظَّفها تمامًا».

اقشعر جلد أبنر مارش وقال: «أخبر صبيَّك توم أن الأفضل أن يتوقف عن حكي تلك القصص، وإلا ليجد لنفسه عملًا في باخرة أخرى».

أومأ مايك المُشعر، وضرب كفه بالهراوة الحديدية مرة، ثم استدار، لكن مارش استوقفه وهتف: «لا. انتظر. قل له ألا ينشر الحكايات، لكن إن رأى ما يريب، عليه أن يخبرك أو يخبرني. أخبره أننا سنمنحه نصف دولار لقاء ذلك».

- قد يكذب لقاء نصف دولار.

- حسنًا، انس أمر نصف الدولار إذًا، لكن اطلب منه باقي الطلب.

كلما فكر أبنر في قصة توم، ازداد ضيقه، لكنه سُرَّ لاقتراح چوشوا يورك بتوظيف سيمون ساقيًا، حيث سيكون ظاهرًا ويمكنه مراقبته. لم يحب مارش الحانوتيَّة قط، وسيمون يذكره بهم، كما يذكره بشيء غير مريح. تمنى فقط

ألا يلعق سيمون دم البعوض في أثناء تقديمه المشروبات للركاب. تصرف كهذا قد يُفسد سُمعة أي باخرة سريعًا.

سرعان ما أزاح مارش الواقعة من عقله، وعاد إلى الانشغال بالعمل. قبل مغادرتهم بليلة، وقع شيء آخر ضايقه. ذهب إلى چوشوا يورك في غرفته لمناقشة بعض تفاصيل رحلتهما. وجد چوشوا جالسًا خلف مكتبه، وفي يده سكينه الرفيعة ذات المقبض العاجي، يقص بها مقالًا من جريدة. تحدث ومارش لدقائق عن العمل الجاري، وكاد مارش يغادر عندما لاحظ نسخة جريدة «الديموقراطي» على مكتب يورك. قال مارش وهو يمد يده إليها: «المفترض أن ينشروا لنا إعلانًا اليوم. هل انتهيت من قراءتها يا چوشوا؟».

أغلق يورك الجريدة سريعًا وقال: «خذها لو أردت».

حمل أبنَر مارش الجريدة تحت إبطه، وقصد القاعة الكُبرى، ثم راح يتصفحها بينما يُعِد له سيمون مشروبًا. تضايق مارش لأنه لم يعثر على إعلانه. ربما ليس هذا تقصيرًا من الجريدة، فقد اقتطع يورك خبرًا من الصفحة التي تحوي أخبار السفن، لذا ثمة فجوة في صدر الصفحة. شرب مارش شرابه، ثم طوى الجريدة وذهب إلى مكتب الكاتب.

سأل مارش چيفرز: «هل معك آخر عدد من جريدة الديموقراطي؟ أعتقد أن بلير اللعين نسي إعلاننا».

- هو لعين بالفعل، لكنه لم ينس. انظر إلى صفحة السفن.

وكان الإعلان موجودًا داخل مربع وسط إعلانات مشابهة أخرى.

شركة خطوط نهر فيڤر الملاحية

ستغادر الباخرة العظيمة حلم فيڤر يوم الخميس إلى ميناء نيو أورلينز، لويزيانا، وستمر بكل المواني ونقاط الشحن والتحميل، وستصل في أسرع التوقيتات بقيادة أمهر القباطنة وأفضل الطواقم. للشحن أو السفر على متنها، تقدَّم بالطلب عندها، أو في مكتب الشركة عند نهاية شارع باين.

أبنر مارش، المدير

فحص مارش الإعلان، ثم أومأ وقلب الصفحة ليرى ما انتزعه چوشوا يورك. بدا الخبر إعادة طبع من جريدة محلية أخرى، عن حطَّاب مُسن عُثِر عليه ميتًا في كوخه على ضفاف النهر، شمال نيو مدريد. عثر عليه أحد البحارة الذين كانوا يبغون شراء بعض الأخشاب، بعدما اقتحم كوخه عندما لم يُجب أحد نداءه. يظن البعض أن الهنود من فعلوا ذلك، وقيل إن الفاعل الذئاب إذ إن الجثة ممزقة، نصف مُفترَسَة.

هذا كل ما ذُكِر في الخبر.

سأله چيفرز: «ماذا بك يا كابتِن مارش؟ على وجهك نظرة غريبة».

طوى مارش نسخة چيفرز ودسَّها تحت إبطه مع نسخة يورك.

- لا شيء. الجريدة اللعينة أخطأت في كتابة بضع كلمات.

ابتسم چيفرز وقال: «هل أنت متأكد؟ أعرف أن الهجاء والحروف ليسوا من نقاط قوتك يا كابتِن».

- لا تثرثر معي عن هذا الأمر مرة أخرى، وإلا رميتك من الباخرة يا سيد چيفرز. سآخذ نسختك لو أنك لا تُمانع.

- تفضَّل. لقد أنهيت قراءتها.

أعاد مارش قراءة الخبر في المشرب. لماذا يقتطع چوشوا يورك خبرًا عن حطَّاب مجهول افترسته الذئاب؟ لم يعثر مارش على أي إجابة، فأثير حنقه. رفع عينيه إلى سيمون، فلاحظ أن الأخير ينظر إليه عبر المرآة الضخمة خلف المشرب. طوى مارش الجريدة سريعًا ووضعها في جيبه، وقال: «حضِّر لي كأس ويسكي صغيرة».

جرع مارش الويسكي مُركَّزًا، وأطلق «آآآه» طويلة بينما يحرق المشروب صدره، ويُجلي تفكيره في لحظة. لديه عدَّة طرق لاستكشاف الأمر، لكن على جانب آخر، اختيارات چوشوا يورك لقراءاته لا تعنيه في شيء. ثم إنه وعد بألا يتتبع أفعال يورك، ولطالما عرف مارش نفسه أنه رجل يحفظ كلمته. نتيجة لهذا، وضع مارش كأسه على النُّضُد، وابتعد عن المشرب.

صعد الدَّرج الكبير المنحني إلى سطح الباخرة الرئيسي، وألقى نسختي الجريدة إلى الفرن. نظر إليه العُمال في تعجب، لكن مارش شعر بتحسن فوري. لا يجب أن يتتبع المرء شائعات عن شريكه، خاصة إن كان شريكًا

سخيًّا خلوقًا مثل چوشوا يورك. صاح في العُمَّال: «إلامَ تنظرون؟ أليس لديكم ما يشغلكم؟ سأعثر على مايك المشعر وأتأكد من أنه سيغرقكم في العمل».

فتشاغل العمال فورًا. عاد أبنَر مارش إلى القاعة الكبرى، وشرب شرابًا آخر.

في الصباح التالي، ذهب مارش إلى شارع باين، حيث مكتب شركته الرئيسي، وانخرط في العمل عدة ساعات. تناول الغداء في فندق بيت المزرعة، محاطًا بأصدقائه القدامى، ويشعر بالتفوق. ظل يتحدث عن باخرته، واضطر إلى احتمال ثرثرة أوبرايَن وفارِّيل عن باخرتيهما، وابتسم قائلًا: «حسنًا يا ولدان. ربما نلتقي في النهر. ألن يكون هذا حدثًا مثيرًا؟».

ولم يذكر أحد الكارثة التي حلَّت به سابقًا، وجاءه ثلاثة رجال كل على حدة، يسألونه إن كان في حاجة إلى قبطان يقوده في جنوب نهر المسيسبي. قضى مارش ساعتين سعيدتين.

عاد مارش أدراجه إلى النهر، فصادف دُكان حياكة ملابس. تردد قليلًا وفَتل شعر لحيته ينظر في أمر فكرة خطرت على باله فجأة. ثم دخل الدكان باسمًا، وطلب لنفسه معطف قبطان جديدًا أبيض، بصفي أزرار فضية كمثل معطف چوشوا. ترك مارش دولارين تحت الحساب، ورتَّب لاستلام المعطف عندما تعود حلم فيڤر إلى سانت لويس مرة أخرى. ثم غادر شاعرًا بالرضا عن نفسه.

كان رصيف الميناء في حالة فوضى. وصلت شحنة مُجفَّفات مؤخرًا، والحمَّالون متعرقين، يجاهدون لنقلها في الموعد. أشعل الأشيب الغلايات، فانبعث خيط دخان سميك من أنابيب التهوية، موازيًا لصف دخان حالك يصدر عن المداخِن. كانت الباخرة عن يسار حلم فيڤر تتراجع إلى الخلف ناثرة دخانها، مطلقة صافرتها. والباخرة ذات الرفاسات الجانبية على اليمين تُفرِغ حمولتها على الرصيف، بالإضافة إلى هيكل باخرة هَرِمة أخرى، مربوطة إلى الميناء بشكل دائم.

الحمَّالون يشغلون الرصيف بالكامل، وعلى مد النظر في كل الاتجاهات بواخر وقوارب لا يقدر مارش على إحصائها. على بعد تسع بواخر، واحدة فاخرة ذات ثلاثة طوابق، تحمل اسم چون سيموندس تُحمِّل الركاب. بعدها باخرة ذات رفاسات جانبية تُدعى أضواء الشمال، تحمل رسم الشفق الشمالي فوق غطاء رفاساتها. هي باخرة جديدة من بواخر أعالي نهر المسيسبي،

ويدَّعي خط بواخر الشمال الغربي أنها أسرع باخرة في هذه المياه حتى الآن. بعدها باخرة «النسر الرمادي»، وعلى باخرة أضواء الشمال أن تهزمها لتحافظ على مزاعم شركتها. ثم إلى جوارهم الباخرة «الشمالية»، والقوية ذات الدفع الخلفي «سانت چو»، ثم الباخرة المسمَّاة بـ «الموت لڤيرنون-2»، و«ناتشيز».

حدَّق مارش إلى كل واحدة منها على حدة، وتفحص المُعدَّات الدقيقة بين مداخنها، ونظر إلى نجارتها الممتازة وطلائها البراق، وإلى هسيس البخار في غلاياتها وقوة رفاساتها. ثم تفحص باخرة حلم فيڤر، المطلية بالأبيض والأزرق والفضي، وبدا له أن بخارها يعلو فوق بخار أي باخرة أخرى، وصوت صافرتها أصفى وأكثر عذوبة، وطلاءها أنقى ورفاساتها أكثر روعة. رآها أطول من أي باخرة أخرى، فيما عدا ثلاثًا أو أربعًا. قال لنفسه: «سنهزمهم».

ثم ركب باخرته الحبيبة.

***

ثمانية



على متن حلم فيڤر
نهر المسيسبي
يوليو 1857

قطع أبنَر شريحة جُبن شيدر من قرص الجبن على الطاولة، ووضعها بحرص فوق ما تبقى من فطيرة التفاح خاصته، ثم ضمَّهما بشوكته بحركة سريعة بيده الضخمة. تجشأ، ومسح فمه بمنديله، ثم نفض الفتات عن لحيته، واسترخى بابتسامة على شفتيه.

سأله چوشوا يورك وهو ينظر إليه من فوق دورق براندي: «أعجبتك الفطيرة؟».

- لا يخبز توبي أي نوع آخر سوى ما يعجبني. ليتك تذوقتها.

ثم دفع نفسه بعيدًا عن الطاولة وقال وهو يقف: «حان الوقت يا چوشوا».

- أي وقت؟

- أردت تعلُّم الإبحار في النهر، أليس كذلك؟ لن تتعلم الأمر وأنت جالس خلف الطاولة.

أنهى يورك كأس البراندي، ثم صعدا إلى مقصورة القيادة معًا. كان كارل فرام في ورديته، جالسًا على الأريكة، يتموَّج الدخان خارجًا من غليونه، بينما مساعده –الشاب الطويل ذو الشعر الأشقر المتدلي على ياقته– يتولى التوجيه.

قال فرام: «كابتِن مارش» ثم أومأ تجاه مرافقه وأضاف: «لا بد أنك كابتِن يورك الغامض. مسرور لرؤيتك. لم أعمل على متن باخرة ذات رُبَّانين».

وابتسم ابتسامة عريضة كشفت عن سِن ذهبية، وأكمل: «لهذه السفينة ربابنة أكثر مما لي من زوجات. لكن هذا منطقي، مع كل هذه الغلايات والمرايا والفضة التي لم أرها في أي باخرة أخرى، معقول أن يكون لها ربابنة أكثر».

مال القبطان النحيل للأمام ونفَّض بعض رماد غليونه في بطن الموقد الحديدي. كان باردًا مظلمًا، والليل ثقيل حار.

- كيف أخدمكما يا سيديَّ؟

قال مارش: «علِّمنا الإبحار في النهر».

رفع فرام حاجبيه وهتف: «أعلمكما الإبحار في النهر؟ معي مساعد هنا، أليس هذا صحيحًا يا چودي؟».

- بلى يا سيد فرام.

- أنا الآن أعلِّم چودي هنا، وقد رتَّبت كل شيء، وسأحصل على ستمائة دولار من أول راتب يتقاضاه بعد حصوله على الترخيص وانضمامه إلى النقابة. لقد خفضت أجري فقط لأنني أعرف عائلته. لا يمكن أن نقول إنني أعرف عائلتيكما أيضًا، لا يمكن أن نقول هذا أبدًا.

فتح چوشوا يورك أزرار صدريته الرمادية الداكنة. كان يضع حزامًا ذا حافظة نقود، أخرج منه قطعة نقدية ذهبية بقيمة عشرين دولارًا، ووضعها فوق الموقد في هدوء وقال: «عشرون» ثم وضع فوقها واحدة أخرى.

- أربعون.

ثم ثالثة.

- ستون.

عندما وصل المبلغ ثلاثمئة، زرر يورك صدريته وقال: «أخشى أن هذا هو كل ما معي يا سيد فرام، لكنني أؤكد لك أنني لست بلا مال. دعنا نتفق على سبعمائة دولار لك، ومبلغ مماثل للسيد أولبرايت إن كنتما ستعلمانني قواعد الإبحار، وتعيدان تنشيط ذاكرة كابتِن مارش كي يقود باخرته الخاصة. سأدفع لكما على الفور، ولن ننتظر تحصيل الإيرادات المستقبلية. ما قولك؟».

فكَّر مارش في أن فرام تعامل مع الأمر بهدوء شديد. امتص الدخان من غليونه مفكرًا للحظات كأنه يُقيِّم العرض، ثم أخيرًا أخذ تل النقود.

- لا يمكنني الموافقة نيابة عن السيد أولبرايت، أما أنا، فلطالما أُغرمت بلون الذهب. سأعلمك. ما رأيك أن نبدأ غدًا نهارًا في بداية ورديتي؟
- يكون هذا مناسبًا للكابتن مارش، لكني أفضل أن أبدأ على الفور.

نظر فرام حوله وقال في جدية: «يا للجحيم. ألا ترى؟ نحن في الليل. لي عام أعلِّم چودي، ولم أسمح له بالقيادة ليلًا إلا منذ شهر. الإبحار ليلًا ليس سهلًا أبدًا. سأعلمك نهارًا في البداية، حين يرى المرء إلى أين يتجه».

- سأتعلم ليلًا يا سيد فرام. أفضل تلك الساعات. لا تقلق. رؤيتي الليلية ممتازة، أفضل من رؤيتك كما أظن.

قام القبطان واقفًا، ثم اتجه إلى عجلة التوجيه وأمسك بها، وقال لمساعده: «انزل يا چودي».

عندما غادر الشاب، قال فرام: «لا يملك رجل نظرًا حادًّا كفاية ليتفادى غُرزة مفاجئة في نهر مظلم».

وقف موليًا إياهم ظهره، محدقًا إلى المياه التي يضيئها انعكاس النجوم أمامه. على بعد أمكنهم رؤية أنوار باخرة أخرى.

- الليلة صافية، بلا سحب تُذكَر، القمر في طور التربيع، وحالة النهر جيدة. انظر إلى المياه هناك. تبدو كزجاج أسود. انظر إلى الضفاف... سهل تبيُّن مكانها، أليس كذلك؟

أجاب يورك: «بلى».

وابتسم مارش دون تعليق.

- حسنًا، ليس الوضع هكذا دائمًا. أحيانًا يغيب القمر تمامًا، أحيانًا أخرى تغطي السحب كل شيء فتُعتِم الدنيا، ولا يرى المرء شيئًا، ولا يعرف أين تبدأ الضفاف ولا أين تنتهي، وإن كنت لا تعرف ما تفعله جيدًا، قد ترتطم بها. أحيانًا تتراءى لك ظلال ضخمة كأنها شاطئ، وعليك أن تعرف أنها ليست كذلك، وإلا قضيت نصف الليل تبتعد عن أشياء ليس لها وجود. كيف تظن القبطان قادرًا على معرفة أمور كهذه يا كابتن يورك؟».

لم يمنحه فرام فرصة الرد، إذ أشار إلى صدغه وقال: «بالذاكرة. بمراقبة النهر نهارًا وتذكُّر كل دقائقه. هذه هي الإجابة. التشرُّب بكل منعطف وبكل منزل على الضفة، بكل غابة، بكل نقطة يزيد فيها عمقه أو يقل، بكل معابره.

أنت تقود الباخرة بما تعرفه يا كابتِن يورك، لا بما تراه. لكن عليك أن ترى قبل أن تتمكن من المعرفة، ولا يمكنك الرؤية جيدًا في الليل».

أكد مارش كلامه قائلًا: «هذه هي الحقيقة يا چوشوا».

وضع مارش يده على كتف يورك، فقال الأخير بهدوء: «الباخرة أمامنا ذات مجاديف جانبية، بنقش يبدو كأن حرف «ك» بين مدخنتيها، وبغرفة قيادة ذات سقف مُقبب. هي الآن تعبر قرب مخزن أخشاب. أرى مرفأ قديمًا نخرًا هناك، ورجلًا غير أبيض يجلس على طرفه ينظر إلى النهر».

أبعد مارش يديه عن كتف يورك، وانتقل إلى النافذة يدقق النظر. الباخرة أمامهم على بعد مسافة كبيرة، يمكنه تبيُّن أنها ذات مجاديف جانبية بالكاد، لكن ما بين مدخنتيها...

المدخنتان سوداوان على خلفية من ليل بهيم، يكاد يراهما لسبب واحد؛ الشرر المنبعث منهما. غمغم: «اللعنة».

نظر فرام إلى يورك مدهوشًا وقال: «لا أستطيع أن أرى نصف ما تقول، لكني أصدقك».

بعد دقائق، مرَّت حلم فيڤر بمخزن الأخشاب وبالرجل الملون كما وصف يورك. قال فرام مبتسمًا: «إنه يدخن غليونًا. فاتك ذِكر هذا».

قال يورك: «معذرة».

أخيرًا قال فرام مفكرًا وهو يمضغ مبسم غليونه وعيناه على النهر أمامه: «حسنًا. نظرك الليلي ممتاز بالتأكيد، أعترف بهذا. لكني لست واثقًا بعد. رؤية مخزن أخشاب في ليلة صافية ليس صعبًا، لكن الرؤية في ظروف أسوأ مستحيلة، خاصة مع اندماج التفاصيل مع ما حولها. كل هذا شيء، والنهر شيء آخر، ففيه الكثير مما يحتاج القبطان إلى رؤيته، مما لن يلحظه سواه؛ منظر الماء وتل رملي أو دوامة تتخفى تحت سطحه. الأشجار الجافة التي تخبرك بحالة النهر على مسافة مائة ميل. معرفة الفرق بين الحواجز والعوائق تحت الماء. يجب أن تكون ماهرًا في قراءة النهر كأنه كتاب، حروفه تموجات ودوامات، أحيانًا تختفي تمامًا من أمامك، فتضطر إلى الاعتماد على ما تتذكره من آخر مرة قرأت فيها تلك الصفحة. والآن، هل ستحاول قراءة كتاب في الظلام؟».

تجاهل يورك ما قيل: «أستطيع رؤية تموج على سطح الماء بالسهولة نفسها التي أستطيع فيها رؤية مخزن أخشاب. سيد فرام، إن كنت غير قادر على تعليمي الإبحار، سأجد لنفسي قبطانًا آخر. أذكرك أنني ربان حلم فيڤر ومالكها».

- المزيد من العمل الليلي يعني المزيد من المال إن كنت تريد أن تتعلم. سيكلفك هذا ثمانمائة دولار.

ذاب تعبير وجه يورك الجاد متحولًا إلى ابتسامة رقيقة وقال: «اتفقنا. والآن، لنبدأ».

دفع كارل فرام قبعته منحنية القمَّة إلى الخلف حتى لامست قفاه، وزفر زفرة مُضطر عميقة وقال: «حسنًا. هذا مالك وتلك باخرتك. لا تلُمني لو حطَّمتَ قاعها. والآن أنصت. يجري النهر مستقيمًا من سانت لويس حتى كايرو، قبل أن يلتقي نهر أوهايو، لكن عليك أن تعرف أننا نُطلق على هذا المُنبسَط «المقابر» من وقت لآخر، لأن بواخر كثيرة تغرق هنا. يمكن أن ترى بعض مداخن البواخر الغارقة حتى الآن تطل من تحت سطح الماء، أو ترى حطامها كاملًا مغموسًا في الطين لو كان النهر منخفض المنسوب. يجب أن تعرف أماكن تلك المغمورة تحت الماء بدقة، وإلا ستضطر الباخرة التي تعبر بعدك إلى معرفة أين غرقت أنت. يجب أن تتعلم الإشارات أيضًا، وكيفية التحكم في الباخرة. والآن، اصعد وأمسك عجلة التحكم، واشعر بها. لا تخَف، لا يمكنك لمس القاع هنا ولو ببرج كنيسة. المكان آمِن».

تبادل يورك وفرام مكانيهما.

- والآن... أول نقطة بعد سانت لويس...

واستمر فرام في الشرح. جلس مارش على الأريكة يُنصت، بينما ينتقل القبطان من الإشارات إلى حِيَل التحكُّم، إلى القصص الطويلة عن البواخر الغارقة، الراقدة في مقابر القاع التي يعبرونها. كان حكَّاءً بارعًا، لكن بعد كل حكاية، كان يعود لاستكمال الشرح وإلى بيان العلامات مرة أخرى. جرع يورك كل ما قيل وتشرَّبه في هدوء. بدا أنه يتعلم خفايا القيادة وأسرارها سريعًا، وعندما توقف فرام عن الشرح وطلب منه ترديد بعض المعلومات، رددها يورك ببراعة.

بعدما عبروا الباخرة ذات الرفاسات الجانبية التي كانت أمامهم، وجد مارش نفسه يتثاءب. كانت ليلة جميلة كره أن يتركها لينام، لكنه تحامل على نفسه ونزل إلى مهاجع الطاقم، ثم عاد بإبريق قهوة ساخنة وطبق كعك. عندما عاد، كان كارل فرام يحكي عن حطام الباخرة دريتان وايت، التي غرقت قرب ناتشيز في الخمسينيات، وعلى متنها كنز. حاولت الباخرة إيڤرموند إخراجها، فاحترقت وغرقت. في عام واحد وخمسين، جاءت الباخرة إلين بحثًا عن الكنز، فارتطمت بالحطام وكادت تغرق. قال فرام: «الكنز ملعون. إما هذا، وإما أن شيطان النهر اللعين يأبى أن يتخلى عنه».

ابتسم مارش وهو يصب القهوة ويقول: «چوشوا، هذه الحكاية حقيقية، لكن لا تصدق كل ما يحكي. هذا الرجل هو أشهر الكذابين في النهر».

هتف فرام مبتسمًا: «لماذا يا كابتِن؟!» ثم استدار نحو النهر مضيفًا: «هل ترى القُمرة هنالك؟ الغارقة؟ عظيم، يجب أن تتذكر مكانها».

ثم انطلق يُعلِّم يورك مرة أخرى لعشرين دقيقة، قبل أن تشتته حكاية الباخرة إي. چينكينز، التي بلغ طولها ثلاثين ميلًا، وبمفصَّلات عند المنتصف كي تستطيع الانعطاف بسهولة في النهر. حتى چوشوا يورك رمقه بنظرة متشككة في صدق هذه الحكاية، لكنه كان يبتسم.

نام مارش بعد ساعة من انتهائه من التهام الكعك. فرام مُسلٍّ كفاية، لكنه سيأخذ دروسه نهارًا حين يستطيع رؤية ما يتحدث عنه مُعلمه.

عندما استيقظ، كان الصباح قد انبلج، وحلم فيڤر وصلت إلى ميناء كيب چيراردو، وتُحمِّل شُحنة حنطة. اختار فرام أن يرسو هنا في وقت ما من الليل، كما قيل لمارش، عندما أحاط بهم الضباب. كيب چيراردو مدينة ضخمة، تجثم عاليةً على بعد مائة وخمسين ميلًا جنوب سانت لويس، وبعد حسابات التوقيت، سُر مارش بالوقت الذي احتاج إليه للوصول إليها. لم يكن رقمًا قياسيًّا، لكنه ممتاز.

خلال ساعة كانت حلم فيڤر قد عادت إلى طريقها في النهر. شمس يوليو قاسية فوق الرؤوس، والهواء مثقل بالحرارة والرطوبة والحشرات، لكن مهاجع الطاقم كانت باردة وهادئة. توقفوا عدة مرات، والتهمت الغلايات الثماني عشرة أخشابًا تفوق العَد لكن الوقود لم يكن مشكلة البتة، فمخازن الأخشاب تملأ الضفاف. كلما انخفض مخزونهم، أشار العُمال إلى القبطان ليرسو بهم عند أقرب مخزن محاط بجذوع أشجار البلوط والكستناء المُعدَّة للاستخدام،

فينزل مارش وچوناثان چيفرز ليُجادلا الحطابين في السعر. بعدها يشيرون إلى الحمَّالين، فينزلون في أسراب، ليُحمِّلوا كل شيء إلى الباخرة في ثلاث طرفات عين. أحب الركاب مشاهدة نقل الأخشاب من المخازن إلى سطح الباخرة، واعتبروا مشاغبة الحمَّالين تسليتهم.

توقفوا أيضًا عند أغلب المدن، وعند مواني مجهولة لينزل الركاب، وعند أخرى خاصة ليركب منها غيرهم. عند الظهيرة توقفوا لأجل امرأة وطفل نادتهم من الضفة، وقرب الرابعة عصرًا، أبطؤوا كي يستطيع ثلاثة رجال في قارب اللحاق بهم ثم الركوب معهم. لم تبتعد حلم فيڤر كثيرًا في ذاك اليوم، ولم تبحر بسرعة. بحلول الوقت الذي حوَّل فيه نور الشمس المُحتضرة سطح الماء إلى اللون الأحمر القاني، لاحت لهم مدينة كايرو، وقرر دان أولبرايت الرسو والمبيت في مينائها.

جنوب كايرو، يصب نهر أوهايو مياهه في نهر المسيسبي، يشكلان معًا منظرًا غريبًا، إذ لا يختلط التياران على الفور، بل يظل لون ماء نهر أوهايو الأزرق الصافي على لونه، ويسير في شريط براق على امتداد الضفة الشرقية، مجاورًا ماء نهر المسيسبي العكر البني.

هنا أيضًا تظهر شخصية أدنى النهر. من كايرو إلى نيو أورلينز والخليج مسافة ألف ومائة ميل، ينحني فيها نهر المسيسبي ويدور مُتَلَويًا كثعبان ضخم يلتهم الطمي الطري في مسارات غير متوقعة. أحيانًا يترك المواني جافة، وأحيانًا يغرق بلدات كاملة تحت الماء. يزعم القباطنة أن النهر لا يعيد نفسه مرتين. أعالي المسيسبي -حيث وُلد وتعلم مارش تجارته- مختلفة تمامًا، وأكثر وضوحًا واستقامة. وقف مارش فوق سطح الباخرة العلوي لوقت طويل، ينظر إلى التيار الهادئ ويحاول استشعار الاختلاف فيه، والاختلاف الذي قد يضيفه إلى حياته. لقد عبر من أعالي النهر إلى أدناه، إلى فصل جديد من حياته.

بعد قليل، وبينما كان مارش يثرثر مع چيفرز في مكتبه، سمع صوت جرس يدق ثلاث مرات؛ علامة الرسو. عقد حاجبيه ونظر عبر نافذة چيفرز، ولم ير شيئًا إلا الأشجار على الضفاف. تساءل مارش: «تُرى لماذا نرسو. محطتنا القادمة نيو مدريد. ربما ليس لي علم بهذا الجزء من النهر، لكن هذه بالتأكيد ليست نيو مدريد».

- ربما نادانا أحدهم.

استأذنه مارش، وصعد إلى مقصورة القيادة، ووجد دان أولبرايت خلف عجلة التحكم. سأله: «هل نادانا أحد؟».

أجاب أولبرايت: «لا يا سيدي».

وبما أنه صموت، أجاب على قدر السؤال فقط.

- أين سنرسو؟

- في ساحة أخشاب يا سيدي.

رأى مارش ساحة أخشاب بالفعل أمامهم عند الضفة الغربية.

- سيد أولبرايت، أعتقد أننا حمَّلنا ما يكفينا من أخشاب منذ ساعة. لا يمكن أن نكون قد أحرقنا كل هذا. هل طلب منك مايك المُشعر الرسو؟

- لا يا سيدي. هذه أوامر كابتِن يورك. أمرني أن أرسو عند هذه الساحة تحديدًا سواء احتجنا إلى أخشاب أو لم نحتَج.

أولبرايت رجل ضئيل، ذو شارب رفيع أسود، يربط حول عنقه ربطة وردية حريرية، وينتعل حذاءً جلديًّا عالي الرقبة.

- هل تأمرني بألا أرسو؟

أجاب أبنَر مارش سريعًا: «لا».

ربما حذره يورك من قبل، لكن اتفاقهما ينص على حق چوشوا في إعطاء الأوامر الغريبة دون مساءلة.

- هل تعرف كم سنرسو هنا؟

- سمعت أن ليورك عملًا هنا لو لم يستيقظ حتى الظلام، فسنرسو يومًا.

- اللعنة. جدولنا. سيسأل الركاب بلا توقف عن سبب التأخر. يبدو أن لا مفر من هذا. ربما الأفضل أن نتزود بالأخشاب ما دمنا سنرسو. سأرى ما يمكن فعله.

اتفق مارش مع الشاب الذي يدير ساحة الأخشاب، وهو زنجي رشيق يلبس قميصًا قطنيًّا خفيفًا. لم يكن الشاب حاذقًا في أمور الاتفاقات، ففاز عليه مارش بصفقة جيدة. بينما ينقل الحمَّالون الشحنة إلى الباخرة، نظر مارش إلى عيني الشاب الزنجي وقال مبتسمًا: «أنت جديد في المهنة، أليس كذلك؟».

أومأ الشاب وأجاب: «بلى يا كابتِن».

هز مارش رأسه وهمَّ بأن يستدير عائدًا إلى باخرته، لكن الشاب أكمل قائلًا: «لي هنا أسبوع يا كابتِن. الرجل الأبيض الذي كان يعمل هنا أكلته الذئاب».

حدق مارش إلى الشاب وسأله: «نحن على بعد ميلين فقط من نيو مدريد، أليس كذلك أيها الشاب؟».

- صحيح يا كابتِن.

عندما عاد أبنر مارش إلى حلم فيڤر، شعر بضيق شديد. اللعين چوشوا... ماذا ينتوي، ولماذا قد يضيعون يومًا كاملًا هنا في هذه الساحة الغبية؟ شعر مارش برغبة مُلحة في اقتحام غرفة يورك ومحاولة استبيان الأمر منه، لكنه فكر في الأمر سريعًا وتوصل إلى فكرة أفضل؛ ذكَّر نفسه أن هذا ليس من شأنه.

فانتظر.

مرت الساعات بطيئة وحلم فيڤر طافية كالموتى على سطح الماء أمام الساحة، ومر بهم عشرات البواخر الأخرى مما أثار حنق مارش. شجار بين راكبين بالسكين، لم يُصب فيه أيهما، أمَد فترة ما بعد الظهيرة ببعض الإثارة. تسكَّع أغلب ركاب الباخرة وطاقمها في طوابقها، وافترشوا الأرض والمقاعد تحت الشمس، يدخنون أو يلوكون التبغ، ويتبادلون الآراء السياسية. لعب چيفرز وأولبرايت الشطرنج في مقصورة القيادة، وحكى فرام قصصًا مثيرة في القاعة الكبرى. تحدثت بعض السيدات عن رغبتهن في الرقص، وتزايد نفاد صبر أبنر مارش أكثر فأكثر.

في الظلام، جلس مارش فوق مهاجع الطاقم، يشرب القهوة ويذب البعوض، عندها لمح چوشوا يورك عند الضفة وقد غادر الباخرة برفقة سيمون. توقفا عند الكوخ وتحدثا سريعًا مع الشاب الذي يدير الساحة، ثم اختفيا عند نهاية طريق موحل يعبر الغابة. قال مارش وهو يقوم واقفًا: «هكذا رحل دون سلام ولا كلام؟! وبلا عشاء أيضًا».

ثم تذكَّر ضرورة نزوله إلى القاعة الرئيسية ليأكل.

ومضى الليل، وتململ الطاقم والركاب على حد سواء. احتشد الناس حول المشرب، وبدأ بعض أصحاب المزارع لعبة مقامرة، وانخرط آخرون في الغناء.

عاد سيمون وحده قرب منتصف الليل. كان أبنر مارش في القاعة الكبرى مع مايك المُشعر، فشعر بمن يمس كتفه. كان قد أمر بأن يُستدعى عندما يعود چوشوا يورك. هتف في مايك: «مُر عمالك بالتزام أماكنهم، واطلب من الأشيب أن يُعِد الغلايات».

ثم عاد ليقابل يورك، لكن يورك لم يكن هنا.

قال له سيمون: «يريدك چوشوا أن تُبحِر. سيسافر هو برًّا، ويلتقيك في نيو مدريد. انتظره هناك».

ولم تُخرِج منه الأسئلة المحمومة أكثر من هذا. حدق سيمون إلى مارش بعينيه الضيقتين الباردتين، وردد الرسالة، مؤكدًا ضرورة انتظار -حلم فيڤر- يورك في نيو مدريد.

بمجرد أن علت سُحب البخار، بدأت الرحلة قصيرة لطيفة. نيو مدريد على بعد عدة أميال جنوب ساحة الأخشاب التي رسوا عندها طوال اليوم. ودَّع مارش المكان الموحش في سرور وهو يبحر خلال الليل ويغمغم: «اللعنة على ذلك يا چوشوا».

ثم فقدوا يومين تقريبًا في نيو مدريد.

قال چوناثان چيفرز أخيرًا بعد مرور يوم ونصف في الميناء: «لقد مات بالتأكيد».

في نيو مدريد فنادق، وصالات بلياردو، وكنائس، ووسائل متعة أخرى غير متوافرة في ساحات الأخشاب، لذا فالرسو هناك لم يكن بهذا الملل، على ذلك، ظل الجميع يتوقون إلى الرحيل. ذهب إلى مارش أكثر من نصف دستة ركاب نافدي الصبر بسبب تأخيرهم بينما الطقس جيد -بدت الباخرة في حالة ممتازة، والنهر مناسب للإبحار- وطالبوا باستعادة ما دفعوه من أجر للركوب. قوبِل طلبهم بالاستياء والرفض، لكن ظل مارش قلقًا، يتساءل عن مكان چوشوا يورك وما حدث له.

- لم يمُت يورك. لكني أقول إنه سيتمنى الموت عندما يقع تحت طائلتي، لكنه لم يمُت بعد.

ارتفع حاجبا چيفرز خلف إطار نظارته الذهبي وقال: «كيف تكون متأكدًا هكذا يا كابتِن؟ لقد كان بمفرده، راجِلًا، يقطع الغابات وحده. ثمة مجرمون

هنا، وحيوانات أيضًا. جرائم القتل قد كثُرت في نيو مدريد خلال الأعوام القليلة الماضية».

حدق إليه مارش وقال: «ما هذا؟ كيف عرفت؟».

- أنا أتابع الصحف.

- حسنًا، لا يشكل هذا فارقًا. يورك لم يمُت. أنا أعرف هذا يا سيد چيفرز، أعرف هذا يقينًا.

قال الكاتب بابتسامة هادئة: «ضَل الطريق إذًا؟ هل نجمع الرجال ونبحث عنه يا كابتِن؟».

أجاب أبنر مارش: «سأفكر في هذا».

لم يكن من حاجة إلى هذا. في ذلك المساء، وبعد ساعة من الغروب، جاء چوشوا يورك يمشي إلى المرفأ، ولم يبد كرجل أمضى يومين وحده في الغابة. حذاؤه وساقا سرواله متربين، لكن فيما عدا ذلك، بدت ملابسه أنيقة كيوم غادر. كانت خطواته متعجلة لكن محتفظة بوقارها. ضرب درجات السلم بقدميه صاعدًا، وابتسم حين رأى چاك إلي، مساعد القبطان الثاني، فأمره: «اعثر على الأشيب، واطلب منه الاستعداد للإبحار. سنرحل الآن».

وقبل أن يُسائِله أحد، كان في منتصف الدَّرج الكبير.

رغم غضب مارش العارم وقلقه، وجد نفسه قد ارتاح أخيرًا بعودة چوشوا. هتف في مايك المُشعر: «اذهب ودق الناقوس اللعين، ليعرف من على الشاطئ أننا سنغادر. أريد أن نبحر في أسرع وقت».

كان يورك في غرفته، يغسل يديه في حوض الماء فوق خزانة الأدراج. قال في أدب عندما رأى مارش يهرع داخلًا بعد طرقات عاصفة خاطفة على الباب: «أبنر. هل تظن أن في وسعي أن أثقِل على توبي وأطلب عشاء متأخرًا؟».

- سأثقِل أنا عليك بسؤالي عن سبب إضاعتنا هذا الوقت. اللعنة يا چوشوا. أعرف أنك قلت لي إنك ستتصرف بغرابة، لكن يومين! هذه ليست طريقة إدارة خط بواخر!

جفف يورك يديه الطويلتين الباهتتين بحرص، ثم استدار نحو مارش.

- هذا مهم. أحذرك من أنني قد أكرر هذا مرة أخرى، وعليك أن تدبر أمورك على هذا الأساس يا أبنر، وتأكد من ألا يُسائلني أحد.

- معنا شحنات نُسلمها في مواعيد، وركاب دفعوا أجرة للسفر، لا للتسكع في ساحات الأخشاب. ماذا أقول لهم يا چوشوا؟

- أي شيء تراه مناسبًا. أنت واسع الحيلة يا أبنر. لقد وفرت مالًا لشراكتنا هذه، وأتوقع منك أن توفر أعذارًا.

وأردف بنبرة ودية لكن حازمة: «لو أن هذا سيعزيك، أقول لك إن أول رحلة هي الأسوأ. ستكون الجولات الغامضة في رحلاتنا المستقبلية نادرة أو حتى معدومة. سيكون جدولك أيضًا منتظمًا بلا أي مشكلات من جهتي. أتمنى أن يرضيك هذا. تحلَّ بالصبر يا صديقي. سرعان ما سنصل إلى نيو أورلينز، وستكون الأمور أيسَر. هل تقبل بهذا يا أبنر؟ أبنر؟ هل من خطب؟».

كان أبنر مارش يزم عينيه بقوة، وبالكاد يستمع إلى يورك. لا بد أن منظر وجهه كان غريبًا كما أدرك. قال سريعًا: «لا، لقد مر يوم، هذا هو الخطب. لكن لا يهم. لا يهم على الإطلاق. لك ما تطلب يا چوشوا».

أومأ يورك وبدا راضيًا.

- سأبدِّل ملابسي وأرهِق توبي بطلب وجبة، ثم سأصعد إلى مقصورة القيادة لأتعلم المزيد عن النهر. من يتولى وردية الليل؟

- السيد فرام.

- عظيم. كارل مُسلٍّ للغاية.

- هو كذلك. معذرة يا چوشوا، يجب أن أنزل لأتحقق من بعض الأمور إن كنا سنبحر الليلة.

ثم استدار وخرج من الغرفة. لكن بالخارج، ووسط صهد الليل، استند أبنر مارش إلى عصا المشي وحدق إلى الظلام المرصع بالنجوم، محاولًا استدعاء ما قد رآه عبر غرفة يورك.

لو أن نظره أفضل. لو أن يورك أضاء مصباحي الزيت بدلًا عن واحد. لو أنه جرؤ على الاقتراب أكثر. صعب تبيُّن التفاصيل عند خزانة الأدراج من حيث وقف، لكن مارش عجز عن إبعاد الخاطر عن عقله. الخرقة التي كان يورك يجفف بها يديه كانت ملطخة ببقع داكنة، محمرة، بدت شبيهة جدًّا ببقع الدماء.

***

تسعة



على متن الباخرة حلم فيڤر
نهر المسيسبي
أغسطس 1857

يمر يوم شاق بعد يوم مماثل، وحلم فيڤر تزحف على ظهر مياه المسيسبي.

يمكن للباخرة السريعة أن تبحر من سانت لويس إلى نيو أورلينز ثم تعود في ثمانية وعشرين يومًا تقريبًا، متضمنة الرسو المتكرر، والوقوف في المواني للتحميل والإفراغ، والتعطل الناتج عن سوء أحوال الطقس. لكن بالوتيرة التي تسير بها حلم فيڤر، لن يصلوا إلى نيو أورلينز قبل شهر. بدا لأبنر مارش أن النهر والطقس وچوشوا يورك يتآمرون لإبطائه. جثم الضباب على الماء يومين، رماديًّا كثيفًا كالقطن. اخترقه دان أولبرايت في ست ساعات، وهو يقود بحذر عبر حوائط الضباب التي راحت تنحسر تدريجيًّا أمام الباخرة، مُخلِّفة مارش وراءها ككومة أعصاب مشدودة محترقة. كان هذا قراره، وكان في وسعهم الرسو فور أحاط بهم الضباب بدلًا عن المخاطرة بحلم فيڤر، لكن في النهر لا يُنفَّذ إلا قرار الربَّان، لا القبطان، وقد نفَّذ أولبرايت مُرغمًا. لكن في النهاية ازدادت كثافة الضباب أكثر مما يمكن الإبحار خلاله، فاضطروا إلى التوقف يومًا ونصف قرب مدينة ممفيس، لا يفعلون شيئًا سوى مراقبة الماء البني يجري إلى جوراهم ويؤرجحهم، ويستمعون إلى الخرير خلف الضباب. في مرة مر بهم قارب مسطح أمسكت فيه النيران، وراح رجاله يستغيثون بهم، وتردد صوت صراخهم عبر النهر، قبل أن يبتلع الضباب الرمادي المستغيثين وأصواتهم.

عندما انقشع الضباب بما يكفي ليتمكن كارل فرام من الإبحار بأمان مرة أخرى، تحركوا لمدة ساعة أو أقل قبل أن يرتطموا بقوة بعائقٍ بينما كان

فرام يحاول أن يتخذ طريقًا مختصرًا غير واثق به لتوفير بعض الوقت. نزل البحارة وعمال الأفران والحمَّالون إلى الضفة تحت إشراف مايك المُشعر، وحرروا الباخرة من حيث غرزت في ثلاث ساعات تقريبًا. بعدها تقدموا ببطء بقيادة أولبرايت، حتى عادوا إلى مجرى النهر مرة أخرى، لكن لم يكن هذا آخر متاعبهم. بعد ثلاثة أيام واجهوا عاصفة رعدية، ولأكثر من مرة اضطرت حلم فيڤر إلى الدوران من منعطف النهر الواسع بسبب الحواجز الرملية أو المياه الضحلة في الطرق المختصرة، أو السير ببطء والرفاسات تدور بالكاد، وقارب الاستطلاع أمامهم على متنه مساعد القبطان الاحتياطي، وبضع بحارة لإنزال صاري قياس العمق، والصياح بعبارات مثل: «ربع توين[1]»، «ربع إلا ثلاثة»، «ثلاثة».

الليالي حالكة متقلبة الطقس في الأيام التي لم يسد فيها الضباب. لو تحركت الباخرة، تتحرك بحذر بربع سرعتها أو أقل، ولم يُسمح بالتدخين في مقصورة القيادة، وأُسدِلت الستائر على النوافذ كي لا يصدر عن الباخرة أي ضوء ليتمكن القائد من رؤية النهر. كانت الضفاف حالكة الظلمة، معزولة خلف أستار الليل، تتحرك على جانبيهم كجثث ضجِرة، تتحرك هنا وهناك، فلا يستطيع المرء تبين موضع انتهاء المياه العميقة وبدء الضفة. امتد النهر حالكًا كالخطيئة، لا ينيره ضوء قمر أو نور نجوم. في ليالي كانوا يعجزون عن رؤية السُّبَد؛ وهو الأداة المعلقة في منتصف صاري الراية ويستخدمونه في تحديد أماكنهم. لكن رغم اختلاف فرام وأولبرايت، كانا بارعين، وأبقيا حلم فيڤر في مسارها وقتما استطاعا تحريكها. الأوقات التي يعجزان فيها هي الأوقات التي يسكن فيها النهر تمامًا، ولا يتحرك فيه سوى تباب الرمال أو جذوع الأشجار الطافية، أو القوارب المسطحة، أو البواخر الصغيرة.

ساعدهم جوشوا يورك كثيرًا، وفي كل ليلة يصعد إلى غرفة القيادة ليحضر دروسه كأي متمرن جاد. قال فرام لمارش على العشاء: «قلت له إن ليلة كهذه لن يتعلم فيها شيئًا. لا أستطيع تعليمه العلامات دون أن أراها ولا أرى نفسي حتى. هل يمكن فعل ذلك؟ حسنًا. لهذا الرجل عينان ثاقبتا النظر لم أر مثلهما من قبل. في أوقات أكاد أقسم إنه يرى عبر سطح الماء، ولا يهمه الظلام في شيء. أبقيه إلى جواري وأخبره بعلامات الطريق، وفي تسع مرات من عشرة

(1) التوين مصطلح ملاحي يعني عمق 12 قدمًا تحت الماء. (المترجمة)

يراهم قبل أن أراهم أنا. ليلة أمس فكرت في أن أوقف الباخرة تمامًا لباقي الوردية لولا چوشوا».

لكن يورك عطَّل الباخرة أيضًا؛ طلب ست مرات التوقف، مرة في مدينة جرينڤيل، ومرتين في بلدتين أصغر، ومرة في مرفأ خاص في تينيسي، ومرتين في ساحتي أخشاب. في مرتين غاب طوال الليل. لم يكن ليورك جولة في ممفيس، لكنه عطلهم في كل ميناء آخر. عندما رسوا في بلدة هيلينا، غاب طوال الليل، وفي نابليون عطلهم ثلاث ليال إذ خرج وسيمون ليفعلا ما لا يعلمه إلا الرب. ساء الأمر في مدينة ڤيكسبرج، فقد توقفوا أربع ليالٍ قبل أن يعود چوشوا يورك إلى حلم فيڤر.

في اليوم الذي أبحروا فيه من ممفيس، كان الغروب جميلًا بشكل خاص. اتخذ الضباب الخفيف ألقًا برتقاليًّا، وتحولت السحب في الغرب إلى لون أحمر ناري، فبدت السماء نفسها متوهجة. لكن أبنَر مارش كان يقف وحده فوق مهاجع الطاقم لا يرى سوى النهر. لم يكن في مجال بصره أي بواخر، والماء أمامهم هادئ، يتسبب الهواء هنا في تموجات، وهناك يسري التيار حول جذع شجرة ساقط، يتدلى من الشاطئ. أخيرًا النهر الشيطاني العتيق هادئ.

وعندما غابت الشمس، اتخذت المياه الموحلة لونًا محمرًّا امتد ودكن حتى بدت حلم فيڤر كأنما تسري فوق نهر دماء دافِق. ثم اختفت الشمس خلف الأشجار والسحب، وازدادت دكنة الدم وتحولت إلى البني؛ لون الدماء الجافة، ثم اسودَّت سوادًا مميتًا كسواد القبر. راقب مارش آخر لمحات الأحمر تختفي، ولم تبزغ النجوم في تلك الليلة. نزل لتناول العشاء والدماء لا تبارح تفكيره.

مرت أيام منذ كانوا في نيو مدريد، ولم يفعل مارش أو يقول شيئًا، لكنه فكر كثيرًا فيما رآه، أو ما ظن أنه رآه في غرفة چوشوا، لكنه ليس واثقًا تمامًا من أنه رأى شيئًا. إلى جانب هذا، ماذا لو أنه رأى شيئًا حقًّا؟ ربما جرح چوشوا نفسه في الغابة... لكنه دقق النظر في يدي چوشوا الليلة التالية، ولم ير أي أثر جرح أو سحجة. ربما إذًا ذبح حيوانًا أو دافع عن نفسه ضد لصوص. عشرات الأعذار الجيدة تقدم نفسها، لكن كلها تتزعزع أمام صمت چوشوا. إن لم يكن لدى يورك ما يخفيه، لماذا كل هذا التكتُّم؟ كلما فكر أبنر مارش أكثر في الأمر، قل تقبله له.

لقد رأى مارش دماء من قبل، كثيرًا منها في أثناء الشجارات والمبارزات وإطلاق النار. النهر يقطع بلدانًا تمتلئ بالعبيد، ودماء ذوي الجلود الداكنة

تُهدر طوال الوقت. لم تكن الولايات الحُرة أفضل حالًا. عاش مارش في ولاية كانساس لوقت، ورأى الرجال تُحرق أو تُقتل. خدم في ميليشيا ولاية إلينوي عندما كان أصغر سنًّا، واشترك في حرب العقاب الأسود، وما زال يحلم بوقته الذي أمضاه في معركة الفأس القوية، عندما مزق قبيلة العقاب الأسود بنسائهم وأطفالهم بينما كانوا يحاولون عبور نهر المسيسبي إلى حيث الأمان عند الضفة الغربية. كان يومًا داميًا، لكنه ضروري؛ لطالما أغارت قبيلة العقاب الأسود على إلينوي وآذت أهلها.

الدم الذي كان أو لم يكن على يدي چوشوا مُختلفًا. ترك مارش شاعرًا بالقلق والحيرة.

على ذلك، ذكَّر نفسه أنه عقد اتفاقًا، والاتفاق واجب التنفيذ في عرف أبنر مارش، والرجل مربوط بكلمته سواء كانت خيرًا أو شرًّا، وسواء كانت كلمة أعطاها لواعظ أو للشيطان نفسه. ذكر چوشوا يورك أن له أعداء، يتذكر مارش هذا، وتعامل المرء مع أعدائه شأن خاص. كان يورك صريحًا كفاية مع مارش. لذا تعقَّل وحاول إبعاد الشكوك عن عقله.

لكن مياه المسيسبي تحولت إلى دماء، حتى أحلامه صارت نازفة. تزايد الملل والتململ على ظهر حلم فيڤر. أحد العُمال أهمل الحذر وسلخ البخار جلده، فاضطروا إلى إنزاله في ميناء نابليون. هرب أحد الحمَّالين في ڤيكسبرج، وكان هذا أمرًا جنونيًّا، فهي بلدة من بلدات العبيد، وهو رجل حر غير أبيض. تزايدت المشاحنات بين الركاب بسبب الملل وطقس أغسطس الحار الرطب الخانق كما فسر له چيفرز، وأكد مايك المُشعِر، لكن أبنر مارش لم يكن متأكدًا من السبب مثلهما. بدا له الوضع كأنما يُعاقَبون.

اختفت ولايتا ميزوري وتينيسي خلفهم، وتزايدت مخاوف مارش. مرت بهم المدن وساحات الأخشاب والبلدات، وتحولت الأيام إلى أسابيع بطيئة ممطوطة، وفقدوا ركابًا وحمولات بسبب أفعال يورك. نزل مارش إلى المدن، وزار الحانات والفنادق الشهيرة بوجود رجال البواخر، وأنصت، ولم تعجبه الآراء عن باخرته، وأبرزها وأكثرها شيوعًا أن حلم فيڤر بُنيت ضخمة ثقيلة أكثر من اللازم، ففقدت مزية السرعة تمامًا. قيل إن في محركاتها أعطال، وسرت شائعة أن غلاياتها قد تنفجر. الكلام خطر، وانفجار الغلايات أمر مخيف.

أخبر أحد رجال البواخر من نيو أورلينز مارش، أن حلم فيڤر بدت جميلة في ميناء ڤيكسبرج، لكن لا بد أن قبطانها أحد قباطنة أعالي النهر الذين لا يجرؤن على الإبحار بها بكل قوتها.

سرت شائعات عن يورك أيضًا. هو وأصدقاؤه غريبو الأطوار وتصرفاتهم. بدأت سمعة حلم فيڤر تذيع، لكنها لم تكن السمعة التي تمناها لها أبنَر مارش.

بوقت اتجاههم إلى ناتشيز، كان مارش قد اكتفى.

كان الوقت قبل الغروب بقليل عندما لاحت ناتشيز في الأفق، بمصابيح قليلة متألقة مبكرًا، وظلالها تستطيل من الغرب إلى الشرق. كان يومًا جميلًا لولا القيظ، فقد حصَّلوا أفضل سرعة لهم منذ غادروا كايرو. ترقرق النهر بلون ذهبي، وتدلت الشمس فوقه ككرة زينة نحاسية لامعة، يتأرجح انعكاس أشعتها ويرقص مع الريح.

ظل مارش في فراشه حتى الظهيرة وقد شعر بمرض، لكنه أرغم نفسه على الخروج من غرفته عندما سمع صوت دوي الصافرة استجابة لنداء باخرة أخرى تتقدم بهدوء فوق صفحة الماء. عرف مارش أن الباخرتين المتقابلتين تتحدثان لتُقررا أي واحدة منهما ستلزم اليمين وأيها ستلزم اليسار. يحدث هذا عشرات المرات يوميًّا. لكن شيئًا في صوت صافرة الباخرة الأخرى أثار انتباهه، وجرَّه من تحت أغطيته وأخرجه من غرفته ليراها تمر؛ الباخرة شفق، الرشيقة الأنيقة، بمداخنها الشاهقة اللامعة تحت الشمس، وركابها الذين يملؤون طوابقها. راقبها مارش وهي تبتعد حتى لم يعد باديًا منها إلا دخانها، وغُص حلقه من المشهد.

عندما تبخرت شفق كما يتبخر الحلم في الصباح، استدار مارش، ورأى ناتشيز أمامهم. سمع الناقوس يُدق إعلانًا عن قرب رسوهم، ودوت صافرتهم مرة أخرى.

احتشدت البواخر عند الميناء، من خلفهم مدينتان بعد تنتظران حلم فيڤر. عالية فوق التل، ظهرت مدينة ناتشيز أعلى التل بشوارعها الواسعة، وأشجارها وأزهارها ومنازلها العظيمة، لكل منها اسم؛ مونموث. لِندين. أوبورن. راڤينًا. كونكود. بيلفاست. ويندي هيل. ذا برن.

زار مارش ناتشيز عدة مرات في شبابه، قبل أن يكون مالكًا لبواخره الخاصة، واختصها بالتمشية ومشاهدة المنازل متعددة الطوابق. كانت

قصورًا حقيقية، كل واحد فيها، ولم يشعر مارش بالراحة في وسطهم؛ العائلات التي تعيش فيها تتصرف كملوك، مغرورون، يشربون خمورهم المصنوعة خصوصًا لهم، ويضعون فيها الثلج، ويقيمون سباقات خيولهم نقية السلالات، ويصطادون الدِببة، ويلوحون بالمسدسات والخناجر تجاه أي شيء يثير حفيظتهم. سمع أنهم من الـ «نيبوب»[1].

هم جماعة راقية، كل واحد لعين منهم يبدو ككولونيل. أحيانًا يظهرون عند المرسى، فيتعين عليك دعوتهم في باخرتك على سيجار ومشروب مهما كانت تصرفاتهم معك.

لكنهم ليسوا إلا جماعة عمياء. من منازلهم العظيمة فوق التل، يطل النيبوب على بهاء النهر اللامع، لكن بشكل ما لا يرون سوى ما تحت أرجلهم.

أسفل القصور، وفيما بين النهر والتل بلدة ناتشيز أسفل التل، ليس فيها عمود رخامي واحد، ولا زهور نادرة. الشوارع موحلة مُتربة، تصطف المواخير فيها بحذاء المرسى على طول شارع سيلڤر، أو ما تبقى منه. أغلب الشوارع غارت في النهر منذ عشرين عامًا، وما تبقى منها نصف غائر، امتلأ بالغواني والقوادين. يصطف الشارع الرئيسي بالحانات وصالات البلياردو وقاعات المقامرة، وفي كل ليلة تغلي البلدة أسفل التل بالمشاجرات والاستياء والدم، وبالمقامرين ونساء الليل اللاتي قد يفعلن أي شيء تقريبًا، وبالرجال الذين يبتسمون لك ثم يأخذون محفظتك ويذبحونك. هذه هي ناتشيز أسفل التل. الخمر واللحم وبطاقات اللعب، الأنوار الحمراء والأغاني البذيئة والمشروبات المخففة بالماء. هكذا الحياة جوار النهر. أحب رجال البواخر ناتشيز أسفل التل وكرهوها هي وسكانها من النساء الرخيصات والذبَّاحين والمقامرين والزنوج المُحررين، رغم أن العجائز يقسمون إن المدينة أسفل التل كما هي اليوم، لا تقارن بجموحها منذ أربعين عامًا، أو حتى في فترة ما قبل الإعصار الذي أرسله الرب ليمحقها عام 1840. لا يعترف مارش بهذا؛ المدينة جامحة كفاية بالنسبة إليه، وقد أمضى بعض ليال لا تُنسى هنا منذ سنوات. لكن هذه المرة يراوده شعور سيئ حيالها.

---

(1) البريطانيون الذين يعملون مع شركة الهند الشرقية، ونيبوب مشتقة من الكلمة الهندية ناواب بمعنى أمير أو ضابط من رتبة عالية. (المترجمة)

باختصار، انتوى عدم التوقف فيها، وفكر في الصعود إلى مقصورة القيادة وأن يطلب من أولبرايت أن يكمل طريقه. لكن معهم ركابًا سينزلون، وحمولة ستُفرَغ، وطاقمًا يتوق إلى قضاء ليلة في ناتشيز، لذا قرر مارش ألا يفعل شيئًا مما انتوى. رست حلم فيڤر الليلة في الميناء. خفضوا حرارة غلاياتها، وتركوا نيران أفرانها تنطفئ في أحشائها، ثم تدفق طاقمها منها كما يتدفق الدم من جرح مفتوح. توقف بعضهم في المرسى لشراء مثلجات أو فواكه من الباعة الجائلين السود بعرباتهم، لكن أغلب الرجال انطلقوا إلى شارع سيلڤر، متجهين نحو الأضواء الحمراء المتوهجة.

عاد أبنَر مارش إلى شرفة مهاجع الطاقم حتى أطلَّت النجوم، وسَرَت نحوه أصوات غناء من نوافذ المواخير، لكنها لم تخفف دُكنة مزاجه. أخيرًا فتح چوشوا يورك باب غرفته وخرج منها إلى الليل. سأله مارش: «هل ستنزل إلى الشاطئ يا چوشوا؟».

ابتسم يورك وقال بهدوء: «أجل يا أبنر».

- كم ستغيب هذه المرة؟

أومأ چوشوا يورك إيماءة أنيقة وقال: «لا أستطيع الجَزم. سأعود بأسرع ما يمكن. انتظرني».

- الأفضل أن أرافقك يا چوشوا. هذه ناتشيز أسفل التل. مكان خطر. ربما ننتظرك هنا شهرًا بينما أنت ملقى في بالوعة ما مذبوحًا. دعني أذهب معك وأرشدك عبر المكان. أنا رجل نهر، وأنت لست كذلك.

- لا، لدي عمل خاص يا أبنر.

- نحن شريكان، أليس كذلك؟ عملي هو عملك، حيث مصلحة حلم فيڤر.

- لدي مصالح أخرى غير باخرتنا يا صديقي. أمور لا يمكنك مساعدتي فيها. أمور يجب أن أتعامل معها وحدي.

- سيمون يذهب معك، أليس كذلك؟

- أحيانًا. الأمر مختلف يا أبنر. أنا وسيمون... بيننا مصالح ليست بيني وبينك.

- لقد ذكرت أعداءً في مرة يا چوشوا. إن كان هذا ما تتحدث عنه؛ التخلص ممن يزعجونك، فيمكنني مساعدتك.

هزَّ چوشوا يورك رأسه وقال: «لا يا أبنر. ربما لا يكون أعدائي هم أعداؤك أنفسهم».

- دعني أنا أقرر هذا يا چوشوا. لقد كنت صادقًا معي حتى الآن. ثق بي لأصدق أنا أيضًا معك.

قال يورك في حزن: «لا أستطيع. أبنر، بيننا اتفاق. لا تسألني. رجاء. والآن، بعد إذنك، دعني أمُر».

أومأ أبنر مارش وأفسح له الطريق، فمَّر چوشوا يورك من أمامه وبدأ ينزل الدَّرج. استدار مارش وهتف فيه: «انتبه لنفسك يا چوشوا. ربما تخبئ ناتشيز كثيرًا من الدماء».

حدق إليه يورك وقتًا طويلًا، عيناه رماديتان غير مقروءتين كالدخان. أخيرًا قال: «حسنًا. سأنتبه لنفسي».

راقبه مارش وهو ينزل إلى المرسى ويختفي في ناتشيز أسفل التل. جسده الرشيق يلقي ظلالًا طويلة تحت المصابيح. بعدما اختفى چوشوا يورك عن نظره، اتجه مارش إلى غرفة الرُّبان. الباب مغلق كما عهده. مد مارش يده في جيب معطفه فأخرج المفتاح.

تردد قبل أن يدسه في القفل. نَسْخ المفاتيح وإيداعها خزينة الباخرة ليس خيانة، مجرد تأمين. يموت الناس في غرفهم المغلقة أحيانًا، والأفضل أن يكون معه مفاتيح بدلًا عن كسر الأبواب. لكن استخدام المفاتيح على هذا النحو أمر آخر. لقد عقد اتفاقًا قبل كل شيء، لكن يجب على الشركاء أن يثق بعضهم ببعض، وإن لم يكن چوشوا يورك يثق به، فكيف يتوقع الثقة في المقابل؟ بهذا المنطق، فتح مارش الباب ودخل غرفة يورك.

أوقد بالداخل مصباح زيت، وأغلق الباب من خلفه. نظر حوله متسائلًا عما يتوقع أن يجده. غرفة يورك مجرد غرفة كبيرة متعددة الأغراض، تبدو كما كانت في زيارات مارش السابقة. على ذلك، لا بد أن فيها ما قد يخبره شيئًا عن يورك، أو يُلمِّح له عن طبيعة غرابة أطوار شريكه.

اتجه مارش إلى المكتب الذي بدا أفضل موضع للبدء. جلس بحرص على مقعد يورك، وبدأ يقلب صفحات الصحف. حاذر من أن يغير مواضعها، وحفظ مكان كلٍّ منها كي يعيدها إليه بعد فحصها. كانت الصحف... مجرد صحف. لا بد أن منها خمسين عددًا على المكتب، منها القديم والحديث،

المشهور والمغمور. منها صحف نيويورك وشيكاغو، ودوريات سانت لويس ونيو أورلينز، وجرائد من نابليون وباتون روچ وممفيس وجرينڤيل وڤيكسبرج وبايو سيرا، وإصدارات أسبوعية من عشرات بلدات النهر. أغلبها سليم، وبعضها ينقصها أخبار.

وجد مارش تحت أكوام الصحف دفترين بغلافين جلديين. سحبهما ببطء محاولًا تجاهُل تقلصات معدته العصبية. فكر مارش في أنه ربما يجد فيهما مذكرات أو يوميات، أو ما يخبره تفاصيلَ ذهاب يورك وإيابه. لكن لم يجد فيها يوميات، بل قصاصات من صحف مثبتة بعناية إلى صفحات الدفتر، مكتوب فوق كل واحدة منها تاريخ ومكان بخط يد چوشوا. على الصفحة المقابلة خبر من ڤيكسبرج عن عثور عائلة على ميتيْن في كوخ على بعد عشرين ميلًا من المدينة. الميتان متصلِّبا الجثتين هما امرأة زنجية -غالبًا أَمَة هاربة- ورجل زنجي -غالبًا عبد هارب- ويبدو أن ميتتهما مجهولة السبب.

قلب مارش الصفحة، ثم عاد إليها، ثم قلبها. بعد هنيهة فتح الدفتر الآخر فوجده مشابهًا للأول. صفحة تلو الأخرى تحمل أخبار الجثث، والموت الغامض، والقتلى المبعثرين هنا وهناك، كلها مُصنَّفة بترتيب المدن. أغلق مارش الدفترين وأعادهما إلى مكانهما وشرع يفكر. في الصحف عدد كبير من أخبار القتل والموت التي لم يقتطعها يورك. لماذا؟ بحث بين صفحات الجرائد وقرأها حتى تأكد، فعقد حاجبيه. يبدو أن چوشوا غير مهتم بأخبار القتل بالرصاص ولا الطعن بالسكاكين، ولا بأخبار غرق البحارة أو انفجارات الغلايات، ولا بالمقامرين مبقوري البطون في الحارات. كل الأخبار التي يجمعها عن الموتى الذين قد لا ينتبه لهم أحد؛ القتلى ممزقي الحناجر، أو الجثث المشوهة مقطوعة الأوصال، أو التي تحللت بما يتعدى القدرة على تبيُّن أسباب موتها، أو تلك التي لم يتبين أحد جروحها في البداية بسبب صغر حجم هذه الجروح، وجفاف الجثث من دمائها تمامًا.

بين صفحات الدفترين أكثر من ستين خبرًا. تسعة أشهر من أخبار الموت حول أدنى نهر المسيسبي.

خاف مارش، وغاص قلبه في صدره بمجرد تفكيره في أن چوشوا ربما يحتفظ بسجل لأفعاله الخاصة. لكن بعد لحظات تفكير أخرى تأكد من استحالة ذلك، فقد رافقه چوشوا في سانت لويس ونيو ألباني، وعلى متن حلم

فيڤر في الوقت نفسه الذي لقي بعض هؤلاء الناس مصارعهم. لا يمكن أن يكون مسؤولًا عن وفاتهم.

على ذلك ظل مارش متأكدًا من وجود نسق ما وراء الأماكن التي طلب يورك النزول فيها لجولاته. إنه يزور مسارح هذه الجرائم واحدًا تلو الآخر. عمَّ يبحث يورك؟ عمَّ... أو عمَّن؟ عدو؟ عدو فعل كل هذا بطريقة ما ويتنقل بين مدن النهر؟ لو أن الأمر كذلك، فچوشوا في فريق الخير. لماذا التكتُّم إذًا لو كان غرضه مقبولًا؟

أدرك يورك أن الأمر قد يتورط فيه أكثر من عدو واحد. لا يمكن أن يكون فردًا هو المسؤول عن كل هذه الجرائم المتناثرة. كما أن چوشوا ذكر «أعداءً». إضافة إلى ذلك، فقد عاد يورك من نيو مدريد بدماء جافة على كفيه، لكن هذا لم يُنه مهمته.

كيف لا يمكن أن يستنتج مارش شيئًا من كل هذا؟

فتش مارش الأدراج ومواضع التخزين في مكتب يورك. أوراق، أدوات مكتب أنيقة منقوش عليها شعار حلم فيڤر، أظرف، حبر، نصف دستة أقلام، محبرة، خارطة النهر الملاحية بعلامات على بعض أماكن فيها، مُلَمِّع أحذية، شمع أختام... باختصار: لا شيء ينفع بحثه. في أحد الأدراج وجد خطابات، لكنه لم يجد فيها ما يضيف إليه. خطابان منهم يبلغانه رصيده في مصرف، والأخرى مجرد مخاطبات عمل من وكلاء في لندن ونيويورك وسانت لويس ومدن أخرى. أمسك مارش خطابًا من مصرفي في سانت لويس يجذب فيه انتباه يورك لشركة خطوط نهر فيڤر الملاحية. كتب الرجل: «أعتقد أنها الأنسب لأغراضك كما وصفتها. مالكها رجل نهر خبير، ذو سمعة جيدة. يقال إنه قبيح الشكل، لكنه عادل وأمين، ومؤخرًا واجه مشكلات في العمل تجعله أكثر قابلية لقبول عرضك».

واستمر الخطاب، لكنه لم يخبر مارش ما لا يعرفه.

أعاد الخطابات إلى حيث وجدها، ثم قام أبنَر مارش يجول في الغرفة بحثًا عما قد ينير طريقه. لم يجد شيئًا سوى ملابس في الأدراج، وخمر يورك كريه الطعم، وبدلة معلقة في خزانة ثياب، وكتب في كل مكان. تحقق مارش من عناوين تلك التي على المنضدة المجاورة لفراش يورك. منها كتاب شعر لشيلي، وآخر طبي لا يكاد يفقه من سطوره شيئًا. فوق الأرفف الأخرى الأنواع نفسها؛ المزيد من الأدب والخيال، كتب تاريخ وطب وفلسفة وعلوم طبيعة،

ومرجع عتيق في السيمياء، ورف كامل من الكتب بلغات أجنبية، وبضع كتب غير معنوَنة، أغلفتها من الجلد وصفحاتها مُذهَّبة الحواف. جذب مارش واحدًا منها على أمل أن يجد فيه يوميات أو مذكرات تمنحه إجابة تساؤلاته، لكن إن كانت كذلك، فهو عاجز عن قراءتها؛ الكلمات غريبة مُلغَّزة، والخط لا يشبه خط يورك النضيد، بل صغير مشوش.

جال مارش للمرة الأخيرة في أرجاء الغرفة ليتأكد من أنه لم يغفل تفصيلة، ثم أخيرًا قرر المغادرة دون أن يكتسب حكمة أكثر من التي جاء بها. أدخل المفتاح في القفل وأداره بحذر، ثم أطفأ المصباح بنفخة زفير، وخرج وأغلق الباب من خلفه. رغم تناقص درجة الحرارة بالخارج، وجد مارش نفسه غارقًا في العرق. أعاد المفتاح إلى جيب معطفه، ثم استدار ليرحل.

ثم توقف. على بعد عدة ياردات، رأى المرأة العجوز كاثرين تقف محدقة إليه بعينين تشعان برودة وقسوة. قرر مارش تجاهل النظرة ومسَّ طرف قبعته محييًا وقال لها: «مساء سعيد يا سيدتي».

ابتسمت كاثرين ببطء، ابتسامة ملتوية كريهة لوَت ملامحها الشبيهة بالقناع، وقالت له: «مساء سعيد يا كابتِن».

لاحظ مارش طول أسنانها الغريب واصفرار لونها.

***

عشرة



نيو أورلينز
أغسطس 1857

بعدما غادر أدريان وألين على متن الباخرة «ملكة القطن»، قاصدين باتون روچ وبايو سيرا، قرر دامون چوليان أن يذهب إلى مقهى فرنسي يعرفه قرب المرفأ. مشى بيلي تيبتون الشرس إلى جواره في حذر، يسدد نظرات الريبة نحو المارة، ومن خلفهما باقي جماعة چوليان؛ كُرت، وسينثيا يسيران معًا، وأرماند في المؤخرة يشتعل غضبًا وقلقًا وقد مسَّه الظمأ، أما ميشيل فقد مكث في المنزل.

ورحل الآخرون، اختفوا، أرسلهم چوليان إلى أعالي النهر وأدناه على متن بواخر متفرقة بحثًا عن المال والأمان وعن مكان جديد يجمعهم؛ اقتنع چوليان أخيرًا بضرورة هذه الخطوة.

ضوء القمر ناعم ولامع كالزبد فوق سطح الماء، واختفت النجوم. على طول المرفأ عشرات البواخر تصطف جوار السفن بمقدماتها العالية وأشرعتها المرفوعة. ينقل الزنوج القطن والسكر والدقيق من باخرة أو سفينة إلى أخرى. الهواء رطب مُعطَّر، والشوارع مكتظة.

وجدوا طاولة تمنحهم فرصة رؤية كامل الرصيف، وطلبوا قهوة بالحليب، وفطائر السكر المقلية التي يشتهر بها المقهى. قضم بيلي الشرس واحدة، فتلوثت صدريته وكُمَّاه بالسكر. أطلق سبة عالية.

ضحك دامون چوليان. ضحكته عذبة كضوء القمر.

- آه يا بيلي. كم أنت مُسلٍّ.

يبغض بيلي الشرس أن يضحك عليه أحد أكثر مما يبغض أي شيء آخر، لكنه نظر إلى عيني چوليان الداكنتين وأرغم نفسه على الابتسام، وقال بهزَّة رأس حزينة: «أجل يا سيدي».

أكل چوليان حلواه بأناقة، ولم يُبيض السكر رمادية بدلته الداكنة، أو لمعة ربطة عنقه القرمزية. بعدما انتهى، شرب قهوته الفرنسية بالحليب بينما تمسح عيناه المرفأ وتجول بين المارة على الطريق. قال باقتضاب: «ها هي. المرأة أسفل الشجرة».

نظر الآخرون، فأضاف: «أليست مذهلة؟».

كانت امرأة كريولية، بمرافقة رجلين خطري المظهر. حدق دامون چوليان إليها كالولهان، وجهه الشاحب هادئ ساكن، شعره كتلة مهوشة مموجة داكنة، عيناه كبيرتان كئيبتان. عبر الطاولة شعر بيلي الشرس بالتوهج في تلك العينين، وخاف.

قالت سينثيا: «بارعة الحسن».

أضاف أرماند: «شعرها كشعر ڤاليري».

ابتسم كُرت هامسًا: «هل ستأخذها يا دامون؟».

المرأة ومرافقاها يبتعدون عنهم، يسيرون أمام سور حديدي مزخرف. راقبهم دامون چوليان مفكرًا وقال أخيرًا: «لا».

واستدار نحو الطاولة يكمل شرب قهوته.

- ما زال الليل طفلًا، والشوارع مزدحمة، وأنا مرهق. لننتظر.

بدا أرماند متضايقًا. ابتسم له چوليان في اقتضاب ومال واضعًا يده على كُم أرماند وقال: «سنشرب قبل حلول الفجر. لك كلمتي».

قال بيلي الشرس متآمرًا: «أعرف مكانًا. بيتًا راقيًا للغاية، فيه مشرب، ومقاعد من المخمل الأحمر، وخمر جيد. كل الفتيات هناك جميلات، سترون. في الصباح... حسنًا...».

وضحك مضيفًا: «لكننا سنكون قد رحلنا بعدما يكتشفون ما سيكتشفون. والأمر أقل تكلفة من شراء الفتيات الجميلات. أجل يا سيدي».

قال دامون چوليان بعينين مشتعلتين حماسة: «بيلي سيجعلني أبخُل! لكن ماذا كنا سنفعل لولاه؟».

نظر حوله مرة أخرى وقال في ملل: «لا بد أن أزور المدينة أكثر. عندما ينزوي المرء يفقد رؤية كل هذه الملذات». ثم زفر وأضاف: «هل تشعر يا بيلي؟ الهواء مفعم بها!».

سأل بيلي الشرس: «بأي شيء؟».

- بالحياة يا بيلي!

ضايقته ابتسامة چوليان، لكن بيلي أرغم نفسه على رد الابتسامة بالمثل. أردف چوليان: «بالحياة والحب والشهوة. بالطعام اللذيذ والخمر المعتق، والأحلام والآمال يا بيلي. كل هذا هنا، حولنا. كل الفرص متاحة».

لمعت عيناه وهو يكمل: «لماذا أتبع الجمال العابر أمامنا، بينما تضج المدينة بكثير غيره، بفرص لا نهائية؟ هل لديك إجابة؟».

- أنا... سيدي چوليان، ليس لدي...

- لا يا بيلي. ليس لديك إجابة، أليس كذلك؟

ضحك چوليان مضيفًا: «نزواتي مسألة حياة أو موت بالنسبة إلى هذا القطيع يا بيلي. لو أنك ستكون واحدًا منا، يجب أن تفهم هذا. أنا اللذة يا بيلي. أنا القوة. وجوهر ماهيتي، وجوهر اللذة والقوة يكمن في الفرص، وفرصي لا نهائية، بلا حدود. هل بدأت تفهم؟ إطفاء الظمأ الأحمر لا يعتبر شيئًا، وأي أسود على فراش موته سيكفينا. مع ذلك، أي متعة قد تنالها من الأصغر، والأكثر ثراء، والأبهى طلعة، وأولئك الذين تمتد الحياة أمامهم، وتضوي لياليهم وأيامهم بالوعود! الدم دم، أي حيوان يمكنه الارتشاف من أي واحد منهم».

وأشار نحو رجال البواخر على المرفأ، والزنوج الذين يحملون البراميل، وكل الأثرياء المتأنقين، وقال: «ليست الدماء ما تجعل المرء نبيلًا أو سيدًا، بل الحياة يا بيلي. اشرب من حيواتهم فتمتد حياتك. التهم لحومهم فتزداد قوتك. تغذَّ على الجمال واكتمل!».

أنصت بيلي تيبتون الشرس في تلهُّف؛ قلما رأى چوليان منفتحًا متكلمًا. يميل سيده إلى الجلوس في ظلام المكتبة، كئيبًا مخيفًا. لكن عندما خرج إلى ما وراء جدران بيته تألق مرة أخرى ذكَّره بالمرة الأولى التي التقاه فيها عندما جاء مع شارل جارو إلى المزرعة التي عمل فيها بيلي مشرفًا.

أومأ چوليان كأنما قرأ أفكاره.

- أجل، المزرعة آمنة، لكن في الأمان والسكن يكمن الخطر. شارل جارو. آه... فرص الشباب! كان جميلًا بطريقته، قويًّا، صحيح البدن. جمرة ملتهبة، تعشقه النساء ويحترمه الرجال. حتى السود أحبوا سيدهم شارل. لو عاش لكانت حياته عظيمة! طبيعته أيضًا كانت منفتحة، ما سهَّل عليَّ مصادقته، واكتساب ثقته بإنقاذه من كُرت البائس هذا.

قاطع چوليان نفسه بضحكة، ثم أكمل: «وبمجرد أن رحب بي في بيته، صارت زيارته كل ليلة لتصفية دمه تدريجيًّا أسهل، لذا بدا كأنما مرض فمات. في مرة استيقظ وأنا في غرفته، وظن أنني جئت أعوده في مرضه. ملت على فراشه، فمد يده يقربني منه، وشربت. آه من حلاوة شارل، وكل القوة والجمال اللذين ارتشفتهما منه!».

فرح بيلي الشرس بموت شارل جارو، فلطالما كان يشكو إلى أبيه قسوة بيلي على العبيد، وحاول طرده مرات، وكأنه سيستطيع استخلاص أي عمل من الزنوج بالطيبة والطراوة.

قال چوليان: «حزن السيد جارو كثيرًا لموت ابنه، وكنت محظوظًا بوجودي إلى جواره لمواساته في مصابه. لطالما كنت صديق ابنه المقرب، وأخبرني لاحقًا أنني صرت في مقام ابن رابع له».

يتذكر بيلي الشرس هذا بدقة. لقد تعامل چوليان مع الأمر بمهارة بعدما تخلى الأبناء الأصغر عن أبيهم؛ كان چان بيِّر سكِّيرًا، وفيليب مخنثًا بكى كالنساء في جنازة أخيه، لكن چوليان كان مثالًا لقوة الرجال. دفنوا شارل عند آخر المزرعة في مقابر العائلة. الأرض رطبة في هذا المكان. أودعوه قبره أسفل شاهد رخامي ضخم، يعلوه تمثال ملاك مُجنَّح. ظل المكان هناك لطيفًا باردًا حتى في قيظ أغسطس. ذهب بيلي الشرس إلى القبر عدة مرات خلال تلك السنوات ليشرب ويبول فوق شارل بالأسفل. في مرة جرَّ زنجية إلى هناك، وضربها وعاشرها ثلاث أو أربع مرات، فقط كي يرى شبح شارل الطريقة المثلى لمعاملة العبيد.

وكان شارل هو البداية فقط. بعد ستة أشهر، خرج چان بيِّر إلى المدينة ليفسق ويقامر، ولم يعد. ولم يمر وقت طويل حتى مزَّق حيوان ما أخاه الخجول فيليب في الغابة. اعتل قلب جارو الأب في ذاك الوقت، لكن دامون چوليان مكث في رفقته خلال كل هذا، يساعده ويشد أزره. أخيرًا تبنَّاه جارو، وكتب وصية جديدة تُملِّكه كل شيء.

ثم جاءت ليلة بعد ذلك لم ينسها بيلي الشرس، عندما برهن دامون چوليان على سطوته أمام العجوز رينيه جارو. كانت ڤاليري هناك، وكذا أدريان وألين. كانوا جميعًا يعيشون في البيت الكبير، فكل صديق لچوليان مُرحَّب به في بيت جارو. شاهدوا مع بيلي الشرس وقوف دامون چوليان إلى جوار الفراش الضخم، يخترق الرجل العجوز بعينيه السوداوين، وابتسامته المخيفة، ويخبره بالحقيقة؛ حقيقة ما حدث لشارل وچان بيِّر وفيليب. وضع چوليان ليلتها خاتم شارل المنقوش باسمه الذي كان يستخدمه ختمًا، وعلَّقت ڤاليري نسخته الأخرى في سلسلة حول عنقها، والذي كان ملكًا لچان بيَّر. لم ترغب في تعليقه. غالبها الظمأ، وأرادت الانتهاء من جارو العجوز سريعًا دون حديث، لكن چوليان هدَّأ اعتراضها بكلماته الحانية وعينيه الباردتين، لذا علقت الخاتم ووقفت ساكنة تنصت.

عندما أنهى چوليان حكايته، كان جارو يرتجف، وعيناه الدامعتان تفيضان ألمًا وكراهية. ثم فجأة طلب دامون چوليان من بيلي الشرس أن يناول الرجل المسن سكينه، لكن بيلي احتج قائلًا: «هو لم يمت بعد يا سيدي چوليان. سيبقر بطنك».

لكن چوليان نظر إليه وابتسم، فأطاع بيلي الشرس وأخرج السكين ووضعها في يد جارو المجعَّدة المُرقَّطة. ارتجفت يد العجوز حتى خشي بيلي أن يُسقط الشيء اللعين، لكنه تمسك بالسكين بشكل ما. جلس دامون چوليان على طرف الفراش وقال بصوت هادئ منساب كالماء: «رينيه. أصدقائي ظمأى».

هذا كل ما قاله. قدَّم ألين كأسًا بلورية منقوشة بشعار العائلة، فشق رينيه جارو شريان رسغه، وملأ الكأس بدمه المتدفق الأحمر وهو يصرخ ويرتجف طوال الوقت. انتقل الكأس بين ڤاليري وألين وأدريان، ثم وصل في النهاية إلى دامون چوليان لينهي ما فيه، بينما جارو ينزف على فراشه حتى الموت.

قال كُرت: «منحنا جارو أعوامًا جيدة».

أخرجت عبارته بيلي الشرس من ذكرياته.

- عشنا أثرياء آمنين معزولين، والمدينة قريبة منا لو احتجنا إليها، والطعام والشراب والزنوج في انتظارنا، وفتاة حسناء كل شهر.

قال چوليان في حزن: «لكن كل شيء انتهى. مصير كل شيء للزوال. هل تحزن لهذا يا كُرت؟».

- الأمور لم تعد كما كانت. الغبار في كل مكان، والمنزل يتعفن، والفئران... لست متلهفًا للانتقال مرة أخرى يا دامون. لسنا في أمان في العالم بالخارج. بعد الصيد يلازمنا الخوف، ونضطر إلى الاختباء والهرب. لا أريد أن أفعل هذا مجددًا.

- هذا صحيح للأسف، لكنك ما زلت شابًّا يا كُرت. تذكَّر أنه مهما شعرت بالضعف، فأنت السيد. ستراهم يموتون هم وأبناؤهم وأبناء أبنائهم. لقد تحول بيت جارو إلى أطلال. لا يهم. كل ما يخلقه هؤلاء القطيع يتحول إلى أطلال. لقد رأيت روما نفسها تنهار. فقط نحن من نستمر. وربما نجد رينيه جارو آخر.

قالت سينثيا في قلق: «ما دمنا معك».

هي امرأة جميلة، بعينين بنيتين، وقد صارت مفضلة چوليان بعد رحيل ڤاليري، لكن حتى بيلي الشرس يعرف أنها لا تشعر بالأمان حيال مكانتها الجديدة. أردفت: «الأمر أصعب لو كنا وحدنا».

سألها دامون چوليان مبتسمًا: «إذًا أنت غير راغبة في الرحيل عني؟».

- لا، رجاءً.

نظر إليه كُرت وأرماند. لقد بدأ چوليان فجأة في إرسال رفاقه إلى أماكن مختلفة منذ شهر. نُفِيَت ڤاليري أولًا بناء على رغبتها، فأركبها النهر لكن دون چين المثير للشغب، وأرسل معها رايموند القاسي القوي، أو كما يقال عنه: ابن چوليان. «سيحميها رايموند». قالها چوليان ليلتها وهي راكعة أمامه. سمح لچين بالرحيل بمفرده في الليلة التالية، وظن بيلي الشرس أن هذه هي نهاية الأمر. لكنه كان مخطئًا؛ في عقل چوليان خطط جديدة، لذا أرسل چورچ بعيدًا بعد أسبوع، ثم كارا وڤينسيت، ثم الآخرين منفردين أو في أزواج. والآن، من مكث منهم عرفوا أنهم ليسوا آمنين.

قال چوليان مستمعًا لسينثيا: «آه، حسنًا. لم يعد منا سوى خمسة الآن. لو التزمنا الحذر، وجعلنا فتاة جميلة واحدة تكفينا لـــ... لنقل شهرًا أو اثنين، أظن أن في وسعنا الصمود حتى الشتاء. وقتها سيكون واحد على الأقل ممن

رحلوا قد أرسل إلينا بما عرف. سننتظره وسنرى. حتى وقتها، ستمكثين معي يا عزيزتي. وكذا ميشيل، وأنت يا كُرت».

بدا أرماند مذعورًا وهو يهتف: «وأنا؟ دامون! أرجوك!».

- هل هو الظمأ يا أرماند؟ ألهذا ترتجف؟ تحكَّم في نفسك. هل ستمزق وتقطع أوصال من سنقابلهم من أصدقاء بيلي؟ تعرف كم يثير هذا استيائي. ما زلت أفكر في مصيرك يا أرماند.

نظر أرماند إلى كوبه الفارغ. أعلن بيلي الشرس: «أنا سأبقى معك».

قال دامون چوليان: «آه، بالطبع. ماذا سنفعل دونك؟».

لم تعجب بيلي الشرس الابتسامة على وجه چوليان، لكن لم يكن من شيء يفعله حيال ذلك.

بعد وقت قصير، انطلقوا إلى المكان الذي اقترحه بيلي. البيت خارج شارع ڤيو كاريه، في القطاع الأمريكي من نيو أورلينز لكن على بعد مسافة سير. تقدمهم دامون چوليان عبر الأزقة المضاءة بمصابيح الكيروسين، ممسكًا بيد سينثيا، على وجهه شبح ابتسامة يراقب بها الشرفات ذات الأسوار الحديدية المزخرفة، والبوابات التي تُفضي إلى باحات ذوات نافورات ومشاعل. أرشدهم بيلي الشرس. سرعان ما وصلوا إلى المنطقة الموحشة المظلمة من البلدة، حيث البيوت مصنوعة من الخشب أو الطمي الممزوج بمسحوق الأصداف والرمل. حتى أنوار المصابيح لم تمتد إلى هذه الجهة، رغم أن البلدة مضاءة بالكامل منذ عشرين عامًا.

في الأركان مصابيح زيت مُعلَّقة على سلاسل حديدية أفقية بعرض الشوارع، مثبتة بخطاطيف ضخمة إلى حوائط البيوت. تضيء المصابيح محترقة بضوء دخاني. عبر چوليان وسينثيا من بقع الضوء إلى الظلال ثم إلى الضوء مرة أخرى، يتبعهما بيلي الشرس والآخرون.

خرج ثلاثة رجال من حارة، وقطعوا طريقهم. تجاهلهم چوليان، لكن أحد الرجال لمح بيلي الشرس وهو يعبر من تحت مصباح، فصاح: «أنت!».

نظر بيلي الشرس إليهم ولم يقل شيئًا. كانوا من شباب الكريوليين، نصف سكارى، وبالتالي خطرون.

قال الرجل: «أعرفك يا مسيو».

اقترب من بيلي الشرس، وجهه يلتهب بالغضب والخمر.

- هل نسيتني؟ كنت مع چورچ مونريو في اليوم الذي قابلته فيه في البورصة الفرنسية.

تعرَّفه بيلي الشرس، فقال: «هكذا إذًا».

- اختفى مسيو مونريو في ليلة من شهر يونيو، بعد ليلة من لعب القمار في سانت لويس.
- أنا حزين حقًّا. أظنه ربح أكثر من اللازم، فسُرِق لحظِّه السيئ.
- بل خسر يا مسيو. لقد كان يخسر منذ أسبوعين، ولم يكن معه ما يُسرَق. لا، لا أظن الأمر سرقة. أظنه أنت يا سيد تيبتون. كنت أتحرى عنك. أنت لست نبيلًا يا مسيو، أم لا بد أن أذكرك بأصلك؟ لو تجرأت وأريتنا وجهك في ڤيو كاريه مرة أخرى، أعدك أن أجلدك في الشارع كالزنوج العبيد. هل تسمعني؟
- أسمعك.

ثم بصق على حذاء الرجل. لعن الكريولي وسبَّ، واشتعل غيظًا. خطا خطوة إلى الأمام ومد يده نحو بيلي الشرس، لكن دامون چوليان حال بينهما وأوقف الرجل بدفعة بسيطة إلى صدره. قال چوليان بصوت كالخمر والعسل: «مسيو».

فتوقف الرجل حائرًا.

- أؤكد لك أن السيد تيبتون لم يؤذ صديقك.
- من أنت؟

رغم سُكِره سأل الكريولي وقد أدرك أن چوليان يختلف تمامًا عن بيلي الشرس، بملابسه الأنيقة وملامحه الباردة، وصوته الراقي وكل ما يشير إلى أنه نبيل. لمعت عينا چوليان في خطورة تحت نور المصباح.

- أنا من يعمل لديه السيد تيبتون. هلا ناقشنا الأمر في مكان ما بعيدًا عن الشوارع العامة؟ أعرف مكانًا يمكننا فيه أن نجلس تحت القمر ونشرب بينما نتكلم. هل توافق على أن أدعوك وصديقيكَ على شراب؟

خطا واحد من الكريوليين ليقف إلى جوار صديقه وقال: «لنسمعه يا ريتشارد».

فأطاع الشاب مرغمًا. قال چوليان: «بيلي، أرشدنا إلى الطريق».

كتم بيلي الشرس ابتسامته وأومأ، ثم قادهم. بعد عدة مبانٍ، انعطفوا إلى حارة أفضت بهم إلى ساحة مظلمة. جلس بيلي الشرس على حافة حوض نافورة ممتلئ بالقاذورات، فابتل سرواله، لكنه لم يبالِ. سأل صديق مونريو: «ما هذا المكان؟ هذه ليست حانة!».

قال بيلي تيبتون الشرس: «حسنًا، حسنًا. لا بد أنني اتخذت منعطفًا خاطئًا».

دخل الكريوليان الآخران إلى المكان، يتبعهم جماعة چوليان. وقف كُرت وسينثيا عند مدخل الحارة، واقترب أرماند أكثر من النافورة. قال أحد الرجال: «لا يعجبني هذا».

- ما معنى ما تفعلون؟

سأله دامون چوليان: «المعنى؟ آه... ساحة مظلمة، ضوء القمر، نافورة. صديقك مونريو مات في مكان كهذا يا مسيو. ليس في المكان نفسه، بل آخر مماثِل. لا، لا تنظر نحو بيلي. لا لوم عليه. إن كنت ستتشاجر، فتشاجر معي».

قال صديق مونريو: «أنت؟ حسنًا إذًا. اسمح لي أن أتراجع للحظة، وسيكون رفيقاي مساعديَّ في هذه المبارزة».

- تفضَّل.

ابتعد الشاب، وانفرد بصديقيه. خطا أحدهما إلى الأمام، فقام بيلي الشرس من مجلسه وقابله.

- سأكون مساعد السيد چوليان. هل تريد أن تضع شروطًا؟

- لا تليق بأن تكون مساعدًا في مبارزة نبلاء!

كرر بيلي الشرس ويده خلف ظهره: «ضع شروطًا للمبارزة. أنا شخصيًّا أفضل السكين».

أطلق الشاب نخرة مكتومة، وتراجع إلى الخلف وهو ينظر إلى أسفل في ذعر ليرى سكين بيلي الشرس مغروزة حتى النصل في أمعائه، وبقعة حمراء تتوسع ببطء عبر صدريته. همس: «يا إلهي».

قال بيلي الشرس: «هذا أنا فقط. ولست نبيلًا، لا يا سيدي، ولا أليق بأن أكون مساعدًا في مبارزة ثلاثية، ولا السكاكين تليق أيضًا».

هوى الشاب على ركبتيه، فانتبه له صديقاه أخيرًا، وانطلقا نحوه. ابتسم بيلي وأضاف: «والآن دور السيد چوليان، ولديه أفكار جديدة. سلاحه... أسنانه».

هاجم چوليان صديق مونريو المدعو ريتشارد، وحاول الآخر الفرار، لكن سينثيا لاقته عند بداية الحارة، ومنحته قبلتها الخاصة. حاول التملص لكنه فشل في الفكاك منها. يداها الشاحبتان تمسِّدان مؤخرة عنقه، وتنزلق أظفارها الحادة كالأمواس على عروقه، تبتلع بشفتيها ولسانها صرخاته.

أخرج بيلي الشرس سكينه من بطن القتيل، بينما مال أرماند يتولى الضحية. بدت الدماء على السكين تحت القمر سوداء. همَّ بيلي الشرس بغسلها في حوض النافورة، ثم تردَّد. رفع السكين إلى شفتيه، ولعق سطحها. ثم أجفل متقززًا. الطعم بشع، لا كما ذاقه في أحلامه. ربما يتغير هذا عندما يحوِّله چوليان. بل هو متأكد.

غسل بيلي الشرس سكينه وأعادها إلى غمدها. سلَّم دامون چوليان ضحيته ريتشارد إلى كُرت، ووقف ينظر إلى القمر. اقترب منه بيلي الشرس وقال: «وفرنا على أنفسنا بعض المال».

وابتسم چوليان.

***

أحد عشر



على متن الباخرة حلم فيڤر
ناتشيز
أغسطس 1857

امتدت الليلة طويلًا بالنسبة إلى أبنر مارش. تناول وجبة خفيفة ليُخرِس جوعه وليهدئ روعه، ثم عاد إلى غرفته، لكن النوم جافاه. لساعات رقد يحدق إلى الظلال، أفكاره تتسارع في عقله، خواطره خليط من الشك والغضب والشعور بالذنب. تحت الغطاء الخفيف، تعرَّق مارش كخنزير. عندما نام ظل يتقلَّب وسط نومه المتقطع وأحلامه الغريبة عن الدماء والبواخر المحترقة والأسنان المصفرة، وعن چوشوا أنتون يورك يقف شاحبًا باردًا تحت ضوء قرمزي، والحمى والموت وراء عينيه الغاضبتين.

كان اليوم التالي هو أطول يوم عاشه أبنر مارش. دارت به أفكاره وعادت إلى النقطة نفسها، وبحلول الظهيرة عرف ما عليه فعله. لقد رأته اللعينة، وعليه أن يخبر چوليان بما حدث صراحة، حتى لو كان ثمن هذا انتهاء شراكتيهما. التفكير في خسارة حلم فيڤر أمرض مارش وأقلقه، وأعاد إليه ذكرى اليوم الذي رأى فيه ما فعل الجليد في بواخره. ستكون هذه نهايته، وربما استحق هذا لخيانته ثقة چوشوا. ما كان عليه أن يدع الأمور تنحدر إلى هذا الحد. يجب أن يسمع چوشوا ما حدث منه شخصيًّا، فقرر مارش أن يذهب إليه قبل أن تفعل تلك المرأة كاثرين.

أذاع بين الناس أنه يرغب في أن يخبروه لحظة يعود چوشوا، متى عاد ومهما بلغ انشغال مارش. ثم انتظر، وبحث عما يعزيه في عشاء من لحم الخنزير المشوي والبازلاء والبصل، أتبعه بنصف فطيرة توت أزرق.

قبل منتصف الليل بساعتين، جاءه واحد من الطاقم يهتف: «عاد كابتِن يورك يا كابتِن، ومعه آخرون. أسكنهم السيد چيفرز الغرف».

سأله مارش: «هل عاد چوشوا إلى غرفته؟».

أومأ الرجل إيجابًا، فأمسك مارش عصاه وهرع إلى الدَّرج.

تمهَّل قليلًا خارج غرفة يورك، ففرد كتفيه المتهدلتين، ثم طرق بطرف عصاه الباب. فتح يورك عند الطرقة الثالثة. قال مبتسمًا: «ادخل يا أبنر».

دخل مارش وأغلق الباب خلفه واستند إليه بينما يورك يعبر الغرفة ليُكمل ما كان يفعل. كان قد جهَّز صحفة فضية وثلاث كؤوس، والآن يمد يده ليحضر الرابعة.

- أنا سعيد أنك حضرت. لقد جلبت بعض الركاب وأريدك أن تقابلهم. سيأتون لتناول الشراب معنا بمجرد أن يستقروا في غرفهم.

جذب يورك زجاجة من شرابه الخاص من رف الخمور، وأخرج سكينًا قطع بها الختم الشمعي. قال مارش في جدية: «دعك من هذا يا چوشوا. يجب أن نتحدث».

وضع يورك الزجاجة على الصحفة، واستدار ليواجه مارش.

- عمَّ سنتحدث؟ تبدو منزعجًا يا أبنر.

- معي مفاتيح احتياطية لكل غرفة من غرف الباخرة. يحتفظ بها السيد چيفرز في خزينة. عندما خرجت إلى المدينة، أخذت مفتاحك وفتشت غرفتك.

بالكاد تحرك چوشوا يورك، لكن بعدما سمع ما قال مارش، زمَّ شفتيه. نظر أبنر إلى عينيه مباشرة كما يجب على الرجل أن يفعل في ظروف كهذه. استشعر البرودة فيهما، ثم غضب الخيانة. كان يفضل لو يصرخ فيه چوشوا، أو حتى يستل سلاحه بدلًا عن التحديق إليه بهاتين العينين. سأله چوشوا في النهاية بصوت مُسطَّح: «وهل وجدت شيئًا مهمًّا؟».

انتزع مارش نفسه من عيني چوشوا الرماديتين، وأشار بعصاه إلى المكتب وقال: «دفتريك المتخمين بأخبار الموتى».

لم يقل يورك شيئًا. ألقى نظرة خاطفة على المكتب، وعقد حاجبيه، ثم جلس على واحد من مقعديه الوثيرين وصبَّ لنفسه كأسًا من السائل السميك.

جرع منه، ثم أشار إلى مارش ليجلس. جلس مارش أمامه، فأضاف يورك كلمة أخيرة: «لماذا؟».

أجاب مارش في حنق: «لماذا؟ ربما لأنني سئمت من شريكي الذي لا يخبرني أي شيء. لماذا لا تثق بي؟».

- بيننا اتفاق.

- أعرف هذا يا چوشوا، وأنا آسف لو أن أسفي ذو قيمة. آسف على ما فعلت، وآسف لأن كاثرين هذه رأتني وأنا أغادر. ستتحدث معك. اسمع، الأفضل لو كنت صارحتك بما يقلقني، وها أنا أفعل الآن. ربما فات الأوان، لكن هأنذا. يا چوشوا، أنا أحب هذه الباخرة أكثر مما أحببت أي شيء في حياتي، ويوم ننتزع تاج الباخرة شفق عنها سيكون أفضل يوم عشته. لكني الآن أجد أن التخلي عن هذا اليوم وعن هذه الباخرة أفضل من الاستمرار في شراكتنا بهذا الشكل. النهر ممتلئ بالنصابين والدعاة ومناهضي العبودية والجمهوريين وكل أنواع غريبي الأطوار، لكني أقسم إنك الأغرب بينهم. لا أمانع في تفضيلك ساعات الليل، هذا لا يهمني، لكن الدفاتر الملآنة بالموتى أمر آخر، وعلى ذلك، تفصيلاتك في القراءة ليست من شأن أحد. عرفت قبطانًا عمل على متن جراند تُرك، كان يحتفظ بكتب يندى لها جبين كارل فرام نفسه خجلًا. لكن محطات توقفك هذه، جولاتك بمفردك، لا أستطيع تحملها. أنت تُبطئ *باخرتي*! اللعنة عليك. أنت تفسد سمعتنا قبل أن نبنِيها. وليس هذا كل شيء يا چوشوا. رأيتك تلك الليلة التي عدت فيها من نيو مدريد. كانت يداك ملطختين بالدم. أنكِر هذا لو شئت. سِبَّني لو أردت، لكني متأكد أنني رأيت دماء على كفيك، ولألعَن لو لم أرها.

رشف چوشوا يورك رشفة طويلة، وعقد حاجبيه وهو يصب المزيد. عندما نظر إلى مارش، كان الجليد قد ذاب في عينيه، وبدا مهمومًا.

- هل تقترح أن نحِل شراكتنا؟

شعر مارش كأن بغلًا ركله في معدته.

- إن أردت هذا، فهو حقك. ليس معي مال لأشتري به نصيبك بالطبع، لكن يمكنك الاحتفاظ بحلم فيڤر، وسأحتفظ أنا بإيلي رينولدز، وربما أجني منها بعض المكسب فأرسل إليك منه.

- هل هذا ما تريد؟

حدق إليه مارش هاتفًا: «اللعنة عليك يا چوشوا. أنت تعرف أنني لا أريد هذا».

- أبنر. أنا أحتاج إليك. لا أستطيع إدارة حلم فيڤر وحدي. أنا أتعلم الإبحار، وصار النهر مألوفًا لي بعض الشيء، لكن كلينا يعرف أنني لست رجل بواخر. لو رحلت، سيرحل معك نصف الطاقم؛ السيد چيفرز والسيد بليك ومايك المشعر بالتأكيد، ولا شك أن آخرين سيتبعونهم. هم أوفياء لك.

- يمكن أن آمرهم بأن يمكثوا معك.

- أفضل أن تمكث أنت. لو تغاضيت عن تطفلك، هل يمكن أن تستمر علاقتنا كما كانت؟

كادت العقدة في لسان مارش تخنقه. ابتلع لعابه، وقال أصعب شيء تفوه به على الإطلاق منذ مولده: «لا».

- أفهم.

- يجب أن أثق بشريكي، وعليه أن يثق بي. تحدث إليَّ يا چوشوا، أخبرني عمَّا يحدث وحافظ على شراكتنا.

أجفل چوشوا يورك، وشرب ببطء من شرابه مفكرًا. أخيرًا قال: «لن تصدقني. قصتي أغرب من قصص السيد فرام».

- جرب. لن تخسر شيئًا.

- بل سأخسر يا أبنر. سأخسر.

بدا صوت يورك أكثر جدية. وضع كوبه على الصحفة وقام إلى رف الكتب.

- عندما فتشت، هل فتشت في كتبي؟

- نعم.

سحب يورك واحدًا من الكتب غير المُعنوَنة ذات الغلاف الجلدي، وعاد إلى مقعده. فتحه على صفحة مُسوَّدة بحروف بلا معنى.

- لو استطعت قراءة هذا والكتب المشابهة له هنا، لأنار لك طريقك.

- نظرت إليه، لكن لم يبدُ الكلام مفهومًا.

- بالطبع. ما أنا موشك على إخبارك به يا أبنر سيكون عسيرًا على التقبُّل. سواء تقبلته أو لا، لا يمكنك أن تردده خارج جدران هذه الغرفة. مفهوم؟

- أجل.

- لا أريد أخطاء هذه المرة يا أبنر. مفهوم؟

غمغم أبنَر في ضيق: «قلت لك مفهوم يا چوشوا».

- عظيم.

وضع إصبعه على الصفحة وأكمل: «هذه شفرة سهلة نوعًا يا أبنر، لحلَّها عليك أن تعرف أن اللغة المستخدمة من لهجات الروسية، لهجة لم يتكلم بها أحد منذ مئات السنين. هذه الأوراق أصلية، عتيقة للغاية، يُذكر فيها أخبار أناس عاشوا وماتوا في منطقة شمال بحر قزوين منذ قرون مضت».

ثم توقَّف لحظة: «معذرة، ليسوا أناسًا. الروسية ليست من أفضل اللغات التي أتقنها، لكن أظن المصطلح الدقيق هو أنهم كانوا «أودورتِن»».

- ماذا؟

- هذا مصطلح واحد بالطبع. ثمة مصطلحات مختلفة في اللغات الأخرى؛ كروڤنيك، ڤيدومِك، ڤَيزيزي. أما ڤيلكاكِس وڤيركولاك لهما معانٍ تختلف عن المصطلحات السابقة.

- أنت تخرف.

قالها رغم أن بعض الكلمات التي نطقها چوشوا بدت مألوفة له، أشبه بما ينطق به سميث وبراون.

- لن أخبرك بالمصطلحات الإفريقية أو الآسيوية أو غيرها. هل تعني لك كلمة نوسفِراتو شيئًا؟

نظر إليه مارش نظرة خاوية، فزفر چوشوا وسأله: «ماذا عن مصاص دماء؟».

أبنر مارش يعرف ما تعنيه هذه الكلمة.

- أي نوع من القصص هذا؟

أجاب يورك بابتسامة خبيثة: «قصة رعب. بالتأكيد سمعت عن قصص مصاصي الدماء من قبل. الأحياء الموتى، الخالدين، صيادي الليل، الضواري بلا روح، الملعونين الهائمين أبدًا. ينامون في توابيت ملآنة بتراب الوطن،

ويمقتون نور النهار والصلبان. في كل ليلة يقومون ليتغذوا على دماء الأحياء. هم متغيرو الهيئة أيضًا، يستطيعون التحول إلى هيئة وطواط أو ذئب. بعض من ينتحلون أجساد الذئاب عادة يطلقون عليهم مصطلح «مذؤوبين»، ويظنونهم مخلوقات مختلفة بالكامل. لكن هذا خطأ شائع. هما وجهان لعملة لعينة واحدة يا أبنر. يمكن لمصاصي الدماء أن يتحولوا إلى ضباب، ويتحول ضحاياهم إلى مصاصي دماء بدورهم. إنها لمعجزة أن مصاصي الدماء لم يحلوا محل البشر منذ زمن طويل. للأسف، لهم نقاط ضعف كما أن لهم قوة مفرطة. رغم قوتهم المخيفة، لا يمكنهم دخول بيت لم يُدعوا إليه، سواء على هيئة بشر أو حيوان أو ضباب. هم يتمتعون بجاذبية حيوانية هائلة، يستخدمونها لإغراء ضحاياهم بدعوتهم للدخول. لكن الصليب يبعدهم، والثوم يمنعهم، ولا يمكنهم عبور الماء الجاري. غير ذلك، هم يبدون مثلي ومثلك، لكنهم لا روح لهم لذا لا تنعكس صورهم في المرآة. الماء المقدس يحرقهم، الفضة لعنة بالنسبة إليهم، ضوء النهار يُهلكهم لو لحق بهم قبل أن يختبئوا في توابيتهم. يمكن للمرء أن يخلِّص العالم منهم للأبد بفصل رؤوسهم عن أجسادهم، وغرز وتد خشبي في قلوبهم».

أسند يورك ظهره إلى ظهر المقعد، وشرب من كأسه، ثم ابتسم وأضاف وهو ينقر على صفحة الكتاب بإصبعه الطويل: «مصاصو الدماء هؤلاء يا أبنر. هذه قصة بعضهم. هم حقيقيون، أزليون، أبديون. واحد من الأودوروتِنيين كتب هذا الكتاب في القرن السادس عشر، ذكر فيه أخبار من سبقوه. مصاص دماء».

لم يقل أبنر مارش شيئًا. سأله چوشوا: «ألا تصدقني؟».

اعترف مارش: «الأمر ليس سهلًا».

داعب شعيرات دقنه الخشنة وهو يفكر فيما لم يقله. لم يضايقه حديث چوشوا عن مصاصي الدماء قدر ما ضايقه عدم تأكده من موضع چوشوا نفسه من كل هذا.

- دعنا لا نهتم لوهلة بتصديقي. لو أنني أتحمل حكايات السيد فرام، يمكنني على الأقل أن أستمع إلى حكاياتك. أكمِل.
- أنت رجل ذكي يا أبنر. المفترض أن تكون قادرًا على الاستنتاج بنفسك.
- لا أشعر أنني بهذا الذكاء اللعين. أخبرني.

شرب يورك، ثم قال: «هم أعدائي. إنهم حقيقيون يا أبنر، وهم هنا، على امتداد نهرك. من خلال كتب كهذه، ومن خلال بحثي في الصحف، ومن خلال جهد مُضنٍ، تعقَّبتهم من جبال أوروبا الشرقية، وغابات ألمانيا وبولندا، وسهول روسيا حتى هنا؛ وادي نهر المسيسبي... العالم الجديد. أعرفهم، وأجهِز عليهم وعلى كل مكان كانوا فيه. والآن، هل تفهم كتبي يا أبنر؟ والدماء على يديَّ؟».

فكَّر مارش برهة قبل أن يرد، ثم قال أخيرًا: «أتذكر طلبك كل هذه المرايا في القاعة الكبرى بدلًا عن اللوحات وما شابه. لأجل الـ... الحماية؟».

- بالضبط. والفضة. هل قابلت يومًا باخرة فيها كل هذه الفضة؟

- لا.

- وبالطبع النهر حليفنا. النهر العتيق الشيطاني. المسيسبي. ماء جارٍ لم ير العالم مثله! حلم فيڤر حَرَم آمِن. لا يمكنني إيذاؤهم كما ترى، لكنهم سيعجزون عن الاقتراب منا.

- أتعجب من أنك لم تطلب من توبي تتبيل كل طعام بالثوم.

- فكرت في هذا، لكني لا أحب الثوم.

- لنقل إنني أصدق هذا، ولا أعني أنني أصدق بالفعل، لكن لنفترض هذا جدلًا. ثمة أمور تضايقني بعد. كيف لم تخبرني من قبل؟

- لو أخبرتك في بيت المزرعة، ما كنت لتوافق على شراكتنا. أحتاج إلى القوة التي تؤازرني في رحلتي المحتومة.

- وكيف لا تخرج أنت إلا ليلًا؟

- لأنهم يظهرون ليلًا. أسهل أن تعثر عليهم عندما ينتشرون عن العثور عليهم في ملاذاتهم آمنين. أعرف عادات أولئك الذين أصطادهم، وأحفظ ساعات عملهم.

- وأصدقاؤك؟ سيمون والباقون؟

- سيمون مساعدي منذ زمن، والآخرون انضموا إلينا حديثًا. هم يعرفون الحقيقة ويساعدونني في مهامي. وأتمنى أن تساعدني مثلهم.

ثم ضحك مضيفًا: «لا تقلق. نحن فانون مثلك».

داعب مارش لحيته وقال: «دعني أحظَ بشراب».

مال يورك ليصب له، فقاطعه مارش: «ليس من هذا الشيء يا چوشوا. شراب آخر. لديك ويسكي؟».

قام يورك وصب له كأسًا مما طلب. أفرغه مارش في جوفه ثم قال: «لا أستطيع أن أقول إن أيًّا من هذا يروقني. موتي، وشاربو دماء، وكل هذه الأمور. لم أومن بأي شيء من هذا قط».

- أبنر... هذه لعبة خطرة تلك التي ألعبها. لم أقصد قط أن أورطك أو أيًّا من أفراد طاقمك في هذا. لم أكن لأخبرك أيضًا بكل ما أخبرتك، لكنك ألححت. لو أنك تريد أن تخرج من الموضوع، فلا اعتراض لدي. افعل كما أقول لك. أدِر حلم فيڤر لأجلي. هذا هو كل ما أريد منك، وسأتعامَل أنا معهم. هل تشك في قدرتي على هذا؟

نظر مارش إلى جلسة يورك المسترخية، وتذكر القوة وراء هاتين العينين الرماديتين، وقوة مصافحته.

- لا.

- لقد كنت أمينًا معك في كثير مما أخبرتك. هدفي ليس هوسي الوحيد. أنا أحب هذه الباخرة كما تحبها يا أبنَر، وأشاركك كثيرًا من أحلامك التي تخصها. أريد الإبحار بها لأعرف النهر. أريد أن أكون موجودًا يوم نهزم شفق. صدقني عندما أقول...

دُقَّ الباب، فاختلج مارش. ابتسم چوشوا يورك وقال: «أصدقائي من ناتشيز جاؤوا يشاركوني الشراب». ثم صاح: «لحظة!» وأسرَّ لمارش بصوت خفيض متعجل: «فكر في كل ما قلت يا أبنر. يمكن أن نتحدث مرة أخرى لو أحببت، لكن احفظ سري ولا تخبر إياه أحدًا. لا أريد أن أورط آخرين».

- لك كلمتي. سحقًا، من قد يصدق؟!

- هلا تكرمت بدعوة ضيفَيَّ للدخول بينما أصب الشراب؟

قام مارش وفتح الباب. رأى بالخارج رجلًا وامرأة يتهامسان، خلفهما القمر معلق بين المدخنتين كزينة لامعة، وسمع همهمات أغنية قادمة من جهة ناتشيز أسفل التل. قال لهما: «تفضَّلا».

الغريبان أنيقان. الرجل شاب أقرب إلى المراهقة، نحيل وسيم، شعره فاحم وبشرته بيضاء، وشفتاه ممتلئتان شهوانيتان. نظرته حادة إذ نظر إلى مارش نظرة خاطفة. أما المرأة... نظر مارش إليها ووجد عسرًا في إبعاد

عينيه عنها. كانت مثالًا للحسن، بشعر طويل أسود كالليل، وبشرة حريرية بلون الحليب، وعظمتي خد بارزتين. خصرها نحيل حتى رغب مارش في أن يلف أصابعه حوله ليرى إن كان سيلامس بعض أطرافها بعضًا من الجهة الأخرى. نظر إلى وجهها بدلًا عن ذلك ليجدها تحدق إليه. عيناها مذهلتان. لم يرَ مارش عينين بلون كهذا من قبل، عينين بنفسجيتين ممتلئتين بالوعود. شعر أنه قد يغرق فيهما. ذكرتاه بلون شاهده مرة أو مرتين في النهر. لون بنفسجي غريب مكث لحظات قبل حلول الظلام. حدق مارش إلى عينيها بلا حول لما بدا له قرونًا، حتى ابتسمت له أخيرًا واستدارت مبتعدة.

ملأ چوشوا أربع كؤوس؛ كأس ويسكي لمارش، وثلاثًا من الخمر الخاص. قال وهو يُضيِّفه: «أنا مسرور بحضوركما. هل أنتما راضيان عن غرفتيكما؟».

- إلى حد ما.

قالها الرجل وهو يأخذ كأسه وينظر إليها في شك. تذكر مارش مذاق الشراب ولم يلُمه.

قالت المرأة بصوت دافئ: «باخرتك جميلة يا كابتِن يورك. سأستمتع برحلتي على متنها».

ردَّ چوشوا: «أتمنى أن نبحر معًا لفترة طويلة. بالنسبة إلى حلم فيڤر، أنا فخور بها، لكن شريكي هو من يستحق إطراءكما. لو سمحتما لي بتعريفكما، هذا الرجل المحترم الرائع هنا هو كابتِن أبنر مارش، شريكي في خط نهر فيڤر الملاحي، ورُبَّان حلم فيڤر الحقيقي لو أردتما الصدق».

ابتسمت المرأة لأبنر مرة أخرى، بينما أومأ الرجل متصلبًا.

- أبنر، أقدم لك السيد رايموند أورتيجا من نيو أورلينز، وخطيبته الآنسة ڤاليري ميرسالو.

قال مارش متوترًا: «سعيد حقًّا باستضافتكما».

رفع چوشوا كأسه وهتف: «نخب البدايات الجديدة!».

رددوا كلماته، ثم شربوا.

***

اثنا عشر



على متن الباخرة حلم فيڤر
نهر المسيسبي
أغسطس 1857

لأبنر مارش عقل لا يختلف كثيرًا عن جسده. عقل ضخم في الحجم، متسع، متخم بكل صنوف الأشياء. عقل قوي أيضًا. عندما يقبض مارش على شيء بيده، لا يسقط منها بسهولة، وعندما يقبض على فكرة بعقله، لا ينساها أبدًا. هو رجل قوي بعقل قوي، وعقله وجسده يتشاركان صفة أخرى؛ كلاهما متأنٍّ. يروق البعض أن يصفوهما بالبطء. لا يجري مارش، ولا يرقص، ولا ينزلق أو يترنح، بل يمشي متزنًا بخطوات بطيئة واثقة تؤدي به إلى حيث يريد. كذلك عقله أيضًا. مارش ليس سريع الحديث أو التفكير، لكنه ليس غبيًّا أبدًا، إذا يلوك التفاصيل بتروٍّ وبطريقته الخاصة.

وحلم فيڤر تبحر من ناتشيز، بدأ مارش لتوه في التفكير فيما قصَّه عليه چوشوا يورك. كلما فكَّر، زاد قلقه. قصة چوشوا الغرائبية عن صيد مصاصي الدماء تفسر قدرًا معتبرًا من الأمور العجيبة التي تستشري في حلم فيڤر كالوباء، لكنها لا تبرر كل شيء. أبنر مارش بطيء، عنيد. ظلَّت ذاكرته تقيء أسئلة وذكريات، تطفو على سطح عقله كمثل طفو جذوع على سطح النهر، بلا فائدة وتثير الضيق فقط.

على سبيل المثال، سيمون ولعقه دماء البعوض.

رؤية چوشوا الليلية الاستثنائية.

والأهم، حنقه يوم جاءه مارش في حجرته يتفاخر. هو حتى لم يخرج ليراهم يسابقون الباخرة الجنوبية. أقلق هذا مارش كثيرًا. لا بأس من تفضيل

جوشوا لساعات الليل خاصة وقد ذكر مصاصي الدماء خاصته، لكن هذا لا يفسر رد فعله في تلك الظهيرة. أغلب من يعرفهم مارش يعملون نهارًا فقط، لكن هذا لا يمنعهم من القيام في الثالثة صباحًا من فُرُشهم لو استدعى الأمر.

شعر مارش بحاجة إلى مشاركة الأمر مع آخر. جوناثان جيفرز شيطان كتب، وكارل فرام يعرف كل قصة حمقاء لعينة تتداولها الألسن على امتداد النهر الأحمق اللعين. كلاهما قد يعرف كل شيء عن مصاصي الدماء، لكن لن يتحدث إليهما؛ لقد وعد جوشوا، وهو رجل يحفظ وعوده ولن يخونه مرة أخرى. ليس دون سبب، وكل ما لديه لا يتعدى الشكوك.

تجسدت الشكوك أكثر فأكثر كل يوم بينما تمخر حلم فيڤر عباب المسيسبي. بشكل عام صاروا يبحرون نهارًا، ويرسون مع الغروب، ثم يقلعون مرة أخرى في الفجر. قطعوا المسافات بشكل أفضل مما كانوا عليه قبل الرسو في ناتشيز، مما أسعد مارش، وهو الذي لم يعد شيء يسره.

لم يقترب مارش أكثر من صديقي جوشوا الجديدين، وقد قرر سريعًا أنهما غريبا الأطوار كمثل أصدقاء جوشوا الأقدم، يفضلون ساعات الليل وكل التفضيلات الأخرى المشابهة. شعر مارش بكثرة حركة رايموند أورتيجا وأوقن أنه غير مؤتمن الجانب. لم يلتزم الشاب بالمناطق المسموحة للركاب، وظل يظهر في أماكن لا تخصه. كان مهذبًا بطريقة ما، لكن مارش لم يرتَح إليه.

أما ڤاليري فكانت أكثر لطفًا، لكنها مثيرة للقلق مثله، بكلماتها الرقيقة وابتساماتها المغوية، وعينيها تلك، ولم تتصرف بما يؤكد أنها خطيبة رايموند أورتيجا. منذ البداية، بدت أقرب لجوشوا، أقرب إلى حد غير لائق مثير للمشكلات لو أنك سألت عن رأي مارش. السيدات المحترمات يَقَرن في قاعة النساء، لكن ڤاليري أمضت لياليها مع جوشوا في القاعة الكبرى، وأحيانًا كانت تصعد إلى سطح الباخرة لتتمشى معه. سمع مارش أحد الرجال يقول إنهما هجعا إلى غرفة جوشوا معًا. حاول أن يُنبه يورك لما يقال عنه من كلام شائن، لكن جوشوا هز كتفيه وقال: «دعهم يلوكون الفضائح يا أبنر لو أن هذا يسرهم. ڤاليري مهتمة بباخرتنا وأنا مسرور بأخذها في جولات بين أرجائها. لا شيء بيننا سوى الصداقة. لك كلمتي».

وبدا حزينًا وهو يضيف: «كنت لأتمنى لو صدقت الشائعات، لكن هذه هي الحقيقة».

قال مارش بفظاظة: «الأفضل أن تحذر مما تمنى. ربما لأورتيجا هذا رأيه الخاص فيما يجري. هو من نيو أورلينز، وغالبًا من أولئك الكريوليين الذين يطالبون بمبارزة لأي سبب لعين يا چوشوا».

ابتسم چوشوا وقال: «لا أخاف من رايموند، لكن ممتن لتحذيرك لي يا أبنر. والآن، اتركني وڤاليري لشؤوننا لو سمحت».

أطاع مارش، لكنه لم يرتَح. كان واثقًا من أن أورتيجا سيثير المشكلات عاجلًا أو آجلًا، خاصة وقد صارت ڤاليري رفيقة چوشوا الدائمة في الليالي التالية. المرأة اللعينة تُعميه عن كل المخاطر التي تحيق به، لكن ليس في وسع مارش فعل شيء.

وكانت هذه البداية فقط. مع كل رسو، يصعد المزيد من الغرباء على متن الباخرة، ويمنحهم چوشوا غرفًا. في بايو سيرا، نزل مع ڤاليري في ليلة وعاد برجل شاحب يُدعى چين أردان. بعد دقائق من الإبحار، رسو عند ساحة أخشاب واختفى أردان، ثم عاد برفقة أنيق متعجرف يُدعى ڤينسنت. ركب من مدينة باتون روچ أربعة غرباء آخرون، ومن مدينة دونالدسنڤيل ركب ثلاثة.

مع تزايد رفاقه من الغرباء، أمر چوشوا بمائدة تُنصب في شرفة مهاجع الطاقم المغلقة بالزجاج، حيث سيتناول عشاءه عند منتصف الليل مع أصدقائه القدامى والجدد، على أن يشاركوا الآخرين وجبة خفيفة في القاعة الكبرى. أما هذا العشاء فمقتصر عليهم فقط. بدأت هذه العادة في بايو سيرا.

قال مارش لچوشوا في مرة إن فكرة العشاء الخاص تعجبه، لكن إعجابه لم يحث يورك على دعوته للانضمام إليهم. فقط ابتسم، واستمر العشاء، وتزايد ضيوفه يومًا عن يوم. أخيرًا انتصر فضول مارش عليه، واستطاع المرور من أمام الشرفة مرة أو اثنتين ليلقي نظرة عبر النافذة، فلم يتمكن من رؤية الكثير. مجرد أشخاص يأكلون ويثرثرون. المصابيح خافتة، والستائر نصف مُسدلة. جلس چوشوا عند صدر المائدة وسيمون عن يمينه وڤاليري عن شماله. الجميع يرشفون من كؤوس مُترعة بشراب چوشوا الخاص.

في المرة الأولى التي مر مارش من هناك، كان چوشوا يتحدث في مودة والجميع يصغون، وڤاليري تنظر إليه كأنما تعبده. في المرة الثانية التي تلصص فيها رأى چوشوا يستمع إلى چين أردان، ويداه مبسوطتان أمامه على شرشف المائدة. بينما يراقب مارش، وضعت ڤاليري كفها على كفه، فنظر

چوشوا وابتسم ابتسامة مُحِب. ردَّت ڤاليري ابتسامته بأخرى. نظر مارش سريعًا نحو رايموند أورتيجا وغمغم: «يا لها من امرأة وقحة». ثم هرع مبتعدًا.

حاول مارش استنتاج شيء من هذا؛ كل هؤلاء الغرباء غريبي الأطوار، تلك الرحلات الغريبة على البَر، كل ما قاله له چوشوا يورك عن مصاصي الدماء. الأمر صعب، وكلما فكر فيه ازدادت حيرته. ليس في مكتبة حلم فيڤر كتب عن مصاصي الدماء، ولا عن أي شيء مشابه، وهو لن يعبث في مكتبة يورك مرة أخرى. نزل في باتون روچ، ودار بعض الجولات بين حانات مختلفة على أمل أن يعثر على معلومات عمَّا يهمه. تحيَّن الأوقات المناسبة، فطرح مواضيع عن مصاصي الدماء وسط حديثه ليحث نُدماءه على الحديث، كأن يقول: «أقول لكم... هل سمعتم أي شيء عن مصاصي دماء حول النهر؟».

وجد أن طريقته هذه أكثر أمنًا من طرق السؤال نفسه على متن الباخرة، حيث كل كلمة تصلح لأن تكون بذرة تنمو منها الشائعات.

بعضهم ضحك، وبعضهم سدد نحوه نظرات غريبة، وفور سماعه السؤال هرب رجل زنجي مُحرر ذو أنف مكسور قابله مارش في إحدى الحانات. حاول مارش اللحاق به، لكنه كان قد اختفى. بدا آخرون كأنما يعرفون الكثير عن مصاصي الدماء، لكن ليست لأي من قصصهم علاقة بالمسيسبي. كل ما سمع من بين شفتي چوشوا عن الصلبان والثوم والتوابيت الملآنة بالتراب، سمعه يتكرر على ألسنتهم، بالإضافة إلى المزيد.

استمر مارش في مراقبة يورك ورفاقه من كثب خلال العشاء، وفي القاعة الكبرى. لا يأكل مصاصو الدماء أو يشربون كما قيل له، لكن چوشوا ومن معه يشربون براميل نبيذ وويسكي وبراندي، بالإضافة إلى ما يشربونه من مخزون يورك الخاص من الشراب الغريب، وكلهم لا يمانعون في الفتك بدجاجة أو شريحة لحم.

چوشوا يضع دومًا خاتمه الفضي، بفص الزفير بحجم عين حمامة، ولا يبدو أن أيهم يتضايق من الفضة حولهم في كل شيء، واعتادوا استخدام أدوات المائدة الفضية على نحو أفضل من باقي طاقم حلم فيڤر.

وعندما تضاء الثريات ليلًا، تلقي الضوء فينعكس على المرايا، ويظهر على سطحها انعكاس صورهم وهم متأنقون، يرقصون ويشربون ويلعبون بالبطاقات مثلهم كمثل أي شخص آخر في القاعة. وجد أبنر مارش نفسه ليلة بعد ليلة يتحدث إلى تلك المرايا. چوشوا دائمًا موجود، يبتسم ويضحك

ويتحرك انعكاسه من مرآة إلى أخرى، ممسكًا يد ڤاليري، يتحدث عن السياسة مع راكب، ينصت إلى حكايات فرام عن النهر، يشارك حديثًا خاصًّا مع سيمون أو چين أردان. في كل ليلة يظهر على المرايا آلاف من چوشوا يورك، كلهم مفعم بالحياة والفخامة. لأصدقائه أيضًا انعكاسات.

لا بد أن يكون هذا كافيًا، لكن عقل مارش البطيء المتشكك ما زال يعمل، ولم يصل إلى خطة مُرضيَة إلا بوصولهم ميناء دونالدسنڤيل. نزل إلى المدينة ومعه برميل، ملأه بالماء المقدس من كنيسة معمدانية قرب النهر، ثم طلب من النادل الذي يتولى جهتهم من مائدة العشاء وقال له: «املأ كوب ماء كابتِن چوشوا يورك من هذا الماء الليلة، أتُنصت؟ أنا أمازحه».

ظل النادل ينظر إلى يورك طوال العشاء مترقبًا، يتنظر المزحة المضحكة. شرب يورك الماء المقدس ببساطة. غمغم مارش بعدها: «سُحقًا. هذا هو القول الفصل».

لكنه لم يهدأ. استأذن مارش مرافقيهم في القاعة الكبرى، كي يفكر في هدوء. جلس في شرفة مهاجع الطاقم ساعتين وحده، مقعده مائل إلى الخلف، وقدماه مرفوعتان على السور، حتى سمع حفيف ملابس يقترب منه.

اقتربت ڤاليري برقة ووقفت إلى جواره وابتسمت له.

- مساء الخير يا كابتِن مارش.

اعتدل مارش بمقعده إذ أنزل قدميه عن السور وقال محاولًا إخفاء ضيقه: «صعود الركاب إلى مهاجع الطاقم ممنوع».

- الجو حار في الأسفل، وظننت أن المكان هنا في الأعلى أكثر برودة.

أجاب مارش غير واثق: «حسنًا، هذا صحيح».

وعجز عن العثور على شيء يقوله بعد ذلك. الحقيقة هي أن وجود النساء لا يُشعره براحة؛ لا مكان له في عالم البواخر، ومارش لا يعرف كيف يتعامل معهن. الجميلات منهن يُربكنه أكثر، وڤاليري حسناء أنيقة، لا تقل في ذلك عن أي سيدة من سيدات نبلاء نيو أورلينز.

وقفت مستندة إلى عمود مزخرف، ولفَّت ذراعها النحيلة حوله وهي تنظر عبر الماء إلى دونالدسنڤيل. سألته: «سنصل إلى نيو أورلينز غدًا، أليس كذلك؟».

وقف مارش وقد فطن إلى أن الذوق يقتضي بألا يجلس بينما هي واقفة. «هذا صحيح يا سيدتي. لا يفصلنا عنها سوى بضع ساعات من الإبحار».

- فهمت.

ثم استدارت فجأة، وظهرت الجدية على وجهها الباهت وهي تحدق إليه بعينيها البنفسجيتين الواسعتين وتقول: «يقول چوشوا إنك رُبَّان حلم فيڤر الحقيقي، وهو يحترمك للغاية. سيُصنت إليك».

- نحن شريكان.

- لو أن شريكك في خطر، هل ستهرع لنجدته؟

أجفل مارش وقد تذكر قصة مصاصي الدماء التي حكاها له چوشوا، وأدرك مدى حسن ڤاليري وشحوبها وهي تقف تحت نور النجوم، وقوة نظراتها.

- يعرف چوشوا أن في وسعه أن يأتِيني لو كان في مشكلة. الرجل الذي لا يساعد شريكه ليس رجلًا على الإطلاق.

- مجرد كلمات.

قالتها ڤاليري في ضيق وهي تطوح شعرها الأسود إلى ما وراء ظهرها بعدما شعثته الرياح. أضافت: «چوشوا يورك رجل عظيم. رجل قوي. ملِك. هو يستحق شريكًا أفضل منك يا كابتِن مارش».

شعر مارش بالدماء تندفع إلى وجهه، فقال مُهتاجًا: «ماذا تقولين بحق الجحيم؟».

ابتسمت في خبث وأجابت: «أنت اقتحمت غرفته».

استشاط مارش، فهتف: «هو أخبرك بهذا؟ اللعنة عليه. على أي حال، لقد تحدثنا عن الأمر، وهو ليس من شأنك».

- بل من شأني. چوشوا في خطر داهم. هو جريء لا يهدأ. لا بد أن ينجده أحد. أريد مساعدته، لكنك أنت يا كابتِن مارش لم تمنحه سوى الكلمات.

- ليس لدي فكرة لعينة عما تتحدثين عنه. أي نوع من المساعدة يحتاج إليه چوشوا؟ لقد عرضت عليه مساعدة في أمر مصا... أعني، في أمر الأعباء التي يتولاها، لكنه صدَّني.

ارتخى وجه ڤاليري فجأة وهي تقول: «هل ستساعده حقًّا؟».

- هو شريكي اللعين.

- إذًا أدِر باخرتك يا كابتِن مارش. أبعدنا عن هنا. عُد بنا إلى ناتشيز أو سانت لويس، لا يهم. لكن لا تُبحر بنا إلى نيو أورلينز. لا يجب أن نذهب إلى نيو أورلينز غدًا.

نخر أبنَر مارش وصاح: «لماذا لا؟!».

عندما أشاحت ڤاليري ولم تُجب، أكمل: «هذه باخرة، لا حصان لعين أوجهه حيثما يخطر على بالي. لدينا جدول نلتزم به، ورُكاب ننقلهم، وحمولات ينتظرها أصحابها. لا بد أن نذهب إلى نيو أورلينز. وماذا عن چوشوا؟».

- سيكون نائمًا في غرفته، وعندما يستيقظ سنكون قد ابتعدنا شمالًا.

- چوشوا شريكي، ويجب على المرء أن يثق بشريكه. ربما تلصصت عليه مرة، لكنني لن أفعل شيئًا كهذا مجددًا، لا لأجلك ولا لأجل أي شخص. ولن أستدير بحلم فيڤر دون أن أخبره. إن جاءني چوشوا الآن وطلب مني ألا نذهب إلى نيو أورلينز... اللعنة... ربما نستطيع أن نناقش الأمر. هل تريدين أن أذهب إليه وأطلب منه هذا؟

صاحت منزعجة: «لا!».

- يجب أن أخبره على أي حال. يجب أن يعرف أنك تتآمرين من خلف ظهره.

أمسكت ڤاليري ذراعه بقبضة قوية ورَجَته: «أرجوك. انظر إليَّ يا كابتِن مارش».

كان مارش على وشك الابتعاد، لكن شيئًا في صوتها تلاعب به فأطاعها. نظر إلى هاتين العينين البنفسجيتين وظل ينظر...

- ليس صعبًا أن تنظر إليَّ. لقد رأيتك تسترق النظر إليَّ يا كابتِن. أنت لا تستطيع أن تبعد عينيك عني، أم تستطيع؟

جف حلق مارش وهو يقول: «أنا...».

أرجعت ڤاليري شعرها مرة أخرى إلى الخلف في إشارة غنج واضحة.

- لا يمكن أن تكون البواخر هي كل ما تحلم به يا كابتِن مارش. هذه الباخرة امرأة باردة، حبيبة جافة المشاعر. اللحم الدافئ أفضل من الخشب والحديد.

لم يسمع مارش امرأة تتكلم بطريقة كهذه من قبل. وقف مكانه مصعوقًا وهي تهمس وتجذبه نحوها: «اقترب...».

حتى لم يعد يفصل بين وجهيهما سوى بوصات قليلة.

- انظر إليَّ.

كان يشعر بحرارة جسدها وارتعاشه. عيناها هاويتان بنفسجيتان، باردتان ناعمتان، داعيتان...

- أنت تريدني يا كابتِن.

- لا.

- أوه، بل تريدني. أرى الرغبة في عينيك.

- لا، أنت... چوشوا...

ضحكت ڤاليري ضحكة منطلقة، مُنغَّمة.

- لا تشغل بالك بچوشوا. انهل مما تريد. أنت خائف، لذا تقاوم. لا تخف.

ارتعش مارش بقوة، وأدرك باطن عقله أنه يرتجف شهوة. هو لم يرغب قط في امرأة إلى هذا الحد في حياته، مع ذلك كان يقاوم، يصارع الشعور، بينما تجذبه عينا ڤاليري، ويعبق العالم بشذاها.

- خذني إلى غرفتك. أنا لك الليلة.

قال مارش في ضعف: «حقًّا؟».

شعر بالعرق يقطر من حاجبيه إلى عينيه. غمغم: «لا، لا، هذا ليس...».

- بل ممكن. لا أريد منك سوى وعد.

ردد مارش بصوت مبحوح: «وعد؟».

- أبعدنا عن نيو أورلينز. عِدني بهذا وستنالني. أنت ترغب فيَّ. أشعر بهذا.

رفع أبنَر مارش يديه وأمسك كتفيها. ارتعش. شفتاه جافتان. يصارع رغبة في أن يضمها إليه ضمَّة دُب حتى يسحقها، ويلقي بها إلى فراشه. لكنه بشكل ما، استدعى كل قوته ودفعها بقوة بعيدًا عنه.

صرخت، تعثرت، وسقطت مرتكزة على ركبتها. زأر مارش بعدما تحرر من عينيها: «ابتعدي عن هنا! اخرجي من غُرفنا. أي امرأة أنت؟! اخرجي من هنا. لستِ سوى... اخرجي!».

رفعت ڤاليري وجهها نحوه مرة أخرى، وانحسرت شفتاها عن أسنانها وهي تقول غاضبة: «يمكنني أن...».

- لا.

قاطعها صوت چوشوا بقوة وبهدوء من خلفها.

ظهر چوشوا من بين الظلال فجأة كأنما الظلام تجسَّد في هيئة بشرية. حدقت إليه ڤاليري وأنَّت، ثم هرعت تفر على الدَّرج.

شعر مارش أنه مستنزف، وبالكاد يقف على قدميه.

- اللعنة...

أخرج منديلًا من جيبه ومسح العرق عن حاجبيه. بعدما فرغ، وجد چوشوا ينظر إليه.

- لا أعرف ماذا رأيت يا چوشوا، لكنه ليس كما ظننت.

- أنا أعرف جيدًا ما رأيت يا أبنر.

لم يبدُ غاضبًا. أردف: «لقد كنت هنا طوال الوقت. عندما لاحظت مغادرة ڤاليري القاعة، ذهبت أبحث عنها، وسمعت صوتيكما عبر الدَّرج».

- لكني لم أسمعك.

- يمكن ألا أصدر أي صوت إن أردت يا أبنر.

- هذه المرأة... إنها... لقد عرضت عليَّ... يا للجحيم. إنها...

لم تخرج الكلمات. أخيرًا انتزع مارش العبارة انتزاعًا فقال: «هي ليست سيدة محترمة. أبعدها يا چوشوا هي وأورتيجا».

- لا.

هَدَر مارش: «لمَ لا؟ لقد سمعتها!».

قال چوشوا في هدوء: «لا يشكل هذا فارقًا. ما سمعته يجعلني أعشقها أكثر. ما طلبته كان لأجلي يا أبنر. هي تخاف عليَّ أكثر مما أمِلت، وأكثر مما جرؤت أمنياتي».

سبَّ أبنر مارش في حنق ثم قال: «كلامك بلا ذرة معنى لعينة واحدة».

- ربما لا. لا تهتم يا أبنر. دع أمر ڤاليري لي. هي لن تضايقك مرة أخرى، بل كانت فقط خائفة.

- خائفة من نيو أورلينز؟ من مصاصي الدماء الذين تعرفهم؟

- أجل.

- هل أنت واثق من أنك قادر على التعامل معهم؟ إن كنت تريد أن تفوِّت الرسو في نيو أورلينز، فقط قل هذا. اللعنة! تظن ڤاليري...

- ماذا تظن أنت يا أبنر؟

نظر مارش إليه مطولًا، ثم قال: «أظننا ذاهبون إلى نيو أورلينز».

وابتسم كلاهما.

وهكذا أبحرت حلم فيڤر إلى نيو أورلينز في الصباح التالي، ودان أولبرايت خلف مقودها، ومارش أبنر يقف في فخر عند مقدمتها في سُترة الربَّان وقبعته الجديدة. استعرت الشمس في زرقة السماء، فأضاءت كل ركن وزاوية بشرائط الذهب، وسهل الإبحار.

مرفأ نيو أورلينز مزدحم بالبواخر وكل أشكال السفن، والنهر حي بصافراتها وأجراسها. استند مارش إلى عصاه وراح يشاهد المدينة الضخمة تقترب، وينصت إلى حلم فيڤر تحيي السفن الأخرى بجرسها وصافرتها العالية الجامحة. زار أبنر المدينة مرات خلال أيامه في النهر، لكنه لم يزرها على هذه الهيئة؛ واقفًا عند مقدمة باخرته الخاصة، أكبر البواخر وأفخمها وأسرعها على مرمى النظر. شعر وقتها أنه سيد الخليقة.

كان لديهم عمل ينجزونه بمجرد أن رسوا وربطوا الباخرة. شحنات تُفرغ وأخرى تنقل في رحلة العودة إلى سانت لويس، وإعلانات تُوزَّع على الصحف المحلية. فكر مارش في ضرورة افتتاح مكتب للشركة هنا، فانشغل بمراجعة الأماكن المقترحة المتاحة، وتحضير ما يلزم لفتح حساب مصرفي واستئجار وكيل.

تناول عشاء تلك الليلة في فندق سانت تشارلز مع چوناثان چيفرز وكارل فرام، لكن عقله ظل يجول بعيدًا عن الطعام، يفكر في الأخطار التي تخشاها ڤاليري، وتساءل عما ينتويه چوشوا يورك.

عندما عاد مارش إلى الباخرة، وجد چوشوا يتحدث مع رفاقه في شرفة مهاجع الطاقم، ولا يبدو أن شيئًا تغيَّر إلا شرود ڤاليري الجالسة إلى جواره ووجومها.

أبعد مارش الأمر عن عقله وذهب لينام، ولم يفكر فيه إلا لمامًا في الأيام التالية. شغلته مصالح حلم فيڤر نهارًا، والطعام في المدينة ليلًا. راح يتفاخر وهو يشرب في الحانات حول المرفأ، وتجوَّل في الشوارع مُعجبًا بالكريوليات الحسناوات، وبساحات التنزه ونوافيرها وشرفاتها. نيو أورلينز جميلة كما يتذكرها. هكذا ظن مارش في البداية، ثم تدريجيًّا تزايد فيه شعور بالاضطراب جعله يرى كل شيء بعينين جديدتين. الطقس غير محتمل، في النهار ملتهب رطب بمجرد أن تبتعد عن نسيم النهر، وفي كل الأوقات تتصاعد الروائح النتنة من البالوعات المفتوحة، ويعبق الهواء برائحة الماء الراكد. لا عجب أن وباء الحمى الصفراء استشرى فيها.

تلك المدينة ملآنة بالزنوج الأحرار والكوادرونيات الجميلات، والأوكتارونيات، والجريفيات[1] اللاتي يلبسن كما تلبس البيضاوات الراقيات. لكنها أيضًا ملآنة بالعبيد. تراهم في كل مكان، يقومون على خدمة أسيادهم، أو محبوسون في محابس العبيد، أو يجوبون شارع مورو والشوارع المشتركة مُصفَّدين، يسوقونهم إلى بورصات البيع، أو ينظفون البالوعات والمجاري. حتى عند الميناء، لا يمكنك الفرار من مظاهر العبودية. رأى أبنر البواخر الأخرى تنقل السود عبر النهر. يركب العبيد مُكبَّلين بالسلاسل، يجلسون مكوَّمين بين البضائع، تشويهم حرارة الغلايات.

شكا مارش إلى چيفرز: «لا يعجبني هذا أبدًا. ليس هذا عملًا نظيفًا. وأقول لك إنني لن أقبل بنقل العبيد في باخرتي. لن يُنجِّس أحد سفينتي بمثل هذا، مفهوم؟».

قال چيفزر بنبرة اهتمام ساخرة: «لو لم ننقل العبيد يا كابتِن سنخسر أكوام مال. أنت تتكلم مثل مناهضي العبودية».

- لست مناهضًا لعينًا للعبودية. لكني أعني ما قلت. إن أراد رجل محترم نقل عبد أو اثنين معه أو خَدم، فلا بأس. ليُسكنهم في غرفة، أو في

(1) النساء من دم مختلط، ثلاث أرباع زنجي وربع أبيض. (المترجمة).

طابق الركاب العاديين، لا يهم. لكننا لن ننقلهم كأنهم بضاعة وهم مكبَّلون.

بحلول ليلتهم السابعة في نيو أورلينز، شعر أبنر مارش بملل شديد من المدينة، وتاق إلى الرحيل. في تلك الليلة نزل يورك إلى العشاء ومعه خريطة للنهر، وكان مارش لم يره إلا لمامًا منذ رسوا في نيو أورلينز. سأل مارش يورك وهو يجلس: «ما رأيك في نيو أورلينز؟».

أجاب يورك مهمومًا: «المدينة جميلة».

نظر إليه مارش وقد لفت نظره صوته المثقل. أردف: «لا أكن شيئًا لها سوى الإعجاب، فهي على خلاف باقي مدن النهر التي زرناها تكتظ بالأوروبيين. بعض منازل المنطقة الأمريكية ضخمة أيضًا. رغم هذا، لا أحب وجودي هنا».

- لماذا؟

- يراودني شعور سيئ يا أبنر. هذه المدينة... الحر... الألوان الزاهية... الروائح... العبيد. إنها حية أكثر من اللازم في الظاهر، لكني أظنها تتعفن مرضًا في الباطن. كل شيء غني جميل هنا، الطبخ، التصرفات، المعمار، لكن تحت كل هذا... أنت ترى تلك الساحات الجذابة المؤثثة بعناية للاستضافة، ثم ترى البواخر تبيع ماء النهر في براميل، وتدرك أن ماء البئر لا يصلح للشرب. تأكل الطعام اللذيذ المُتبَّل، ثم تدرك أن كثرة التوابل تغطي فقط على فساد اللحم. تسير في فندق سانت لويس وتبهرك القبة التي يعبر منها ضوء الشمس ملونًا، بأعمدتها المزخرفة، ثم تعرف أن أشهر سوق عبيد يقام تحتها، يباعون فيه كالمواشي. حتى المدافن هنا مواطن جمال، بلا شواهد قبور بسيطة أو صلبان خشبية. لا شيء سوى أضرحة رخامية هائلة، كل واحدة أكثر فخرًا من الأخرى، بالتماثيل التي تعلو أسقفها، وأبيات الشعر المنقوشة على حجارتها. بيد أن بكل واحدة منها جثة متحللة، تعج باليرقات والديدان. لا بد أن يُحبس كل هذا داخل الأحجار لأن الأرض غير مناسبة للدفن، والقبور تنشع الماء، والطاعون معلق فوق هذه المدينة الجميلة يظللها بالكآبة.

ثم أضاف چوشوا بنظرة غريبة شاردة في عينيه الرماديتين: «لا يا أبنر. أنا أحب الجمال، لكنه أحيانًا ينطوي على الشر والشؤم. كلما غادرنا هذه المدينة أسرع، احتفظت بإعجابي بها».

- يا للجحيم. لأُلعَن لو عارضتك؛ أنا أشعر بما تشعر به بالضبط. لا تقلق، يمكننا أن نغادر بسرعة.

- عظيم. لكن لدي مهمة واحدة أخيرة.

أزاح يورك طبقه جانبًا، وفتح الخريطة التي جلبها معه.

- غدًا عند الغروب، أريد أن أبحر بحلم فيڤر جنوبًا.

قال مارش في ذهول: «جنوبًا؟ لا يوجد شيء جنوبنا إلا بعض المزارع، وكثير من الكاچونيين[1]، ومستنقعات وروافد، ثم الخليج».

تبع إصبع يورك مسارًا عبر نهر المسيسبي وهو يقول: «انظر. سنتبع النهر جنوبًا حتى هنا، ثم نسلك هذا الرافد ونستمر فيه مسافة ستة أميال حتى هنا. لن يستغرق الأمر طويلًا، ويمكننا العودة في الليلة التالية لنأخذ ركابنا إلى سانت لويس. أريد أن أتوقف *هنا* سريعًا».

كانت شريحة اللحم أمام مارش لكنه تجاهلها، ومال ليرى إلى أين يشير چوشوا، ثم قال: «مرسى السِرو... حسنًا، لا أعرف...».

نظر حوله فوجد القاعة شبه خاوية. كارل فرام وبليك الأشيب وچاك إيلي يأكلون عند نهاية المائدة. هتف مارش: «سيد فرام. تعالَ لحظة».

وصل فرام، فأشار مارش إلى الطريق الذي ذكره يورك وقال: «هل يمكنك أن تبحر بنا مع اتجاه النهر حتى هذا الرافد؟ أم أننا سننجرف أكثر من اللازم؟».

- بعض الروافد واسعة عميقة، وبعضها يصعب الإبحار فيها بقارب لا باخرة. لكن غالبًا يمكنني ذلك. هناك مراسٍ ومزارع، وبعض البواخر تذهب، غير أن أغلبها ليس في ضخامة هذه السيدة. سيكون تقدمنا بطيئًا، أعرف هذا. يجب أن نكون منتبهين طوال الطريق، وأن نراقب الحواجز الرملية والعوائق وجذوع الشجر الطافية.

مال أكثر لينظر إلى الخارطة وسأل: «إلى أين نذهب؟ لقد ذهبت إلى هذه المنطقة مرة أو اثنتين».

أجاب مارش: «مكان يُدعى مرسى السِّرو».

---

(1) الفرنسيون من مستعمرات لويزيانا. (المترجمة).

زمَّ فرام شفتيه وقال: «المفترض ألا يكون الوضع سيئًا أكثر من اللازم. هذه مزرعة جارو القديمة، واعتادت البواخر أن تحُط هناك لتُحمِّل البطاطا وقصب السكر إلى نيو أورلينز. توفي جارو هو وعائلته كلها، ولم نعد نسمع عن مرسى السِّرو من وقتها. الآن أتذكر أنني سمعت قصصًا غريبة عن هذا المكان. لماذا سنذهب إلى هناك؟».

أجاب چوشوا يورك: «مسألة شخصية. تجهَّز للذهاب إلى هناك يا سيد فرام. سنرحل بعد غروب الغد».

- أنت الربَّان.

ثم عاد إلى طعامه. شكا أبنر: «أين كوب الحليب اللعين؟!».

نظر حوله. النادل شاب زنجي نحيف يقف عند باب المطبخ. صاح مارش فيه: «هات عشائي».

فظهر على الشاب التوتر. أستدار مارش إلى يورك وقال: «هذه الرحلة... هل هي... جزء مما حكيت لي عنه؟».

- أجل.

- الأمر خطِر؟

هزَّ يورك كتفيه، فأكمل مارش همسًا: «لا يروقني هذا أبدًا. أمور مصاصي الدماء هذه».

- سينتهي الأمر قريبًا يا أبنر. سأذهب إلى هذه المزرعة وأراعي بعض الشؤون، وأحضر بعض الأصدقاء معنا، ثم ينتهي كل شيء.

- دعني أذهب معك في عملك هذا. لا أقول إنني لا أصدقك، لكن لو رأيت بعيني سيكون إيماني بالموضوع أيسَر كما تعرف.

نظر إليه چوشوا، فحدق مارش إلى عينيه لحظة، ورأى فيهما ما يمتد نحوه ويلمسه، وفجأة دون قصد، أشاح بنظره. طوى چوشوا الخارطة وهو يقول: «لا أظنه قرارًا حكيمًا، لكني سأفكر. أستأذن في الانصراف، فلدي بعض الأعمال».

ثم قام وغادر المائدة.

راقبه مارش وهو يبتعد، غير واثق مما جرى بينهما. أخيرًا غمغم: «اللعنة عليه على أي حال».

ثم أولى شريحة اللحم اهتمامه.

بعد ساعات، تلقى أبنر مارش زيارة.

كان في غرفته يحاول أن ينام، فنبَّهته طرقة خفيفة على الباب بدت في أذنيه كهزيم رعد، فارتج قلبه في صدره. لسبب ما كان مرتعبًا، والغرفة حالكة الظلمة.

- مَن؟ اللعنة عليك!

جاءه صوت هامس يجِبه: «أنا توبي يا كابتِن».

ذاب خوف مارش على الفور وبدا سخفًا. توبي لانيارد أرق روح عجوز وضعت قدمها في أي باخرة. هتف مارش: «أنا قادم».

أضاء المصباح على منضدة الفراش الجانبية قبل أن يقوم. وجد رجلين بالخارج. توبي ستيني، أصلع إلا من شعيرات شائبة تحيط برأسه الأسود، ووجهه مجعد بالٍ كزوجي حذاء قديم مريح. برفقته شاب زنجي، قصير بني البشرة يرتدي بدلة غالية الثمن. احتاج مارش إلى لحظات حتى يتعرَّفه في الضوء الشحيح. إنه چيبدياه فريمان، الحلَّاق الذي استأجره من لويسڤيل. قال توبي: «كابتِن، نريد أن نتحدث معًا على انفراد لو أمكن».

أشار إليهما مارش بالدخول.

- ما الأمر يا توبي؟

أغلق مارش الباب خلفهم، فقال الطاهي: «نحن رسولان. أنت تعرفني منذ زمن طويل يا كابتِن، وتعرف أنني لا أكذب عليك».

- بالطبع.

- وأنا لم أهرب منك. لقد منحتني حريتي لأطهو لك فقط، لكن باقي الزنوج هنا من عمال وحمَّالين لن ينصتوا لي ولا لچيب عندما نقول لهم إنك رجل طيب. هم مذعورون ويفكرون في الهرب. نادل العشاء سمعك وكابتِن يورك الليلة تتحدثان عن الذهاب إلى مكان السرو هذا، والآن جميع الزنوج يتكلمون.

- ماذا؟ أنتما لم تذهبا قط إلى مرسى السِّرو. ماذا يعني لكما هذا المكان؟

أجاب چيب: «لا شيء على الإطلاق. لكن بعض هؤلاء الزنوج سمعوا به. ثمة ما يشاع عن هذا المكان يا كابتِن. شائعات مرعبة. الزنوج يهربون من هذا المكان بسبب ما يجري فيه من فظائع يا كابتِن. فظائع رهيبة».

- جئنا نطلب منك ألا تذهبوا إلى هناك يا كابتِن. تعرف أنني لم أطلب منك أي شيء من قبل.

- لا آخذ تعليمات من طاهٍ وحلاق عما أفعله بباخرتي.

صمت مارش هنيهة، ثم أضاف وهو ينظر إلى وجه توبي، وبصوت هادئ قال: «لن يحدث شيء. لكن إن كنتما ترغبان في المكوث في نيو أورلينز حتى نعود، فلا بأس من ذلك. لن نحتاج إلى طاهٍ وحلاق خلال تلك الرحلة القصيرة».

بدا توبي ممتنًّا، لكنه قال: «والعُمَّال...».

- أحتاج إليهم.

- لن يمكثوا يا كابتِن. أقول لك إنهم سيفرون.

- أعتقد أن لدى مايك المشعر قولًا في هذا الأمر.

هزَّ چيب رأسه وغمغم: «الزنوج يخشون مايك المشعر بالطبع، لكنهم يخافون أكثر من هذا المكان الذي تخطط إلى أخذهم إليه. سيهربون... أنا متأكد».

صاح مارش: «الحمقى اللعينون. حسنًا، لا يمكننا الإبحار دون عُمَّال، لكن چوشوا هو من يرغب في الذهاب إلى هناك، لا أنا. أمهلاني دقيقتين أبدل فيهما ملابسي، ولنتكلم مع كابتِن يورك عن هذا».

تبادل الزنجيان النظرات ولم يقولا شيئًا.

لم يكن چوشوا يورك وحده. عندما مشى مارش إلى باب غرفته سمع صوت شريكه عاليًا مُنغَّمًا. تردد مارش، ثم امتعض عندما أدرك أن چوشوا يلقي الشعر بصوت عال. دق الباب بعصاه، فقطع يورك تلاوته وطلب منه أن يدخل.

وجد مارش شريكه جالسًا وكتاب على فخذيه، وإصبع طويلة شاحبة يشير إلى حيث توقَّف، وكأس خمر إلى جواره على المنضدة. وكانت ڤاليري جالسة على المقعد الآخر. نظرت إلى مارش ثم أبعدت عينيها سريعًا، فقد

كانت تتحاشاه منذ تلك الليلة، ووجد مارش سهولة في تجاهلها. قال مارش: «أخبره يا توبي».

بدا توبي كأنما يعاني عُسرًا في العثور على كلمات، ولم يحدث هذا في لقائه مع مارش، لكنه في النهاية نطق. عندما أتمَّ كلماته وقف مُنكَّس الرأس يلوي قبعته القديمة بين يديه.

اكتسى وجه چوشوا يورك بالوجوم. سأل في تهذيب: «ممَ يخشى الرجال؟».

- من أن... أ...

- أنا أعطِيهم كلمتي بأن أحميهم.

هزَّ توبي رأسه وقال: «كابتِن يورك... لا أقصد أي إساءة، لكن الزنوج خائفون منك أنت أيضًا، خاصة وأنت ترغب في الذهاب إلى هناك».

أضاف چيب: «يظنونك واحدًا منهم. أنت وأصدقاؤك. يعتقدون أنكم تستدرجوننا إلى الآخرين هناك. تقول الشائعات إن الآخرين في المزرعة لا يخرجون نهارًا، وأنت مثلهم يا كابتِن. بالطبع أعرف أنا وتوبي الحقيقة، لكني أتكلم عن الرفاق».

قال مارش: «أخبرهم أننا سنضاعف أجرهم عن الوقت الذي سيقضونه في المرسى».

لم يرفع توبي عينيه، لكن هزَّ رأسه وهمس: «لن يكترثوا للمال. سيهربون».

هتف مارش: «چوشوا، لو أن المال ومايك المشعر لن يحثانهم على الذهاب، فلن يفلح شيء معهم. سنضطر إلى تسريحهم وجلب عمال وحمالين وبحارة، لكننا سنحتاج إلى وقت».

مالت ڤاليري إلى الأمام ووضعت كفها على ذراع چوشوا يورك وهمست: «أرجوك يا چوشوا. أنصت إليهم. هذه علامة. لا يجب أن نذهب. عُد بنا إلى سانت لويس. لقد وعدتني أن تُريني سانت لويس».

- سأفعل. لكن الآن لدي مهمة.

عبس في وجه توبي وچيب مضيفًا: «يمكنني الوصول إلى مرسى السِّرو برًّا بسهولة، وستكون هذه وسيلة سهلة سريعة للوصول إلى هدفي، لكن هذا

لا يُرضيني أيها السادة. سواء كانت هذه باخرتي أم لا، وسواء كنت الربَّان هنا أم لا، لن أسمح لطاقمي بأن يخوِّنني، ولا لرجالي بأن يخشوني».

وضع كتاب الشعر جانبًا وأكمل بغضب واضح: «هل فعلت شيئًا آذاك من قبل يا توبي؟ هل أسأت معاملة أي منكم أيها الناس؟ هل فعلت أي شيء على الإطلاق لأستحق هذا الشك؟».

قال توبي برفق: «لا... أ...».

- تقول: «لا»، ومع ذلك سيهجرونني؟

- أخشى ذلك يا كابتِن.

نظر إليه يورك نظرة عازمة وقال: «ماذا لو أثبت أنني لست كما يظنون؟».

وانتقلت عيناه من توبي إلى چيب مرة أخرى وبالعكس، وأردف: «لو رأوني في ضوء النهار، هل سيثقون بي؟».

هتفت ڤاليري فزعة: «لا! چوشوا، أنت لا تستطيع...».

- أستطيع، وسأفعل. ما قولك يا توبي؟

رفع الطاهي رأسه والتقى عيني يورك، فأومأ ببطء.

- حسنًا... ربما... لو أنهم رأوا أنك لست...

حدق چوشوا إلى الأسوَدين مليًّا، ثم قال أخيرًا: «اتفقنا. سآكل معكم بعد ظهيرة الغد إذًا. جهز لي مكانًا».

***

ثلاثة عشر



على متن الباخرة حلم فيڤر
نيو أورلينز
أغسطس 1857

ارتدى چوشوا بدلته البيضاء لمشاركتهم الطعام، وتفوق توبي على نفسه في إعداد المأكولات. انتشر الخبر بالطبع، وسرعان ما احتشد طاقم حلم فيڤر.

تأنق النُّدُل بستراتهم المهندمة البيضاء، وراحوا ينقلون وليمة توبي من المطبخ على أطباق ضخمة من الخزف الأصلي. قدموا حساء السلاحف، وسلطة الروبيان، والسلطعون المحشو، والخبز الحلو المدهون بشحم الخنزير، وفطائر المحار، وأضلاع اللحم، ودجاج مقلي، وفلفل محشو، ولحم مشوي، وشرائح لحم عجل مقلية، وبطاطس أيرلندية، وذرة خضراء، وجزر وخرشوف وبازلاء، ومجموعة كبيرة من اللفائف والمعجنات، والخمر والنبيذ، والحليب من المدينة، وأطباق الزبد. كما قدَّموا تحلية من فطائر بودنج البرقوق، وفطائر الليمون، وحلى الجُزُر الطافية، والكيك الإسفنجي بزينة الشوكولاتة.

لم يشهد أبنَر مارش طعامًا أفضل من هذا في حياته. قال ليورك: «اللعنة. ليتك تحضر لتأكل معنا أكثر، لنرى مثل هذا الطعام كل يوم».

بالكاد مس يورك طعامه. في ضوء النهار الباهر بدا شخصًا مختلفًا، منكمشًا بشكل ما، أقل اقتحامًا. بشرته الباهتة اتخذت مظهرًا غير صحي، وظن مارش أنه رأى شيئًا من اللون الرمادي يطغى عليها. كانت حركات يورك أكثر خمولًا وتشنجًا، وخلت من أي صحة وقوة اعتادها الجميع منه. لكن الاختلاف الأعظم هو العينان. تحت ظل القبعة البيضاء عريضة الحافة

التي اعتمرها، بدت عيناه مرهقتين بشدة. الحدقتان صغيرتان كرأسي دبوس، والرمادي حولهما باهت، دون الحدَّة التي يراها مارش فيهما عادة.

لكنه كان هنا، ووجوده شكل فارقًا عظيمًا؛ لقد خرج من حجرته في ضوء النهار، وسار عبر الطوابق المفتوحة، ونزل الدَّرج، وجلس إلى المائدة أمام الرب والطاقم والجميع. ولم تتمخض قصص الليل ومخاوفه عن شيء إلا السخف الآن، بعدما اغتسل چوشوا يورك وبدلته البيضاء بالنور.

ظل يورك صامتًا أغلب الوقت، إلا أنه أجاب من سأله، وعلَّق على بعض الأمور التي طُرحت من حوله. عندما قدموا الحلوى، أزاح طبقه جانبًا ووضع سكينه على الطاولة، ثم قال: «اطلب من توبي أن يأتي».

جاء الطاهي من المطبخ ملطخًا بالدقيق وزيت الطهي. سأله: «ألم يعجبك الطعام يا كابتِن يورك؟».

- بل هو جميل يا توبي، لكني أخشى أن شهيتي لا تكون على ما يرام في هذا الوقت من اليوم. على أي حال، هأنذا هنا، وأعتقد أنني أثبتُ شيئًا.

- أجل يا سيدي. لن تكون مشكلة الآن.

- ممتاز.

عندما عاد توبي إلى المطبخ، التفت يورك إلى مارش وقال: «قررت أن أنتظر يومًا آخر هنا، وسنبحر غدًا ليلًا، وليس الليلة».

- بالطبع يا چوشوا. ناولي قطعة من هذه الفطيرة لو سمحت.

ابتسم يورك وناوله إياها.

قال دان أولبرايت الذي كان يسوك أسنانه بعود عظمي: «كابتِن، الليلة أفضل من الغد. عاصفة صغيرة قادمة».

قال يورك: «غدًا».

هز أولبرايت كتفيه. أكمل يورك: «توبي وچيب سيتخلفان عنا، وأريد ألا نثقل أنفسنا سوى بالضروري لتحريك الباخرة. سينزل كل الركاب عن الباخرة ثم ينتظرون عودتنا. لن نشحن أي شيء، فيمكن للحمَّالين أن يتخلفوا أيضًا، وسنأخذ رجال وردية واحدة معنا. هل يمكن أن نفعل ذلك؟».

قال مارش: «أعتقد».

ثم نظر عبر المائدة الطويلة إلى القباطنة ومساعديهم الذين ينظرون في فضول إلى چوشوا. قال الأخير: «حتى ليل غد إذًا. اعذروني، لا بد أن أرتاح».

قام واقفًا، وللحظة بدا كأنما سيفقد اتزانه. هرع مارش إليه، لكن يورك أشار إليه وقال: «أنا بخير. سأعود إلى غرفتي الآن. تأكد من أن أحدًا لن يقلقني حتى موعد رحيلنا».

- ألن تحضر عشاء الليلة؟

- لا.

دارت عيناه في القاعة ثم أضاف: «أعتقد أنني فعلًا أفضل الليل. لورد بايرون كان محقًّا؛ إن للنهار بهرجًا».

- هه؟

- ألا تتذكر؟ القصيدة التي ألقيتها عليك في ساحة بناء السفن في نيو ألباني. إنها تناسب حلم فيڤر أيضًا. تسير مُختالة...

أكمل چيفرز وهو يعدِّل وضع نظارته: «مثل ليلة».

نظر إليه أبنر مارش في حنق. چيفرز شيطان شطرنج، حاذق في الأرقام، لكن مارش لم يسمعه يتلو قصيدة من قبل. سأل چوشوا مسرورًا: «أنت تعرف بايرون!».

وللحظة بدا كأنما عاد لنفسه.

قال چيفرز بحاجب مقوَّس وهو ينظر إلى يورك: «أعرفه. هل تريد أن تقول يا كابتِن إننا نمضي أيامنا هنا في حلم فيڤر أتقياء؟»، ثم ابتسم مضيفًا: «أظن أن هذا سيُدهش مايك المشعر والسيد فرام».

قهقه مايك المُشعِر، واحتج فرام هاتفًا: «مهلًا. ثلاث زيجات لا تعني أنني لست تقيًّا. هذا ما تضمنه لي كل واحدة منهن!».

سأل أبنَر مارش وقدا بدا محتارًا شأنه شأن باقي الطاقم: «عمَّ تتكلمون بحق الجحيم؟».

أجاب چوشوا بابتسامة مراوغة: «السيد چيفرز يذكرني بآخر أبيات من قصيدة بايرون».

ثم تلا:

وعلى تلك الوجنة، وعلى ذاك الحاجب..
رقيقة جدًّا، هادئة جدًّا. ولكَم هي بليغة..
تلكم الابتسامة الأخَّاذة، والألوان البراقة.
لا تقص سوى حكاية أيام مرَّت في تقوى.
وعقل هادئ هانئ بما فيه..
وقلب طاهر الحُب.

سأل چيفرز: «هل نحن طاهرون يا كابتِن؟».

أجاب چوشوا: «ما مِن أحد طاهر حتى النخاع. لكن القصيدة لا تنفك تتحدث إليَّ يا سيد چيفرز. الليل جميل، ونأمل في أن نجد سلامًا في عتمته. كثير يهابون الظلام بلا سبب».

قال چيفرز: «ربما. أحيانًا يستحق أن يُهاب رغم ذلك».

- لا.

وبكلمته غادرهم، مقاطعًا مباراته الكلامية الراقية مع چيفرز. بمجرد أن اختفى، بدأ الآخرون يغادرون أماكنهم ليتولوا أعمالهم، لكن چوناثان چيفرز مكث في مكانه، شارد في خواطره، يحدق عبر الغرفة. جلس مارش لينهي فطيرته وهو يقول: «سيد چيفرز. لا أعرف ما يجري في هذا النهر. اللعنة على القصائد. ماذا استفدنا بكل هذا الكلام المنمق؟ إن لدى بايرون هذا ما يقول، لماذا لا يقوله صراحة، وبلغة مفهومة؟ أجبني».

رمش چيفرز ونظر نحوه.

- معذرة يا كابتِن. كنت أحاول تذكُّر شيء. ماذا كنت تقول؟

ابتلع مارش قطعة فطيرة، وأتبعها ببعض القهوة، ثم كرر سؤاله.

أجاب بابتسامة ساخرة: «حسنًا يا كابتِن. الشيء الرئيسي هنا أن الشعر جميل، بكلماته التي تتسق معًا، وبتناغمه، وبالصور التي يرسمها. الشعر ممتع عندما يُلقى بصوت عال. التناغم، الموسيقى الداخلية، القافية، وقعه على المسامع. صعب أن أوضح لك أكثر ما لم تشعر به. لكن الأمر أشبه بباخرة يا كابتِن».

- لم أرَ قط أي قصيدة في جمال باخرة.

- قل لي يا كابتِن، لماذا تحمل الباخرة أضواء الشمال صورة الشفق القطبي فوق غطاء مجاديفها؟ هي لا تحتاج إليها، وستدور الرفاسات بها أو دونها. لماذا نزين غرف القيادة في أغلب البواخر بالنقوش والزخارف؟ لماذا تكتسب البواخر جزءًا كبيرًا من سمعتها من خلال زينتها والأبسطة الفاخرة فيها ولوحات الزيت والخشب المنقوش؟ لماذا تزين نقوش الأزهار قمم مداخننا؟ سيخرج منها الدخان أيضًا لو كانت بلا زينة.

تجشأ مارش وعبس. أكمل چيفرز: «يمكننا أن نبني بواخر بسيطة بلا زينة، لكن الزينة تجعلها أجمل للناظرين، وللراكبين أيضًا. الشيء نفسه مع الشعر يا كابتِن. يمكن للشاعر أن يقول ما يريد بوضوح ومباشرة، لكن عندما يستخدم السجع والجناس وغيره، يصير الكلام أجمل».

قال مارش في شك: «حسنًا. ربما».

- أراهن على أنني أستطيع أن أعثر على قصيدة تروقك. بايرون كتب واحدة؛ «دمار سيناشيريب».

- وأين تقع؟

- هذا اسم شخص، لا مكان. هي قصيدة عن الحرب يا كابتِن، وبها تناغم رائع وحيوية مثل أغنية «فتيات بَفالو».

وقف وهندم سترته، ثم قال: «تعال معي، سأريك».

أنهى مارش قهوته، ودفع نفسه بعيدًا عن المائدة، ثم تبع چوناثان چيفرز إلى مكتب حلم فيڤر. ارتمى هناك في رضا على مقعد وثير، بينما يبحث رفيقه في أرفف المكتبة التي تملأ الغرفة، وترتفع حتى السقف. قال چيفرز أخيرًا: «ها هو». وسحب كتابًا ضخمًا مردفًا: «كنت أعرف أن لدينا كتاب شعر بايرون في مكان ما».

بحث عبر الصفحات التي لم يُفتَح أغلبها من قبل، فشقَّ التصاقها بجانب ظفره، حتى وجد ضالته. استقام في وقفته وهتف: «دمار سيناشيريب».

اعترف مارش أن للقصيدة تناغمًا جيدًا، خاصة بإلقاء چيفرز، لكنها لا تضاهي «فتيات بَفالو» بالطبع. رغم ذلك راقته إلى حد كبير. قال بعدما انتهى چيفرز: «لا بأس بها. لا تهم نهايتها على أي حال، أبواق الإنجيل هؤلاء يجرُّون سيرة الرب إلى كل صوب».

ضحك چيفرز وقال: «لكن لورد بايرون ليس بوق إنجيل، أؤكد لك ذلك. هو فاسق، أو هكذا قيل عنه».

شرد قليلًا، ثم بدأ مرة أخرى في تقليب الصفحات.

- عمَّ تبحث الآن؟

- عن القصيدة التي كنت أحاول تذكرها. كتب بايرون قصيدة أخرى عن الليل، كلماتها غريبة و... ها هي ذي. اسمع يا كابتِن. عنوانها هو: «الظلام».

راودني حلم، ليس حلمًا على الإطلاق.
خبت الشمس الوضاحة، وكذا النجوم.
وجاب الظلام أرجاء الفضاء السرمدي،
المُدلَهم، الشاسع، وبقاع الأرض المتجمدة.
دار أعمى، مُعمٍ، في هواء بلا قمر.
حلَّ النهار وارتحل، ثم حل ولم يرافقه الصبح.
ونسي الرجال شَغفهم في دياجير فزع عزلتهم..
وارتعشت القلوب في صلاة أنانية للنور..

اتخذ صوت الكاتب نبرة رنانة مخيفة وهو يقرأ، واستمرت القصيدة أطول من أي واحدة أخرى. سرعان ما فقد مارش تركيزه في الكلمات، لكنها لمسته وألقت برودة مرعبة في أرجاء الغرفة. تداعت الأبيات والكلمات على عقله؛ القصيدة ملآنة بصور الرعب والصلوات اليائسة والقهر والجنون والجنازات والحرب والمجاعة والرجال الأشبه بالوحوش.

.. وجيء بالمأكل..
بالدماء، وجلس كل على مبعدة من الآخر،
يُتخِم نفسه وسط العتمة، ولم يتبقَّ شيء من الحب.
وخلت الأرض سوى من فكرة واحدة؛ فكرة الموت الفوري الشائن.

فكرة المجاعة تلتهم الدواخل.

ويموت الرجال بلا قبور..

وينهش الغثُّ الغَث..

واستمر جيفرز في القراءة، ويتمثل الشيطان في عباراته تلو الشيطان، حتى وصل إلى:

واضطجعوا عند الهاوية خملين..

وماتت الأمواج، وغزا المد قبورهم.

والقمر من قبلهم قد أسلم الروح..

وذُويَت الريح وسط الهواء الراكد..

وهلكت السحب، إذ لا تريد العتمة منهم مبتغى؛

فهي الكون بأسرِه.

أغلق الكتاب. قال مارش: «هذيان. تبدو لي هلوسة محموم».

ابتسم چيفرز.

- لم يظهر الرب حتى من خلف السطور. من وجهة نظري، يرى بايرون الظلام من منظورين. ثمة نظرة بريئة واضحة في *تلك* القصيدة. تُرى هل يعرف كابتِن يورك ما قرأت للتو؟

أجاب مارش وهو يقوم بصعوبة واقفًا: «بالطبع يعرفها. أعطني هذا».

وأشار إلى الكتاب، فأعطاه إياه چيفرز وهو يقول: «صرت تهتم بالشعر يا كابتِن؟».

وضع الكتاب في جيبه وأجاب: «لا تشغل بالك. أليس لديك عمل في مكتبك؟».

- بالـــتأكيد.

ثم استأذن ورحل.

وقف مارش في المكتبة لثلاث أو أربع دقائق شاعرًا بغرابة، فقد أثرت فيه القصيدة وأثارت قلقه. ربما للقصائد تأثير حقًّا رغم كل شيء، فقرر أن يطالع الكتاب في أوقات فراغه ليستكشف الموضوع أكثر.

لمارش شؤون يحتاج إلى مراعاتها أيضًا، وقد استغرق فيها طوال الظهيرة وحتى المساء. بعدها نسي كل شيء عن الكتاب في جيبه. كان فرام ذاهب للعشاء في فندق سانت تشارلز، وقرر مارش مرافقته، وعادا إلى حلم فيڤر قرب منتصف الليل.

خلع مارش ملابسه في غرفته، فصادفه الكتاب مرة أخرى. وضعه بحرص على المنضدة المجاورة للفراش، ثم لبس منامته وجلس يقرأ قليلًا على ضوء الشمعة.

بدت قصيدة «الظلام» مرعبة أكثر في الليل، ووسط وحدة غرفته المظلمة، رغم أن الكلمات في الكتاب قد فقدت البرودة والرعب التي منحهما لها إلقاء چيفرز. مع ذلك، ظلت تُرجفه. قلب الصفحات وقرأ قصيدة «سيناشيريب» و«تسير مختالة» وقصائد أخرى، لكن ظلت أفكاره تطوف حول «الظلام». رغم حرارة الليل، اقشعر جسده وارتجف.

على غلاف الكتاب الأمامي صورة بايرون. تفحصها مارش. بدا وسيمًا كفاية ليغوي النساء، حتى لو كان به عرج. وهو نبيل أيضًا. مكتوب تحت صورته:

چورچ چوردون، لورد بايرون

1824-1788

نظر مارش إلى وجه بايرون مرة أخرى، ووجد نفسه يغبط الشاعر على ملامحه القسيمة. مارش يفتقد الجمال، ولو أنه حلم بالبواخر الضخمة الباهرة، فذلك لأنه يعوض نقصه، بجسده الضخم، وبثور وجهه، وأنفه الأفطس. لم يضع مارش النساء في حسبانه قَط. عندما كان شابًّا يعمل في القوارب عبر النهر، وحتى بعدما امتلك بواخره، لم يعتد مارش زيارة مواخير ناتشيز أسفل التل أو نيو أورلينز كما اعتاد رجال النهر قضاء لياليهم بأسعار معقولة. ولاحقًا، بعدما قويت شوكة خطوط بواخر نهر فيڤر، ظهرت نساء من

مدن بالينا ودوبوك وسانت بول وتوددن إليه رغبة في الزواج به، أغلبهن أرامل واجمات يعرفن قيمة الرجل الشهير القوي مثله، لكنهن فقدن اهتمامهن به ما أن حلَّت به الكارثة. على أي حال لم تكن منهن مَن يرغب فيها. عندما يترك أبنر مارش لنفسه عنان التفكير في هذه الأمور، فإنه يحلم بالكريوليات ذوات الأعين السوداء، أو الكوادرونيات المُحرَّرات من نيو أورلينز، واللاتي يذكرنه بجمالهن وعنفوانهن وشموخهن ببواخره.

نخر مارش وأطفأ شمعته. حل النوم، لكن أحلامه امتلأت بالكلمات المشؤومة تتردد في جنبات عقله المظلمة.

حلَّ النهار وارتحل، ثم حل ولم يرافقه الصبح.

ونسيَ الرجال شَغفهم في دياجير فزع عزلتهم..

وارتعشت القلوب في صلاة أنانية للنور.

.. وجيء بالمأكل..

بالدماء، وجلس كل على مبعدة من الآخر..

جلس مارش في فراشه منتفضًا، متيقظًا، ينصت إلى ضربات قلبه. غمغم: «اللعنة». عثر على عود ثقاب فأشعل به الشمعة، وفتح كتاب الشعر على صورة لورد بايرون، ثم كرر: «اللعنة».

ارتدى مارش ملابسه بسرعة، فهو يتوق إلى صحبة قوية. مايك المُشعر بعضلاته وعصاه الحديدية السوداء، أو چوناثان چيفرز بعصاه ذات السيف. لكن الأمر بينه وبين چوشوا فقط، وعده بألا يتحدث إلى أي شخص آخر.

نضح وجهه ببعض الماء، ثم أمسك بعصاه وخرج إلى سطح الباخرة متمنيًا لو أن معه واعظًا أو قسًّا على متنه، أو حتى صليبًا. كتاب الشعر في جيبه. عند نهاية المرسى باخرة أخرى تنفث البخار وتُحمِّل. يسمع مارش صوت حماليها يغنون ببطء، أغنية كئيبة وهم ينقلون البضائع إليها.

على باب غرفة چوشوا، رفع مارش عصاه، ثم تردد، وامتلأت نفسه بالشكوك. لقد أمر يورك بألا يقلقه أحد، وسيغضب حتمًا مما يريد مارش

التحدث عنه، فالأمر سخيف. لقد أمرضته القصيدة بأحلام مرعبة، وربما هو تأثير شيء أكله، لكن...

لكنه كان واقفًا في مكانه، يعبس مفكرًا، عصاه مرفوعة، عندما فُتِح باب الغرفة. المكان بالداخل مظلم كبطن بقرة. يلقي القمر والنجوم ضوءًا قليلًا عبر فرجة الباب، لكن ما وراء ذلك ظلام مخملي حار. على بعد عدة خطوات من الباب يقف ظل، يلمس ضوء القمر أطراف قدميه.

- ادخل يا أبنر.

جاءه صوت چوشوا من الظلام، يهمس بصوت مبحوح.

دخل مارش. تحرك الظل ثم فجأة انغلق الباب، وسمع مارش صوت الرتاج. الظلام حالك ولا يمكنه رؤية أي شيء. يد قوية قبضت على ذراعه، وجذبته إلى الأمام، ثم دفعته إلى الخلف فأجفل حتى لامس مقعد ردفيه.

صوت حفيف حركة في العتمة. نظر مارش كالأعمى حوله، يحاول أن يستشعر أي شيء. سمع نفسه يقول: «أنا لم أطرق الباب».

- لا، سمعتك تقترب، وكنت أتوقع قدومك يا أبنر.

قال صوت آخر من مكان مختلف في الظلام: «لقد قال إنك ستأتي».

صوت امرأة رقيق، صوت ڤاليري. قال مارش ذاهلًا: «أنتِ؟».

لم يتوقع هذا. كان حائرًا، حانقًا، تنتابه الشكوك، وزاد وجود ڤاليري صعوبة الوضع. سألها مارش: «ماذا تفعلين هنا؟».

- هل يمكنني أن أسألك السؤال نفسه؟ أنا هنا لأن چوشوا يحتاج إليَّ يا كابتِن مارش كي أساعده. وهذا أكثر مما قدمته أنت، رغم كل كلماتك. أنت وأمثالك من المتشككين، كل...

قاطعها چوشوا: «كفاكِ. أبنر، لا أعرف سبب مجيئك الليلة، لكني كنت أعرف أنك ستأتي عاجلًا أو آجلًا. كان عليَّ أن أشارك غبيًّا، يقبل تلقي الأوامر دون أسئلة. أنت حصيف للغاية لحسن حظك، وربما حظي. كنت أعرف أنها مسألة وقت حتى ترى ما وراء قصتي التي نسجتها لأجلك في ناتشيز. لقد رأيتك تراقبنا. أعرف كل شيء بشأن اختباراتك الصغيرة». ثم ضحك ضحكة مبتورة وأضاف: «ماء مقدس، أليس كذلك؟».

- كيف... أنت كنت تعرف إذًا؟

- نعم.

- بئسًا لهذا الولد.

- لا تقسُ عليه. ليس له ذنب يا أبنر. أنا لاحظته يحدق إليَّ طوال العشاء. لا... الماء نفسه من أخبرني. كوب ماء صافٍ يظهر أمامي بعد أيام من حديثنا، فماذا أستنتج؟ طوال وقت ارتحالنا في النهر، كنا نشرب ماءً ملوثًا بالشوائب. كنت لأبني حديقة من رواسب الطين التي أتركها في قاع أكوابي.

ثم أطلق ضحكة غريبة وأضاف: «أو حتى أملأ بها تابوتي».

تجاهل مارش آخر عبارة وقال: «قلِّبها واشربها مع الماء. كُن رجل نهر حقيقيًّا. أو كن رجلًا فقط حتى».

- آه. إذًا وصلنا إلى مربط الفرس.

ولم يزِد شيئًا لفترة طويلة. بدت الغرفة خانقة بظلامها وسكونها. عندما تكلم چوشوا أخيرًا، قال بصوت هادئ جاد: «هل جلبت صليبًا معك يا أبنر؟ أو وتدًا؟».

- جلبت هذا.

وأخرج كتاب الشعر، ورماه في الهواء نحو ما يظنه مجلس يورك. سمع صوت حركة، وصوت الإمساك بالكتاب وهو يدور في الهواء. قال چوشوا: «بايرون».

لم يستطع مارش رؤية أصابعه تتحرك أمام وجهه، إذ إن الغرفة مغلقة مُسدلة الستائر، لكن چوشوا يرى بما يكفي ليلتقط الكتاب في الهواء، بل ويقرأه أيضًا. اقشعر جسد مارش مرة أخرى وارتجف رغم الحر.

سأله چوشوا: «لماذا بايرون بالتحديد؟ أنت تحيرني. توقعت اختبارًا آخر، صليبًا، أسئلة. لكني لم أتوقع بايرون».

- چوشوا. كم عمرك؟

صمت...

أردف مارش: «أنا أعرف كيف أحكم على السن، لكنني احترت في أمرك بشعرك الأبيض وكل هذا. على ذلك، ومن تفاصيل وجهك وكفيك، يمكنني أن

أقول إنك في الثلاثين أو الخامسة والثلاثين على أقصى تقدير. هذا الكتاب هنا يقول إنه توفي منذ ثلاثة وثلاثين عامًا. قلت إنك تعرفه».

زفر چوشوا، ثم قال مستسلمًا: «نعم، خطأ غبي. كنت مأخوذًا بمنظر هذه الباخرة ونسيت نفسي، بعدها ظننت أنه خطأ غير مهم، فأنت لا تعرف شيئًا عن بايرون. كنت واثقًا من أنك ستنسى».

قبض مارش على رأس عصاه بقوة، ومال إلى الأمام وهو يقول: «لست سريعًا، لكني لا أنسى. نحتاج إلى أن نتحدث صراحة يا چوشوا. أخرِج المرأة من هنا».

ضحكت ڤاليري ضحكة باردة في الظلام، وقد بدا صوتها أقرب إليه الآن. لم يسمعها مارش تتحرك. قالت: «هو غبي وقح».

قال چوشوا في فظاظة: «ستمكث ڤاليري يا أبنر. هي مؤتمنة على سماع أي شيء قد تقوله لي. اعتبرها أنا».

شعر مارش بالبرودة والوحشة.

- اعتبرها أنا. وما أنت إذًا؟

- احكم بنفسك.

وأضيئَت شعلة صغيرة أنارت ملامح وجه چوشوا. كانت شفتاه متورمتين مشققتين، والجلد المحترق المسود مشدود فوق جبينه وخديه، ودمامل ممتلئة بالماء والصديد منتفخة تحت ذقنه، وتغطي يده التي تحمل عود الثقاب. عيناه الرماديتان بيضاوان غائمتان، تطلان من فجوتين غائرتين. ابتسم چوشوا يورك في كآبة، فسمع مارش صوت لحم وجهه يتشقق، ورأى سائلًا أبيض يسيل من جروح خديه. سقطت قطعة جلد، فكشفت اللحم الوردي تحتها.

ثم انطفأ عود الثقاب، وحل الظلام نعمةً.

قالت ڤاليري مُتهمة: «تقول إنك شريكه. تقول إنك ستساعده. هذه هي المساعدة التي منحتها إياه أنت وطاقمك المتشكك باتهاماتكم وتهديداتكم. كان ليموت لأجل خاطركم. هو الملك الشاحب، وأنت لا شيء، لكنه فعل هذا بنفسه ليكسب ولاءكم الذي بلا قيمة. هل أنت راضٍ الآن يا كابتِن مارش؟ يبدو أنك غير راضٍ بما أنك هنا».

سأل مارش متجاهلًا ڤاليري: «ماذا حدث لك بحق الجحيم؟».

- لقد خرجت إلى بهرج نهارك لأقل من ساعتين.

فهم مارش الآن سبب تألمه.

- كنت واعيًا للمخاطرة. لقد فعلت ذلك من قبل عندما كان الأمر ضروريًّا. قد تقتلني أربع ساعات، أو ست على أقصى تقدير. لكن يمكنني قضاء ساعتين أو أقل بعيدًا عن الشمس المباشرة... أعرف حدودي. تبدو الحروق أسوأ مما هي عليه. الألم محتمل، وسيمر كل هذا سريعًا. بحلول الوقت نفسه غدًا لن يعرف أحد أن سوءًا مسَّني. لحمي يشفي نفسه، وستنفجر الدمامل ويسقط معها الجلد المتضرر. سترى بنفسك.

أغلق أبنر مارش عينيه، ثم فتحهما. الظلام يحيق به، لكنه ما زال يرى الانطباع الضوئي للهب عود الثقاب معلقًا أمامه، وشبح چوشوا المشوه. قال مارش: «لا يهم الماء المقدس إذًا ولا المرايا، ويمكنك الخروج نهارًا إلى حد ما. ما قلت عن مصاصي الدماء خاصتك هراء. هم حقيقيون، لكنك كذبت. كذبت عليَّ يا چوشوا! أنت لست صائد مصاصي دماء، بل واحدًا منهم. أنتم جميعًا مصاصو دماء لعينون!».

رفع مارش عصاه أمامه كسيف يمنع عنه ما لا يراه. حلقه جاف ملتهب. سمع ڤاليري تضحك وتقترب أكثر. قال چوشوا بهدوء: «أخفض صوتك يا أبنر، وأعفني من محاضرتك. لقد حذرتك من أن تضغطني للحصول على إجاباتك، فأنا لن أجيبك إلا بالأكاذيب. أنت أخرجت مني الكذب رغمًا عني. أنا نادم فقط على أنها لم تكن أكاذيب أفضل».

هتف مارش في غضب: «شريكي. يا للجحيم. لا أصدق هذا حتى الآن. شريكي قاتل، أو ما هو ألعن. ماذا كنت تفعل طوال تلك الليالي؟ تبحث عن شخص وحيد لتشرب دمه وتمزق أوصاله؟ ثم تكمل طريقك... أجل يا سيدي، الآن أفهم. مدينة جديدة كل ليلة، هذا أكثر أمنًا بالنسبة إليك. بمجرد أن يعرف الناس بما فعلت، تكون في مكان آخر. أنت لا تهرب، بل تبحر في باخرة عظيمة لك فيها غرفة خاصة وكل شيء. لا عجب في رغبتك الشديدة في الحصول على باخرة خاصة يا سيد يورك القبطان. لعنك الرب في جحيمه».

هدر يورك: «صمتًا!».

صوته القوي أرغم مارش على إغلاق فمه.

- أنزل هذه العصا قبل أن تكسر بها شيئًا وأنت تلوح بها. أنزلها!

فأنزلها مارش حتى الأرض.

- جيد.

قالت ڤاليري: «مثله كمثل الباقين. لن يفهم. ليس بداخله سوى كراهيتك والخوف منك. لا يمكن أن نتركه يغادر حيًّا».

- ربما. أعتقد أن بداخله ما هو أكثر، أو ربما أنا مخطئ. ما رأيك يا أبنر؟ احذر مما ستقول. تكلم كما لو أن حياتك معلَّقة بكلماتك.

لكن مارش كان غاضبًا فلم يفكر. الخوف الذي ملأه أفسح مجالًا لحمى الاهتياج. لقد كذب عليه شريكه، وسخر منه. لم يعامل رجل أبنر مارش على هذا النحو، ولا يهم إن لم يكن رجلًا على الإطلاق. لقد حوَّل يورك حلم فيڤر، سيدته، إلى نوع من الكوابيس الطافية.

- لقد جبت هذا النهر سنوات، فلا تحاول إفزاعي. عندما ركبت أول باخرة، رأيت صديقًا لي يُبقَر بطنه في إحدى حانات سانت چو. أمسكت بالمجرم الذي فعل هذا، وجردته من سلاحه وكسرت ظهره. شاركت أيضًا في معركة الفأس القوية في كانساس الدامية، لذا لن يهددني محتال مثلك. إن أردت أن تقتلني، فافعل ذلك الآن. وزني ضعفي وزنك، وأنت محترق كأنك خارج لتوك من الجحيم. سألوي عنقك اللعين. ربما الأفضل أن أفعل ذلك على أي حال لما فعلت.

ساد الصمت هنيهة، ثم انفجر يورك ضاحكًا ضحكة طويلة مدوية، ثم قال حين هدأ: «آه يا أبنر. أنت رجل بواخر، نصف حالم ونصف مُباهٍ، وأحمق بالكامل. أنت تقف هنا كالأعمى وتعرف جيدًا أنني أرى بدقة من خلال الضوء المتسلل من خلف الخصاص والستائر ومن أسفل الباب. أنت تقف هنا سمينًا بطيئًا، وتدرك مدى قوتي وسرعتي. لا بد أنك تعرف أيضًا كيف أتحرك بلا صوت».

توقف عن الكلام ثانية، وصدر صوت صرير، ثم جاءه صوت يورك من الجهة الأخرى من الغرفة.

- هكذا...

ثم صمت آخر.

- وهكذا...

الصوت من خلفه.

- وهكذا...

عاد الصوت إلى حيث بدأ. أدار مارش رأسه في كل اتجاه ليتبع الصوت حتى شعر بدوار.

- يمكنني أن أجعلك تنزف حتى الموت بمئات اللمسات الخفية التي ستشعر بها بالكاد. يمكنني أن أتسلل إليك في الظلام وأمزق حنجرتك قبل أن تدرك أنني توقفت عن الكلام. مع ذلك، ورغم كل شيء، أنت تقف هنا، تنظر إلى الاتجاه الخاطئ مهددًا. أنت جسور يا مارش. جسور لكن سيئ التقدير.

- لو أنك تخطط لقتلي، فافعل الآن. أنا مستعد. ربما لن أهزم الباخرة شفق أبدًا، لكني حصَّلت كل شيء سعيت له في حياتي. أفضل أن أتعفن في واحد من قبور نيو أورلينز المبهرجة على أن أقود باخرة لحساب قطيع مصاصي دماء.

- سألتك في مرة إن كنت رجلًا مُتطيرًا أو متدينًا، وأنكرت ذلك. والآن أراك تتكلم عن مصاصي الدماء كما يتكلم عنهم المهاجرون الجهلة.

- ماذا تقول؟ أنت من أخبرني عن...

- أجل، أجل. عن التوابيت المملوءة بالتراب، والكائنات التي لا تظهر في المرايا، والأشياء التي لا تعبر الماء الجاري، والمخلوقات التي تتحول إلى ذئاب ووطاويط وضباب، ومع ذلك تخشى فص ثوم. أنت أذكى من أن تصدق سخفًا كهذا يا أبنر. أبعد عنك خوفك وحنقك للحظة وفكر!

نبرة التهكم في صوت چوشوا جعلت كل تلك التفاصيل تبدو غير معقولة. ربما احترق يورك بفعل الشمس، لكن هذا لا ينفي أنه شرب الماء المقدس وظهر في المرايا. قال مارش في حيرة: «أنت تقول الآن إنك لست مصاص دماء؟».

- لا وجود لمصاصي الدماء. هم كمثل حكايات النهر التي يقصها علينا كارل فرام؛ كنوز الباخرة دريئان وايت، وشبح الباخرة راكورتشي، والقبطان المنضبط الذي واظب على ضبط ساعته حتى بعد موته. قصص يا أبنر. مجرد تسلية لا يأخذها رجل بالغ على محمل الجد.

احتج مارش: «بعضها حقيقي. أعني، أعرف الكثير من القباطنة الذين زعموا رؤية أضواء الباخرة الشبح عند عبورهم مسار راكورتشي المعتاد،

حتى إنهم سمعوا صوت رجالهم يسبون ويلعنون. بالنسبة إلى دريِنان وايت... حسنًا، أنا لا أومن باللعنات، لكنها غرقت كما وصف كارل فرام، والقوارب التي جاءت لإنقاذها غرقت هي الأخرى. بالنسبة إلى القبطان الميت، بحق الجحيم أنا أعرفه. كان يمشي ليلًا، ويقود الباخرة وهو نائم، إلا أن الألسنة التي تناقلت القصة بالغت فيها وأضافت عليها».

- لقد أوضحت وجهة نظري نيابة عني يا أبنر. إن كنت مُصرًّا، إذًا فمصاصو الدماء حقيقيون، لكن القصص التي رُويت عنهم مبالغ فيها، كما حدث مع زميلك. بعد سنوات من حكي قصة القبطان السائر في أثناء النوم، تحول إلى جثة متحركة. فكر فيما سيقولون عنه بعد قرون.

- ما أنت إذًا ما لم يكن لمصاصي الدماء وجود؟

- ليس لدي ما أقوله وصفًا لماهيتي. بالإنجليزية، يطلق الناس على أمثالي أسماء مثل مصاصي الدماء، مذؤوبين، سحرة، مشعوذين، شياطين، غيلان. في اللغات الأخرى يطلقون علينا أسماء أخرى، مثل نوسفراتو، أودوروتن، أوبير، لوب جارو. كلها أسماء أطلقها الناس على المخلوقات المسكينة مثلي. لا تعجبني هذه الأسماء، ولا أنا أي منها. مع ذلك ليس لدي اسم يصلح ليصف حالتي. نحن لا نسمي أنفسنا.

- لغتكم...

- ليس لنا لغة. نحن نستخدم لغات البشر، وأسماء البشر. هكذا هي طريقتنا. نحن لسنا بشرًا، ولا نحن مصاصو دماء. نحن... جنس آخر. يمكننا أن نسمي أنفسنا بأي اسم، وعادة سيكون واحدًا من الأسماء التي سميتموها لنا، وبواحدة من لغاتكم التي أضفنا إليها معاني باطنة. نحن أناس الليل، ناس الدم. أو ببساطة؛ الناس.

سأل مارش: «ماذا عنا؟ إن كنتم أنتم الناس، فماذا نكون؟».

تردد چوشوا برهة، فقالت ڤاليري: «أنتم ناس النهار».

قال چوشوا: «لا، هذا تعبير ابتكرته أنا، ولا يستخدمه قومنا كثيرًا. وقت الأكاذيب ولَّى يا ڤاليري. أخبري أبنر الحقيقة».

- لن تروقه. المخاطرة يا چوشوا.

- لا تعبئي. أخبريه يا ڤاليري.

ساد الصمت لحظات، ثم قالت ڤاليري بهدوء: «القطيع. هذا هو الاسم الذي نطلقه عليكم يا كابتِن: القطيع».

عبس أبنر مارش، وكوَّر قبضته العملاقة. قال چوشوا: «أبنر. لقد أردت الحقيقة. كنت أفكر فيما عساي أفعله بك طوال الفترة السابقة. بعد رسونا في ناتشيز، خشيت أن أضطر إلى ترتيب حادث يودي بحياتك. نحن لا نجرؤ على المخاطرة بالانكشاف، وأنت تهديد لنا. رجاني سيمون وكاثرين كي آمر بقتلك. أما رفيقاي الجديدان ڤاليري وچين أردان فضلا المواجهة. مع ذلك، ورغم أني وقومي سنكون في أمان أكثر وأنت ميت، تحاملت على نفسي. لقد سئمت الموت، وسئمت الخوف، والتخوين بين جنسينا. تساءلت إن كان التعاون بيننا ممكنًا، لكني لم أثق قط بأنك مؤتمن. حتى تلك الليلة في دونالدسنڤيل، الليلة التي حاولت فيها ڤاليري إقناعك بالعدول عن الذهاب إلى نيو أورلينز. لقد أثبت أنك أكثر قوة مما تصورت عندما قاومتها، وأكثر ولاء لي أيضًا. وقتها قررت. ستعيش، ولو جئتني مرة أخرى سأصارحك، وسأخبرك الحقيقية كاملة، الجانب الجيد والسيئ منها. هل ستسمع؟».

سأل مارش: «وهل لدي خيار؟».

اعترف چوشوا يورك: «لا».

تنهدت ڤاليري وقالت: «أرجوك يا چوشوا أن تعيد التفكير في قرارك. هو واحد منهم، مهما أعجبت به. لن يفهم. سيأتون إلى هنا ومعهم أوتاد مسنونة. أنت تعرف أنهم سيفعلون».

- آمل ألا يفعلوا.

ثم قال لمارش: «هي خائفة يا أبنر. ما أنا بصدد فعله جديد عليهم، وخطر مثله كمثل كل القرارات الجديدة. اسمعني ولا تحكم عليَّ، وربما وقتها نحصل على شراكة حقيقية. أنا لم أخبر أي واحد من جنسك الحقيقة من قبل...

- واحد من القطيع، أليس كذلك؟ حسنًا، وأنا أيضًا لم أستمع إلى مصاص دماء من قبل، لذا نحن متساويان. قُل... الثور هنا ينصت.

***

أربعة عشر



منذ أيام مظلمة بعيدة

أنصت إذًا يا أبنَر، لكن أولًا اسمع شروطي. لا أريد مقاطعة. لا أريد منك انفعالات، ولا أسئلة، ولا أحكامًا. ليس قبلما أنتهي. كثيرٌ مما سأحكي سيبدو لك قاتمًا فظيعًا، أنا أحذرك، لكن لو تركتني أصاحبك منذ البداية، ربما ستفهم. لقد نعتتني بالقاتل وبمصاص الدماء، وبشكل ما أنا كذلك. لكنك قتلت أيضًا وباعترافك. أنت تؤمن أن الغايات تبرر أفعالك، وكذا أنا. وإن لم تبررها، على الأقل ستفسرها. اسمع كل ما أريد قوله قبل أن تدينني أنا وجنسي.

دعني أبدأ بنفسي، وبحياتي الخاصة، وأخبرك الباقي وقتما عرفته.

سألتني عن سني، أنا شاب يا أبنر، في مقتبل العمر بمعايير جنسي. وُلدت في فرنسا عام 1785. لم أعرف أمي، لأسباب سأكشفها لاحقًا. كان والدي من صغار النبلاء، وقد حصل على اللقب وهو يرتقي سلم المجتمع الفرنسي. عاش في فرنسا عدة أجيال، لذا تمتع بمكانة جيدة، وزعم أنه من أصول شرق أوروبية. كانت له ثروة وأراضٍ. فسر طول عمره بخدعة في عام 1760 حيث تظاهر بأنه ابنه ونجح في ذلك.

لذا، عمري 72 عامًا، وشرفت بلقاء اللورد بايرون. كان هذا في وقت لاحق بالطبع.

كان أبي مثلي، وكذلك كان اثنان من خدمنا، وهما أقرب إلى مرافقين. علمني البالغون من جنسنا اللغات والتصرفات الحسنة، وكثيرًا عن العالم... وعلموني الحذر. نمت نهارًا، ولم أخرج إلا ليلًا. تعلمت الخوف من الفجر كما يخاف مَن احترق مِن أطفال بني جنسكم النار. كنت مختلفًا عن الآخرين كما قيل لي. أعلى وأفضل؛ سيدٌ. لا يجب أن أتكلم عن تلك الفروق، وإلا خاف

مني القطيع وقتلوني. زعمت أن غرابة قضاء ساعات يومي مسألة تفضيل. توجَّب عليَّ تعلم الكاثوليكية، بل وحضور قداسات منتصف الليل في كنيستنا الخاصة. يجب أن... حسنًا، لن أكمل. لا بد أن تدرك يا أبنر أنني كنت طفلًا. لو كنت عرفت وقتها المزيد، وبدأت أفهم ماهية مَن حولي، وطبيعة حياتنا، لكنت الآن شخصًا مختلفًا.

في عام 1789، غيَّرت نيران الثورة حياتي بالكامل. عندما حل حُكم الإرهاب، أخذونا. رغم كل احتياطات أبي ومراياه وكنائسه، تصاعد الشك حول عاداته الليلية ووحدته وثروته غامضة المنشأ. خدمنا -خدمنا من البشر- وصموه بالشعوذة، وعبادة الشيطان، والسادية. قيل إنه أيضًا أرستقراطي وهذه هي كبرى الخطايا. استطاع مرافقاه الفرار، وهما اللذان لم يكونا في أنظار الناس إلا خادمين، لكنهم أخذونا أنا وأبي.

على صغر سني، لدي ذكريات حية عن الزنزانة التي حُبِسنا فيها. كانت باردة رطبة، الحجر قاس، بابها الحديدي سميك ثقيل، حتى إن قوة أبي الهائلة لم تُجدِ معه. رائحة الزنزانة نتنة تفوح بالبول. افترشنا القش على الأرض ونمنا دون أغطية. لم تكن من نوافذ سوى تلك العالية، محفورة بميل في حائط حجري بسُمك عشرة أقدام على الأقل. كانت صغيرة جدًّا ومغلقة بالقضبان. كنا في الحقيقة تحت مستوى سطح الأرض، في قبو من نوع ما. يصلنا ضوء قليل، لكنها بالنسبة إلينا كانت نعمة متنكرة في صورة نقمة.

عندما كنا وحدنا، أخبرني أبي ما عليَّ فعله. هو لم يستطع أن يصل حتى إلى النافذة، وفتحتها ضيقة جدًّا، لكنني أستطيع، فقد كنت صغيرًا بعد، وأستطيع بقوتي التعامل مع القضبان. أمرني أن أتركه، ونصحني بأن أرتدي أسمالًا ولا ألفت النظر إليَّ، وأن أختبئ نهارًا، وأبحث عن الغذاء ليلًا، ولا أخبر أي شخص عن اختلافي. نصحني أيضًا بأن أعلق صليبًا على صدري. لم أفهم نصف ما قال، وسرعان ما نسيت أغلبه، لكنني وعدته بالطاعة. أمرني بالفرار من فرنسا، وأن أبحث عن الخادمين الهاربين، وألا أثأر له كما قال. سأثأر لاحقًا مع مرور الزمن، عندما يموت الجميع وأحيا أنا. ثم قال شيئًا لم أنسَه. «هم لا يستطيعون التحكم في أنفسهم. الظمأ الأحمر فيهم، ولن يرووه إلا الدم. هذه آفتنا جميعًا». سألته عن الظمأ الأحمر، فأجاب: «ستعرفه قريبًا. لا يمكن أن تُخطئه». ثم رجاني أن أرحل. ضغطت جسدي حتى دخلت فتحة النافذة

المائلة. القضبان قديمة صدئة، وبسبب استحالة الوصول إليها، لم يكترث أحد لاستبدالها، فانكسرت بين يديَّ.

لم أرَ أبي مرة أخرى، لكن لاحقًا، وبعد الإصلاح الذي تلا حكم نابليون، أجريت بعض التحريات عنه. اختفائي قرر مصيره، وأثبت عليه تُهمة السحر بالإضافة إلى كونه أرستقراطيًّا. كان مُتعبًا، مُدانًا، وأعدِم بالمقصلة. بعدها أحرقوا جثمانه بسبب تهمة الشعوذة.

لكني وقتها لم أعرف أيًّا من هذا. فررت من السجن ومن المقاطعة، وهِمت على وجهي حتى باريس، حيث كانت النجاة ممكنة في تلك الأيام بسبب الفوضى. في النهار اختبأت في الأقبية، كلما كانت مظلمة كانت أفضل. بالليل كنت أخرج وأسرق الطعام. لحوم بشكل أساسي؛ ليس لي ميل إلى الخضروات والفواكه. صرت لصًّا مُتمرِّسًا. كنت سريعًا، صامتًا، وقويًّا إلى حد لا يصدق. أمكنني الحفر بأظفاري عبر الأخشاب لو أردت. لم يلحظني أحد أو يستجوبني. كنت متحدثًا ماهرًا، أتقن الفرنسية الراقية والإنجليزية، وبعض الألمانية العاميَّة. في باريس التقطت اللهجات المحلية أيضًا. بحثت عن خادمينا، المتبقيين من جنسنا اللذين أعرفهما، لكني عجزت عن العثور عليهما، ولم يصل بحثي إلى شيء.

لذا، كبرت وسط قومك؛ القطيع. ناس النهار. كنت ماهرًا مُلاحِظًا، وبدوت كمن حولي ظاهريًّا، لكني أدركت وقتها قدر اختلافي الشديد عنهم على نحو أفضل مما أخبروني به. أنا أقوى، أسرع، و-كما اعتقدت- أطول عمرًا. النهار هو نقطة ضعفي، واحتفظت بسري هذا لنفسي.

الحياة التي عشتها في باريس كانت سيئة ومملة ولا تلائمني. تُقتُ إلى المزيد. بدأت في سرقة المال كما كنت أسرق الطعام. عثرت على من يعلمني القراءة، ومن بعدها سرقت الكتب كلما سنحت لي الفرصة. كادوا يمسكون بي في مرة أو مرتين، لكني دائمًا أفر. يمكنني أن أذوب في الظلال، وأن أصعد السلالم في طرفة عين، وأن أتحرك في سرعة القطط. ربما من طاردوني ظنوا أنني تحولت إلى ضباب. يبدو أن الأمر بدا كذلك في كثير من الأحيان.

عندما بدأت الحروب النابليونية، تحاشيت الانضمام إلى الجيش، حيث إنني أعرف أن الأمر سيطلب التعرض لضوء النهار، لكني تبعت حملاتهم. سافرت عبر أوروبا بهذه الطريقة، ورأيت القتل والحرق، وحيثما حطت رحال الإمبراطور، وجدت غنيمتي.

في أغسطس من عام 1805، عثرت على فرصتي الكبرى. صادفت على الطريق في ليلة تاجرًا ثريًّا من ڤينسيا، يفر من جيوش الفرنسيين. كانت معه كل أمواله وقد حوَّلها إلى ذهب وفضة. مبلغ عظيم. تبعته حتى الخان الذي سيبيت فيه، وعندما تأكدت من أنه نام، اقتحمت غرفته لأسرق ثروته. إلا أنه لم يكن نائمًا. جعلته الحرب قلقًا. كان في انتظاري مُسلحًا. سحب مسدسًا من تحت غطائه، وأطلق الرصاص عليَّ.

اجتاحتني الصدمة والألم. طرحتني الرصاصة أرضًا. أصابت معدتي، ونزفت كثيرًا. لكن بعد ذلك بدء النزف يقل بسرعة، واختفى الألم. قمت. لا بد أنه كان منظرًا مريعًا إذ كنت غارقًا بالدماء ووجهي شاحب. ثم غمرني شعور غريب، شعور لم أختبره من قبل.

كان نور القمر يتسلل عبر النافذة، والتاجر يصرخ، وقبل أن أعرف ماذا أفعل، كنت أجثم فوقه. أردت إسكاته، أردت وضع كفي على فمه، لكن... تملكتني رغبة أخرى. زحفت أظفاري الحادة القوية إلى عنقه، ومزقت حنجرته. اختنق بدمائه.

وقفت هناك أرتجف، أرى الدم الأسود يتدفق منه، وجسده يرتعش على الفراش تحت نور القمر. كان يحتضر. رأيت محتضرين من قبل. في باريس وفي الحرب. لكن موته كان مختلفًا. أنا قتلته. ملأني إحساس عظيم... رغبة. قرأت كثيرًا عن الرغبة في الكتب التي سرقتها، وعرفت أنها شهوة جنسية تميز البشر. لم أشعر بها من قبل. لقد نظرت إلى عاريات وعرايا من قبل، وإلى ممارسات فاضحة، ولم يمسسني أي مما رأيت. لم أفهم حتى كل ما قرأت عن المشاعر غير المتحكم فيها، وعن الشهوة الحارقة كالنار. لكني الآن أعرفها. الدماء تتدفق، الرجل السمين يُحتضر بين يديَّ، الغرغرة التي يصدرها، ساقاه اللتان تضربان الفراش. كل هذا استفز حيوانًا يقبع بداخلي. الدماء تغرق كفيَّ، داكنة، حارة. يبدو أن حنجرته مصدرها. لذا، ملت إلى الأمام وتذوقتها. جن جنوني، أصابتني الحمى. دفنت وجهي فجأة في عنقه أمزقه بأسناني، أنهشه، أبتلع. ثم توقف عن الحركة. لقد شبعت. ثم انفتح الباب ورأيت رجالًا مدججين بالخناجر والبنادق. رفعت وجهي نحوهم مرتبكًا. لا بد أنني أرعبتهم. قبل أن يتحركوا، كنت قد قفزت من النافذة إلى الليل. كان ذهني حاضرًا وقتها فجذبت الحزام الذي يحتفظ فيه بالمال، وكان فيه جزء ضئيل من ثروة الرجل، لكنه يكفي.

عدوت عبر الليل والمسافات، وأمضيت اليوم التالي في قبو مزرعة محترقة مهجورة.

كان عمري عشرين عامًا. طفل بالنسبة إلى أعمار أناس الليل، لكنني الآن في طريقي للبلوغ. عندما استيقظت تلك الليلة في القبو، مغطى بالدماء الجافة، قابضًا على حزام المال، تذكرت كلمات أبي. أخيرًا عرفت ما هو الظمأ الأحمر الذي لا ترويه سوى الدماء. وقد ارتويت. شعرت أنني أقوى وأكثر صحة كما لم أكن قط في حياتي، لكنني كنت أيضًا مشمئزًا مرتعبًا. لقد كبرت بين قومك كما ترى، ورأيت نفسي كما تراني أنت الآن. أنا لست حيوانًا ولا مسخًا.

في ذلك المكان والتوقيت قررت أن أغير طريقة حياتي، كيلا يحدث ما حدث مرة أخرى. اغتسلت، ثم سرقت ملابس من أفضل ما وجدت. تحركت غربًا بعيدًا عن الصراعات ثم شمالًا. سكنت غرف الخانات ليلًا، واستأجرت عربات خيول تنقلني من بلد إلى آخر في الظلام. في النهاية، وبصعوبة بسبب الحرب، وصلت إلى إنجلترا. اتخذت اسمًا جديدًا، وعزمت على أن أجعل من نفسي رجلًا محترمًا. معي المال، ويمكنني تعلم الباقي.

أمضيت في رحلتي شهرًا تقريبًا. في ثالث لياليَّ في لندن شعرت بأنني مريض. أنا لم أمرض قَط في حياتي. ساءت حالتي في اليوم التالي، وفي الليلة الثالثة عرفت ما هذا الشعور. الظمأ الأحمر يهاجمني. طلبت وجبة كبيرة، تحوي شريحة لحم عملاقة شِبه نيئة، ظننت أنها قد تشفي مرضي. أكلت وعزمت على أن أهدئ نفسي، لكنني فشلت. خلال ساعة كنت في الشارع. وجدت لنفسي حارة تربصت فيها. أول من مرَّ شابة. جزء مني أعجب بجمالها الذي أضرم النار في جسدي، جزء مني اشتهاها ببساطة. كدت أخلع رأسها من فرط ظمئي، لكن كل شيء انتهى سريعًا. بعدها بكيت.

لأشهر شعرت باليأس. عرفت حقيقتي من خلال قراءاتي، وتعلمت تلك الكلمات التي تصفني. لعشرين عامًا ظننت نفسي متفوقًا، والآن أكتشف أنني شيء غير طبيعي، وحش، مسخ بلا روح. لم أستطع أن أحدد ما إن كنت مصاص دماء أو مذؤوبًا، مما أثار حيرتي. لا أنا ولا أبي حُزنا القدرة على التحوُّل إلى أي شيء، لكن ظمئي الأحمر ظل يزورني كل شهر فيما بدا لي كدورة قمرية، لكنه لم يتصادف دائمًا مع اكتمال القمر. تلك سمات المذؤوبين كما قرأت. طالعت الكثير عن هذه الأمور وقتها، محاولًا فهم نفسي. كنت أفعل كما يفعل المذؤوبون في الأساطير؛ أمزق الحناجر والتهم بعض قطع اللحم

خاصة إن كان ظمئي شديدًا. وعندما لا أكون ظمآن، أبدو شخصًا مهذبًا، مما يوافق أيضًا ما قيل عن المذؤوبين. على جانب آخر، لا تؤثر فيَّ الفضة، ولا عشبة خنَّاق الذئب، ولا يتغير شكلي أو ينمو شعري. وأنا أيضًا مثل مصاصي الدماء، لا أستطيع الخروج إلا ليلًا، ويبدو أن ظمئي للدماء هو ما يحركني، لا اللحم. لكني كنت أنام على الأسِرَّة، لا في توابيت، وقد عبرت الماء الجاري مئات المرات بسهولة. أنا متأكد من أنني لست ميتًا، والصلبان والرموز الدينية لا تضايقني على الإطلاق. في مرة، وعلى سبيل التأكد، خبأت جثة من جثث ضحاياي وانتظرت إن كانت ستتحول إلى مصاص دماء أو مذؤوب، لكن الجثة ظلت جثة. بعد فترة بدأت تتعفن، فدفنتها.

لك أن تتخيل ذعري. أنا لست بشريًّا، لكني أيضًا لست من تلك المخلوقات الأسطورية، وعرفت أن كتبي بلا فائدة لي. كنت وحدي تمامًا.

هاجمني الظمأ الأحمر شهرًا تلو الآخر. امتلأت تلك الليالي بالبهجة المريعة يا أبنر. عشت فيها حياتي كما لم أعشها من قبل، ثم يأتي الندم، تفيض نفسي بُغضًا لما أصبحت عليه. كنت أذبح الشباب والأبرياء وحسني المظهر أكثر من أي فئة أخرى. بدا لي أن فيهم نورًا داخليًّا يروِيني كما لم يروِني الكبار والمرضى. وفي الأوقات الأخرى، عشقت الفئة نفسها التي نُجذب إلى قتلها.

حاولت دون طائل تغيير نفسي. إرادتي القوية تختفي تمامًا عندما يتملكني الظمأ الأحمر. لجأت إلى الدين آمِلًا. عندما شعرت ببوادر الحُمى، ذهبت إلى كنيسة واعترفت للكاهن الذي أدخلني. لم يصدقني، لكنه وافق على أن يصلي معي. علقت الصليب على صدري، وركعت، وصليت والشموع والتماثيل من حولي، آمِنًا في بيت الرب، وواحد من رجاله إلى جواري. بعد ثلاث ساعات، استدرت إليه، وقتلته حيث هو، داخل الكنيسة. أثار الأمر ضجة عندما عثروا على الجثة في الصباح التالي.

جربت العقل في المرة التالية. لو أنني لم أجد إجابة في الدين، إذًا ربما ما تملكني ليس خوارقيًّا. قتلت حيوانات بدلًا عن البشر. سرقت دماءً بشرية من مكاتب الأطباء. اقتحمت دار جنازات حيث عرفت أن لديه جثة طازجة. ساعد كل هذا في تخفيف الظمأ نوعًا، لكنه لم يروِه. كان أفضلهم قتل حيوان حي، وشرب دمائه ساخنة. كما ترى، الحياة هي ما يروي الظمأ، لا الدماء نفسها فقط.

حميت نفسي خلال كل هذا. انتقلت أكثر من مرة في أرجاء إنجلترا كيلا تكثر حوادث القتل والاختفاء في مكان واحد. دفنت جثثًا قدر استطاعتي، وأخيرًا طبَّقت ذكائي على رحلات صيدي. احتجت إلى المال، فاصطدت فرائس ثرية. المال يولد المال، وبمجرد أن حزت شيئًا منه، أتاني المزيد وعن طريق نظيف. كنت وقتها قد أجدت الإنجليزية، وغيرت اسمي مرة أخرى، وعرَّفت نفسي على أنني رجل محترم، واشتريت منزلًا منعزلًا في اسكتلندا، حيث لن تجذب تصرفاتي انتباه أحد، واستأجرت خدمًا صموتين.

صرت أسافر كل شهر في رحلة عمل وأبيت في الخارج. اخترت ضحايا لا يسكنون بالقرب من مسكني، ولم يشك الخدم في شيء.

بعد كل هذا، صادفت ما ظننته إجابة تساؤلاتي الحيرى.

واحدة من خدمي؛ شابة جميلة، لاحظت ازدياد تقربها مني. بدت معجبة بي، لا بصفتي سيدًا لها، وبادلتها الإعجاب. كانت أمينة، مرحة، وذكية للغاية وإن لم تكن متعلمة. بدأت في التفكير فيها كصديقة، ثم ابتعد تفكيري إلى أكثر منذ ذلك. كنت وقتها أفكر في تقييد نفسي بالسلاسل، أو حبس نفسي حتى تمر نوبة الظمأ الأحمر، لكني لم أصل إلى خطة لتنفيذ هذا. لو أنني وضعت المفتاح بالقرب مني، قد أستخدمه عندما يهاجمني الظمأ. لو رميته بعيدًا، كيف سأفك نفسي لاحقًا؟ كلا. أنا في حاجة إلى مساعدة من شخص آخر، بيد أنني كنت أضع أمامي دائمًا نصيحة أبي بألا آتمن أحدًا على سري.

والآن قررت المخاطرة. استغنيت عن باقي خدمي وأرسلتهم إلى مكان بعيد، ولم أستأجر أحدًا مكانهم. بنيت لنفسي حجرة صغيرة بلا نوافذ، حوائطها سميكة، وبابها مصفح كمثل باب الزنزانة التي حُبست فيها مع والدي، وزدت عليها ثلاثة أقفال صُلب. ليس لي مخرج منها. عندما انتهى بناؤها، دعوت خادمتي الجميلة الشابة، وأعطيتها تعليمات، لكنني لم أثق بها كُلية لأمنحها الحقيقة كاملة. كنت خائفًا يا أبنر من أنها إن عرفت حقيقتي تفضحني، أو تفر في الحال، فيضيع مني الحل الذي خططت له، بالإضافة إلى بيتي وممتلكاتي وحياتي التي بنيتها. لذا أخبرتها أن جنونًا مؤقتًا يُلم بي لفترة كل شهر، نوبة كنوبات الصرع، في أثناء هذه الفترة أنعزل في غرفتي الخاصة، وعليها أن تغلق بابها من الخارج بالمزاليج والأقفال لمدة ثلاثة أيام كاملة. خططت لأن آخذ معي بعض الماء والطعام، منها دجاج حي لإطفاء بعض من ظمئي.

صُدِمت، قلقت، احتارت، لكنها في النهاية وافقت على تنفيذ ما طلبت. لقد أحبتني بطريقتها كما أعتقد، وعزمت على فعل أي شيء لأجلي. ودخلت الغرفة، وأوصدت هي الباب من الخارج.

وجاء الظمأ. كان مرعبًا. رغم عدم وجود نوافذ، شعرت بحلول النهار وانصرافه. نمت نهارًا كالمعتاد، لكن الليالي كانت رعبًا صافيًا. قتلت الدجاج كله في أول ليلة وارتويت منه. طالبتها بإطلاق سراحي، ورفضت خادمتي المخلصة. سببتها، ثم رحت أصرخ ببساطة صراخًا مفككًا حيوانيًّا. رميت نفسي إلى الحوائط، وقرعت الباب حتى أدميت قبضتيَّ، ثم رحت أمتص دمي بنهم. حاولت حفر الأحجار بأظفاري، لكني لم أستطع الخروج.

في اليوم الثالث صرت أكثر دهاء. شعرت كأن دائي قد ابتعد، وأنا الآن أنزل من قمة هياجي. الظمأ يضعف حقًّا. ناديت الخادمة وأخبرتها أن النوبة انتهت وأن عليها أن تفتح لي الباب. رفضت، وأخبرتني أنني أمرتها بحبسي ثلاث ليال كاملة، وبهذا أمرتها بالفعل. ضحكت واعترفت لها بصدق زعمها، لكني أخبرتها أن النوبة جاءت ومرت، وأنني واثق من أنها لن تعود قبل شهر. مع ذلك لم تفتح الباب. لم أنهرها، وقلت لها إنني أتفهم موقفها، ومدحت طاعتها. طلبت منها أن تجلس ونتكلم بما أنني وحيد في محبسي. وافقت، وتحدثنا ساعة تقريبًا كنت فيها هادئًا عقلانيًّا، ساحرًا، متصالحًا مع فكرة قضاء ليلة أخرى بالداخل. حديثنا المُتعقل جعلها تعترف سريعًا بأنني عُدت إلى رُشدي، فأخبرتها أنها ذكية واعية. عظَّمت محاسنها وعبرت عن إعجابي بها. في النهاية طلبت منها الزواج عندما أخرج.

فتحت الباب وبدت سعيدة يا أبنر. سعيدة للغاية، ومفعمة بالحياة. قبَّلتني، فضممتها إليَّ. تبادلنا القبلات كثيرًا، ثم نزلت شفتاي إلى عنقها حتى عثرت على الشريان، ومزقته أسناني... وشربت... شربت وقتًا طويلًا. كنت ظمآن للغاية، وكانت حياتها حلوة جدًّا. لكن عندما تركتها، وتراجعت إلى الخلف بعيدًا عني، كانت حية بالكاد بعدما نزفت حتى بهتت. احتضرت... لكنها بعد واعية. النظرة في عينيها يا أبنَر.

النظرة في عينيها...

من بين كل ما ارتكبت، هذا أفظع أفعالي. سترافقني إلى الأبد تلك النظرة في عينيها.

بعدها، تحرر يأسي. حاولت الانتحار. اشتريت سكينًا فضية بمقبض منحوت على شكل صليب... كانت الشائعات في عقلي بعد كما ترى. شققت رُسغيَّ، ورقدت في حوض استحمام حتى أموت. لكني شُفيت. تركت جسدي يهوي فوق سيفي المُشهر على طريقة الرومان القدماء. لكني شُفيت. كنت أتعلم المزيد عن قدراتي كل يوم. دائمًا كنت أشفى بعد ألم بسيط. يتجلط دمي في الحال مهما كان اتساع الجرح الذي أحدثته في جسدي. أيًّا كانت حقيقتي، فأنا معجزة.

ثم قررت الخوض في تجربة أقسى.

ربطت نفسي خارج بيتي بالأغلال، ورميت المفاتيح إلى أقصى مسافة، وانتظرت الفجر. كانت الشمس أسوأ مما أتذكر. أحرقتني وأعمتني. صار كل شيء غائمًا. التهب جلدي، وأظنني بدأت أصرخ. أعرف أنني أغلقت عينيَّ. مكثت بالخارج ساعات، أقترب حثيثًا من الموت، لا يملؤني شيء إلا الشعور بالذنب.

ثم، وبطريقة ما في أثناء سكرات موتي، قررت أن أعيش. كيف ولماذا، لا أستطيع أن أخبرك، لكن بدا لي أنني لطالما عشقت الحياة، في نفسي وفي الآخرين. لهذا جذبتني الصحة والشباب. كرهت نفسي لأنني أجلب الموت للعالم، لكن هأنذا، أقتل مجددًا، لكن هذه المرة الضحية أنا. لا يمكنني أن أغسل خطاياي بالمزيد من الدماء والموت... هكذا فكرت. كي أكفر عن ذنبي، لا بد أن أعيش، وأن أعيد الحياة والجمال والحب إلى العالم، ليحلوا محل ما اغتصبت منه. تذكرت وقتها خادمَي أبي المختفيين. في العالم المزيد من جنسي. مصاصو دماء، مذئوبون، مشعوذون، أيًّا كانت حقيقتهم، لكنهم موجودون يهيمون ليلًا. لو أنني فقط أعثر عليهم. يمكنني أن أثق ببني جنسي حيث إنني عجزت عن الثقة بالبشر. يمكننا أن يساعد بعضنا بعضًا لقهر ما ينخر فينا. يمكنني أن أتعلم منهم.

قررت ألا أموت.

الأصفاد قوية جدًّا، وقد راعيت ذلك كي أعجِز نفسي عن الفرار من الألم والموت، لكني وجدت في نفسي قوة تفوق كل ما عرفته عن نفسي، حتى في أثناء تملك الظمأ مني. قررت كسر السلاسل، وانتزاعها من الحائط حيث ثبتها. رُحت أجذبها وأخلعها لكنها لم تتحرك. الأغلال قوية، وأنا في الشمس منذ

ساعات. لا أستطيع أن أعرف تحديدًا ما أبقى عليَّ واعيًا. اسوَدَّ جلدي واحترق، وازداد الألم حتى لم أعد أشعر به.

وكررت محاولة كسر السلاسل.

أخيرًا انخلعت واحدة منها، اليُسرى، بعدما تهشم الجدار وانفلتت منه الحلقة التي كانت تثبت السلسلة. أنا نصف حُر، لكني مُتعَب حد الموت، تراودني رؤى غريبة. عرفت أنني سأفقد الوعي قريبًا، وبمجرد أن أسقط أرضًا، لن أستطيع الوقوف مرة أخرى... أبدًا. السلسلة اليُمنى عنيدة ثابتة، كأن لم يؤثر فيها جذبي وتملُّصي.

لم تنخلع السلسة يا أبنر. لكني تحررت وعدت إلى أمان غرفتي المظلمة الباردة، حيث رقدت أكثر من أسبوع، أحلم وأصرخ ألمًا، لكني كنت أشفى.

كيف تحررت؟ نهشت مرفقي نفسه، وتركت يدي اليمنى ملقاة هناك إلى جوار الأغلال.

عندما عاد لي وعيي بعد أسبوع، نمت يدي مرة أخرى. كانت ناعمة صغيرة، لم تتكون بالكامل بعد، وكانت تؤلمني، واشتد الألم في مرحلة نمو الجلد. ثم تورَّمت، وانشق الجلد ونزَّ من بين شقوقه سائل سميك أبيض. عندما جف وتقشَّر، ظهر من تحته لحم سليم. تكرر الأمر ثلاث مرات في خلال ثلاثة أسابيع، لكن عندما انتهت المُدة، لم أكن لأعرف أن سوءًا مس يدي قط. ذُهلت...

كان هذا في عام 1812، وهو علامة فارقة في حياتي.

بعدما عادت لي قوتي، تبينت أنني خرجت من هذه التجربة بكشف عظيم؛ عليَّ أن أغير طريقة حياتي وحياة قومي. يجب أن نتحرر من سطوة ما أسماه أبي بالظمأ الأحمر، وأن نعيد للعالم الحياة والجمال الذي شربناه منه. لفعل ذلك، يجب أن أبحث عمن هم من جنسي، ومن أعرفهم وقتها كانوا أبي، وخادمينا المختفيين. لكن البحث عنهما لم يكن متاحًا وقتها. كانت إنجلترا في حرب مع الإمبراطورية الفرنسية، وانقطعت التجارة بينهما. التأخير الإجباري لم يضايقني؛ كنت أعرف أن أمامي كل السنوات التي قد أحتاج إليها.

وبينما أنتظر، بدأت دراسة الطب. لم أجد فيه بالطبع أي شيء عن جنسي. وجودنا نفسه يُعتبر أسطورة، لكني وجدت الكثير مما أتعلمه عن جنسك، وعن نقاط تشابهه واختلافه مع جنسي. صادقت عددًا من الأطباء، ورائدي

الجراحة وقتها، وأعضاء هيئة تدريس كليات طب مرموقة. قرأت كتب الطب القديمة والحديثة، وتطرقت إلى علم الكيمياء والأحياء والتشريح، وحتى الخيمياء بحثًا عن تنوير. أنشأت معمل تجاربي الخاص في الحجرة ذاتها التي سجنت نفسي فيها. والآن، عندما آخذ حياة شخص -كما أفعل كل شهر- أحمل الجثة معي إن سنحت الفرصة، وأدرسها جيدًا. كم تُقت إلى العثور على جثة واحد من بني جنسي يا أبنر، كي أستطيع أن أتبين الفرق!

في عامي الثاني من الدراسة، قطعت إصبعًا من يدي اليسرى، وأنا أعرف أنه سينمو من جديد. أردت لحمًا من جسدي أحلله وأدرسه. لكن إصبعًا مقطوعًا ليس كافيًا لإجابة واحد على مائة من تساؤلاتي، لكن الألم لم يقارن بما تعلمته. أظهرت العظام والعضلات والدماء اختلافًا عظيمًا عن تشريح البشر. دماؤنًا باهتة أكثر، تفتقر إلى عدد من العناصر الموجودة في دماء الإنسان. أما العظام، فتحوي عدد عناصر أكبر، وأكثر مرونة وقوة من العظام البشرية. الأكسجين -الغاز العجيب الذي اكتشفه بريستلي ولافوازيه- أكثر وجودًا في الدم والنسيج العضلي مقارنة بعينات مماثلة من جنسك.

لم أعرف كيف أستفيد من هذه المعلومات، لكنها ألهبت عقلي بالنظريات. بدا لي أن فقر دمي هو سبب رغبتي في شرب دماء الآخرين. عندما هاجمني الظمأ في ذاك الشهر ورحل بعدما تغذيت على ضحيتي، أخذت عينة من دمي لأدرسها. لقد تغيرت مكوناته! بشكل ما أنا نقلت دم ضحيتي إلى دمي، فأغناه وكثفه، على الأقل مؤقتًا. من وقتها وأنا آخذ عينات من نفسي يوميًّا لأرى أن دمي يزداد فقرًا يومًا بعد يوم، وعندما وصل اختلال توزان مكوناته إلى حد معين، جاء الظمأ الأحمر.

تركت فرضياتي بضعة أسئلة معلقة. لماذا لا يكفي دم الحيوانات لإرواء الظمأ، ولا حتى الدماء البشرية الممتصة من جثة؟ هل تفقد بعض خواصها بالموت؟ لماذا لم يظهر الظمأ قبل بلوغي سن العشرين؟ ماذا عن السنوات التي سبقت هذا؟ لم أعرف إجابة لأي من هذه الأسئلة، ولم أعرف كيف أعثر عليها، لكن الآن لدي أمل، نقطة بداية.

وبدأت في تركيب عقاقير.

ماذا أخبرك عن هذه المرحلة؟ لقد تطلب الأمر سنوات طويلة، وتجارب لا نهائية، واستذكارًا. استخدمت دم البشر، ودم الحيوانات، والمعادن والمركبات الكيميائية من كل نوع. طهوت الدم، جففته، شربته نيئًا، خلطته بالشيح،

بالبراندي، بمواد حفظ كيميائية خبيثة الرائحة، بالأعشاب، بالملح، بالحديد. شربت آلاف الخلطات دون نتيجة. في مرتين مرضت بسببها، وتقلصت معدتي حتى تقيأت ما شربت. لم يثمر أي شيء عن نتيجة. كم من خلطات، وأوعية دماء وأدوية استهلكتها، لكن الظمأ الأحمر ظل يهاجمني ليلًا. صرت أقتل بلا شعور بالذنب، عالمًا أنني أبحث عن إجابات وراء ذلك قد تؤدي بي إلى إخضاع طبيعتي الوحشية. لم أيأس يا أبنر.

ثم أخيرًا في عام 1815، عثرت على الإجابة.

بعض عقاقيري أثرت بشكل أفضل من الأخرى كما ترى، فأكملت تجاربي عليها لتحسينها بالتغيير والإضافة، ثم جربتها في صبر واحدة تلو الأخرى. طوال تلك الفترة كنت أبحث عن خطط أخرى للبحث. العقار الأخير الذي توصلت إليه قاعدته مكونة من دماء الحملان، مخلوطة بكحول مركز لحفظ خصائص الدماء. رغم ذلك، كانت هذه التركيبة مُبسطة جدًّا. أضفت إليها بعضًا من صبغة الأفيون لإضفاء تأثير مهدئ ومنح رؤى لطيفة، بالإضافة إلى أملاح البوتاسيوم والحديد والشيح وعدد من الأعشاب والمستحضرات الخيميائية. ظللت أعمل على هذه التركيبة ثلاث سنوات، حتى شربتها في ليلة من عام 1815 كما فعلت مع سابقاتها. وفي تلك الليلة لم يهاجمني الظمأ الأحمر.

في الليلة التالية شعرت بالحمى المميزة لذروة النوبة، فشربت كأسًا أخرى من عقاري وأنا مرتعب من أن يكون نجاحي حلمًا غير مكتمل، أو محض خيال. لكن الظمأ اختفى، ولم أخرج للصيد والقتل.

وعلى الفور عملت على تصنيع العقار بكمية أكبر. صعب إعادة تركيبه، وإن لم تكن مقاديره دقيقة لن يكون مؤثرًا. كما ترى، لم تضع جهودي هباء، وأنت شاهدت النتيجة بنفسك يا أبنر. شرابي الخاص. لا يفارقني أبدًا. لقد توصلت يا أبنر إلى ما لم يتوصل إليه أي من بني جنسي، إلا أنني لم أكن أعرف هذا وقتها، وسط فرحة النجاح. لقد بدأت عصرًا جديدًا لقومي وقومك أيضًا. ظلام بلا خوف، ونهاية عهدَي الصياد والفريسة، والاختباء واليأس. لا مزيد من ليالي الدماء... لقد انتصرت على الظمأ الأحمر يا أبنر!

أعرف الآن أنني محظوظ إلى حد غير عادي. كانت معرفتي سطحية محدودة. ظننت أن الاختلاف الوحيد بين جنسينا هو الدم فقط. عرفت لاحقًا مدى جهلي. شعرت بأن زيادة الأكسجين مسؤولة بشكل ما عن الحمى

المصاحبة للظمأ الأحمر، لكني اليوم أعتقد أن هذا الأكسجين هو سبب قوة جنسي المفرطة، وسر شفائه. أغلب ما ظننت أنني أعرفه عام 1815 محض هراء. لكن هذا لا يهم ما دام عقاري فعالًا.

لن أنكر أنني قتلت بعد ذلك يا أبنر، لكن بالطريقة نفسها التي قتل بها البشر، ولأسباب بشرية. ومنذ تلك الليلة من عام 1815 في اسكتلندا، لم أذق طعم الدماء، ولم أشعر بالظمأ الأحمر.

لم أتوقف عن التعلم، ولن أتوقف. للمعرفة جمالها بالنسبة إليَّ، وأنا أعشق كل أنواع الجمال، وما زال أمامي كثير لأعرفه عن نفسي وقومي. لكن مع اكتشافي العظيم، تغيَّر هدفي، وبدأت البحث عن أمثالي. في البداية استأجرت عملاء ومخبرين، ولاحقًا بعد انتهاء الحرب، سافرت بحثًا عنهم بنفسي. وقتها عرفت إلامَ انتهت حياة أبي، والأهم أنني وجدت في بعض سجلات الإقطاعية القديمة موطنه، أو على الأقل المكان الذي ادعى أنه جاء منه. بحثت في بروسيا وبولاندا، وفي الأخير عرفت أنهم يتذكرون تلك المواصفات ويخشون مما حكاه لهم أجداد أجدادهم. زعم بعضهم أنه كان فارسًا تيوتونيًّا[1]، وأشار آخرون إلى عمق الشرق، إلى جبال الأورال. لا يشكل هذا فارقًا؛ لقد مات فرسان التيوتون منذ قرون، والأورال سلسلة جبال هائلة، لا يسعني البحث فيها بلا أدلة.

بوصولي إلى طريق مغلق، قررت المخاطرة. ارتديت خاتمًا فضيًّا وصليبًا، وتمنيت أن يكونا كافيين لدرء التطيُّر عني، وبدأت أسأل صراحة عن مصاصي الدماء والمذؤوبين ومثلهما من أساطير. سخر البعض مني أو أضحكتهم أسئلتي، لكن أغلبهم حكوا لي القصص الشعبية الإنجليزية البسيطة التي أردت سماعها، في مقابل وجبة أو شراب. من خلال قصصهم استلهمت الطريق. لم يكن الأمر سهلًا قط. مرت السنوات وأنا أبحث. تعلمت البولندية والبلغارية وبعض الروسية. قرأت كتبًا بلغات متعددة بحثًا عن أخبار ضحايا الظمأ الأحمر. اضطررت مرتين إلى العودة إلى إنجلترا لتركيب المزيد من شرابي، ومراعاة بعض أعمالي.

وأخيرا، عثروا عليَّ.

---

(1) طائفة عسكرية مسيحية ألمانية. (المترجمة)

كنت في منطقة جبال الكربات، أبيت في خان ريفي قذر. كنت أسأل، وانتقلت أخبار أسئلتي الغريبة من فم إلى فم. متعبًا مُنهكًا، شاعرًا ببدايات الظمأ الأحمر، عدت إلى غرفتي مبكرًا قبيل الشروق. كنت أجلس أمام نار المدفأة أرتشف شرابي عندما سمعت ما ظننته لأول مرة صوت العاصفة تهز النوافذ ذات الحافة السفلية المغطاة بالثلج. استدرت لأنظر نحوها، والغرفة مظلمة لا يضيئها إلا اللهب، فرأيت النافذة مفتوحة من الخارج، يستند إلى حافتها حدود جسد رجل يتبدى من خلفه الظلام والنجوم والثلوج. دخل بسهولة كقط، ولم يصدر عن هبوطه على الأرض أي صوت، تلفه ريح العاصفة الباردة. كان أسود البشرة، بعينين متوهجتين يا أبنر. متوهجتين! همس لي بإنجليزية مفهومة نوعًا وهو يغلق النافذة من خلفه بهدوء: «أنت تسأل عن مصاصي الدماء أيها الإنجليزي؟».

يا لها من لحظة مرعبة يا أبنر. ربما السبب البرودة التي ملأت الغرفة من دخول الهواء البارد، لكني لا أعتقد هذا. رأيت هذا الغريب كما يراني كثير من بني جنسك قبل أن أتغذى على دمهم وحياتهم. رأيته غامضًا، عيناه جمرتان، مريع. ظل ذو أسنان يتحرك بثقة ويتكلم بفحيح هامس. بدأت أنهض من مقعدي، فتحرك نحو الضوء ورأيت أظفاره الأشبه بمخالب بطول خمس بوصات، وأطراف حادة مسودَّة. ثم نظرت إلى أعلى نحو وجهه. وجهه الذي أَلِفته في طفولتي. خطر لي اسمه وأنا أنظر إليه.

- سيمون؟

فتوقف والتقت عينانا.

أنت نظرت إلى عينيَّ يا أبنر، ورأيت القوة فيهما، وربما أشياء أخرى أيضًا. أشياء أكثر غموضًا. هكذا الأمر مع كل بني جنسنا. كتب ميسمر عن قوة جذب أعين الحيوانات التي قد تفوق أي قوة مفهومة أخرى. وأنا رأيت هذه القوة في البشر. ربما يأمر ضابطين جنودهما بطريقة متغطرسة. واحد منهما قد يقتله جنوده بسبب كلماته، وآخر قد تؤدي به الكلمات ذاتها إلى طاعة جنوده العمياء حتى الموت. أعتقد أن بونابارت تمتع بالقوة نفسها إلى حد ما، لكن كل قومي يتمتعون بها إلى أقصى حدودها. يكمن تأثيرنا في أصواتنا، وخاصة في أعيننا. نحن صيادون، والنظرات تأسِر وتهدئ فرائسنا، وتجبرهم على الانصياع لأوامرنا إلى حد مساعدتنا في ذبح أنفسهم.

لم أكن أعرف أيًّا من هذا وقتها. كل ما عرفت عيني سيمون، والوهج فيهما والغضب والشك. استشعرت الظمأ يستعر فيه، مما أيقظ ظمئي المدفون منذ زمن. لم أستطع إبعاد نظري عنه، وكذلك هو. تواجهنا صامتين، نتحرك ببطء في دائرة، أعيننا متصلة بعضها ببعض. ثم سقطت كأسي وتهشمت على الأرض.

لا أستطيع أن أحدد كم أمضينا على هذا النحو، لكن أخيرًا نظر سيمون إلى أسفل، وانتهى الأمر. ثم فعل شيئًا مفاجئًا غريبًا. ركع أمامي، وقطع بأسنانه شقًّا في رسغه، فتدفقت الدماء. رفع يده نحوي وقال بالفرنسية: «سيد الدماء».

أيقظ الدم الحار جفاف حلقي. مددت يدي وأمسكت ذراعه. ارتجفت وأنا أنحني نحوه، ثم تذكرت، فلطمته واستدرت مبتعدًا. صببت من الزجاجة كأسين، شربت إحداهما، وأمرته بشرب الأخرى، فأطاعني. أنا سيد الدماء، وكلمتي مُطاعة.

وكانت هذه البداية، هنا في الكربات، عام 1826.

سيمون واحد من مرافقي أبي، وكان أبي سيد الدماء، وبوفاته تولى سيمون القيادة كونه أقوى من الآخرين. دعاني في الليلة التالية إلى المكان الذي يعيش فيه، وهي حجرة مدفونة في أطلال قلعة جبل قديمة. هناك قابلت الآخرين؛ امرأة كانت خادمتنا وأنا طفل، وآخرين من بني جنسي، تُطلق عليهما أنت اسمي سميث وبراون. كان سيمون سيدهم، والآن أنا السيد، وقد استحققت مكانتي لأنني جلبت معي ما يحررهم من الظمأ الأحمر.

لذا، شربنا، ومرت ليالٍ عديدة تعلمت فيها منهم التاريخ، وسير أناس الليل.

نحن قدماء يا أبنَر. من قبل أن يعمِّر قومك الجنوب الدافئ، عاش قومي في شتاء شمال أوروبا المظلم، يصطادون. تقول حكاياتنا إننا جئنا من جبال الأورال أو ربما السهول، ثم انتشرنا غربًا وجنوبًا عبر القرون.

عشنا في بولندا من قبل البولنديين أنفسهم، وجُبنا غابات ألمانيا قبل وصول الجرمان الهَمَج، وسكنَّا روسيا قبل التَّتار، وقبل بناء مدينة نوڤجورود العظمى. عندما أقول إننا قدماء لا أقصد مئات السنوات، بلا آلاف انقضت ونحن في الظلام والبرد. تقول الحكايات إننا كنا بدائيين متوحشين، حيوانات ماكرة عارية، متوحدة مع الليل، سريعة حرة مُميتة. وُجِدوا من قبل كل

الوحوش، يستحيل قتلهم، هم سادة الخَليقة وملوكها. واستمرت الحكايات تُروى عنا. كل ما يمشي على اثنين أو أربع يهابنا. كل حي طعام لنا. في النهار ننام في الكهوف في مجموعات، وفي الليل نسود الأرض.

ثم جاء قومك من الجنوب إلى عالمنا. أناس النهار. يشبهوننا ولا يشبهوننا. أنتم ضعفاء. قتلناكم بسهولة واستمتعنا بذلك لأننا وجدنا فيكم الجمال. ربما التشابه بيننا هو ما جعلنا ننجذب إليكم. لقرون كنتم ببساطة فرائسنا.

لكن مع الوقت جاء التغيير. يعيش جنسي طويلًا، لكن أعدادنا محدودة، تغيب عنا غريزة التناسل، بينما تتحكم فيكم الغريزة ذاتها أنتم البشر، كما يتحكم فينا الظمأ الأحمر. عندما سألت سيمون عن أمي، أخبرني أن ذكور جنسي يشعرون بالشهوة عندما تدخل الإناث مرحلة التبويض، ولا يحدث هذا إلا نادرًا، ويزداد قليلًا إن تشارك الذكر والأنثى الصيد معًا. حتى حينها، تظل خصوبة الإناث منخفضة، ولهذا هم ممتنون، لأن الولادة تعني الموت بالنسبة إلى أغلب إناثنا. أخبرني سيمون أنني قتلت أمي، مزقتها وأنا أخرج من رحمها، وأحدثت فيها من الداخل ما عجزت عنه قوانا الاستشفائية عن إصلاحه.

هكذا يأتي أبناء جنسي إلى العالم. نبدأ حياتنا بالدم والموت، ونستمر على هذا المنوال طوال العمر.

ثمة توازن في هذا. الرب -إن كنت تؤمن به- أو الطبيعة -إن لم تكن مؤمنًا- تمنح وتحرِم. لنا أن نعيش ألف سنة أو أكثر، ولو كنا خصيبون مثلكم لملأنا الأرض. يتناسل جنسك ويزيد عددًا كالذباب، لكنكم تموتون كالذباب أيضًا بسبب جرح صغير أو مرض تافه لا يؤثر فينا.

لا عجب أننا لم نقدركم حق قدركم في البداية، لكنكم تناسلتم، وبنيتم المدن، تعلمتم. لكم عقول كعقولنا، لكننا لم نجد سببًا لاستخدامها لقوتنا المفرطة. جلب جنسكم النار إلى العالم، وحشد الجيوش وصنع الدروع والأقواس والسِّهام والملابس والفنون والكتابة واللغات. شيدتم حضارة يا أبنَر، وتحضَّرتم فلم تعودوا فرائس. طاردتمونا وهاجمتم كهوفنا نهارًا فقتلتمونا بالنار والأوتاد. وراحت أعدادنا القليلة أصلًا تتناقص باستمرار. قاتلناكم وقُتِلنا، أو فررنا منكم، لكن أينما ذهبنا تبعنا قومك. في النهاية رضخنا، وتعلمنا منكم.

أخذنا عنكم الملبس والنار والسلاح واللغة... كل شيء. لم يكن لدينا أي منها كما ترى. اقترضنا ما خلقتم. نظمنا أنفسنا، وبدأنا نفكر ونخطط، وفي النهاية ذُبنا فيكم تمامًا، وعشنا في ظلال العالم الذي بناه بنو جنسكم، وتظاهرنا أننا منكم. نسرق منكم ليلًا لنخفف ظمأنا إلى دمائكم، ونختبئ نهارًا خوفًا منكم ومن انتقامكم. هذه هي حكاية قومي، أناس الليل، عبر العصور.

سمعتها من بين شفتي سيمون، وقد سمعها هو ممن ذُبِحوا ورحلوا. كان سيمون الأكبر في الجماعة التي عثرت عليها، يكاد يقارب ستمائة عام عمرًا.

سمعت أمورًا أخرى أيضًا، أساطير وراء تاريخنا الشفهي، تعود إلى أصول أصولنا، إلى فجر الزمن نفسه، ورأيت فيها أثر جنسك أيضًا، لأن الأساطير التي روُيت عنا مأخوذة من الإنجيل المسيحي.

كان براون قد تنكَّر في شخصية واعظ من قبل، وقرأ لي آيات من سِفر التكوين، عن آدم وحواء وولديهما قابيل وهابيل؛ البشر الأوائل، والوحيدون. لكن بعدما قتل قابيل هابيل، نُفي في الأرض، واتخذ زوجة من أرض نود. من أين جاءت تلك الزوجة إن كان آدم وزوجته وأبناؤه هم البشر الوحيدون في هذه الأرض؟ لم يوضح سِفر التكوين هذه النقطة، لكن براون فسَّرها. نود كانت أرض الظلام والليل، وهذه الزوجة كانت أم جنسنا. من نسلها وقابيل انحدرنا، ولذا نحن أبناء قابيل، لا السُّود كما يزعم بعض قومك. قتل قابيل أخاه واختبأ، ومن ثَم كُتِب علينا أن نقتل أبناء عمومتنا ونختبئ عندما تبزغ الشمس، فالشمس هي وجه الرب.

طالت أعمارنا كما طالت أعمار البشر في بداية الأرض، وذُكِر هذا في الإنجيل، لكن حيواتنا كانت ملعونة بالعيش في خوف أبدًا. قيل لي إن كثيرًا من قومي يؤمنون بهذا، أما الآخرون فيؤمنون بأساطير مختلفة، أساطير مصاصي الدماء التي سمعوها، ويظنون أنهم تجسد الشر الذي لا يموت.

سمعت حكايات الأسلاف الذين هلكوا منذ زمن، وسمعت عن معاناة بني جنسنا وإبادتهم. حكى لي سميث عن معركة كبرى وقعت عند ضفاف بحر البلطيق المنعزلة منذ آلاف السنين، عندما نزل مئات من قومي ليلًا لمواجهة آلاف البشر، وأشرقت الشمس على ميدان حرب ممتلئ بالجثث والدماء. تذكرت وقتها قصيدة بايرون «سيناشيريب». حدثني سيمون عن بيزنطة القديمة، حيث عاش قومنا لقرون مخفيين وسط هذه المدينة العظيمة، حتى

جاء الصليبيون يخربون ويدمرون، ويحرقون الكثير منا. هؤلاء الغزاة حملوا راية الصليب، وتساءلت في نفسي إن كانت هذه الواقعة هي أصل ما قيل من أن بني جنسي لا يطيقون هذا الرمز المسيحي.

من كل الأفواه سمعت أسطورة مدينة بنيناها؛ مدينة الليل العظيمة، مسيَّجة بالحديد ومحاطة بالرخام الأسود، مخبأة في مغارة في قلب آسيا، على ضفاف نهر تحت الأرض لم تمسسه الشمس. من قبل روما، كانت مدينتنا عظيمة، وقيل إننا هربنا عارين عبر غابات الشتاء وتحت ضوء القمر بسبب جريمة اقترفناها، وكُتب علينا التيه آلاف السنين. لكن المدينة موجودة بعد، وفي يوم سيولد ملك منا، سيد دماء أعظم من أي ممن جاؤوا من قبله، سيجمع شمل جنسنا المبعثر، ويقودنا إلى مدينة الليل جوار بحرها الذي لم تشرق عليه الشمس قَط.

من بين كل ما سمعت وعرفت يا أبنر، أثَّرت فيَّ هذه الأسطورة عظيم الأثر. أشك في وجود مدينة هائلة هكذا تحت الأرض، لكن القصة نفسها أكدت لي أن قومي ليسوا مصاصي الدماء الأشرار الذين تحكي عنهم الخرافات. لم يكن لدينا فنون ولا آداب ولا حتى لغة خاصة بنا، لكن القصة تُظهر أننا قادرون على الحلم، على التخيُّل. نحن لم نبنِ ولم نبتكر، فقط سرقنا ملابسكم وعشنا في مدنكم وتغذينا على حيواتكم ودمائكم ذاتها، لكننا قادرون على التخيل، وعلى الهمس بقصص عن مدن خاصة بنا. الظمأ الأحمر لعنة جعل بيننا وبني جنسك خصومة، ونزع عنا كل الفضائل. لعنة قابيل في الواقع.

كان لنا قادة عظام يا أبنر. سادة دماء حقيقيون ومُتخيَّلون عبر العصور. كان لنا قياصرتنا، وسُليماننا، وملكنا الكاهن يوحنا[1]. لكننا في انتظار مُخلِّصنا كما ترى. في انتظار مسيحنا.

مجتمعين في أطلال القلعة الكئيبة، نسمع صفير الريح بالخارج، شرب سيمون والآخرون الخمر وحكوا لي قصصًا، وتفحصوني بأعين فضولية محمومة، فأدركت ما يفكرون فيه. كل واحد منهم يكبرني سنًّا بمئات السنوات، لكنني كنت الأقوى؛ سيد الدماء. بدوت نصف بشري يا أبنر، وبدوت لهم أنني أنا المُخلِّص المذكور في الأساطير، ملك مصاصي الدماء الموعود. لا يمكن أن أنكر هذا، فقد يكون مصيري أن أخرِج بني جنسي من الظلمات.

(1) حاكم مسيحي أسطوري، قيل إنه نسطوري، وملك كاهن، حكم من بلاد الفرس إلى الصين. (المترجمة).

أشياء كثيرة أود فعلها يا أبنر... أشياء كثيرة. قومك خائفون، متطيرون، يستعرون غضبًا، لذا على قومي أن يظلوا في الخفاء مؤقتًا. رأيت كيف يحارب بعضكم بعضًا، وقرأت عن ڤلاد المُخوزِق -الذي لم يكن منا بالمناسبة- وعن جالوس كاليجولا، وعن الملوك الآخرين. رأيت بني جنسك يحرقون العجائز لأنهم يشكون في أنهم منا، وحتى هنا في نيو أورلينز شهدت كيف تستعبدون بني جلدتكم، وتجلدونهم وتبيعونهم كالحيوانات بسبب لون بشرتهم. السود أقرب إليكم منا بما لا يقارن. يمكنكم أن تتناسلوا منهم، بينما يستحيل تزاوج الليل بالنهار. لا، لا بد أن نظل مخفيين عن قومكم لسلامتنا، لكن معافين من الظمأ الأحمر، على أمل أن يأتي يوم نعلن فيه عن أنفسنا أمام المتنورين منكم؛ رجال العلم والمعرفة، قادتكم. يمكن أن يساعد بعضنا بعضًا كثيرًا يا أبنر! يمكن أن نعلمكم تاريخكم، وشفاء أنفسكم، والعيش أطول. أما بالنسبة إلينا، فقد بدأنا عصر نهضتنا للتو، وقد هزمت الظمأ الأحمر، وأحلم بأن أهزم الشمس يومًا لنسير نهارًا بلا خوف بمساعدتكم، بل يمكن لجراحيكم أن يساعدوا إناثنا في الولادة، فلا يعني التناسل الموت. لا حدود لما يمكن لجنسنا إنجازه. أدركت وأنا أنصت لسيمون وقتها أن في وسعي تحويلنا إلى أعظم من مشوا على الأرض، لكن عليَّ أولًا أن أعثر على من تبقى منا قبل أن أبدأ في أي خطط.

لم تكن المهمة سهلة. قال سيمون إنه كان منا ألف في أثناء فترة شبابه، مبعثرين في أنحاء أوروبا والأورال وبريطانيا. تقول الأساطير إن بعضهم هاجر جنوبًا إلى إفريقيا أو شرقًا إلى منغوليا والصين، لكن لا دليل على هذا. أغلب من تفرقوا في أوروبا ماتوا في الحروب ومحاكمات السحرة، أو اصطادوهم في لحظات وهنهم. ربما تبقى منا مئات كما اقترح سيمون، أو ربما أقل. المواليد نادرة، والأحياء مشتتون مختبئون.

لذا بدأنا حملة بحث استلزمت عقدًا. لن أثقِل عليك بالتفاصيل. وجدنا الكتب التي رأيتها في مكتبتي داخل كنيسة في روسيا، وهي الكتب الوحيدة التي وصلت إلينا وكتبها واحد منا. فككت شفرتها مع الوقت، وقرأت في حزن قصة جماعة أناس الدم الخمسين، وأتراحهم وهجراتهم ومعاركهم وموتهم. لقد زالوا جميعًا، آخر ثلاثة منهم صُلِبوا وأُحرِقوا قبل قرون من مولدي. عثرنا في ترانسلڤانيا على ملجأ جبلي محترق، بداخله بقايا جثتين من جنسنا، متعفنتين، يخترق وتدان صدريهما، ورأساهما على خازوقين. تعلمت الكثير من دراسة تلك العظام، لكننا لم نعثر على ناجين أحياء. في مدينة تريست،

التقينا عائلة لم تخرج قط في النهار، وقيل همسًا إنهم شاحبون إلى درجة غريبة. هم بالفعل كذلك، لكنهم مصابون بمرض المَهَق. في بودابيست صادفنا امرأة ثرية مختلة، تجلد خادماتها وتُدميهم بالعَلَقات والسكاكين، وتدهن بدمائهن جسدها لحفظ شبابه وجماله. كانت واحدة منكم يا أبنر. أعترف أنني قتلتها بيديَّ، وقد أمرض قلبي ما تفعله. لم تكن تحت تأثير الظمأ، وإنما زينت لها طبيعتها الخبيثة سوء ما فعلت، وأثار هذا حنقي. في النهاية لم أجد شيئًا، وعدنا إلى بيتي في اسكتلندا.

مرت السنوات، وتوفيت المرأة في مجموعتي؛ رفيقة سيمون ومربيتي في صغري، في عام 1840، لأسباب عجزت عن تحديدها. كان عمرها أقل من خمسمائة عام. شرَّحت جثمانها، وعرفت كم نحن مختلفون ومغايرون مقارنة بالبشر. كان لديها على الأقل ثلاثة أعضاء ليس لهم مثيل في جثث البشر، ولا أعرف عن وظيفتها سوى معارف تخمينية. كان حجم قلبها أكبر مرة ونصف من حجم القلب البشري، وأمعاؤها قصيرة، ولديها معدة ثانوية خمنت أنها لهضم الدم، وغيرها من اختلافات لا يهم ذكرها.

قرأت كثيرًا وتعلمت اللغات، وكتبت الشعر، وانغمست في السياسة. حضرنا أعلى التجمعات مكانةً، على الأقل أنا وسيمون. سيمث وبراون –كما تدعوهما– لم يُظهرا اهتمامًا بالإنجليزية، وفضَّلا الانعزال. سافرت مع سيمون عبر القارة للبحث مرتين، ومرة أرسلته إلى الهند لثلاث سنوات وحده.

أخيرًا، ومنذ عامين تقريبًا، عثرنا على كاثرين. كانت تعيش في لندن تحت أعيننا تمامًا، وهي من جنسنا بالطبع، لكن الأهم القصة التي حكتها.

أخبرتنا أنه في عام 1750، تفرق عدد كبير من جنسنا في أرجاء فرنسا وباڤاريا والنمسا وحتى إيطاليا. ذكرت بعض الأسماء وسيمون تعرَّفهم. بحثنا عنهم بلا طائل سنوات. أخبرتنا كاثرين أيضًا أن عددًا منهم قتلتهم الشرطة في ميونخ عام 1753، وارتعب الباقون. قرر سيد الدماء خاصتهم أن أوروبا قد اكتظت بالبشر، ونُظِّمَت إلى حد جعلها خطرة عليهم. عشنا في الظلال، وكما هو واضح صرنا أقل فأقل. لذا، استأجر سفينة، ونقلهم من لشبونة إلى العالَم الجديد، حيث البدائية والغابات اللانهائية، وظروف المستعمرات القاسية توفر الحماية وفرائس سهلة. لماذا لم ينضم أبي وجماعته إلى هذه الهجرة؟ لم تخبرني. كانت ستذهب معهم لولا الأمطار والعواصف، وإطار عربتها الذي انكسر في أثناء رحلتها إلى لشبونة. عندما وصلت كانوا قد غادروا.

بالطبع ذهبت على الفور إلى لشبونة، وراجعت سجلات السفن القديمة التي حفظها البرتغاليون. مع الوقت عثرت على ضالتي؛ السفينة لم تعد قَط كما شككت. لقد اضطر المسافرون إلى التغذي على الطاقم في أثناء الرحلة. السؤال هو: هل وصلت السفينة بسلام إلى العالم الجديد؟ لم أجد ما يؤكد هذا، لكني وجدت ذِكرًا للوِجهة التي انتووا قصدها؛ ميناء نيو أورلينز. من هناك، وعبر المسيسبي، ستكون القارة كلها مرتعًا لهم.

الباقي واضح. تبعناهم وأنا واثق بأنني سأعثر عليهم. بدا لي أن بحيازتي باخرة يمكنني الاستمتاع بالفخامة التي اعتدتها، وبحرية الحركة والحرية التي أحتاج إليها لاستكمال بحثي. النهر ممتلئ بغريبي الأطوار، والمزيد منهم لن يُلاحَظ. ولو ذاعت أخبار الباخرة التي لا يظهر رُبَّانها إلا ليلًا، سيكون هذا أفضل. ربما تصل الأخبار إلى الآذان المطلوبة، وسوف يخرجون بحثًا عني عما فعل سيمون منذ سنوات طويلة. لذا خططت، وتقابلت أنا وأنت في سانت لويس.

أنت تعرف الباقي على ما أعتقد، أو ربما خمنته. دعني فقط أخبرك شيئًا أخيرًا. عندما عرضت عليَّ باخرتنا في نيو ألباني لم أخف إعجابي أو أزيفه. حلم فيڤر جميلة يا أبنَر. ما كان لها أن تُبنى على غير هذا الحسن. لأول مرة يُجلَب هذا الجمال إلى العالم بسببنا. هذه بداية جديدة. أفزعني الاسم نوعًا ما؛ الحمى مسمى آخر للظمأ الأحمر بين بني جنسي، لكن رأي سيمون أن اسمًا كهذا قد يجذب قومنا لو سمعوا به.

هذه هي قصتي، كلها تقريبًا. الحقيقة التي أصررت على سماعها. لقد كنت أمينًا معي على طريقتك، وقد صدقتك عندما قلت إنك لست متطيرًا. لو تحققت أحلامي، سيأتي يوم يقف فيه الليل والنهار يدًا بيد أمام الخوف الذي يحول بيننا. سيأتِي وقت المخاطرة، وليكن الآن، معك. حلمي وحلمك، باخرتنا، مستقبل قومي وقومك، مصاصي الدماء والقطيع.

سأترك كل شيء لحُكمك يا أبنَر. ماذا قد يكون؟ الثقة أم الخوف؟ الدم أو الخمر الجيد؟ الصداقة أم العداء؟

***

خمسة عشر



على متن الباخرة حلم فيفر
نيو أورلينز
أغسطس 1857

في الصمت الثقيل الذي تلا قصة چوشوا، لم يكن أبنر مارش يسمع سوى صوت أنفاسه المنتظمة وضربات قلبه المُثقَل في صدره. ظل چوشوا يتكلم ساعات كما يبدو، لكن حلكة الغرفة تمنعه من الـشعور بمرور الوقت. ربما النهار يبزغ بالخارج. ربما توبي يطهو الإفطار. ربما يتجول الركاب في أرجاء طابق الغلايات. ربما يصخب المرفأ بالحركة. لكن الليل استمر داخل غرفة چوشوا يورك ممتدًّا للأبد.

عادت كلمات القصيدة اللعينة إليه، فوجد مارش أبنر نفسه يغمغم: «حل النهار وارتحل، ثم حل ولم يرافقه صبح».

قال چوشوا بهدوء: «الظلام...».

- وأنت عشت فيه طوال حياتك اللعينة. بلا صبح أبدًا. يا إلهي، كيف تحمَّلت يا چوشوا؟

لم يُجِب يورك.

- هذا غير معقول. هذه ألعن قصة جلست أستمع إليها في حياتي. لكن لتُصِبني اللعنة لو لم أكن أصدقك.

- تمنيت هذا. والآن يا أبنر، ماذا قررت؟

فكر مارش في أن هذا هو الجزء الأصعب من الحوار. قال بصدق: «لا أعرف. أنت قتلت كل هؤلاء، وما زلت أشعر بالأسف عليك. لا أعرف حتى إن

كان شعوري هذا منطقيًّا. ربما المنطقي أن أحاول قتلك، ربما هذا هو الخيار المسيحي الوحيد الذي قد أتخذه. ربما أحاول مساعدتك».

نخر ضيقًا من المعضلة، ثم أكمل: «أعتقد أن عليَّ سماع أكثر منك، ثم أنتظر قبل أن أتخذ قرارًا، لأنك نسيت تفسير شيء يا چوشوا».

- ماذا؟

قال أبنر في حسم: «نيو مدريد».

- الدماء على يديَّ تقصد؟ ماذا أقول لك يا أبنر؟ لقد قتلت في نيو مدريد، لكن ليس الأمر كما شككت.

- أخبرني إذًا.

- أخبرني سيمون بالكثير عن تاريخ قومنا؛ أسرارنا، عاداتنا، حياتنا. شيء واحد مما ذكر أزعجني بشدة يا أبنر. العالم الذي بناه قومك يعتمد على النهار، وصعب العيش فيه. لتسهيل الأمر، قد يتنكر أحدنا في هيئة واحد منكم، ويستغل قوة نظراته وصوته للاندماج معكم. يمكن أن نستغل أيضًا قوتنا وصحتنا وعمرنا المديد، والأساطير التي نسجها قومك حولنا لخدمة مصالحنا. بالكذب والخوف والوعود ينشق طريقنا عبر البشر؛ فيمكنهم أن يكونوا ذوي نفع لنا. يمكنهم أن يحمونا نهارًا وأن يذهبوا نيابة عنا إلى الأماكن التي نعجز عن الذهاب إليها، وأن يتحركوا بين الناس دون إثارة شكوك، في نيو مدريد قتلت. في غابة ساحة الأخشاب ذاتها التي توقفنا عنها. مما قرأت في الصحف أمِلت في أن أعثر على واحد من جنسي، لكن بدلًا عن ذلك عثرت على... يمكن أن تحسبه عبدًا، مساعدًا، حيوانًا أليفًا. شخصًا مُستعبَدًا. كان هَرِمًا، هجينًا بين البيض والسود، أصلع، أجعد البشرة، مخيفًا، ذا عين مبيضَّة، ووجه مشوَّه محترق. لم يكن ممن يسر النظر إليهم، حتى روحه كانت خبيثة... فاسدة. عندما اقتربت منه، هجم رافعًا فأسه. ثم نظر إلى عينيَّ وعرف ماذا أكون يا أبنر. عرفني في لحظتها، وخرَّ على رُكبتيه يبكي ويغمغم... يعبدني. يقبع أمامي ككلب، يرجوني أن أفي بوعدي. ثم يكرر: «الوعد... الوعد... الوعد».

أخيرًا أمرته بالصمت، فامتثل، وتكوَّر خوفًا. لقد دُرِّب على أن يطيع كلمات سيد الدماء كما ترى. طلبت منه أن يحكي لي قصة حياته، على أمل أن يرشدني

إلى قومي، كانت حكايته في مثل كآبة حكايتي. وُلد حُرًّا مختلط الأصل في مكان يسمونه المستنقع، وهو مكان معروف في نيو أورلينز. عمل قوادًا، لصًّا، ثم أخيرًا قاتلًا يعيش على أموال رجال البواخر البسطاء الذين يزورون المدينة. كان قد قتل رجلين قبل بلوغه سن العاشرة، ثم لاحقًا عمل تحت إمارة ڤينست جامبي؛ أشرس قراصنة خليج بارتاريا. كانت مهمته الإشراف على العبيد الذين يسرقهم جامبي من تجار العبيد الإسبان، ثم يبيعهم في نيو أورلينز، وكان على معرفة بسحر الڤودو أيضًا، وخدم بني جنسي.

حكى لي عن سيده، الرجل الذي استعبده وسخر من إيمانه بالسحر، ووعده بتعليمه ما هو أعظم؛ سحرًا أكثر سوادًا. وعده سيد الدماء إن خدمه بأن يحوِّله إلى واحد منهم، وبأن يشفي ندباته ويعيد عينه إلى سابق عهدها. وعده بشرب الدماء والعيش أبدًا دون أن يشيخ. فخدمه الرجل، وفعل كل ما أمره به لثلاثين عامًا على أمل الوعد. قتل لأجل الوعد، وتعلم أكل اللحم النيئ وشرب الدماء. في النهاية وجد سيده وعدًا أفضل. لقد أصبح الرجل مُسنًّا ومريضًا وبلا فائدة، فطرده. كانت الرحمة في نتله، لكنه طُرِد وأصبح وحيدًا. المُستعبد لا ينقلب على سيده حتى لو تأكد أنه خان وعده له. لذا هام الرجل على وجهه سيرًا، وعاش على السرقة والقتل، ؤاتجه ببطء إلى شمال النهر. أحيانًا يتكسَّب مالًا حلالًا بالعمل في البحث عن العبيد الفارين، أو عامِلًا بالأجر، لكنه أمضى أغلب وقته في الغابات، منعزِلًا يعيش بالليل. عندما تواتيه الجرأة، يتغذى على لحم ضحاياه ودمائهم، مؤمنًا بعد بقدرة هذا على إعادة شبابه وصحته. عاش قرب نيو مدريد عامًا كما أخبرني، وعمل في قطع الأخشاب لصالح صاحب ساحة البيع، الذي كان مسنًّا وضعيفًا. كان يعرف بنُدرة زيارات ساحة الأخشاب تلك، لذا... أنت تعرف ما حدث بعد ذلك. يمكن لقومي أن يتعلموا الكثير منكم يا أبنر، لكن ليس تلك الأشياء التي تعلمها هو. شعرت بالشفقة عليه. إنه هَرِم مُعتل مخيف مقطوع الأمل. بيد أنني كنت غاضبًا كما كنت عندما عرفت بحكاية المرأة في بودابيست التي تغتسل بدماء بالبشر. في أساطير بني جنسكم نحن أصل هذه الشرور. مصاصو الدماء بلا روح ولا أخلاق ولا أمل في الخلاص. لن أقبل بهذا يا أبنر. لقد قتلت مرات لا تُحصى، وارتكبت الفظائع، لكني لست خبيثًا. أنا لم أختَر أن أكون ما أنا عليه. بلا اختيار حر لن يكون ثمة خير أو شر. لم يكن لقومي الاختيار قَط. لقد سيطر علينا الظمأ الأحمر، وحكم علينا، وجرَّدنا مما يمكن أن نكونه. لكن

قومك يا أبنر... قومك لا يعانون مثلنا. هذا الشيء الذي قابلته في الغابة خلف نيو مدريد لم يشعر قط بالظمأ الأحمر، كان في وسعه أن يكون أي شيء آخر لكنه اختار ما صار إليه. أوه، لأكون أمينًا، يشاركه الذنب واحد من بني جنسنا. الرجل الذي كذب عليه ووعده بما لا يمكنه الوفاء به. أستطيع فهم السبب وراء ذلك، بيد أنني أبغضه. التحالف مع قومك قد يصنع فارقًا. خَبَرنا جميعًا الخوف يا أبنر. قومي وقومك على حد سواء. ما لا أفهمه هو سبب رغبة واحد منكم في العيش في الظلام، والرضوخ للظمأ الأحمر بهذا الشكل؟ رجاني ألا أتخلى عنه كما فعل سيد الدماء الآخر. لا أستطيع منحه ما يريد، ولن أفعل حتى لو كان هذا ممكنًا. فمنحته ما استطعت.

قال أبنر مارش من خلف أستار الظلام: «مزقت حلقه اللعين، أليس كذلك؟».

قالت ڤاليري التي كاد مارش ينسى وجودها: «لقد أخبرتك. هو لا يفهم. استمع إلى ما قال».

اعترف چوشوا: «لقد قتلته بيديَّ العاريتين. سالت دماؤه من بين أصابعي وأغرقت الأرض، لكنها لم تمس شفتيَّ يا أبنر. بعدها دفنته بعناية».

ملأ الغرفة صمت عظيم آخر، بينما يفتل أبنر مارش ذقنه ويفكر، ثم تطوَّع أخيرًا وقال: «تتحدث عن الاختيار، وتقول إن هذا هو الفارق بين الخير والشر. والآن يبدو أن دوري في الاختيار قد جاء».

- نحن نختار يا أبنَر كل يوم.
- ربما لديك حق. تقول إنك تريد مساعدتي يا چوشوا. لنفترض أنني وافقت، كيف سأكون مختلفًا عن ذلك المُستعبد اللعين الذي قتلته؟ أجب عن هذا السؤال!
- لن أجبرك على... على شيء كهذا أبدًا. أنا لن أحاول حتى. سأعيش يا أبنر لقرون بعدما تموت أنت. هل حاولت مرة إغواءك بهذا؟
- أنت أغويتني بباخرة لعينة، وأخبرتني بتلال من الأكاذيب.
- حتى أكاذيبي كانت فيها شيء من الحقيقة يا أبنر. قلت لك إنني أطارد مصاصي الدماء لأنهي شرَّهم. ألا ترى الحقيقة في هذا؟ أحتاج إلى مساعدتك يا أبنر، لكن شريكًا، لا كما يحتاج سيد الدماء إلى مُستعبَد.

فكر أبنر مارش، ثم قال: «حسنًا. ربما أصدقك. ربما عليَّ أن أثق بك. لكن إن كنت تريدني شريكًا، عليك أن تثق بي أيضًا».

- لقد أفضيتُ إليك. ألا يكفي هذا؟

- بالطبع لا يكفي بحق الجحيم. أنت فعلًا أخبرتني الحقيقة، والآن تنتظر إجابة مني، إلا أنني لو أعطيتك إجابة لا توافق مصلحتك لن أخرج من هذه الغرفة حيًّا. صديقتك هذه ستتولى هذا حتى لو لم تفعل أنت.

قالت ڤاليري عبر الظلام: «ذكي للغاية يا كابتِن مارش. أنا لا أكِن لك أي ضغينة، لكن يجب ألا يؤذى چوشوا بأي طريقة».

نخر مارش وقال: «هل ترى ما أقصد؟ هذه ليست الحقيقة. نحن لسنا شريكين على هذه الباخرة بعد الآن. الأمور ليست متعادلة أبدًا. يجب أن أحترس لكلماتي وأفعالي وإلا أموت. أنا أرى ما يحدث على هذا النحو، ما يجعلني عبدًا، لا شريكًا. أنا وحدي أيضًا، بينما حولك كل أصدقائك شاربي الدماء اللعينين لمساعدتك عندما يسوء الوضع. يعلم الرب ما تخطط له، لكنك لن تخبرني إياه. تقول إنني مجبر على ألا أحكي لأحد. اللعنة يا چوشوا. لا أظن هذا النوع من الشراكات يلائمني».

تفكَّر يورك في كلام شريكه حينًا، ثم قال: «حسنًا. أتفهم وجه نظرك. ماذا تريدني أن أفعل كي أستحق ثقتك؟».

- بدايةً، هَب أنني أردت قتلك، ماذا أفعل؟

صرخت ڤاليري: «لا!».

سمع مارش صوت خطواتها تتحرك تجاه چوشوا.

- لا يمكنك أن تخبره بهذا. أنت لا تعرف ماذا يخطط يا چوشوا. لماذا يسأل إن كان لا ينتوي...

قاطعها چوشوا: «ليجعلنا متعادلين يا ڤاليري، وهي مخاطرة علينا تقبلها».

بدأت ترجوه مرة أخرى، لكنه أسكتها وقال لمارش: «النار ستؤدي الغرض. الإغراق. الضرب بالرصاص في الرأس؛ أمخاخنا ضعيفة. رصاصة في الرأس قد تقتلني، بينما رصاصة في القلب قد تُسقطني أرضًا فقط حتى أشفى. الأساطير دقيقة في نقطة واحدة: قطع الرأس وغرز وتد في صدورنا يقتلنا».

ثم ضحك بخشونة وقال: «كل بني جنسك يعرفون هذه المعلومة على ما أعتقد. الشمس قد تكون مميتة أيضًا كما رأيت. أما الفضة والثوم وكل هذا لا تأثير له».

زفر مارش بقوة، وقد وعى بالكاد أنه كان يحبس أنفاسه. سأله يورك: «هل أنت راضٍ؟».

- تقريبًا. شيء آخر...

حُكَّ عود ثقاب، فظهر لهب صغير داخل كف يورك المثنية. مس بالعود فتيل مصباح الزيت، فزحف النور الأصفر إلى أرجاء الغرفة المعتمة. أطفأ چوشوا العود وهو يقول: «أليس هذا أفضل يا أبنر؟ المزيد من العدالة؟ الشراكة تحتاج إلى نور، ما قولك؟ حتى يتسنى لنا أن ننظر أحدنا إلى عيني الآخر».

رمش أبنر مارش دامع العينين بعد فترة طويلة قضاها في الظلام. حتى الضوء الخافت بدا له ساطعًا إلى درجة غير محتملة. بدت الغرفة أكبر الآن وقد زال عنها إحساس الاختناق والرعب. كان چوشوا يورك يحدق إلى مارش في هدوء، وجهه مغطى بقشور جلد جافة. عندما ابتسم، تشقق جلده وسقطت عنه قشرة. شفتاه منتفختان، لكن أغلب البثور والحروق كادت تختفي. التغيير مذهل.

- ما هو الشيء الآخر يا أبنر؟

نظر مارش إلى عيني يورك وقال في تحدٍّ: «لن أخوض هذا وحدي. سأخبر...».

قاطعته ڤاليري من حيث وقفت جوار چوشوا: «لا. شخص واحد يعرف سرنا مصيبة كافية، لا يمكن أن يشيع الخبر. سيقتلوننا».

- اللعنة يا امرأة! أنا لن أعلن عن الخبر في الجريدة!

مس يورك أصابع كفيه بعضها ببعض وقال وهو ينظر إلى مارش مفكرًا: «كم شخصًا ستخبر يا أبنر؟».

- واحد أو اثنين. لست الوحيد المتشكك، وربما تحتاج مساعدة أكبر من قدرتي منفردًا. لن أتحدث إلا مع مَن أثق بهم. مايك المشعر، هذا واحد، والسيد چيفرز. هو ذكي للغاية حتى إن التساؤلات عنك شغلته. لا يهم أن يعرف الباقون. السيد أولبرايت جديد في المهنة ولا أثق به بعد، أما

فرام فسينشر الخبر في أرجاء النهر خلال أسبوع. يمكن أن يحترق الطاقم كله دون أن يلاحظ بليك الأشيب ما دامت المحركات بخير. لكن چيفرز ومايك المُشعر.. يجب أن يعرفا. هما رجلان بحق، وربما تحتاج إليهما.

- أحتاج إليهما؟ كيف هذا؟

- ماذا لو لم يرُق قومك مشروبَك الغريب هذا؟

اختفت ابتسامة چوشوا يورك الساخرة بغتة، وقام متجهًا إلى أرفف الخمر ليصب لنفسه كأس ويسكي. عندما عاد، رآه مارش عابسًا.

- ربما. أحتاج إلى أن أفكر في هذه النقطة. إن كانا بالفعل أهلي ثقة. أنا فقط لدي هواجس بخصوص الرحلة عبر الرافِد.

لم تعترض ڤاليري كما هو متوقَّع. نظر مارش إليها، فرأى شفتيها مزمومتين، وشيء كالخوف يتسلل إلى عينيها. سأل مارش: «ماذا بكما؟ تبدوان... على شيء من الغرابة».

رفعت ڤاليري رأسها وهتفت: «لقد طلبت منك أن تعود بنا إلى أعالي النهر. وسأطلب منك مرة أخرى الطلب ذاته بيد أن أيكما لن ينصت. هو هناك في مرسى السِّرو».

سأل مارش: «من هو؟».

أجاب چوشوا: «سيد دماء. عليك أن تعرف يا أبنر أن باقي جنسي قد لا يفكرون كما أفكر. حتى أتباعي. سيمون وفي. سميث وبراون سلبيين. لكن كاثرين... من البداية استشعرت نفورها. أظن في نفسها دُكنة ما. دُكنة تجعلها تفضل الطريقة القديمة في الصيد. هي دائمًا تحن إلى السفينة التي فوَّتتها، وتتضايق من أوامري. هي فقط تطيع لأنها مجبرة. أنا سيد الدماء، لكن هذا لا يناسبها. أما الآخرون، الذين ركبوا معنا في أثناء الرحلة، لا أثق فيهم، فيما عدا ڤاليري وچين أردان. هل تتذكر تحذيرك لي من رايموند أورتيجا؟ تُساورني الهواجس نفسها بصدده. ڤاليري لا تعني له شيئًا إن كنت تظن الغيرة مُحرِّكه. كان عليَّ أن أخضعه كما فعلت مع سيمون منذ زمن. فعلت الشيء نفسه مع الآخرين، وهم الآن يتبعونني لأن اتباعي واجب عليهم. هذه سُنَّة قومي. مع ذلك، أسأل نفسي إن كانوا ينتظرون نتيجة ما سيحدث عندما ترسو حلم فيڤر في مرساه، وأواجه من كان سيدهم جميعًا. أخبرتني

ڤاليري كثيرًا عنه. هو عتيق يا أبنر. أكبر عمرًا بكثير من سيمون وكاثرين، أكبر من أينا. عمره نفسه يقلقني. هو الآن يُسمي نفسه دامون چوليان، لكن قبل ذلك كان اسمه چيليس لامونت، الشخص نفسه الذي خدمه المُستعبد في الغابة لقرابة ثلاثين عامًا. قيل لي إن له مُستعبدًا بشريًّا آخر الآن».

قالت ڤاليري في كراهية: «بيلي تيبتون الشرس».

- ڤاليري تخشى چوليان هذا. الآخرون أيضًا يتحدثون عنه بخوف، وأحيانًا بولاء حقيقي. لقد راعاهم وحافظ عليهم كونه سيد دماء. منحهم منزلًا وثروة وطعامًا. كانوا يتغذون على العبيد. لا عجب أنه اختار الإقامة هناك.

هزت ڤاليري رأسها وقالت: «اتركه يا چوشوا. لأجلي إن لم يكن لأجل أي شيء آخر. لن يرحب دامون بقدومك ولن تروقه الحرية التي تمنحنا إياها».

- ما زال معه آخرون من قومنا. هل تريدينني أن أتخلى عنهم أيضًا؟ لا. وربما تكونين مخطئة بشأن چوليان. لقد عاش في قبضة الظمأ الأحمر قرونًا، وفي وسعي تهدئة هذه الحمى.

عقدت ڤاليري ذراعيها، واشتعلت عيناها غضبًا: «وإن لم تهدأ؟ أنت لا تعرفه يا چوشوا».

قال مُعانِدًا: «هو متعلم، ذكي، مثقف، عاشق للجمال. أنت ذكرت هذا».

- وهو قوي أيضًا.

- ومثله سيمون ورايموند وكارا. هم الآن أتباعي.

- دامون مختلف!

قال يورك في نفاد صبر: «لا يهم. سأسيطر عليه».

كان مارش يراقب حديثهما مفكرًا في صمت، لكنه أخيرًا تكلم.

- چوشوا مُحِق. يا للجحيم. لقد نظرت إلى عينيه مرة أو اثنتين، وكاد يهشم عظام كفي في أول مرة تصافحنا. إلى جانب هذا، ماذا تدعونه؟ ملك؟

قالت ڤاليري: «نعم، الملك الشاحب».

- حسنًا. إن كان هو ملككم الشاحب، فهذا سبب قوي لانتصاره، أليس كذلك؟

نقلت ڤاليري نظرها من مارش إلى يورك، ثم إلى الأول مرة أخرى، ثم قالت وهي ترتجف: «أنتما لم ترياه».

ترددت لحظة، ثم أرجعت شعرها الأسود إلى ما خلف ظهرها بذراعها البيضاء النحيلة، ثم واجهت أبنر مباشرة: «ربما كنت مخطئة في حكمي عليك يا كابتِن مارش. ليس لي مثل قوة چوشوا ولا ثقته. لقد تحكم في الظمأ الأحمر لنصف قرن. قومكم فريستي، ولا يمكنني مصادقة فريسة، ولا الثقة بها. لهذا طلبت من چوشوا قتلك. لا يمكنك أبدًا نسيان عداوة أجيال. هل تفهم؟».

أومأ مارش في ضيق، فأكملت: «وما زلت متأكدة من هذا. لكن چوشوا أرانا أمورًا جديدة، وأنا مستعدة للاعتراف بجواز الثقة بك. ربما. لكن سواء كنت مخطئة في حكمي عليك أو لا، أنا واثقة في حكمي على دامون چوليان!».

عقد مارش حاجبيه ولم يدرِ ماذا يقول. أمسك چوشوا يد ڤاليري وقال لها: «أنا أعتقد أنك مخطئة في خوفك. لكن لأجلك، سأتحرك بحذر أكثر. يا أبنر، افعل كما تريد وأخبر رجُليك. قد نحتاج إلى مساعدتهما إن كانت ڤاليري محقة. اختر رجالًا لوردية الرحلة الخاصة، واترك الباقين في الميناء. عندما تبحر حلم فيڤر إلى المرسى، لا أريد على متنها إلا أفضل رجالنا. أقل عدد ممكن لتشغيلها فقط. لا أريد متعصبين، ولا مرتعبين».

قال مارش: «سيختار مايك المُشعر الرجال».

- سأقابل چوليان في باخرتي، في التوقيت الذي أختاره، وخلفي أنت وأفضل رجالك. احذر عندما تخبر چيفرز ومايك المشعر. يجب أن يتم كل شيء بحذر.

ثم نظر إلى ڤاليري وسألها: «راضية الآن؟».

- لا.

ابتسم يورك وقال: «لا أستطيع أن أفعل شيئًا آخر». ثم وجه كلامه لمارش: «أنا سعيد يا أبنر أنك لست عدوي. لقد اقتربت الآن من حلمي في هزيمة الظمأ الأحمر، وقد حصَّلت بالفعل نصري الأول. أحببت أن أذكر هذا الآن وهنا. بدأت أنا وأنت للتو عصر صداقة وثقة بين جنسينا. ستبحر حلم فيڤر على حد الموسى بين الليل والنهار، وتمحق شبح الخوف القديم أينما تحل. سنحقق أحلامًا عظيمة معًا يا صديقي».

لم يعبأ مارش كثيرًا لهذا الكلام المنمق، لكن عاطفة چوشوا وصلته، فابتسم وقال: «لدينا عمل كثير ننجزه قبل أن نحقق أي شيء لعين».

قبض مارش على رأس عصاه وقام مردفًا: «سأرحل إذًا».

- لا بأس. سأرتاح أنا وأراك مجددًا عند الغروب. تأكد من أن الباخرة مستعدة للمغادرة، وسننهي مهمتنا في أسرع وقت.

- سأرتب المغادرة.

وفي الخارج، أشرقت الشمس.

فكر مارش في أن الساعة قد تكون التاسعة وهو واقف يرمش خارج غرفة الرُّبَّان بعدما أغلق چوشوا بابها خلفه. النهار حار، وغلالة رمادية كئيبة تحجب الشمس، والدخان والبخار المنبعثان من البواخر الأخرى يلوثان الهواء. لمح أبنر علامات اقتراب العاصفة، وهو أمر غير مشجع ولا مثير للتفاؤل. أدرك فجأة أنه لم ينم تقريبًا، وشعر بالتعب المباغِت، لكن أمامه الكثير ولن يجرؤ على التفكير في غفوة.

نزل إلى القاعة الكبرى آملًا في أن يمده الإفطار ببعض الطاقة. شرب جالون قهوة سوداء قوية، بينما يعد له توبي أقراص اللحم المفروم والواِفل مع التوت الأزرق. بينما يأكل، دخل چوناثان چيفرز القاعة ورآه، فمشى نحوه. قال له مارش: «اجلس وكُل شيئًا. أريد أن أتحدث إليك يا سيد چيفرز. ليس هنا طبعًا. الأفضل أن تنتظرني حتى أنهي وجبتي ثم نذهب إلى غرفتي».

أجاب چيفرز في شرود: «حسنًا. أين كنت يا كابتِن؟ بحثت عنك ساعات. لم تكن في غرفتك».

- كنت أتحدث أنا وچوشوا. ماذا...

- صعد رجل إلى الباخرة ليلًا ويُصر على مقابلتك.

«لا أحب أن أنتظر كثيرًا كأنني بلا قيمة». قالها الغريب الذي لم يره مارش يدخل. دون استئذان جرَّ الغريب مقعدًا وجلس. هو رجل قبيح مشعث، وجهه الطويل مشوه بآثار الجدري. رفيع، وخصلات شعره البني تتهدل على جبينه. بشرته غير صحية، ورقع من الجلد والشعر فيها مغطاة بحراشف بيضاء خفيفة، كأنه كان تحت عاصفته الجليدية الخاصة. مع ذلك، كان يرتدي بدلة سوداء أنيقة، وقميصًا ذا صدر مزين بالكشكشة، ويضع خاتمًا بحجر كريم. لم يكترث أبنر مارش بمظهره ولا بكلامه ولا بزمَّة شفتيه ولا بعينيه اللتين

بلون الجليد، وسأله في فظاظة: «من أنت بحق الجحيم؟ الأفضل أن يكون لديك سبب مقنع لإزعاجي على الإفطار، وإلا رميتك عبر السور اللعين».

مجرد التفوه بعبارته الغاضبة أشعر مارش بالتحسن. لم يكن يرى أن لمنصب الرُّبَّان فائدة ما لم يكن قادرًا على أمر الآخرين بالغروب عن وجهه من وقت لآخر.

لم يتغير تعبير وجه الغريب القاسي، لكنه حدق بعينيه الجليديتين إلى مارش بنظرة ساخرة وقال: «سأدفع أجرة ركوب باخرتك الفاخرة هذه».

- بالطبع ستدفع.

سأله چيفرز بهدوء: «هل أستدعي مايك المُشعر ليتعامل مع هذا الهمجي؟».

نظر الرجل إلى الكاتب نظرة ازدراء عابرة، ثم أعاد عينيه إلى مارش: «كابتِن مارش. جئتك ليلة أمس لأدعوك أنت وشريكك. ظننت أن واحدًا منكما على الأقل سيكون موجودًا ليلًا. حسنًا، نحن في النهار الآن، فلنجعل الدعوة الليلة على العشاء في فندق سانت لويس بعد ساعة من الغروب. لا بد أن تحضر أنت وكابتِن يورك».

- أنا لا أعرفك ولا يهمني ما تقول، وأنا متأكد من أننا لن نشاركك العشاء، فضلًا عن أن حلم فيڤر ستبحر الليلة.

- أعرف. وأعرف وجهتها أيضًا.

- ماذا تقول؟!

- أنت لا تعرف الزنوج كما يبدو. يسمع الزنجي منهم شيئًا، فيعرف كل زنوج المدينة به على الفور. أنا أيضًا أنصت جيدًا. أنت لا تحتاج إلى السفر بهذه الباخرة الضخمة إلى المرسى حيث تريد. ستنغرز الباخرة وقد يشُق بطنها. سأوفر عليك العناء. الرجل الذي تبحث عنه هنا ينتظرك، لذا عندما يحل الظلام، اذهب وأخبر سيدك. مفهوم؟ أخبره أن دامون چوليان ينتظره في فندق سانت لويس. السيد چوليان يتحرَّق شوقًا لمقابلته.

***

ستة عشر



نيو أورلينز
أغسطس 1857

عاد بيلي تيبتون الشرس قلِقًا إلى فندق سانت لويس في ذاك المساء. لن تعجب چوليان الرسالة التي يحملها له من حلم فيڤر، وچوليان خَطِر يصعب التنبؤ بردود أفعاله إن غضِب.

في ظلمة غرفة استقبال جناحهم الفاخر التي لا ينيرها إلا شمعة وحيدة، تضيء عيني چوليان السوداوين وهو جالس قرب النافذة على مقعد مكسو بالمخمل، يرشف خمر سازيراك المعتَّق. الغرفة ممتلئة بالصمت، يشعر بيلي الشرس بكثافته وثِقل العينين المحدقتين إليه. أصدر غلق الرتاج صوتًا خافتًا. قال دامون چوليان بهدوء: «نعم يا بيلي».

قال بيلي الشرس بسرعة، بأنفاس متهدجة: «لن يأتوا يا سيدي چوليان».

في العتمة لم يرَ رد فعل چوليان، فأضاف: «قال إن عليك أنت الذهاب إليه».

- قال؟ من هو الذي قال يا بيلي؟
- هو. سيد... سيد الدماء الآخر. هكذا يُسمي چوشوا يورك نفسه. أما الآخر، الذي كتب لك عنه رايموند، يُدعى كابتِن مارش. ذلك السمين ذو البثور والسالفين الكثيفين، قال إنه لن يأتي أيضًا. كم هو وقح. لكني انتظرت حتى الليل، حتى يقوم سيد الدماء وقابلته.

شعر بيلي الشرس بالبرودة وهو يفكر في عيني يورك الرماديتين اللتين لمستا ما وراء عينيه نفسه. ثمة ازدراء مرير فيهما دفعه إلى النظر بعيدًا.

قال دامون چوليان: «أخبرنا يا بيلي، كيف يبدو، هذا الآخر؟ المدعو چوشوا يورك، سيد الدماء هذا».

أجاب بيلي بكلمات متلعثمة: «هو... هو أبيض، أعني، بشرته وكل شيء فيه شاحب، وشعره بلا لون. حتى بدلته بيضاء. و... الفضة... يتزين بفضة كثيرة. طريقة حركته... تصرفاته... كأنه واحد من الكريوليين اللعينين يا سيدي چوليان. فخور متكبر... هو... هو مثلك يا سيدي چوليان. عيناه...».

غمغمت سينثيا من ركن الغرفة البعيد: «باهتتان قويتان. ومعه خمر يقهر الظمأ الأحمر. هل هو المُختار يا دامون؟ لا بد أنه هو. لا بد أن الأمر حقيقي. لطالما صدَّقت ڤاليري الأساطير، واستهزأت أنا بها، لكن لا بد أنه هو. سيجمع شملنا ويقود عودتنا إلى المدينة المفقودة، مدينة الظلام. مملكتنا. القصة حقيقية، أليست كذلك؟ هو سيد أسياد الدماء، الملك الذي طالما انتظرناه».

ثم نظرت إلى دامون چوليان في انتظار رده.

تذوق دامون چوليان خمره وابتسم ابتسامة خبيثة سَنُّورية وقال متهكمًا: «ملك؟ وماذا قال لك هذا الملك يا بيلي؟ أخبرنا».

- قال إنه يدعوكم جميعًا إلى الباخرة على العشاء. غدًا بعد الغروب. هو ومارش لن يأتيا وحدهما إلى هنا كما أردت. قال مارش إنهما لو سيقبلان دعوتك، سيأتيان مع آخرين.

علَّق چوليان: «هذا الملك خجول بشكل غريب».

هتف بيلي الشرس فجأة: «اقتله! اذهب إلى قاربه اللعين واقتله، اقتلهم جميعًا. ثمة خطب به يا سيدي چوليان. عيناه... تبدو عيناه عندما ينظر إليَّ كأنهما عينا كيريولي. كأنني... كأنني حشرة بلا قيمة، حتى وأنا مُرسَل مِنك. هو يحسب نفسه أفضل منك. والآخرون... هذا الربَّان المشوَّه والكاتب اللعين، كلهم منمقون. دعني أذبحه... دع دماءهم تسيل على ملابسهم الأنيقة... لا بد أن تقتله. لا بد!».

سكنت الغرفة بعد انفجار بيلي الشرس. حدق چوليان عبر النافذة إلى الليل. كانت النوافذ مفتوحة، والستائر ترفرف في خمول وسط نسيم الليل، وصخب الشارع ينجرف إليهم من أسفل. وظلت عينا چوليان الداكنتان، ثقيلتا الجفنان، تنظران إلى الضوء في الأفق.

عندما أدار رأسه أخيرًا نحوهم، التقت حدقتاه بلهب الشمعة الوحيدة مرة أخرى، فاشتعلتا.

- الشراب يا بيلي.

قال بيلي وهو مستند إلى الباب، مُستلًّا سكينه: «هو يصنع لهم جميعًا الشراب». راح ينظف ما تحت أظفاره وهو يكمل: «تقول كارا إنه ليس دمًا فقط، بل مخلوط بشيء آخر يقتل الظمأ. هكذا يقولون جميعًا. طفت في أرجاء الباخرة وتحدثت إلى رايموند وچين وچورج وآخرين. أكدوا لي هذا. ظل چين يمتدح شرابه وكم هو عظيم».

قال چوليان في احتقار: «چين...».

هتفت سينثيا: «الأمر حقيقي إذًا. هو أقوى من الظمأ».

أضاف بيلي الشرس: «بل هناك ما هو أكثر. يقول رايموند إن يورك اتخذ ڤاليري خليلة».

ازداد توتر الغرفة. عقد كُرت حاجبيه، وتفادت ميشيل تلاقي الأعين، ورشفت سينثيا من قدحها. جميعهم يعرفون أن ڤاليري الجميلة كانت أليف چوليان المفضل. حدقوا إلى وجهه الممتقع وهو يقول: «ڤاليري؟».

طرق چوليان مسند المقعد بأصابعه الشاحبة في شرود، فراح بيلي تيبتون الشرس ينظف ما بين أسنانه بسن السكين في رضا. عرف أن أخبار ڤاليري ستثيره. كان لچوليان خطط مستقبلية تخص ڤاليري، ولا يحب دامون چوليان أن تُفسَد خططه. كان قد أخبر بيلي بكل تفاصيلها في شيء من التسلية الخبيثة عندما سأله بيلي عن مكانها وسبب إبعادها.

- رايموند شاب وقوي ويمكنه تحمُّلها. سيكونان بمفردهما، هو وهي، وليس لهما سوى أحدهما الآخر والظمأ. رؤية رومانسية، أليس كذلك؟ وفي خلال سنة أو اثنتين أو خمسة، ستحمَل ڤاليري. أراهن على ذلك يا بيلي.

ثم ضحك ضحكته العميقة المُنغَّمة، إلا أنه لم يكن يضحك على الإطلاق.

سأله كُرت: «ماذا ستفعل يا دامون؟ هل ستذهب؟».

- طبعًا. لا يمكننا أن نرفض دعوة كهذه، ومن مَلِك. ألا تريد أن تتذوق خمره؟

نظر إلى كل منهما، ولم يجرؤ أيهما على الكلام، فأردف: «آه. أين حماسكما؟ چين يرشح لنا هذا الترف، وكذلك ڤاليري بلا شك. خمر ألذ من الدم، غنية بالحياة. أفكر في السلام الذي قد يجلبه لنا».

ابتسم، ولم يتكلم أحد. انتظر، لكن الصمت طال. هز چوليان كتفيه وقال: «حسنًا إذًا. أتمنى ألا نسقط من نظر الملك لو تمسكنا بتفضيلنا مشروبات أخرى».

قال بيلي الشرس: «سيجعل الجميع يشربونه بإرادتهم أو مرغمين».

سألت سينثيا: «هل... هل سترفض يا دامون؟ لا يمكن. يجب أن نذهب إليه. لا بد أن نفعل كما يأمرنا. يجب!».

أدار چوليان رأسه ببطء تجاهها وسألها بابتسامة باهتة: «هل تعتقدين هذا حقًّا؟».

- نعم، لا بد أن نذهب. هو سيد الدماء.

أبعدت عينيها عنه، فقال دامون چوليان: «انظري إليَّ يا سينثيا».

ببطء رفعت رأسها مرة أخرى حتى التقت عيناها عينيه وهمست: «لا، أرجوك... أرجوك».

لم يقل دامون چوليان شيئًا، ولم تبعد سينثيا عينيها عنه، بل انزلقت عن مقعدها وركعت على البساط ترتجف، فلمع سوار ذهبي مزين بحجر الأميثست حول رسغها. أزاحته جانبًا، وانفرجت شفتاها ببطء كأنها على وشك الحديث، ثم رفعت رسغها ولامست به شفتيها، فسال الدم.

انتظر چوليان حتى زحفت عبر البساط بيدها ممتدة نحوه. في حزن أمسك رسغها، وشرب. عندما انتهى، قامت سينثيا مترنحة، فسقطت مرتكنة على ركبتها، ثم قامت مرة أخرى ترتجف. قالت برأس مُنكَّس: «سيد الدماء... سيد الدماء».

شفتا دامون چوليان مبتلتان حمراوان، وقطرة دم صغيرة تسيل على جانب فمه. أخرج چوليان منديلًا من جيبه، ومسح خيط البلل عن ذقنه، ثم طواه بعناية ووضعه في جيبه. سأل بيلي: «هل الباخرة ضخمة؟».

أغمد بيلي سكينه باحترافية خلف ظهره وهو يبتسم؛ جرح سينثيا، والدماء على ذقن چوليان أثارته. فكر في أن چوليان سيذيق أهل هذه الباخرة الويل.

- أكبر من أي باخرة أخرى رأيتها، هي أيضًا أنيقة للغاية. الفضة والمرايا والرخام والأبسطة الفاخرة والزجاج الملون في كل مكان. ستعجبك يا سيدي چوليان.

قال دامون چوليان متأملًا: «باخرة... لماذا لم أفكر في النهر من قبل؟ المزايا واضحة للغاية».

سأل كُرت: «إذًا سنذهب؟».

- أجل، بالطبع سنذهب. لقد أرسل سيد الدماء في طلبنا. الملك!

رفع رأسه ضاحكًا ضحكة مدوية كالزئير، وصاح بعد كل شهيق وآخر: «الملك! الملك!».

وبدأ الحاضرون واحدًا تلو الآخر يضحكون معه.

انتفض چوليان واقفًا فجأة كنصل سكين زُنبركي، وبهت وجهه مرة أخرى، فانقطعت الضحكات فجأة كما بدأت فجأة. حدق إلى الظلام خلف الفندق وقال: «لا بد أن نأخذ معنا هدية. لا يدخل المرء على ملك دون هدية». ثم استدار نحو بيلي الشرس وأضاف: «غدًا تقصد شارع مورو يا بيلي. ثمة ما أريدك أن تجلبه لي. هدية صغيرة لملكنا الشاحب».

***

سبعة عشر

على متن الباخرة حلم فيفر
نيو أورلينز
أغسطس 1857

بدا الأمر لأبنر مارش كأن نصف بواخر نيو أورلينز قد قررت المغادرة في الظهيرة نفسها. كان واقفًا في الطابق العلوي يشاهد مغادرتها.

جرت العادة أن تقلع البواخر المتجهة إلى أعالي النهر من المرفأ في الخامسة مساءً. في الثالثة يجهِّز المهندسون المحركات، وتُوقَد الأفران، ويتصاعد البخار من المداخن. تُلقى أفرع الأشجار والأخشاب والفحم في أفواه البواخر الجائعة، فيعلو الدخان الأسود من المداخن ذوات الفوهات المزخرفة بنقش الأزهار نحو السماء، علامة الوداع. تصطف في المرفأ أربعة أميال من البواخر المتجاورة، تنبعث منها سحب كثيفة داكنة، تحوم على ارتفاع بضع أقدام فوق نهر فيڤر. تتضخم السحب وتنتفخ، وما زالت البواخر المغادرة تتزايد، فتحجب الشمس وتجثم فوق المدينة نفسها.

من حيث يقف أبنر مارش عاليًا فوق سطح الباخرة العلوي، تبدو له مدينة نيو أورلينز كأنما تشتعل، وتفر منها السُّفُن. جعله المنظر يشعر بالضيق، كأن القباطِنة الآخرين أحاطوا علمًا بما لا يعلمه، وكأن المفترض أن تغادر حلم فيڤر فرارًا هي الأخرى. رغب مارش في الرحيل سريعًا. رغم ثراء نيو أورلينز وتنوع تجارتها، تاق مارش إلى الأنهار التي يألفها؛ وإلى أعالي المسيسبي بغاباتها وساحات أخشابها، وإلى نهر ميزوري الموحل الذي يلتهم البواخر ولا يعبأ بأحد، وإلى نهر أوهايو الضيق، وإلى فيڤر المزدحم. رحلة حلم فيڤر إلى جنوب نهر أوهايو بدت له الآن مُعطِّلة مملة، وذكرى لأيام مريرة. لم يمر سوى شهرين، شعر كأنهما دهر. منذ غادروا سانت لويس واتجهوا نحو

المَصَب، تدهورت الأحوال، وكلما نزلوا جنوبًا، ازدادت الأوضاع سوءًا. غمغم مارش إلى نفسه وهو ينظر إلى نيو أورلينز: «چوشوا على صواب. ثمة شيء ما عَفِن هنا».

كان الجو قائظًا، رطبًا، ملوثًا بالحشرات التي تدفع المرء للإيمان بأنها لعنة حلَّــت على المكان. ربما هذا صحيح جزاءً للعبودية، لكن مارش لم يكن واثقًا من هذا، وكل ما يعرف الآن هو أنه يرغب بشدة في أن يأمر الأشيب بتجهيز الغلايات، ويصعد إلى فرام وأولبرايت فيطلب منهما الإبحار بحلم فيڤر إلى الشمال الآن، وقبل الغروب. قبل *وصولهم*.

رغب مارش في أن يصرخ بتلك الأوامر حتى شعر بمذاق الكلمات غير المنطوقة مُرَّة على لسانه. أحس بتطيُّر مرعب تجاه الليلة رغم أنه كرر لنفسه مرارًا أنه رجل لا يتطير، لكنه ليس أعمى كذلك؛ السماء داكنة خانقة، وفي الغرب تتكون عاصفة هائلة مُقتَلِعة؛ العاصفة التي حذر منها دان أولبرايت منذ يومين. والبواخر تُقلِع واحدة تلو الأخرى، عشرات منها يراها مارش تتراجع شمالًا وتختفي خلف تموجات الحرارة، فشعر بوحدة متزايدة، وكأن كل باخرة تتلاشى في الأفق تحمل معها جزءًا من نفسه، وشيئًا من شجاعته، وبعضًا من إيمانه وأمله.

تغادر كثير من البواخر ميناء نيو أورلينز يوميًّا، واليوم كغيره، مجرد يوم من أيام النهر في أغسطس. حار مدخن كسول. كل شيء يتحرك ببطء، ربما ينتظر نسمة باردة، أو أمطارًا نظيفة تغسل عن السماء الدخان.

لكن جزءًا آخر من نفسه، جزء أعمق وأكثر خبرة، يعرف أن ما ينتظرهم ليس باردًا أو نظيفًا، ولن يجلب لهم راحة من الحر أو الرطوبة أو الخوف.

بالأسفل يزأر مايك المشعِر في حمَّاليه، ويلوح لهم بعصاه الحديدية السوداء مُهدِّدًا، لكن ضوضاء المرفأ، وأجراس البواخر المغادرة وصافراتها أغرقت خواطره.

تنتظر على اليابسة حمولات ضخمة تزن آلاف الأطنان، قد تملأ سعة حلم فيڤر، وقد حمَّلوا ربعها بالكاد، وسيحتاجون إلى ساعات لتحميل الباقي. حتى لو أراد، فلن يستطيع مارش الفرار، ليس وكل هذه الحمولة على الأرض بعد. سيظن مايك المُشعر وچيفرز وباقي الرجال أنه قد فقد عقله.

تمنى لو أن في استطاعته إخبارهما كما انتوى، كي يخطط للأمر معهما، لكن لا وقت. تسارعت الأحداث فجأة، وبعد غروب الليلة سيأتي دامون چوليان هذا ليشاركهم العشاء على متن حلم فيڤر. لا وقت لإخبار چيفرز والمُشعِر، ولا وقت للشرح ولا للإقناع ولا للتعامل مع الشكوك والأسئلة التي سيطرحانها حتمًا. لذا، سيكون أبنر مارش وحده الليلة. هو وچوشوا فقط في قاعة تكتظ بهم؛ أناس الليل. مارش لا يرى يورك مثلهم. هو مختلف بشكل ما، وقد أكد له چوشوا أن كل شيء سيمر على خير، فشرابه معه، وهو مسلح بكلماته المعسولة وأحلامه... لكن لمارش مخاوفه.

حلم فيڤر هادئة، خاوية تقريبًا. أرسل چوشوا كل الرجال إلى الشاطئ. عشاء الليلة خاص. لم يعجب مارش هذا القرار، لكن لا مجال لمناقشة يورك عندما يعزم على شيء. لم توقَد المصابيح بعد، والدخان والبخار والعاصفة القادمة تآمروا على إعتام أي ضوء قد يصل إليهم من السماء. بدا لمارش أن الغروب قد حل بالفعل على القاعة الكبرى وعلى باخرته. بدت الأبسطة دكناء، والمرايا مغطاة بالظلال. خلف المشرب الرخامي الأسود رجل ينظف الكؤوس، لكنه بشكل ما باهت مُتماهٍ مع الظلام. أومأ إليه مارش مُحييًا على أي حال، واتجه إلى المطبخ في الخلف. وراء بابه وجد نشاطًا كبيرًا؛ اثنين من مساعدي توبي يقلبون ما في وعاء طهي ضخم، ويقلون الدجاج، بينما النُدُل يجولون ويتمازحون. شمَّ مارش فطائر تُخبَز في الأفران الهائلة، فسال لعابه، لكنه تجاهل الجوع واتجه إلى مقصده. وجد توبي في المخزن، محاطًا بأقفاص الدجاج والحمام والبط وغير ذلك، تصدر عنها أصوات نقنقة مريعة. رفع توبي رأسه عند دخول مارش، وكان يذبح بعض الدجاج. ثلاثة طيور مقطوعة الرأس مكومة عند كوعيه، والرابع أمامه يرفرف ويصارع، وتوبي يمسك ساطورًا. قال مبتهجًا: «مرحبًا يا كابتن».

أنزل الساطور بخفَّة، فأصدر صوتًا مكتومًا وهو يقطع عنق الدجاجة وتنتثر دماؤها، ثم يُطلقها لترفرف في جنون. يداه الخشنتان مغطاتان بالدماء. مسحهما في مريولته وأضاف: «كيف أخدمك؟».

- أردت فقط أن أطلب منك مغادرة الباخرة بعد تقديم العشاء الليلة، وخذ معك مساعديك والنُّدُل. مفهوم؟ هل تسمع ما أقول؟

أجاب توبي باسمًا: «بالـتأكيد يا كابتِن. سأرحل بالتأكيد. لديكم حفل صغير، أليس كذلك؟».

- لا تشغل بالك بهذا. فقط انزل إلى الميناء بعدما تنهي عملك.

ثم استدار بوجه متجهم ليرحل، لكن خطر له خاطر آخر فقال: «توبي».

- نعم يا سيدي.

- تعرف أنني أكره العبودية، لكنني لم أفعل ما يُظهِر هذا، وكنت لأفعل لولا أن مناهضي العبودية اللعينين أبواق دين مزعجون. أنا فقط كنت أفكر في أن لديهم حقًّا بشكل ما، فلا يمكن أن يستغل المرء صنفًا آخر من الناس على أنهم ليسوا بشرًا على الإطلاق. هل تعرف ما أعنيه؟ سينتهي هذا الوضع عاجلًا أو آجلًا، والأفضل لو ينتهي بسلام، لكن لا بد أن ينتهي حتى لو بالنار والدم. هل تفهم؟ ربما هذا ما ينادي به مناهضو العبودية. يجب أن يتحلى المرء بالعقل، هذا صحيح، لكن لو لم ينفع العقل، لا بد أن يكون الواحد منا مستعدًّا. يجب أن ينتهي كل هذا التشوه.

كان توبي ينظر إليه نظرة غريبة، وهو شارد الذهن يمسح يديه في مريولته، ويحركهما للأمام وللخلف. قال في هدوء: «أنت تتكلم مثل كارهي العبودية يا كابتِن. هذه بلاد عبيد يا كابتِن، وقد يقتلونك لو سمعوا منك هذا الكلام».

- ربما يا توبي، لكن الحق حق، وهذا ما أقول.

- أنت أحسنت كثيرًا لتوبي العجوز يا كابتِن مارش. لقد منحتني حريتي وكل شيء لأطهو لك. أنت فعلت شيئًا حسنًا.

أومأ أبنَر مارش وقال: «توبي... لماذا لا تذهب وتجلب لي سكينًا من المطبخ؟ لا تخبر أحدًا بهذا، مفهوم؟ اجلب لي سكينًا حادة يمكنني إخفاؤها في حذائي. هل يمكن أن تفعل هذا؟».

زمَّ توبي عينيه وهو يقول: «أجل يا كابتِن مارش. تحت أمرك».

ثم هرع يُلبي الطلب.

جال أبنَر مارش في أرجاء الباخرة شاردًا الساعتين التاليتين، وسكين مطبخ طويلة مُخبأة داخل رقبة حذائه. بحلول الظلام كان قد اعتاد ملمس السكين بل واطمأن به، ثم نسي كل شيء عن وجودها.

وصلت العاصفة قُبيل الغروب، وبعدما غادرت أغلب البواخر إلى الشمال، وحلَّت محلها أخرى في ميناء نيو أورلينز. بدأت العاصفة بزئير مرعب كأنه

صوت انفجار غلايات باخرة، وومض البرق فوق الرؤوس، وانهمر المطر مدرارًا. وقف مارش أسفل سقف طابق الغلايات، يستمع إلى صوت المطر يضرب باخرته، ويشاهد الناس عند المرفأ يهرعون بحثًا عن مخبأ. ظل واقفًا مكانه وقتًا طويلًا، مُستندًا إلى السور، يفكر. فجأة ظهر چوشوا يورك إلى جواره. قال مارش وهو يشير بعصاه إلى العاصفة: «إنها تُمطر، وربما لن يأتِي چوليان هذا الليلة. ربما لن يرغب في أن يبتل».

كان يورك واجمًا متجهمًا، ولم يقُل سوى: «سيأتي. سيأتي».

ثم جاء أخيرًا.

كانت العاصفة قد هدأت قليلًا وقتها، لكن زخات مطر بسيطة استمرت، وكان أبنر مارش واقفًا بعد في مكانه ورآهم قادمين، يمشون عبر الميناء المهجور المبتل. عرف أنهم هم حتى مع المسافة الطويلة. ثمة ما يميز مشيتهم كأنهم ضواري تختال مهابة وجمالًا. واحد منهم فقط كان يحاول تقليد مشيتهم ولم يفلح، فظل ينزلق ويترنح. عندما اقتربوا أكثر تبيَّن مارش أنه بيلي تيبتون الشرس، يحمل شيئًا.

دلف أبنَر مارش إلى القاعة الكبرى، ورأى الآخرين مجتمعين حول الطاولة؛ سيمون وكاثرين، وسميث وبراون، ورايموند وچين وڤاليري، وكل من جمعهم چوشوا في خلال رحلته على طول النهر. كانوا يتحدثون بهدوء، لكنهم صمتوا عندما دخل مارش. قال الأخير: «لقد وصلوا». فقام چوشوا يورك من مقعده على رأس الطاولة، وخرج لمقابلتهم. ذهب أبنر مارش إلى المشرب وصب لنفسه ويسكي، أفرغها في حلقه سريعًا، وأتبعها بأخرى، ثم عاد إلى الطاولة. كان چوشوا قد أصر على أن يجلس مارش عن يساره، أما المقعد الأيمن فخصصه لدامون چوليان.

ارتمى مارش على المقعد، وحدق إلى الموضع الخالي أمامه.

ثم دخلوا.

لاحظ مارش أن أربعة من أناس الليل فقط هم من دخلوا القاعة، وتركوا بيلي الشرس في مكان ما بالخارج. هذا حقًّا قَدْره. من الأربعة امرأتان، ورجل ذو وجه أبيض عابس يهز جسده لينثر ماء المطر بعيدًا عن معطفه، والرابع هو. تعرفه مارش على الفور. وجهه لا يبين عمره، وشعره المموج الأسود يحيط به كإطار. بدا كأنه نبيل أو سيد ببدلته البُنية الداكنة، وقميصه

الحريري ذي الكشكشات على صدره، وخاتمه الذهبي بفص الزفير الأزرق في حجم مكعب سكر، والدبوس المثبت إلى سترته والمرصع بألماسة ضخمة. عبر الغرفة ثم دار من حول الطاولة ليقف خلف مقعد چوشوا، ويضع يديه البيضاوين الناعمتين على ظهر المقعد، ثم نظر إلى الحاضرين واحدًا تلو الآخر.

فقاموا واقفين.

قام الثلاثة الذين جاءوا معه أولًا، ثم رايموند أورتيجا، ثم كارا، ثم الباقون، وكانت ڤاليري آخرهم. وقف كل من بالقاعة إلا أبنر مارش. ابتسم دامون چوليان ابتسامة دافئة ساحرة وقال: «كم هو رائع الاجتماع بكم مرة أخرى».

ثم نظر إلى كاثرين مضيفًا: «عزيزتي، كم من أعوام مرَّت؟ كم من أعوام طوال مرَّت؟».

الابتسامة التي أضاءت وجهها الشبيه بوجه النسر كانت مرعبة. قرر مارش أن يتولى زمام الأمور، فصاح وهو يجذب كُم دامون چوليان: «اجلس. أنا جائع، وقد انتظرت العشاء وقتًا كافيًا».

قال چوشوا: «حسنًا».

وكأنما انكسرت التعويذة، جلس الجميع، لكن چوليان جلس على مقعد چوشوا عند رأس المائدة. وقف الأخير عند رأس چوليان وقال بصوت مُسطَّح: «أنت تجلس على مقعدي. هذا مقعدك يا سيدي، لو سمحت انتقل إليه».

أشار يورك إلى المقعد المجاور وعيناه مثبتتان إلى عيني دامون چوليان، ورأى مارش القوة والسلطة والإصرار في عيني شريكه. ابتسم دامون چوليان وقال بهدوء: «آه... معذرة». ثم انتقل إلى المقعد المجاور دون أن ينظر إلى يورك لحظة.

جلس چوشوا متصلبًا، وأشار في غير صبر، فجاء النادل مسرعًا ووضع زجاجة على الطاولة أمام يورك. قال الأخير: «لُطفًا، غادر الغرفة».

لم تكن على الزجاجة علامات، وبدت داكنة مُهَدِّدة أسفل الثريات المتلألئة بالكريستال والفضة. قال چوشوا يورك لدامون چوليان بنبرة خالية من التعبير: «أنت تعرف ما هذا».

- نعم.

مد يورك يده وأمسك كأس چوليان وأترَعَها بالسائل حتى حافتها، ثم أمره: «اشرب».

تسمَّرت عينا يورك على عيني چوليان الذي حدق إلى الزجاجة وشبح ابتسامة يتراقص على رُكني فمه، كأنه يخفي استمتاعه. عمَّ الصمت القاعة الكبرى، وسمع مارش من بعيد صافرة باخرة تستغيث وسط المطر. بدت اللحظة كأنما تمتد إلى الأبد.

مد دامون چوليان يده وأمسك الكأس، وشرب. أفرغ السائل على مرة واحدة طويلة، كأنه يشرب كل التوتر حبيس القاعة.

ابتسم چوشوا، ونخر أبنر مارش، وعلت همهمات متعجبة حيرى من نهاية الطاولة. صبَّ يورك ثلاث كؤوس أخرى لمرافقي چوليان الثلاثة، فشربوا، وبدأت المناقشات بين الجلوس هامسة.

ابتسم دامون چوليان لأبنر مارش وقال: «باخرتك مثيرة للدهشة يا كابتِن مارش. أتمنى أن يكون الطعام في المستوى نفسه».

أجاب مارش: «الطعام أفضل».

شعر مارش كأنه عاد إلى نفسه مرة أخرى عندما بدأ النُّدُل يقدمون الوليمة التي أعدَّها توبي. أكل الجميع مدة ساعة، أظهر أناس الليل خلالها أناقة ولباقة، لكن شهيتهم تضاهي شهية رجال النهر، فأتوا على الطعام كثُلَّة حمَّالين جائعين. أكل چوليان ببطء ورقَّة، وتوقف من وقت لآخر ليرشف الخمر، ويبتسم دون سبب واضح. مَسَح مارش طبقه الثالث بينما ظل طبق چوليان نصف ممتلئ. زال توتر الحديث، وتبادل الجالسون بعيدًا كلمات هامسة لم يتبينها مارش، وبالقرب منه تبادل چوشوا يورك ودامون چوليان بضع عبارات عن العاصفة والحرارة والنهر وحلم فيڤر، ولم يهتم مارش بما يقولون إلا عندما ذكروا باخرته، فقد كان يصب كل تركيزه على طبقه.

أخيرًا قُدِّمت القهوة والبرندي، ثم انصرف النُّدُل، وخلت قاعة الباخرة الكبرى إلا من أبنر مارش وأناس الليل. شرب مارش من كأسه، ثم أدرك وهو يسمع صوت رشفاته أن كل الحديث بين الحضور قد توقف. قال چوشوا بصوت هادئ: «نحن معًا أخيرًا. وهذه بداية جديدة لنا، نحن أناس الليل. يمكن أن يطلق الذين يعيشون نهارًا على هذه البداية «الفجر الجديد».

ثم ابتسم وأضاف: «بالنسبة إلينا، سيلائمنا اسم «الغروب الجديد» أكثر. اسمعوا جميعًا. دعوني أحدثكم عن خطتي».

ثم قام وبدأ حديثه الحماسي.

لا يعرف مارش كم استمرت خطبته، فقد سمعها كلها من قبل كل هذا الحديث عن التحرر من الظمأ الأحمر، وإنهاء الخوف، والثقة بين الليل والنهار، وما يمكن تحصيله من الشراكة، والعهد الجديد المشرق. استمر چوشوا في كلامه، وامتلأت خطبته بالتعبيرات الأنيقة وأبيات الشعر. التفت مارش أكثر إلى متابعة الآخرين، إلى الوجوه الشاحبة المصطفة حوله. كلهم يحدقون إلى چوشوا، كلهم ينصتون في صمت. بدا سيمون متحفزًا وظل ينقل عينيه من يورك إلى چوليان وبالعكس، أما باقي الأوجه فكانت خاوية يصعب قراءتها. ابتسم رايموند أورتيجا في خبث، وعبَس كُرت الضخم، وبدت ڤاليري متوترة، وكسا وجه كاثرين النحيف القاسي نظرة كراهية أجفل مارش لرؤيتها.

ثم نظر مارش عبر الطاولة إلى حيث جلس دامون چوليان، فوجده يحدق إليه. عيناه سوداوان قاسيتان، لامعتان كقطعتي فحم نقي. رأى مارش فيهما هاوية بلا قاع، فراغ يوشك على التهامهم جميعًا. أبعد عينيه عنه، وعزم على ألا يحدق إليهما أبدًا كما حدق إلى عيني چوشوا يورك بحُسن نية عندما التقيا في خان بيت المزرعة. ابتسم چوليان ونظر إلى چوشوا وهو يشرب قهوته الباردة وينصت. لم تعجب أبنر مارش تلك الابتسامة ولا عمق هاتين العينين، فباغتته الخوف مرة أخرى.

وأخيرًا انتهى چوشوا وجلس. قال چوليان في سرور، وصوته الهادئ يسري عبر القاعة: «الباخرة فكرة جيدة، وربما لشرابك استخدامات من وقت لآخر، أما الباقي يا عزيزي چوشوا، انسَه».

كانت نبرة صوته ساحرة، وابتسامته مسترخية عبقرية.

شهق أحد بقوة، لكن لم يجرؤ أحد على الكلام. استقام ظهر أبنر مارش في جلسته، عبس چوشوا.

- معذرة؟

أشاح چوليان بيده في استخفاف وقال: «تُحزنني قصتك يا عزيزي چوشوا. لقد تربيت وسط القطيع، والآن تفكر كواحد منهم. الخطأ ليس خطأك بالطبع. ستتعلم في الوقت المناسب، وستحتفي بطبيعتك الحقيقية. لقد أفسدتك تلك

الحيوانات الصغيرة التي عشت معها، وملؤوا عقلك بقيمهم وأديانهم التافهة وأحلامهم المجنونة».

هتف چوشوا غاضبًا: «ماذا تقول؟».

لم يُجب چوليان مباشرة، بدلًا عن ذلك استدار نحو مارش وقال: «كابتِن مارش. الشواء الذي استمتعت بالتهامه لتوِّك كان جزءًا من حيوان حي. لو افترضنا أن هذا اللحم قادر على الكلام، هل سيعترض؟».

عيناه الحادتان السوداوان معلقتان بعيني مارش تطالبان بإجابة.

- أنا... اللعنة، لا... لكن...

- لكنك أكلته على أي حال، أليس كذلك؟

ثم ضحك چوليان وأضاف: «بالتأكيد فعلت يا كابتِن. ألا تشعر بالخزي لذلك؟».

- لا أشعر بالخزي. هذا الشواء ليس إلا جزءًا من بقرة.

- بالطبع. القطيع قطيع.

ثم نظر إلى چوشوا يورك وأكمل: «لكن القطيع قد يرى الأمر على نحو مختلف، ورؤيتهم لا تعني شيئًا لكابتِن مارش. هو كيان أسمى من بقرته، وطبيعته القتل والالتهام، وقَدَر هذه البقرة أن تُذبح وتؤكَل. هل ترى يا چوشوا كم أن الحياة بسيطة حقًّا؟ تنبع أخطاؤك من تربيتك وسط الأبقار التي علَّمتك ألا تلتهمها. تتكلم عن الشر؟ أين تعلمت عن هذا المفهوم؟ من القطيع ولا شك. الخير والشر؛ هذه كلمات القطيع الفارغة التي تهدف للحفاظ على حيواتهم التافهة. يعيشون ويموتون في ذعر منًّا، نحن الأعلَون. نحن نسكن أحلامهم حتى، لذا يجدون عزاءهم في الأكاذيب، ويختلقون آلهة لها سلطة علينا، ويرغبون في الإيمان بأن الصلبان والماء المقدس قادرون بشكل ما على إخضاعنا. لا بد أن تفهم يا عزيزي چوشوا أن لا وجود للخير والشر، لا يوجد سوى القوة والضعف، السادة والعبيد. أنت مريض بأعمارهم المحدودة، وبالشعور بالذنب والخزي تجاههم. كم أن هذا حمق. هذه كلماتهم هم، لا كلماتنا. أنت تتكلم عن البدايات الجديدة، لكن أي شيء نبدأ؟ نبدأ في التحول إلى قطيع؟ نبدأ في الاحتراق تحت شمسهم، والركوع لآلهتهم؟ لا، ما هم إلا حيوانات، طعامنا الطبيعي، فريستنا العظيمة الجميلة. هكذا تجري الأمور حقًّا».

قال چوشوا يورك: «لا». ثم دفع مقعده إلى الخلف ووقف عند رأس الطاولة كأنه جالوت شاحب نحيف. هتف: «بل هم يفكرون، ويحلمون، وقد بنوا عالمًا يا چوليان. أنت مخطئ. نحن أبناء عمومة، وجها عملة واحدة. هم ليسوا فريسة. انظر إلامَ فعلوا! لقد جلبوا الجمال للعالم. ماذا صنعنا نحن؟ لا شيء. لا شيء سوى لعنة الظمأ الأحمر».

زفر دامون چوليان ثم قال وهو يرتشف البراندي: «آه، يا لك من مسكين يا چوشوا. دع القطيع يخلق... الحياة، الجمال، كل ما يريد، وسوف نسلبهم خَلقهم ونستخدمه، وربما ندمره لو شئنا. هذه هي سُنَّتنا. نحن السادة، والسادة لا يعمَلون. دعهم يصنعون البدلات لنرتديها نحن. دعهم يبنون البواخر لنركبها معهم. دعهم يحلمون بالحياة الأبدية، لنحياها نحن، ونشرب من حيواتهم، ونقتات على دمهم. نحن أسياد هذه الأرض، وهذا ميراثنا. مصيرنا يا عزيزي چوشوا. اخضع لطبيعتك يا چوشوا ولا تسعَ لتغيرها. مِن القطيع مَن يعرفنا بحق ويحسدنا، وأي واحد منهم لو خُيِّر لاختار أن يكون منا».

ابتسم چوليان في خبث مردفًا: «ألم تتساءل قَط لماذا أمر مسيحهم يسوع أتباعه بأن يشربوا دماءه إن كانوا يبغون الخلود؟ إنهم يتحرقون إلى أن يكونوا مثلنا، كما يحلم السود بأن يكونوا بِيضًا. هل ترى تماديهم؟ كي يصيروا سادة استعبدوا أبناء جنسهم».

قال چوشوا يورك: «كما تفعل بالضبط يا چوليان. ماذا تُطلق على سيطرتك على قومنا؟ حتى أولئك الذين يدَّعون أنهم سادة، تستعبدهم لتلبية رغباتك الملتوية».

- حتى نحن يا عزيزي چوشوا بيننا الضعيف والقوي، وطبيعي أن يتولَّى الأقوى القيادة.

وضع دامون چوليان كأسه على المنضدة ونظر إلى آخر المائدة وقال: «كُرت، استدعِ بيلي».

أجاب الرجل الضخم وهو يقوم واقفًا: «أجل يا دامون».

سأله چوشوا وهو يخرج من القاعة، وانعكاس صورته يتكرر على المرايا العديدة: «إلى أين أنت ذاهب؟».

قال چوليان: «لقد عشت على أنك واحد من القطيع فترة طويلة يا چوشوا، والآن سأعلمك معنى أن تكون سيدًا».

شعر أبنر مارش بالبرودة والخوف. كل الأعين في الغرفة زجاجية، ثابتة، تراقب ما يحدث عند رأس المائدة. بدا چوشوا يورك وهو واقف كأنه برج يُطل على الجالس دامون چوليان، لكن بشكل ما لم يكن يفرض سيطرته. عينا چوشوا الرماديتان قويتان متعاطفتان كما لأعين الرجال أن تكون، لكن چوليان ليس رجلًا على الإطلاق.

عاد كُرت بعد أقل من لحظة، لا بد أن بيلي الشرس كان يقف خارج القاعة مباشرة، كعبد ينتظر أوامر سيده. جلس كُرت في مكانه مرة أخرى، واتجه بيلي تيبتون الشرس رأسًا إلى حيث سيده وهو يحمل شيئًا، والحماسة الغريبة تظهر في عينيه الثلجيتين.

أبعد دامون چوليان الصحون جانبًا، مُفسحًا مكانًا على الطاولة، فأنزل بيلي الشرس حمولته؛ رضيع أسمر ملفوف في شرشف، ودفعه نحو چوشوا يورك.

زأر مارش: «ما هذا بحق الجحيم؟!».

دفع مقعده عن الطاولة وهو يحدق إلى ما أمامه، وشرع بالوقوف، لكن بيلي الشرس قاطعه بصوت هادئ بارد: «اجلس والزم الهدوء يا وَلد».

همَّ مارش بالالتفاف نحوه، لولا شعر بشيء بارد حاد للغاية ينضغط على جانب عنقه. قال بيلي: «افتح فمك وسأشُق رقبتك. هل تتخيل ماذا سيفعلون عندما يرون كل هذا الدم الحار اللذيذ؟».

وقع مارش بين مطرقة الهياج وسندان الرعب، فارتجف وجلس ثابتًا. انغرز سِن سكين بيلي أكثر، وشعر مارش ببلل دافئ يسيل إلى ياقته. همس بيلي: «ممتاز».

نظر چوشوا يورك سريعًا نحو مارش، ثم أعاد انتباهه إلى چوليان ببرود: «أرى أن هذا الفعل لا يليق يا چوليان. لا أعرف لماذا جلبت هذا الرضيع إلى هنا، لكن هذا تصرف لا يعجبني. هذه اللعبة ستنتهي الآن. مُر رجلك أن يبعد سكينه عن حلق الكابتِن».

قال چوليان: «وماذا لو لم أفعل؟».

- ماذا لو لَم تفعل؟ أنا سيد الدماء.

- حقًّا؟

- نعم، ولا أحب أن أستخدم أساليبك يا چوليان، لكن لو اضطررت إلى ذلك سأفعل.

- آه...

ابتسم چوليان، ثم وقف وتمطَّى في كسل كقط أسود ضخم استيقظ لتوه من غفوة، ثم مد يده عبر الطاولة إلى بيلي الشرس وقال: «بيلي، أعطني هذا السكين».

- لكن... ماذا عنه؟

- سيلزم كابتِن مارش الأدب. السكين؟

فأعطاه إياها بيلي مُقدِّمًا مقبضها. قال چوشوا: «لا بأس...».

ولم يكمل، إذ أصدر الطفل الضئيل العاري داكن البشرة صوت غرغرة وتململ في ضعف، فارتكب دامون چوليان أفظع ما رأى أبنر مارش في حياته. مال نحو الطاولة بخفة وسرعة، وقطع يد الرضيع البنية بسكين بيلي، وبضربة واحدة.

صرخ الطفل، وتدفقت الدماء على الطاولة لتغرق قواعد الكؤوس البلورية وأدوات المائدة الفضية والشرشف الأبيض الراقي. ركل الرضيع الهواء بقوة، فتدفقت الدماء أكثر واحتشدت في بركة. ثبَّت چوليان يد الرضيع المقطوعة التي لا يجاوز حجمها حجم إبهام قدم مارش على سن سكين بيلي، ورفعها وهي تقطر أمام عيني چوشوا يورك، وأمره بصوت خلا من أي تباسُط: «اشرب».

ضرب يورك السكين، فسقطت من يد چوليان والكف مثبتة بعد إلى طرفها، وهوت على بعد ستة أقدام من البساط. بدا چوشوا كملاك الموت، وهو منحنٍ على الرضيع، يضغط بإصبعيه جانبي معصمه حتى توقف النزف. أمر: «ائتوني بحبل».

لم يتحرك أحد، وظل الرضيع يصرخ. قال چوليان: «ثمة طريقة أسهل لإسكاته».

وضع يده الشاحبة وكتم بها أنفاس الرضيع. غطت كفاه رأسه بالكامل، وحجبت أي صوت. ثم ضغط چوليان أكثر.

صاح يورك: «اتركه!».

- انظر إليَّ. انظر إليَّ يا سيد الدماء.

وتلاقت عيناهما وهما منحنيان على الطاولة، يد كل واحد منهما على جزء بني صغير من الإنسانية أمامهما.

ظل أبنر مارش جالسًا محله، مصدومًا، مشمئزًّا، غاضبًا، يريد أن يفعل شيئًا لكن بشكل ما عاجز عن الحركة، مثله كمثل كل الجالسين. ظل يحدق إلى يورك وچوليان، إلى صراع الإرادتين الصامت العجيب.

كان چوشوا يورك يرتجف، شفتاه مزمومتان غضبًا، وأوتار عنقه مشدودة، وعيناه الرماديتان باردتان عاتيتان كعاصفة جليدية. وقف مكانه كإله شاحب حانق، مكسو بالأبيض والأزرق والفضي. فكَّر مارش في أنه لا يمكن لأي شيء أن يتحمَّل كل هذه الإرادة والقوة.

مستحيل.

ثم نظر إلى دامون چوليان.

عيناه تسيطران على وجهه، باردتان، سوداوان، خبيثتان، راسختان. نظر أبنر مارش إلى هاتين العينين أكثر من لحظة، فشعر بالدوار. سمع رجلًا يصرخ من مكان بعيد، وفمه دافئ بطعم الدماء. رأى كل الأقنعة التي تحمل أسماء دامون چوليان، وچيليس لامونت، وجيلبرت دَكوين، وفيليب كَين، وسيرچي أليكسوڤ، وآلاف أخرى، كلما سقط قناع حل محله آخر أكثر ضراوة من سابِقه، حتى وصل إلى النهاية، الشيء بلا سحر أو ابتسامة أو كلمات منمقة أو ملابس ومجوهرات باهظة. الشيء الذي يخلو من كل إنسانية، ولا صلة له بها. المسخ الذي لا شيء لديه إلا الظمأ والحُمى، والأحمر العتيق المخيف. المخلوق البدائي غير البشري، فائق القوة، الذي يعيش ويتنفس ويشرب الخوف الخام، وكان قديمًا، أوه، قديمًا للغاية، أقدم من البشر وكل ما أنجزوا. أقدم من الغابات والأنهار، أقدم حتى من الأحلام.

رمش أبَنر مارش، ولم يرَ أمامه إلا حيوانًا. حيوان وسيم أنيق، ولا شيء فيه من البشرية. تجاعيد وجهه دروب الخوف، وعيناه حمراوان لا سوداوان. حمراوان متوهجتان مشتعلتان ظمآنتان.

ترك چوشوا يورك رسغ الرضيع، فاندفع الدم منه يغرق الطاولة، وبعد لحظة ملأ القاعة صوت تهشم بشع.

ظل أبنر مارش مأخوذًا، لكنه انحنى ليُخرج السكين من حذائه، وقام يصرخ مُشهرًا سلاحه. حاول بيلي الشرس إمساكه من الخلف، لكن مارش كان أقوى منه وأكثر غضبًا. دفع بيلي جانبًا، ورمى جسده عبر الطاولة نحو دامون چوليان. تشتت تركيز چوليان عن عيني يورك في الوقت المناسب، وتراجع إلى الخلف، فأخطأت السكين عينه بالكاد، وجرحت خده الأيمن جرحًا طوليًّا. نز الدم من الجرح، وأنَّ چوليان أنَّة مكتومة كأنها زئير.

ثم أمسك أحدهم مارش من الخلف، وجرَّه عن الطاولة، ثم طوَّح جسده الذي يربو وزنه على ثلاثمائة رطل عبر القاعة، كأنه طفل صغير. ارتطم بشيء حاد، لكن مارش تدحرج سريعًا وقام واقفًا.

كان چوشوا هو من ألقاه بعيدًا، وكان يقف بالقرب منه الآن، يداه الشاحبتان ترتجفان، وعيناه تفضحان خوفه. صاح فيه: «اهرب يا أبنر. غادر الباخرة... اهرب!».

قام الحضور من مجالسهم حول الطاولة، بوجوه بيضاء وأعين محدقة وقبضات قوية. كانت كاثرين تبتسم له الابتسامة ذاتها التي رآها على سحنتها يوم صادفها وهو خارج من غرفة چوشوا. ارتجف سيمون العجوز، وتحرك نحوه براون وسميث ببطء، يحيطانه بأعين عدائية. كان الكل يتحرك، الكل. دار دامون چوليان حول المنضدة بلا صوت، والدم يتجلط على خده، والجرح يندمل أمام عيني مارش. نظر الأخير إلى يديه، واكتشف أنه فقد السكين. تراجع إلى الخلف خطوة خطوة حتى لامس ظهره الحائط المغطى بالمرايا.

كرر چوشوا: «اهرب يا أبنر».

فتح مارش الباب، وتراجع إلى الغرفة خلفه، ورأى چوشوا يوليه ظهره ويحول بين الغرفة وچوليان وكاثرين والآخرين؛ أناس الليل، مصاصي الدماء. وكان هذا آخر ما رأى قبل أن يعدو فرارًا.

***

ثمانية عشر



على متن الباخرة حلم فيڤر
نهر المسيسبي
أغسطس 1857

عندما أشرقت الشمس على نيو أورلينز في الصباح التالي كعين منتفخة صفراء، تُحيل ضباب النهر إلى اللون الأحمر، وتَعِد بيوم قائظ، كان أبنَر مارش ينتظر في المرفأ.

كان قد جرى مسافة طويلة في الليلة السابقة، يقطع الشوارع المضاءة بمصابيح الكيروسين كالمجنون، يرتطم بالمارَّة، ويتخبَّط ويلهث ويعدو كما لم يعدُ من قبل، حتى أدرك أخيرًا أن لا أحد يتبعه. ثم عثر مارش على حانة مظلمة هواؤها ملوث بالدخان، فشرب فيها ثلاثة أقداح ويسكي ليوقف رجفة يديه، ثم بعدما هدأ قليلًا قرب الفجر، مشى عائدًا إلى حلم فيڤر. لم يشعر مارش من قبل بهذا الغضب والخزي. لقد أجبروه على الفرار من باخرته الخاصة، وهددوه بسلاح مصوب إلى عنقه، وقتلوا رضيعًا لعينًا أمام عينيه وفوق طاولته. فكَّر في أنه لن يفر أحد من تهديد مارش بهذه الطريقة. لا أبيض ولا أسود ولا هنديًّا أحمر ولا أي مصاص دماء لعين. أقسم مارش لنفسه على أن يندم دامون چوليان ندمًا شديدًا. لقد حل النهار الآن، وسيصير الصيادون فريسة.

كان المرفأ يضج بالحركة عندما وصل مارش إليه، ورأى باخرة أخرى ضخمة ذات مجاديف جانبية ترسو جوار حلم فيڤر وتفرغ حمولتها. يشتري العمال الفاكهة والمثلجات من الباعة الجائلين، وحافلة أو اثنتان من حوافل نقل الركاب ظهرت في الأفق.

ورأى مدهوشًا قلِقًا حلم فيقر تنفث البخار والدخان الأسود الذي يظلل الحمَّالين الذين ينقلون آخر شحنة. أسرع الخطا نحوهم وصاح: «أنتم! انتظروا!».

أحد الحمالين؛ ضخم داكن البشرة، ذو صلعة لامعة وأذن مفقودة، استدار نحوه حاملًا برميلًا على كتفه اليمنى وقال: «أجل يا كابتِن».

- ماذا يحدث هنا؟ لماذا تتهيؤون للرحيل؟ أنا لم أصدر أي أوامر.

- أنا فقط أنقل الحمولة يا كابتِن، ولا أعرف شيئًا.

سبَّ مارش وجاوزه إلى مايك دَن المشعر الذي كان يسير على المنصة وعصاه الحديدية في يده.

- يا مايك!

عقد مايك حاجبيه، ونظر إليه نظرة حادة.

- عمت صباحًا يا كابتِن. هل حقًّا بعت الباخرة؟

- ماذا؟

- يقول كابتِن يورك إنك بعته نصيبك فيها، وإنك لن تأتي معنا. عدت بعد منتصف الليل بساعتين ومعي بعض رجالي، فأخبرني يورك أنكما رأيتما أن رُبانًا واحدًا للباخرة خير من رُبانين، وأنه اشترى نصيبك، وأمر الأشيب بأن يتجهَّز للإبحار. ما أصل هذه الحكاية يا كابتِن؟

أطلق مارش سبابًا، فتحلَّق الحمَّالون في فضول حولهما. جذب ذراع مايك المشعر وجرَّه عبر منصَّة التحميل إلى طابق الباخرة الرئيسي. قال مارش عندما ابتعدا كفاية عن آذان الآخرين: «لا وقت لديَّ لحكي القصة كاملة، لذا لا تزعجني بأي أسئلة، أتسمعني؟ افعل ما آمرك به».

أومأ مايك وقال وهو يضرب كفه اللحيمة بعصاه: «هل من مشكلة يا كابتِن؟».

- كم عاد من الطاقم؟

- أغلبهم، وبعض الركاب... قليل منهم.

- لن ننتظر المزيد. كلما قلَّ عدد من على متن الباخرة كان هذا أفضل. اذهب وابحث لي عن فرام أو أولبرايت، أيهما، واصعد بمن تجده إلى غرفة القيادة واطلب منه أن يغادر بنا. الآن! هل تفهمني؟ سأذهب أنا

لأبحث عن السيد چيفرز... بعدما تعثر على القبطان قابلني في مكتب الكاتب، ولا تخبر أي شخص عما يجري.

ظهرت ابتسامة صغيرة أسفل شاربه العملاق وهو يقول: «ماذا سنفعل؟ سنشتري هذه الباخرة مرة أخرى ربما؟».

- لا، بل سنقتل رجلًا، وهو ليس چوشوا. والآن انطلق، ثم قابلني في مكتب الكاتب.

لكن چوناثان چيفرز لم يكن في مكتبه، لذا اضطر مارش إلى الذهاب إلى غرفة الكاتب وطَرق الباب، حتى فتح له چيفرز الناعس مرتديًا منامته. قال بعدما تثاءب: «كابتِن مارش؟ لقد قال كابتِن يورك إنك خرجت من الشراكة. لم يكن هذا منطقيًّا بالنسبة إليَّ، لكنك لم تكن موجودًا، لذا لم أكن أعرف تفسير ذلك. تفضَّل».

سأله مارش بمجرد أن دخل إلى الغرفة: «أخبرني بما حدث ليلة أمس».

تثاءب چيفرز مرة أخرى وقال: «معذرة يا كابتِن. لم أنم كفاية».

ثم قصد الحوض فوق خزانة الأدراج ونضح وجهه ببعض الماء، ثم بحث عن نظارته ووضعها، ورجع إلى مارش وقد عاد إلى هيئته المألوفة.

- حسنًا، دعني أفكر لحظة. كنا في فندق سانت تشارلز حيث أخبرتك أننا سنذهب، وفكرنا في المكوث هناك طوال الليل حتى يحظى كابتِن يورك بعشائه الخاص. كان چاك إيلي معي، وكارل فرام والأشيب وبعض العمال و... حسنًا، كنا مجموعة كبيرة. تناول السيد أولبرايت العشاء معنا، لكنه ذهب لينام مبكرًا، ومكثنا نحن نشرب ونتحدث. كنا قد حجزنا غرفًا وكل شيء، لكن ما إن أخلدنا إلى النوم؛ ربما في الثانية أو الثالثة صباحًا... جاءنا رايموند أورتيجا وسيمون والمخلوق المدعو بيلي تيبتون الشرس، وطلبوا منا العودة إلى الباخرة. قال إن يورك يريدنا على الفور. لذا تبعناهم، وقابلنا كابتِن يورك في القاعة الكبرى وقال إنه اشترى نصيبك، وإننا سنغادر صباحًا. أرسل بعضنا لإحضار من هم في نيو أورلينز بعد، وإخبار الركاب بالمغادرة. أعتقد أن أغلب الطاقم قد عاد. أنهيت الأعمال الورقية ثم قررت النوم قليلًا. والآن، ماذا يحدث حقًّا؟

نخر مارش ثم قال: «لا وقت لديَّ، ولم تكن لتصدقني على أي حال. هل رأيت ما يريب في القاعة الكبرى ليلة أمس؟».

- لا... هل المفترض أن أرى شيئًا؟

- ربما.

- كانوا قد أزالوا كل ما يتعلق بالعشاء، وهو أمر غريب. حتى إنهم أرسلوا النُّدُل إلى الشاطئ.

- لا بد أن بيلي الشرس قد نظف المكان. لا يهم. هل كان چوليان هناك؟

- أجل، وهو وآخرون لم أرهم من قبل. منحهم كابتِن يورك غرفًا. دامون چوليان هذا غريب بحق. ظل ملازمًا لكابتِن يورك. لكنه مهذب ووسيم لولا الندبة.

- تقول إنه منحهم غرفًا؟

- أجل. قال كابتِن يورك إن چوليان سيأخذ غرفتك، لكن لم أوافق على هذا، ليس وأغراضك هناك على الأقل. أصررت على أن يسكن إحدى غرف الركاب حتى أتحدث إليك. وافق چوليان على هذا، ولم تحدث أي مشكلات.

- جيد. ماذا عن بيلي الشرس؟ أين هو؟

- أخذ الغرفة المجاورة لچوليان، لكنني أشك أنه فيها. آخر مرة رأيته فيها كان يجول على سطح الباخرة الرئيسي، ويتصرف كأنه مالكها، وراح يعبث بسكينه الصغيرة. لقد تشاجرنا. لن تصدق ما كان يفعل، كان يرمي سكينه نحو أحد أعمدتك المزخرفة كأنه جذع شجرة ميت. أمرته أن يتوقف وإلا ألقاه مايك المشعر من فوق السور، فتوقف، لكنه ظل يحدق إليَّ. يا له من مثير للمشكلات.

- هل تعتقد أنه في القاعة الكبرى بعد؟

- لقد كنت نائمًا، لكنه كان فيها آخر مرة كنت هناك، كان غافيًا على مقعد.

قال له أبنر مارش: «بدِّل ملابسك سريعًا وقابلني في المكتب».

أجاب چيفرز متعجبًا: «بالــتأكيد يا كابتِن».

أضاف مارش وهو متجه نحو الباب: «واجلب معك عصاك ذات السيف».

بعد أقل من عشر دقائق، التقى هو وچيفرز ومايك دَن المشعر في مكتب الكاتب. قال مارش: «اجلسا وأنصتا في هدوء. ما سأقول قد يبدو لكم جنونًا، لكنكما تعرفانني منذ سنوات، وتعرفان أنني لا أمزح ولا أحكي الحكايات الغريبة مثل السيد فرام. أقسم على إن هذه هي الحقيقة اللعينة، ولتنفجر الغلاية من تحتي لو أنني أكذب».

أخذ أبنر مارش شهيقًا عميقًا وبدأ يحكي. أخبرهم كلَّ شيء، ولم يتوقف عن الحكي إلا مرة واحدة عندما قاطعته صرخة صافرة الباخرة واهتزازها. قال مايك المشعر: «نحن نغادر كما أمرت».

- عظيم.

ثم أكمل الحكي بينما تغادر حلم فيڤر مرفأ نيو أورلينز، وتعكس حركة مجاديفها وتعود إلى مجرى المسيسبي تحت الشمس الحارقة.

عندما انتهى مارش، نظر إليه چوناثان چيفرز مفكرًا وقال: «حسنًا... هذا مذهل. ربما الأفضل لو اتصلنا بالشرطة».

نخر مايك المشعر وقال: «أنت تعرف أن المرء يتعامل مع مشكلاته بنفسه في النهر». ورفع عصاه عاليًا، ووافقه مارش على الفور.

- هذه باخرتي، ولن أستعين بمساعدة خارجية يا سيد چيفرز. هذه هي سُنة النهر. الأسهل أن تشج رأس مثير الشغب وتلقي به إلى الماء أو تترك الرفاسات تمضغه. النهر الخبيث العجوز يحافظ على أسراره. أنا لن أتصل بشرطة نيو أورلينز خاصة؛ هم لن يكترثوا لأمر رضيع أسود ابن عبيد، وليس معنا جثته حتى. هم حفنة معاتيه على أي حال ولن يصدقونا. ولو صدقونا، ماذا سيفعلون؟ سيأتون حاملين الهراوات والبنادق، وهي أسلحة لن تجدي مع چوليان وجماعته.

قال چيفرز: «إذًا سنتصرف نحن... لكن كيف؟».

قال مايك المشعر: «نجمع الرجال ونقتلهم».

غمغم مارش: «لا، چوشوا قادر على التحكم في الآخرين، هذا ما اكتشفته، وهذا ما فعل من قبل. لقد حاول أن يوقف ما حدث أمس، لكن أثر چوليان كان عظيمًا عليه. علينا أن نتخلص من چوليان قبل الليل».

قال مايك المشعر: «لن يكون هذا صعبًا».

- لست واثقًا من هذا. الوضع الحقيقي لا يشبه القصص، وليسوا عاجزين في النهار، هم فقط ينامون، ولو أيقظتهم لوجدتهم أقوياء للغاية ذوي سرعة فائقة، ولا يسهل إيذاؤهم. لا بد أن ننفذ بشكل دقيق وصحيح. أعتقد أن ثلاثتنا قادرون على فعل ذلك، ولا داعي لتوريط آخرين. لو ساءت الأمور سنُخلي الباخرة قبل الظلام، ثم نبحر بها إلى وسط النهر حيث لا يمكن لأحد أن يتدخل، ويعجز أناس الليل عن الهرب لو اضطررنا إلى قتل آخرين منهم.

ثم نظر مارش إلى چيفرز وقال: «هل معك المفتاح الاحتياطي للغرفة التي أعطيتها لچوليان؟».

قال الكاتب وهو يشير نحو صندوق حديدي أسود بطرف عصاه ذات السيف: «في خزانتي».

- عظيم. بأي قوة تستطيع الضرب بعصاك هذه يا مايك؟

ابتسم مايك المشعر وضرب كفه بالهراوة الحديدية، فصدر عن الضربة صوت عالٍ مُطمئِن.

- بأي قوة تريدني أن أضرب يا كابتِن؟

- أريدك أن تحطم رأسه اللعين، وعليك أن تفعل هذا بقوة وبضربة واحدة؛ لن يكون لدينا فرصة لمحاولة أخرى. لو كسرتَ أنفه، سيمزق حلقك في الثانية التالية.

قال مايك المشعِر: «ضربة واحدة... واحدة فقط».

أومأ أبنر مارش مطمئنًا إلى أن زميله الضخم صادق في كلماته.

- لدينا مشكلة أخيرة؛ بيلي الشرس. هو كلب حراسة چوليان. ربما يكون نائمًا على أحد المقاعد، لكنه سيستيقظ سريعًا ما إن يشعر باقترابنا من باب چوليان، لذا لا بد ألا يرانا. للغرف في طابق الغلايات بابان، لو أن بيلي في القاعة الكبرى، سندخل من الباب الخارجي، وإن كان في الخارج سندخل من باب القاعة. قبل أن نفعل أي شيء يجب أن نتأكد من مكان بيلي. هذه مهمتك يا سيد چيفرز. ابحث لنا عن السيد بيلي تيبتون الشرس وأخبرنا مكانه، ثم تأكد من أنه لن يتحرك منه. لو سمع أي صوت من جهة غرفة چوليان، اطعنه في بطنه العفن بسيفك. هل تسمعني؟

أجاب الكاتب في وجوم وهو يصلح وضع نظارته: «مفهوم».

توقف أبنر مارش عن الحديث للحظة ونظر إلى حَليفيه؛ الكاتب النحيل الأنيق بنظارته ذات الإطار الذهبي، وصدريته لامعة الأزرار، وشعره المصفف إلى الخلف بعناية، وإلى جواره الرفيق الضخم، بملابسه الخشنة ووجهه الخشن وتصرفاته الخشنة، وعينيه الخضراوين التوَّاقتين إلى الاشتباك. رآهما مارش زوجين غريبين، لكنهما أيضًا أفضل اثنين على الإطلاق. سأل في رضا: «والآن، ماذا ننتظر؟ اذهب يا سيد چيفرز وحدد مكان بيلي تيبتون الشرس».

قام الكاتب وهندَّم ملابسه وهو يقول: «بالتأكيد».

عاد بعد خمس دقائق وقال: «هو في القاعة الكبرى يتناول الإفطار. لا بد أن الصافرة أيقظته. هو يأكل البيض واللحم المفروم ويشرب الكثير من القهوة، ويجلس حيث يرى باب غرفة چوليان».

- جيد. لماذا لا تذهب يا سيد چيفرز لتتناول إفطارك؟

ابتسم چيفرز وقال: «أعتقد أن شهيتي انفتحت فجأة. لكن المفاتيح أولًا».

فتح چيفرز خزينته وأخرج المفتاح، ثم منحه مارش عشر دقائق حتى يعود إلى القاعة الكبرى، ثم زفر وقال لمايك دَن المُشعر: «هيا».

وفتحا الباب المفضي إلى العالم بالخارج.

كان النهار ساطعًا حارًّا، فاعتبر مارش أن هذا فأل حسن. حلم فيڤر تسري عبر النهر بخفة، تُخلِّف وراءها خَطَيْ زَبَد أبيضين. قدَّر مارش أن سرعتها نحو ثمانية عشر ميلًا في الساعة، وتساءل عن الوقت التي ستحتاج إليه للوصول إلى ناتشيز، فرغب فجأة في الصعود إلى غرفة قيادتها والنظر إلى النهر الذي يعشقه. ابتلع مارش ريقه ورمش مزيلًا الدموع التي احتشدت أمام عينيه، وشعر بالقلق والخوف. سأل مايك المشعر باهتمام: «كابتِن؟ هل أنت بخير؟».

أطلق أبنر مارش سبة ثم قال: «لا شيء. كل ما في الأمر أنه... سُحقًا... تعالَ».

ومشى قابضًا على مفتاح غرفة دامون چوليان بيده الحمراء الضخمة حتى ابيضَّت مفاصل أصابعه. توقف مارش خارج الغرفة ونظر حوله فلم يجد أحدًا غير امرأة تقف عند السور قرب مؤخرة الباخرة، وعلى بعد دستة أبواب رجل يرتدي قميصًا أبيض ويعتمر قبعة، يجلس مُميلًا مقعده إلى الباب خلفه،

ولم يبدُ أن أيهما لاحظ وجود مارش ومايك المُشعر. دس مارش المفتاح في القفل في حذر وهمس إلى رفيقه: «بسرعة وبهدوء. ضربة واحدة».

أومأ مايك المُشعر، وأدار مارش المفتاح، فانفتح القفل، ودفع الباب.

المكان بالداخل ضيق مظلم، النوافذ مُسدلة الستائر كما يفضل أناس الليل، لكنهما رأيا على الضوء المتسلل من فرجة الباب هيئة شاحبة ترقد تحت الأغطية. دخلا بأقصى سرعة وخفة ممكنة لرجلين ضخمين صاخبين، وشرع مارش يغلق الباب خلفهما. تحرك مايك المشعر إلى الأمام وهو يرفع فوق رأسه الهراوة الحديدية بطول ثلاثة أقدام. لمح مارش الشيء في الفراش يتحرك ويستدير نحو الصوت، نحو النور، فقطع مايك المشعر المسافة الفاصلة بينهما في خطوتين واسعتين، وهوت الهراوة بكل قوة ذراعه الضخمة على الرأس الشاحب.

ثم انغلق باب الغرفة بالكامل، وانقطع آخر خيط نور. سمع مارش في العتمة صوتًا يشبه رمي قطعة لحم على منضدة الجزار، مع صوت آخر أقرب لصوت تهشم قشرة بيض، فحبس مارش أنفاسه.

سكنت الغرفة، وعجز مارش عن رؤية أي شيء. عبر الظلام سمع صوتًا خفيضًا حلقيًّا، فغطى العرق البارد جسده. همس وهو يبحث عن عود ثقاب: «مايك...».

- أجل يا كابتِن. ضربة واحدة فقط...

ثم سمع صوت الحشرجة الحلقية مرة أخرى. حكَّ مارش عود الثقاب في الحائط، ثم رمش. كان مايك المشعر يقف جوار الفراش وعصاه في يده، طرفها ملطخ مبتل، وحلَّ محل رأس الشيء على الفراش كتلة دامية بعدما تهشم أعلى جمجمته، وسالت الدماء لتغرق الملاءة، وتناثر الشعر ومادة أخرى سوداء على الوسادة والحائط وملابس مايك.

سأل مارش: «هل مات؟».

باغت مارش شك مخيف في أن الرأس المهشم قد يبني نفسه مرة أخرى حتى تقوم الجثة الشاحبة وتبتسم لهما.

- لم أرَ شيئًا أكثر مواتًا من هذا.

- تأكد. تأكد يا مايك!

هز مايك المشعر كتفيه الضخمتين، ثم رفع عصاه مره أخرى وهوى بها على ما تبقى من الرأس على الوسادة، ثم راح يضرب مرة ثالثة ورابعة، حتى لم يعد للشيء رأس على الإطلاق. مايك المشعر رجل قوي إلى حد لا يصدق.

أحرق عود الثقاب أصابع مارش، فأطفأه وقال: «هيا بنا!».

سأله مايك المشعر: «ماذا سنفعل به؟».

فتح مارش باب الغرفة، ونظر إلى الشمس والنهر أمامه وشعر براحة.

- اتركه مكانه. عندما يحل الليل سنرميه في النهر.

تبع المُشعر مارش إلى الخارج، ثم أغلق الباب خلفه. كان مارش يشعر بالغثيان فمال على السور مغالبًا القيء. سواء كان مصاص دماء أو لا، ما فعله بدامون چوليان غير مُحتَمل.

- هل تريد مساعدة يا كابتِن؟

- لا.

صلب عوده بصعوبة. الصباح الباكر حار منذ بدايته، والشمس الصفراء فوقهم تضرب النهر بكل قوتها، وتُغرق مارش في العرق.

قال مفتعلًا الضحك: «أنا لم أنم جيدًا فقط. ما فعلنا صعب الاستيعاب أيضًا، ويُرهق الروح».

هز مايك المشعر كتفيه؛ فما فعل لم يرهق روحه كما يبدو.

- اذهب ونَم.

- لا، لن أستطيع. لا بد أن نقابل چوشوا ونخبره ما فعلنا. لا بد أن يعرف ليتهيأ لما هو آتٍ.

تساءل مارش فجأة عن رد فعل چوشوا يورك على مقتل واحد من بني جنسه بهذه الطريقة البشعة. بعدما حدث ليلة أمس، مُرجَّح ألا يتضايق چوشوا، لكنه لم يكن متأكدًا... هو لا يعرف شيئًا عن أناس الليل وتفكيرهم، ولو أن چوليان كان مصاص دماء وقاتل أطفال، فالآخرون ارتكبوا فظائع مشابهة، حتى چوشوا. دامون چوليان كان سيد الدماء بالنسبة إلى چوشوا يورك أيضًا، ملك مصاصي الدماء. لو قتلت مَلكًا، حتى لو كان مكروهًا، ألن يفعل مملوكوه شيئًا حيال ذلك؟ تذكر مارش عتو غضب چوشوا يورك، فلم

يتحمس للذهاب إلى غرفة الرُّبَّان، خاصة الآن وچوشوا في أسوأ حالاته وهو نائم. وجد نفسه يقول: «ربما الأفضل أن ننتظر وننام قليلًا».

أومأ مايك المُشعِر. أضاف مارش: «يجب أن أصل إلى چوشوا أولًا، لكن لا يمكنني إيقاظه».

شعر مارش بالغثيان والحمى والضعف، واحتاج إلى الرقاد قليلًا. لعق شفتيه الجافتين كالصنفرة وأردف: «اذهب إلى چيفرز وطمئنه، وليوقظني واحد منكما قبل الغروب. قبل الغروب، هه؟ هل تسمعني؟ امنحني ساعة أتحدث فيها مع چوشوا. سأوقظه وأخبره عندما تظلم السماء حتى يفكر فيما يفعله مع باقي عشيرته. وأنت... اطلب من أحد رجالك مراقبة بيلي الشرس... سيتحتم علينا التعامل معه هو الآخر».

ابتسم مايك المشعر وهو يقول: «دع النهر يتعامل معه».

- ربما. ربما. سأذهب لأرتاح الآن، لكن يجب أن توقظني قبل الظلام. لا تدع الليل يحل عليَّ وأنا نائم، مفهوم؟

- أجل.

صعد أبنر مارش في وهن إلى مهاجع الطاقم وهو يشعر بتعب وغثيان يتعاظمان مع كل خطوة. وقف خارج غرفته شاعرًا بطعنة خوف مفاجئة. ماذا لو أن أحدهم بالداخل، رغم ما قال السيد چيفرز؟ لكن عندما فتح الباب وسمح للنور بدخول الغرفة، وجدها خالية. دخل مارش وفتح الستائر ليدخل أكبر قدر من الضوء والهواء، ثم أرتَج الباب، وجلس على الفراش يخلع ملابسه المبتلة بالعرق. لم يكترث حتى لارتداء منامة. الغرفة خانقة، لكنه كان مجهدًا فلم يلاحظ، وانسدل عليه النوم في لحظتها.

***

تسعة عشر



على متن الباخرة حلم فيفر
نهر المسيسبي
أغسطس 1857

أيقظت مارش من نومه الخالي من الأحلام الطرقات المُلحة القوية المتتالية. تململ في الفراش ثم جلس هاتفًا: «دقيقة!».

قام مترنحًا نحو الحوض كدُب أفاق لتوه من بياته الشتوي عُنوة، ولم يتذكر إلا بعدما غسل وجهه ببعض الماء.

- لعن الرب الجميع في الجحيم!

نظر إلى الظلال الممتدة إلى أرجاء الغرفة المظلمة، ورأى من خلف زجاج النافذة السماء البنفسجية الداكنة.

- سُحقًا.

لبس سروالًا نظيفًا وسار نحو الباب يفتحه. صاح في چوناثان چيفرز بالخارج: «ما الذي لم يفهمه في ألا يتركني أنام أطول من اللازم؟ طلبت من مايك المشعر أن يوقظني قبل ساعة لعينة من الغروب. سحقًا».

- بقيت ساعة بالفعل على الغروب، لكن السحب جعلت السماء أكثر دُكنة. يقول السيد أولبرايت إننا سنواجه عاصفة أخرى.

دخل الكاتب إلى غرفة مارش وأوصد الباب، ثم ناوله عصا مَشْي وقال: «وجدتها في القاعة الكبرى يا كابتِن».

أمسك مارش عصاه وغمغم: «يبدو أنني فقدتها ليلة أمس. كنت شاردًا في أمور أخرى».

أسند العصا إلى الحائط، ثم نظر عابسًا مرة أخرى عبر النافذة. الأفق الغربي بالكامل كتلة سُحب مُهدِّدة تتحرك تجاههم كحائط ظلام هائل يكاد أن ينقض فوقهم. لم يعجبه ما رأى البتة. جذب قميصًا ليرتديه وهو يقول: «يجب أن أقابل چوشوا حالًا».

- هل تود أن أرافقك؟

أجاب مارش وهو يربط ربطة عنقه في المرآة: «يجب أن أتحدث إليه بنفسي. لماذا لا تذهب معي وتنتظرني بالخارج؟ ربما يود چوشوا التحدث إليك ومناقشة خططنا».

لم يذكر مارش السبب الآخر وراء رغبته في الإبقاء على الكاتب بالقرب منه. ربما يود هو أن يستغيث به في حال لم يتقبل چوشوا خبر هلاك دامون چوليان.

- لا بأس.

ارتدى مارش سُترته، وأمسك عصاه، ثم هتف: «هيا بنا يا سيد چيفرز. الظلام قد حل بالفعل».

تبحر حلم فيڤر بسرعة، فترفرف راياتها وسط الريح القوية، وينسكب الدخان الأسود من مداخنها. تحت لون السماء الغريب تبدو مياه المسيسبي سوداء. أكمل مارش طريقه سريعًا إلى غرفة چوشوا وچيفرز إلى جواره. لم يتردد هذه المرة عند الباب، ورفع عصاه يطرق بها. هتف بعد الطرقة الثالثة: «چوشوا، افتح لي. نحتاج إلى أن نتحدث».

انفتح الباب ببطء في الطرقة الخامسة، كاشفًا عن الظلمة وراءه. قال مارش لچيفرز: «انتظرني». ثم دلف الغرفة وأغلق الباب خلفه. قال بمعدة متقلصة: «لا تغضب مني الآن يا چوشوا. لم أكن لأقلق راحتك لكن الأمر عاجل ومهم، والليل قد حل على أي حال».

لم يصله رد، لكن مارش ظن أنه سمع صوت تنفس.

- اللعنة. لماذا أضطر دائمًا إلى الحديث معك في الظلام يا چوشوا؟ هلا أشعلت شمعة؟

- لا.

الصوت حازم، خفيض، ولم يكن صوت چوشوا.

تراجع أبنر مارش إلى الخلف وهو يغمغم: «أوه، أيها الرب يسوع... لا...».

سمع صوت حفيف، لكن يديه المرتعشتين وجدتا مقبض الباب خلفه ففتحه على اتساعه، واتضحت تفاصيل الجالس في غرفة الرُّبَّان. رأى چوشوا يورك ممددًا على فراشه، شاحبًا عاريًا، عيناه مغمضتان، وإحدى ذراعيه مُدلَّاة نحو الأرض، ومعصمه ملطخ بالدم الجاف. ورأى دامون چوليان يتحرك نحوه في خفة الموت، يبتسم. صاح مارش وهو يتراجع إلى الخارج: «لقد قتلناك!».

تعثر وقام، ثم سقط مرة أخرى تحت قدمي چوناثان چيفرز. توقف چوليان عند الباب، وخط داكن رفيع يظهر على خده، أقرب إلى خدش، حيث جرحه مارش ليلة أمس. فيما عدا ذلك، كان سليمًا تمامًا. كان قد خلع سترته وصدريته، ولم يكن قميصه متسخًا أو ملطخًا. قال چوليان بهدوء: «تعالَ يا كابتِن. لا تهرب. ادخل وتكلم».

- أنت ميت! هشم مايك رأسك اللعين!

اختنق مارش بكلماته. لم ينظر إلى عيني چوليان. قال لنفسه إن الليل لم يحل رسميًّا، والخارج آمن، ولن يستطيع چوليان الوصول إليه حتى تغرب الشمس ما دام يتحاشى النظر إلى عينيه ولم يعُد إلى داخل الغرفة.

ابتسم چوليان وقال: «ميت؟ آه... الغرفة الأخرى. چين البائس... لقد أراد أن يؤمن بچوشوا، فانظر ماذا فعلت به؟ تقول إنك هشمت رأسه؟».

قام أبنَر مارش واقفًا وهتف: «أنت بدَّلت الغرف. أيها الخبيث اللعين. لقد تركته ينام في فراشك».

- كان بيني وبين چوشوا ما نناقشه. والآن تعالَ يا كابتِن، لقد تعبت من الانتظار. تعالَ لنشرب معًا.

- احترق في الجحيم! ربما أخطأناك هذا الصباح، لكنك لم تبتعد بعد. سيد چيفرز، استدعِ مايك المشعِر ورجاله. دستة منهم سيفون بالغرض.

- لا، لن تفعل هذا.

لوَّح مارش مهددًا بعصاه وهو يقول: «نعم، سأفعل. هل ستمنعني؟».

نظر چوليان إلى السماء ذات اللون الداكن الأقرب للسواد وقال: «نعم».

وخرج من الغرفة.

شعر مارش ببرودة يد الذعر تطبق على قلبه. رفع عصا المشي وصاح بصوت مرتجف: «ابتعد!».

خطا إلى الخلف، فابتسم دامون چوليان وخطا إلى الأمام. رأى مارش في غمرة يأسه أن الضوء المتبقي من النهار غير كاف. ثم سمع صوت احتكاك معدن بخشب، ووقف چوناثان بخفة أمامه شاهرًا سيفه الرفيع وهو يهتف: «اذهب واطلب النجدة يا كابتِن».

ثم دفع نظارته بسبابته إلى أعلى قصبة أنفه وأضاف: «سأشغل السيد چوليان».

وبسرعة ومهارة، دفع چيفرز نصل سيفه الحاد المزدوج نحو چوليان. تراجع دامون چوليان بالكاد، وخَبَت ابتسامته بينما نصل سيف الكاتب يشق الهواء أمام وجهه. قال چوليان: «تنحَّ جانبًا».

لم يقل چوناثان چيفرز شيئًا، وظل يقترب بخفة مدروسة ويدفع چوليان نحو باب غرفة الربَّان، ثم هاجمه سريعًا، لكن چوليان كان أسرع وابتعد إلى الخلف. طقطق چيفرز بلسانه في نفاد صبر. ارتكز دامون چوليان على قدمٍ داخل الغرفة، وأجاب بضحكة أقرب للعواء. رفع يديه وفتح أصابعه. هاجمه چيفرز مرة أخرى.

واندفع چوليان مادًّا ذراعيه.

رأى أبنر مارش كل شيء. كان هجوم چيفرز حقيقيًّا، ولم يبذل چوليان جهدًا لتحاشيه. انغرز السيف في بطنه، فالتوى وجه چوليان ألمًا وفرَّت منه أنَّة، لكنه لم يتوقف. وقبل أن يتراجع الكاتب، لفَّ چوليان كفيه حول عنقه، فصدر عن چيفرز حشرجة اختناق، وجحظت عيناه وهو يتملَّص، وسقطت نظارته ذات الإطار الذهبي على الأرض.

قفز مارش إلى الأمام وضرب رأس چوليان وكتفيه بعصاه. لم يبدُ أن الأخير شعر بشيء. أدار ذراعيه بعنف فسمع مارش صوتًا يشبه صوت تهشم الخشب، وارتخى جسد چيفرز.

ضرب أبنر مارش بعصاه مرة أخيرة بكل قوته، فأصابت جبهة دامون چوليان. عندما أرخى دامون چوليان قبضتيه، هوى چيفرز كدُمية قماشية، ورأسه معوجٌّ على نحو غريب.

تراجع أبنر مارش مسرعًا.

لمس چوليان حاجبه كأنما يقيس الضرر الناجم عن ضربة مارش. رأى مارش في ذعر أن ضربته لم تجرح چوليان على قوتها. هو ليس مايك دَن المُشعِر، والعصا ليست هراوة حديدية. أخرج دامون چوليان نصل السيف من بطنه وهو متقلص الوجه. قميصه وسرواله مبتلان أحمران، ملتصقان بجسده. طوَّح السيف بعيدًا فراح يدور ويدور حول نفسه حتى اختفى وسط المياه الداكنة.

تقدَّم چوليان مرة أخرى، مُخلِّفًا أثر خطوات مُدمم على الأرض. تراجع مارش أمامه. لا سبيل لقتله، ولا يوجد ما يفعله. چوشوا وأحلامه، مايك المُشعِر وهراوته الحديدية، السيد چيفرز وسيفه... لم يؤثر أي من ذلك في دامون چوليان.

تعثر مارش نازلًا الدَّرج القصير إلى الطابق الأسفل ثم راح يعدو ويلهث نحو مؤخرة الباخرة، إلى حيث الصحبة والأمان. لقد حل الظلام. قطع الدَّرج في ثلاث خطوات، ثم أمسك بالسور ليستعيد توازنه.

كان بيلي تيبتون الشرس وأربعة منهم يتجهون نحوه. التفت أبنر مارش وصعد الدرج مرة أخرى، ثم دق الجرس طلبًا للنجدة... لكن چوليان جاءه من ناحية مهاجع الطاقم وقطع عليه الطريق. للحظة تجمَّد مارش يائسًا. لا مهرب الآن وقد سقط بين براثن چوليان وأتباعه، بلا سلاح سوى عصاه قليلة النفع، لكن لا يهم. لا شيء يجدي معهم على أي حال. مواجهتهم بلا فائدة، وربما الأفضل أن يستسلم.

تعلو وجه چوليان ابتسامة قاسية وهو يقترب. بعين عقله رأى مارش الوجه الشاحب يقترب من وجهه، أسنانه بارزة، عيناه تتوهجان بالحمى والظمأ، حمراوان عتيقتان. لو أن في عيني مارش دموعًا لبكى. أدرك أنه عاجز عن تحريك ساقيه، حتى عصاه بدت له ثقيلة للغاية.

من بعيد، ظهرت باخرة ذات رفاسات جانبية أخرى عند المنعطف، لم يكن مارش ليلحظها، لكن القبطان فعل، وأطلق صافرة الباخرة ليُخبر السفينة الأخرى أن تلزم جانب التحميل عندما تمُر إحداهما إلى جوار الأخرى. انتزعت الصافرة مارش من شلله، ونظر إلى الباخرة فرأى أضواءها والشرر المنبعث من مداخنها العالية، والسماء السوداء الجاثمة فوقها، والبرق البعيد عند الأفق، والنهر اللانهائي. النهر وطنه وتجارته وصديقه وأعتى أعدائه. النهر قاس، قاتل، يتلاعب بمشاعر سيداته البواخر. النهر يسري كما يسري منذ الأزل، ولا

يهتم لچوليان وجنسه. هم لا شيء بالنسبة إليه، وقد يزولون ويُنسون ويظل النهر يحفر قنوات جديدة، ويغرق مُدنًا، ويدمر البواخر بين فكيه ثم يبصقها حطامًا.

تحرك أبنر مارش إلى قمَّة غطاء الرفاسات، فتبعه چوليان هاتفًا بصوت قاس لكنه بعد مُغوٍ: «يا كابتِن». تجاهله مارش، ووازن نفسه فوق غطاء الرفاسات بقوة الخطر الواقع فيه، وهي قوة لم يكن يعرف أنها لديه. تحت قدميه تدور الرفاسات الجانبية الهائلة، يشعر بها تهز الخشب ويسمع صوتها يدوي *تشُنكا تشُنكا*... تحرك نحو مؤخرة الباخرة مُحاذرًا ألا يسقط في المكان الخطأ حيث يمكن أن تفرمه الرفاسات. كان الضوء قد زال من السماء تقريبًا وبدت المياه سوداء، تغلي وتتنقلب من خلف حلم فيڤر، ينعكس عليها لون نيران الأفران فتبدو كالدماء. حدق إليها مارش وتجمَّد في مكانه. فكر في أنه لا يرى سوى مزيد من الدماء... مزيد من الدماء اللعينة التي لا يمكنه الفرار منها. صوت ضربات الرفاسات تصم أذنيه.

قفز بيلي تيبتون الشرس فوق الغطاء ذاته واقترب منه في حذر وهو يقول: «سيدي چوليان يريدك أيها البدين. تعالَ الآن، لقد ذهبت إلى آخر مداك».

استلَّ سكينه الصغيرة وابتسم. لبيلي تيبتون الشرس ابتسامة مرعبة حقًّا.

هتف مارش بصوت عالٍ قابضًا على عصاه: «هذه ليست دماء. ما هذا إلا نهر لعين».

أخذ شهيقًا عميقًا ثم ألقى بنفسه من الباخرة. تردد صوت لعنات بيلي الشرس في أذنيه عندما ارتطم بالماء.

***

عشرون



على متن الباخرة حلم فيڤر
نهر المسيسبي
أغسطس 1857

كان رايموند وأرماند يسندان دامون چوليان بينهما عندما عاد بيلي تيبون الشرس من حيث كان فوق غطاء الرفاسات. بدا چوليان كأنما ذبح خنزيرًا بملابسه المخضبة بالدماء. قال ببرود: «لقد سمحت له بالهرب».

نبرته أثارت قلق بيلي الشرس، فأصرَّ: «لقد انتهى أمره. ستسحقه تلك الرفاسات، أو سيغرق. أنت لم ترَ فوران الماء الذي أحدثه عندما ارتطم بطنه السمين بالماء. لن نضطر إلى النظر إلى وجهه المشوه مرة أخرى».

كان بيلي الشرس يتكلم وينظر حوله، ولم يعجبه ما رأى. چوليان دامٍ، يُخلِّف وراءه خطًّا أحمر ملطخًا، والكاتب المتأنق متدلٍّ من شرفة مهاجعٍ الطاقم، والدم يتدفق من فمه.

قال چوليان: «لو خذلتني يا بيلي لن تكون مثلنا. أتمنى أن يكون قد مات، لمصلحتك. مفهوم؟».

- أجل يا سيدي چوليان. ماذا حدث؟

- لقد هاجموني يا بيلي. لقد هاجمونا. كما قال الكابتِن الطيب هذا فقد قتلوا چين. هشموا رأسه اللعين على حد تعبيره.

ثم ابتسم وأضاف: «مارش وعصابته؛ الكاتب وآخر اسمه مايك هما المسؤولان».

قال رايموند أورتيجا: «مايك دَن المُشعر. هو رئيس عُمال حلم فيڤر يا دامون. ضخم أحمق فَظ، وظيفته الصياح في السُّود وضَرْبهم».

قال چوليان لرايموند وأرماند: «آه... دعاني. أشعر أنني أقوى الآن. يمكنني الوقوف بمفردي».

ازداد الظلام ووقفوا وسط الظلال. حذَّر ڤينسيت: «دامون، ستتغير الوردية عند العشاء، وسيعود رجال الطاقم إلى غرفهم. لا بد أن نفعل شيئًا. يجب أن نغادر هذه الباخرة وإلا سيكتشفون أمرنا».

ثم نظر إلى الدماء والجثة. قال چوليان: «لا، سينظف بيلي كل شيء. أليس كذلك يا بيلي؟».

- بلى، سوف أرمي الكاتب إلى حيث رمى رُبَّانه نفسه.

قال چوليان بابتسامة باردة: «افعل هذا إذًا يا بيلي بدلًا عن أن تحكيه لنا. ثم الحق بنا في غرفة يورك. سنذهب إلى هناك؛ أحتاج إلى تبديل ملابسي».

احتاج بيلي تيبتون الشرس إلى عشرين دقيقة ليتخلص من أثر ما حدث في مهاجع الطاقم. عمل بسرعة عالمًا أن أحدهم قد يخرج من غرفته في أي وقت، أو يصعد إليها عبر الدَّرج. كان الظلام قد حل تمامًا وقتها، مما ساعده في مهمته. جرَّ جثة چيفرز ثم رماه بصعوبة من فوق السور. الكاتب أثقل وزنًا بكثير مما حسبه بيلي. التقمه الليل والنهر، وغاب صوت ارتطامه بالماء خلف صوت الرفاسات.

كان بيلي قد خلع قميصه وبدأ ينظفه من الدماء عندما وصلت العاصفة المنتظرة لحسن حظه، وانهمر المطر. هَزَم الرعد في أذنيه، وطعن البرق صفحة الماء. هطلت الأمطار نظيفة باردة تضرب سطح الباخرة، تغرق بيلي حتى النخاع، وتغسل آثار الدم.

دخل بيلي الشرس غرفة يورك وهو يقطر ماءً، وقميصه الذي كان راقيًا مكوم بين يديه.

- لقد انتهى الأمر.

كان دامون چوليان جالسًا على المقعد الجلدي الوثير، وقد بدَّل بملابسه أخرى نظيفة، وأمسك مشروبًا في يده، فبدا أكثر صحة من أي وقت مضى. وقف رايموند وأرماند كل على جانب من جانبي المقعد، وجلس ڤينسيت خلف المكتب، وكُرت على الكرسي المقابل. حدق چوشوا يورك إلى قدميه وهو جالس على الفراش، بشرته باهتة كغبار الطباشير. قال چوليان: «أوه يا بيلي. ماذا كنا سنفعل دونك؟».

أومأ بيلي وقال: «كنت أفكر يا سيدي چوليان وأنا بالخارج. وجدت أن ليس أمامنا إلا خياران. الأول أن نأخذ هذه الباخرة الصاخبة ونهرب. أو ننتظر حين ترسو بسبب العاصفة ثم ننزل منها. نحن لسنا بعيدين عن مرفأ بايو سيرا. ربما نرسو هناك».

- لست مهتمًّا ببايو سيرا يا بيلي، ولا بمغادرة هذه الباخرة الممتازة. حلم فيڤر ملكنا الآن. أليس كذلك يا چوشوا؟

رفع چوشوا يورك يده وقال بصوت ضعيف مسموع بالكاد: «بلى».

قال بيلي الشرس: «لكن هذا خطر. لقد رحل الكاتب والرُّبَّان، ماذا سيظن الناس؟ سيبحثون عنهما وستتزايد الأسئلة».

قال رايموند: «هو مُحِق يا دامون. أنا على متن هذه الباخرة منذ ركبتها من ناتشيز. قد يأتي الركاب ويرحلون، لكن الطاقم... نحن في خطر هنا. نحن الغريبون المثيرون للريبة، الذين لا يعرفهم أحد. باختفاء مارش وچيفرز لن تتجه أصابع الاتهام إلى أحد سوانا».

أضاف بيلي: «ثم إن لدينا رئيس العُمال. لو أنه ساعد مارش، فلا بد أنه يعرف كل شيء يا سيدي چوليان».

- اقتله يا بيلي.

ابتلع بيلي الشرس لعابه بصعوبة وقال: «لنفترض أنني قتلته يا سيد چوليان؟ لن ينفعنا هذا، وسيبحثون عنه، خاصة أن عشرات الزنوج والألمان الأغبياء والسويديين الضخام يعملون تحت إمرته. عددنا لا يجاوز العشرين، ولا يوجد سواي نهارًا. يجب أن نرحل عن هذه الباخرة سريعًا. لا يمكننا أن نقف أمام الطاقم، وحتى لو فعلنا، أنا واثق أني لن أستطيع الصمود أمامهم وحدي. يجب أن نرحل».

- سنمكث، وعليهم أن يخشونا يا بيلي. كيف تكون واحدًا من السادة لو أنك تفكر كعبد؟ سنظل هنا.

سأل ڤينسيت: «ماذا سنفعل عندما يكتشفون غياب مارش وچيفرز؟».

وقال كُرت: «وماذا عن رئيس العمال؟ إنه يشكل تهديدًا لنا».

حدق دامون چوليان إلى بيلي الشرس وقال: «آه... لماذا لا ندع بيلي يتولى أمر هذه المشكلات نيابة عنا؟ سيُرينا بيلي كم أنه ماهر، أليس كذلك يا بيلي؟».

وقف بيلي الشرس فاغر الفم وقال: «أنا؟ أنا لا أعرف...».

- أليس كذلك يا بيلي؟

أجاب بيلي سريعًا: «بلى... بلى».

قال چوشوا يورك دون أي أثر للثقة القديمة في صوته: «يمكنني حل هذه المشكلة دون دماء أكثر. ما زلت رُبَّان هذه الباخرة. دعني أسرِّح السيد دَن وكل مَن تخشون وجودهم. يمكننا إخراجهم من حلم فيڤر بطريقة نظيفة. لقد نالنا ما يكفينا من الموت».

سأل چوليان: «أحقًّا نلنا كفايتنا؟».

قال بيلي الشرس ليورك: «تسريحهم لن يُجدي. سيتساءلون عن السبب وسيُطالبون بمقابلة كابتِن مارش».

واقفه رايموند: «نعم. هم لا يتبعون يورك». ثم أضاف موجهًا كلامه إلى چوليان: «هم لا يثقون به، وكان عليه أن يخرج إلى شمس النهار أمامهم قبل أن يوافقوا على السفر معه إلى الرافد. برحيل مارش وچيفرز أيضًا، لن يستطيع السيطرة عليهم».

نظر بيلي تيبتون الشرس إلى چوشوا يورك في دهشة واحترام وسأله: «أنت فعلت هذا؟ خرجت في نور الشمس؟».

لم يجرؤ الآخرون إلا على الخروج قُبيل الغروب، أو بُعيد الشروق، لكنه لم يرَ أيهم يخرج والشمس مشرقة. ولا حتى چوليان.

نظر إليه چوشوا يورك نظرة باردة ولم يُجبه. قال چوليان: «چوشوا العزيز يُحب تمثيل دور واحد من القطيع. ربما كان يطمح في أن يثخن جلده ويتحول إلى البني».

ضحك الآخرون في أدب. بينما يضحكون، طرأت على عقل بيلي الشرس فكرة. حكَّ رأسه وابتسم قائلًا فجأة لچوليان: «لن نُسرِّحهم. سندفعهم للفرار، وأعرف جيدًا كيف سنفعل هذا».

- عظيم يا بيلي. ماذا كنا سنفعل دونك؟

سأل بيلي وهو يشير تجاه يورك: «هل يمكنك إرغامه على فعل ما آمر به؟».

قال چوشوا يورك: «سأفعل ما يلزم لحماية قومي، ولحماية طاقمي أيضًا. لا داعي للإجبار».

قال بيلي الشرس وقد أدرك أن الأمر سيكون أسهل مما ظن: «عظيم، عظيم. هذا رائع حقًّا. يجب أولًا أن ألبس قميصًا نظيفًا. تجهَّز يا كابتِن يورك، ولنفعل ما يحمينا».

أضاف چوليان بهدوء: «جيد. سيذهب معكما كُرت. تحسُّبًا فقط».

بعد نصف ساعة، قاد بيلي الشرس چوشوا يورك وكُرت إلى طابق الغلايات بالأسفل. كانت الأمطار قد قلَّت، ورَسَت حلم فيڤر في بايو سيرا واقفة إلى جوار دستة بواخر أصغر، وقُدِّم العشاء في القاعة الكبرى. كان چوليان ورفاقه هناك يأكلون، ومقعد الرُّبان خاليًا، وسرعان ما سيلاحظ أحد هذا.

لحسن الحظ، كان مايك دَن المشعر في طابق الباخرة الرئيسي، يصيح في الحمَّالين وهم ينقلون شُحنة وأخشاب. راقبه بيلي الشرس بحرص قبل أن يبدأ خطته، فمايك دَن هو الأخطر.

قال بيلي الشرس وهو يقود رفيقيه إلى حيث لقي چين أردان حتفه: «الجثة أولًا».

كسر كُرت القفل بضربة واحدة من يده. أضاء بيلي مصباحًا بالداخل، ونظروا إلى الشيء على الفراش. صفَّر بيلي الشرس ثم قال: «حسنًا، حسنًا... لقد فعل أصدقاؤك أفاعيلهم بچين المسكين. نصف مخه على الملاءة، والنصف الآخر على الحائط».

امتلأت عينا يورك الرماديتان بالاشمئزاز وقال: «أظنك تريدنا أن نلقي الجثة إلى النهر».

- يا للجحيم، لا. سنحرق هذه الجثة في أحد أفرانك يا كابتِن، ولن نُهرِّبها إلى هناك. سنخرج بها إلى القاعة ومنها إلى الدَّرج الرئيسي.

سأله يورك في برود: «لماذا يا بيلي؟».

صاح بيلي: «فقط افعل ما أقول! وأنا أدعى السيد تيبتون يا كابتِن!».

لفُّوا جثة چين في الملاءة كيلا يظهر منه شيئًا. هرع يورك لمساعدة كُرت في حمله، لكن بيلي أبعده وحمله هو مع كُرت وهو يقول: «ليس منطقيًّا أن يحمل جُثة شريك في الباخرة ورُبَّان. امشِ فقط معنا وأظهِر القلق».

لم يحاول يورك إظهار القلق. فتحوا الباب المُفضي إلى القاعة الكُبرى وخرجوا، جسد چين أردان محمول بين بيلي وكُرت.

امتلأت نصف مقاعد طاولة العشاء، فشهق واحد من الجلوس، وتوقفت كل الأحاديث الجانبية. سأل رجل ضئيل ذو شارب أبيض وصدرية مُبقَّعة بالزيت: «هل أساعدك يا كابتِن يورك؟ ما هذا؟ هل مات أحد؟».

صاح بيلي الشرس عدما خطا الرجل خطوة إلى الأمام: «ابتعد!».

قال يورك للأشيَب: «افعل كما يقول».

فسَّر بيلي: «ما هذا إلا رجل ميت، توفي في غرفته. وجده السيد چيفرز. لا بد أنه كان مريضًا. سمعه السيد چيفرز يئن ووجده محمومًا».

بدا القلق على وجه الجميع. شحب وجه واحد منهم وقام هاربًا إلى غرفته. حافظ بيلي على تعبير وجهه الواجم وحرص على ألا يبتسم. سأل أولبرايت؛ القبطان الصغير المهندم: «وأين السيد چيفرز؟».

أجاب بيلي بسرعة: «ذهب إلى غرفته مريضًا. مارش معه. بدا السيد چيفرز مصفرًّا. لا بد أن رؤية رجل يموت لم تلائمه».

كما توقَّع، جاء وقع كلماته على الحضور قويًّا، خاصة عندما مال أرماند على ڤينسيت الجالس، وهمس بصوت مسموع كما اتفقوا: «چون البرونزي».

قال بيلي الشرس: «هذا ليس چون البرونزي».

قصد أن يعلو بها صوته، فغمغم الجميع وتدافعت الكلمات بينهم وهم يقومون. أضاف بيلي: «لا بد أن نحرق الجثة».

ثم أسرع وهو وكُرت إلى الدَرَج الرئيسي، وچوشوا يورك خلفهما رافعًا كفيه، يحاول إبعاد عشرات الأسئلة المرعبة. تحاشى الركاب كُرت وبيلي وحمولتهما وهما يمُرَّان.

لم يكن في طابق الباخرة الرئيسي سوى راكبين يفترشان الأرض، وبعض الحمَّالين. كانت الأفران قد أغلقت، لكنها بعد حارَّة، وأحرق بيلي أصابعه وهو يُودِع مع كُرت الجثة الملفوفة داخل أقرب الأفران. كان يسب ويهز يده في الهواء عندما لحق بهما چوشوا يورك. قال بملامح شاحبة حائرة: «إنهم يرحلون. كل الركاب تقريبًا يحزمون أمتعتهم، وجاءني أكثر من نصف الطاقم يطالبونني بباقي أجرهم. العُمال وخدم الغرف والنُّدُل وحتى چاك إيلي. لا أفهم...».

قال بيلي تيبتون الشرس: «چون البرونزي يستقل باخرتك عبر النهر. أو هذا على الأقل ما يظنون».

عبس يورك وهو يسأل: «چون البرونزي؟».

- الحمى الصفراء يا كابتِن. أرى أنك لم تكن في نيو أورلينز عندما حل الوباء. لن يمكث أي شخص على متن هذه الباخرة، ولن يقترب أحد من الجثة، ولن يبحث أحد عن چيفرز أو مارش. لقد دفعتهم للظن إلى أنهم أصيبوا بالمرض. هذه الحمى معدية حقًّا، وسريعة الانتشار. في البداية تتحول إلى اللون الأصفر، وتقيء مادة سوداء، وترتفع حرارتك كالشيطان، ثم تموت. لذا كان علينا حرق جثة چين هنا كي يقتنعوا بجدية الوضع.

راقب بيلي الشرس عينيه وهو ينظر إلى الجسد يتفحم سريعًا، وتأكد من أن كل شيء يجري كيفما خطط، ثم استدار مبتعدًا في ملل. رأى براميل شحم الخنزير في الجوار، فسأل چوشوا يورك: «تستخدم هذا في زيادة السرعة للسباقات، أليس كذلك؟».

أومأ يورك إيجابًا. بصق بيلي الشرس ثم أردف: «في الجنوب، عندما يريد أحد القباطنة زيادة سرعة الباخرة للسباق يدُس في الفرن زنجيًّا شحيمًا. شحم الخنزير باهظ الثمن. كما ترى، أنا أعرف بعض الأمور عن البواخر أيضًا. خسارة أننا لم نحفظ چين لسباق».

ابتسم كُرت لهذا، بينما حدَّق إليه چوشوا يورك فقط في حنق. لم تعجب تلك النظرة بيلي الشرس، لكن قبل أن يقول شيئًا سمع صوتًا كان يتوقعه.

- أنت!

جاء مايك دَن المشعر مسرعًا بطوله الذي يجاوز ستة أقدام، وماء المطر يقطر من حافة قبعته السوداء العريضة، والرطوبة تزين سالفيه الأسودين الأشعثين بحبَّات دقيقة، وملابسه ملتصقة بجسده. عيناه لامعتان كبِليَتين خضراوين، يحمل عصاه الحديدية الطويلة بين يديه، يضرب بها كفه مُهدِّدًا، يسير خلفه دستة عُمَّال وحمَّالين، من بينهم عامل الفرن السويدي الضخم، وزنجي أكثر ضخامة بأُذُن واحدة، وآخر يحمل لوحًا خشبيًّا مما يُستعمل في البناء، ورجلان يلوحان بالسكاكين. اقترب الرجل أكثر والآخرون معه وهو

يهدر: «مَن تحرق هنا يا ولد؟ وما هذا الكلام عن الحمى الصفراء؟ ليس على هذه الباخرة أي حمى صفراء».

قال بيلي الشرس ليورك مُلحًّا: «افعل كما أمرتك».

وتراجع عن الفرن باقتراب مايك المُشعر. وقف چوشوا يورك بينهما رافعًا يديه وهو يقول: «توقف. أنا أسرحك هنا والآن يا سيد دَن. أنت لست من طاقم حلم فيڤر بعد الآن».

نظر إليه دَن في شك وسأله: «أنا؟ سُحقًا، لن تفعل هذا!».

- أنا السيد والرُّبان هنا.

- حقًّا؟ حسنًا. أنا لا أتلقى أوامر إلا من كابتِن مارش. لو طلب مني الرحيل سأرحل. حتى يحدث هذا سأظل في وظيفتي، ولا تخبرني أكذوبة شراء نصيبه من الباخرة. لقد سمعت هذه الأكاذيب في الصباح.

خطا خطوة أخرى إلى الأمام مضيفًا: «والآن، ابتعد عن طريقي يا كابتِن. دعني أنتزع الإجابات التي أريدها من السيد بيلي الشرس».

قال يورك كاذبًا في صدق حقيقي: «سيد دَن. ثمة مرض على هذه الباخرة. سيتولى السيد تيبتون الإشراف على العمال إذ إنه تعرَّض بالفعل للمرض».

ضرب مايك المشعر كفه بالهراوة الحديدية وهتف: «هذا؟ هو لا يعرف شيئًا عن العمل في البواخر!».

قال بيلي وهو يخطو نحوه: «عملت مشرفًا من قبل، ويمكنني التعامل مع الزنوج».

ضحك مايك دَن المُشعِر. شعر بيلي الشرس ببرودة قوية. لو أن هناك شيئًا لا يتحمَّله في هذا العالم لكان سخرية الآخرين منه، لكنه قرر ألا يُخيف السيد دَن. قتله سيكون عملًا أكثر لُطفًا. قال له: «خلفك الزنوج وحثالة البيض. يبدو لي أنك خائف من مواجهتي وحدك».

زمَّ دَن عينيه الخضراوين مُبديًا الخطورة، وضرب كفه بالهراوة بقوة أكبر من ذي قبل. أقبل خطوتين سريعتين نحو وهج الفرن ووقف هناك أمام الجحيم ينظر إلى الجثة المحترقة. أخيرًا استدار نحو بيلي الشرس وقال: «لا يوجد سواه بالداخل. هذا في مصلحتك. لو أنني رأيت معه الكابتِن أو چيفرز لهشمت كل عظمة في جسدك قبل أن أقتلك، لكني الآن سأقتلك فقط».

وقف يورك أمام الرجل مرة أخرى وقال: «لا، انزل عن باخرتي. أنت مفصول عن العمل».

دفعه مايك المُشعر عن طريقه.

- ابتعد عن هذا الأمر يا كابتِن. لا بد من نزال شريف بيننا أنا وهو فقط. لو هزمني يأخذ مكاني، لكنني سأسحق رأسه، ثم سنذهب أنا وأنت لنبحث عن كابتِن مارش لنَرى مَن سيغادر هذه الباخرة.

مدَّ بيلي الشرس يده خلفه واستلَّ سكينه. نظر چوشوا يورك إليهما متوسلًا. تراجع الرجال الآخرون الآن وراحوا يهتفون مشجعين مايك المُشعِر. تحرَّك كُرت في خفة وأبعد يورك عن الطريق ليمنعه من التدخُّل.

انعكس وهج الفرن على مايك دَن المُشعر فبدا كأنه مخلوق قادم للتو من الجحيم، يحتشد الدخان حوله، جلده محمر لامع، يضرب كفه بعصاه الحديدية وهو يقترب. قال باسمًا، مُنهيًا كل عبارة بضربة على كفه: «واجهت فتية بسكاكين من قبل. الكثير من الفتية القذرين الصغار. جُرِحت أيضًا من قبل. الجروح تندمل يا بيلي الشرس. لكن الرؤوس المهشَّمة شيء آخر».

تراجع بيلي بخطوات ثابتة، حتى لم يعد شيء خلفه إلا الصناديق المكوَّمة، وقبضته مرتخية على السكين. رآه مايك المُشعر محاصرًا فابتسم، ورفع العصا فوق رأسه، ثم هوى بها...

أدار بيلي الشرس السكين بين يديه، ثم قذفها فشقَّت الهواء إلى ما تحت ذقن مايك المشعر لتنغرز في عنقه. ركع على ركبتيه والدماء تندفع من فمه، ثم انطرح أرضًا.

قال بيلي الشرس وهو يدور حول الجثة: «لا بأس، لا بأس...».

ركل الرأس ثم ابتسم ناظرًا إلى الزنوج والأجانب، وإلى كُرت، ثم إلى چوشوا يورك مُكرِّرًا: «لا بأس، لا بأس. أعتقد أن هذا يجعلني مشرِفًا الآن».

***

واحد وعشرون



سانت لويس
سبتمبر 1857

صفق أبنر مارش الباب من خلفه، بعدما دخل إلى مكتب شركة خط بواخر فيڤر في شارع باين، ثم صاح وهو يندفع نحو الموظف الجالس خلف مكتبه: «أين هي؟».

حامت ذبابة حول رأسه، فذبَّها مارش فارغ الصبر وكرر: «أسألك: أين هي؟».

الموظف شاب أسمر يلبس قميصًا مخططًا، ويضع نظَّارة خضراء. قال مرتبكًا: «مهلًا يا كابتِن مارش. يا له من شرف أن تزورنا. لم نتوقع قدومك يا سيدي الكابتِن. هل سترسو حلم فيڤر هنا؟».

نخر مارش، وفرد ظهره، ثم راح يضرب الأرض بعصاه في حنق: «سيد جرين، كف عن الثرثرة، وانتبه. أنا سألتك: أين هي؟ والآن، عمَّ تظنني أسألك؟».

- أعتقد أنني لا أعرف يا كابتِن.

صاح مارش بوجه محمر: «عن حلم فيڤر! أريدك أن تعرف أين هي الآن! أعرف أنها لم ترسُ، فلديَّ عينان، ولم أرها في أي مكان على امتداد النهر اللعين. هل جاءت ثم غادرت مرة أخرى؟ هل رحلت إلى سانت بول أو إلى ميزوري؟ أوهايو؟ لا تنظر إليَّ بهذا الجمود، فقط أخبرني. أين باخرتي اللعينة؟!».

- لا أعرف يا كابتِن. أعني، ما لم تجلبها أنت فلن يكون لدي معلومة. هي لم تعُد إلى سانت لويس منذ أقلعت بها في يوليو. لكننا سمعنا... سمعنا...

- أجل... ماذا سمعتم؟

- الحمى يا سيدي. سمعنا أن الحمى الصفراء أصابت ركاب حلم فيڤر في بايو سيرا. الناس يموتون كالذباب كما قيل لنا. سمعنا أيضًا أنك والسيد چيفرز التقطتما العدوى. لهذا لم أتوقع قَط قدومك، خاصة مع حالات الوفاة وكل شيء. ظننا أنهم سيحرقونها يا كابتِن. الباخرة.

خلع نظارته وحكَّ رأسه مضيفًا: «يبدو أنك نجوت من الحمى يا كابتِن. سعيد لسماع هذا. لكن... إن لم تكن حلم فيڤر معك، فأين هي؟ هل أنت واثق من أنك لم ترسُ بها ونسيت؟ أسمع أن الحمى قد تُسبب شرود ذهن مريعًا».

زَعق أبنر مارش: «أنا لم أصب بالحمى، وأنا أشك في أنك قادر على تمييز باخرة من أخرى يا سيد جرين. أنا فقط مصاب برعشة لسقوطي في النهر اللعين. كدت أغرق. هكذا فقدت حلم فيڤر وهدفي الآن العثور عليها. هل تسمعني؟ أين سمعت كل هذا الهراء عن الحمى الصفراء؟».

- من الطاقم يا كابتِن. ذلك الذي هرب منها في بايو سيرا. قابلت بعضهم عندما عادوا إلى سانت لويس منذ... آوه... أسبوع تقريبًا. منهم من كان يسأل عن عمل على متن إيلي رينولدز يا كابتِن، لكن بالطبع ليس فيها وظائف شاغرة، فتركتهم يرحلون. أتمنى أن أكون قد تصرفت بشكل صحيح. أنت لم تكن هنا بالطبع، ولا السيد چيفرز، وظننت أنكما قد... توفيتما. لم يكن لدي أي تعليمات.

- لا بأس.

أراحته الأخبار إلى حد ما. لو أن چوليان وجماعته استولوا على الباخرة، على الأقل بعض طاقمه نجا. سأل مارش: «مَن جاءك من الطاقم؟».

- رأيت المهندس چاك إيلي، وبعض النُّدُل، واثنين من العمال؛ سام كلاين وسام تومبسون، وبعض الآخرين.

- هل أي منهم ما زال في الجوار؟

- عندما لم أجد لهم عملًا، ذهبوا يبحثون في البواخر الأخرى يا كابتن. لا أعرف.

- سحقًا.

رفع الموظف إصبعه هاتفًا: «انتظر! القبطان، السيد أولبرايت، هو من أخبرني عن الحمى. كان هنا منذ أربعة أيام ولم يسأل عن عمل؛ فهو من

قباطنة جنوب النهر كما تعرف، والعمل على متن إيلي رينولدز لا يلائمه. قال لي إنه اتخذ غرفة في بيت المزرعة حتى يجد وظيفة في باخرة أرقى وأكبر ذات رفاسات جانبية».

- أولبرايت... ماذا عن كارل فرام؟ هل رأيته؟

لو أن فرام وأولبرايت غادرا حلم فيڤر، فلن يكون صعبًا العثور عليها. دون قبطان مؤهَّل لن تتحرك كثيرًا. هز جرين رأسه نافيًا وأجاب: «لا، لم أرَ السيد فرام».

خبا أمل مارش. لو أن كارل فرام ما زال على متن الباخرة، ربما تكون حلم فيڤر في أي مكان على امتداد النهر، أو قصدت نيو أورلينز بينما هو ملقى في ساحة الأخشاب جنوب بايو سيرا. قال مارش للموظف: «سأبحث عن أولبرايت، وأريدك أن تكتب لي بعض الخطابات وترسلها إلى الوكلاء والقباطنة وأي شخص على امتداد النهر تعرفه، من هنا حتى نيو أورلينز. اسأل عن حلم فيڤر. لا بد أن أحدًا قد لمحها. باخرة بهذه الضخامة لن تختفي ببساطة. اكتب هذه الخطابات كما سمعت، ثم أرسلها مع أسرع باخرة تجدها. أنا أنتوي العثور على باخرتي مهما كلَّفني الأمر».

- أمرك يا سيدي.

أخرج من درج المكتب أوراقًا وقلمًا، غمسه في دواة الحبر، وبدأ يكتب.

***

رفع موظف استقبال بيت المزرعة رأسه محييًا: «مرحبًا يا كابتِن مارش. سمعت بمصابك الأليم. چون البرونزي خبيث حقًّا. أنا سعيد أنك تحسنت يا كابتِن. حقًّا سعيد».

أجاب مارش في ضيق: «لا يهم. في أي غرفة يقيم السيد أولبرايت؟».

***

كان أولبرايت يلمع حذاءه. دعا مارش للدخول بإيماءة تحية مهذبة، ثم عاد لمباشرة عمله كأنه لم يقم لفتح الباب.

جلس أبنر مارش ولم يضيع وقتًا في المجاملات.

- لماذا تركت حلم فيڤر؟

- الحمى يا كابتِن.

نظر إلى مارش هنيهة، ثم عاد لتلميع الحذاء دون كلمة إضافية.

- أخبرني عمَّا حدث يا سيد أولبرايت؛ لم أكن هناك.

عقد دان أولبرايت حاجبيه وهو يقول: «لم تكن هناك؟ لقد فهمت أنك والسيد چيفرز من عثرتما على أول مصاب».

- لقد أسأت الفهم. الآن احك لي.

راح أولبرايت يكمل ما كان يفعل وهو يحكي له كل شيء عن العاصفة، والعشاء، والجثة التي كان يحملها چوشوا يورك وبيلي الشرس والرجل الآخر وعبروا بها القاعة الكبرى، وذعر الركاب والطاقم. حكى كل هذا بأقل عدد كلمات ممكن. عندما انتهى كان حذاؤه يلمع، فانتعله.

سأله مارش: «غادر الجميع؟».

- لا، مكث بعض ممن لا يعرفون الحمى كما أعرفها.

- مَن؟

- كابتِن يورك، أصدقاؤه، مايك المشعر، العمال والحمالون أيضًا. أعتقد أنهم كانوا يخشون مايك أكثر مما يخشون الحمى. ربما مكث بليك الأشيب، وأنت وچيفرز كما ظننت.

- چيفرز مات.

لم يعلق أولبرايت. سأله مارش: «ماذا عن كارل فرام؟».

- لا أعرف.

- لقد كنتما شريكين.

- كنا مختلفين. لم أره. لا أعرف يا كابتِن.

عبس مارش وقال: «ماذا حدث بعدما تسلَّمتم حسابكم؟».

- قضيت يومًا في بايو سيرا، ثم ركبت إلى ناتشيز مع كابتن ليثرز. قضيت أسبوعًا هناك ثم عدت إلى سانت لويس على متن الباخرة روبرت فولك.

- وماذا حدث لحلم فيڤر؟

- غادرت.

- غادرت؟

- لا بد أنها أبحرت. في الصباح التالي لانتشار الحمى وجدتها غير موجودة في بايو سيرا.

- دون طاقم؟

- يبدو أنه قد بقي فيها ما يُشغِّلها.

- إلى أين ذهبت؟

هز أولبرايت كتفيه وهو يقول: «لم أرها في ناتشيز. ربما فوَّتتها. لم أكن أنظر إلى النهر. ربما أبحرت جنوبًا. لا أعرف».

قال مارش ساخرًا: «كم ساعدتني يا سيد أولبرايت!».

- لا أستطيع أن أخبرك ما لا أعلم. ربما أحرقوها. ما كان عليك تسميتها باسم له علاقة بالحمى. الاسم شؤم عليها.

هتف مارش وقد بدأ يفقد صبره: «لن تُحرَق. لا بد أنها في مكان ما من النهر، وسأجدها... وهي ليست مشؤومة أيضًا».

- لقد كنت القبطان يا كابتِن، وقد رأيت الشؤم بعيني. عواصف، ضباب، تأخير، وأخيرًا الحمى. هذه الباخرة ملعونة. لو كنت مكانك لتركتها وشأنها. لا فائدة تُرجى منها.

ثم قام أولبرايت مضيفًا: «هذا يذكرني بأن معي شيئًا يخصك».

أحضر كتابين أعطاهما لمارش وأكمل: «من مكتبة حلم فيڤر. لعبت الشطرنج مع كابتِن يورك عندما كنا في نيو أورلينز، وذكرت له أنني أحب الشعر، فأعطاني هذين في اليوم التالي. أخذتهما معي بالخطأ وأنا أحزم أمتعتي».

قلب أبنر مارش الكتابين بين يديه. كتابَا شعر، واحد لبايرون، والآخر لشيلي. فكر في أن هذا ما كان ينقصه. ضاعت باخرته... اختفت، وكل ما تبقى منها كتابا شِعر لعينين. قال لدان أولبرايت: «احتفظ بهما!».

هزَّ أولبرايت رأسه وهو يقول: «لا أريدهما. ليسا من نوعية الشعر الذي أحبه يا كابتِن. كلاهما يحوي قصائد غير أخلاقية. لا عجب فيما حدث لباخرتك وهي تحمل كتبًا كهذين».

دسَّ أبنر مارش الكتابين في جيبه وقام هاتفًا: «لقد نلت كفايتي يا سيد أولبرايت، ولن أسمع المزيد من هذا الكلام عن باخرتي التي هي باخرة كمثل شبيهاتها، وليست ملعونة ولا أي شيء. لا وجود للعنات. حلم فيڤر...».

قاطعه أولبرايت: «هي كما تقول. اسمح لي، لا بد أن أخرج الآن».

قاد مارش إلى الباب، وترك مارش نفسه يُقاد، وأمام الباب قال القبطان ضئيل الحجم: «كابتن مارش... دعها».

- ماذا؟

- تلك الباخرة. لن تنفعك. هل تعرف كيف أشُم اقتراب العاصفة؟

- أجل.

أولبرايت قادر على شم رائحة العواصف بطريقة لم يرها مارش من قبل.

- أحيانًا أشم أمورًا أخرى أيضًا. لا تبحث عنها يا كابتِن. انسها. ظننتك مُت، لكنك لم تفعل، وعليك أن تكون شاكرًا لهذا. لن يجلب لك العثور على حلم فيڤر أي سعادة يا كابتِن.

حدق إليه أبنر مارش غير مصدق.

- كيف تقول هذا؟ لقد وقفت خلف مقودها، وصحبتها عبر النهر، ومع ذلك تقول هذا؟

لم يقل أولبرايت شيئًا. أضاف مارش: «حسنًا لن أنصت لما قلت. هذه باخرتي يا سيد أولبرايت، وسوف أسابق بها الباخرة شفق. هل تسمع؟ و... و...».

محمر الوجه منتفخ الشرايين، وجد مارش نفسه يختنق بكلماته، ويعجز عن إكمال عبارته. قال دان أولبرايت: «الكبرياء خطيئة يا كابتن. دعها وشأنها!».

ثم أغلق الباب تاركًا مارش بالخارج.

***

تناول مارش عشاءه في بيت المزرعة، وحاول تناسي ما يشغل باله. هزَّه ما قال أولبرايت، ووجد نفسه يفكر في الأفكار ذاتها التي وردت على خاطره وهو في النهر على متن الباخرة الأميرة. أكل فخذ ضأن بصلصة النعناع،

وفاصوليا، وثلاث أطباق تابيوكا، لكن كل هذا لم يهدئ روعه. بينما يشرب قهوته تساءل مارش إن كان أولبرايت مخطئًا. لقد عاد إلى سانت لويس، في المكان ذاته الذي التقى فيه چوشوا يورك، في الغرفة نفسها. ما زال في حوزته الباخرة إيلي رَينولدز، وبعض المال في المصرف أيضًا. هو رجل خبير في أعالي النهر، وكانت موافقته على الإبحار إلى نيو أورلينز خطأً جسيمًا. لقد تحول حلمه إلى كابوس هناك في بلاد العبيد، في الجنوب الحار المحموم. لكن كل هذا انتهى الآن، وقد ضاعت باخرته، تبخّرت، ولو أراد لتظاهر بأن كل هذا لم يحدث، ولم يكن في العالم قَط باخرة بسم «حلم فيڤر»، أو أحد يُدعى چوشوا يورك، أو دامون چوليان، أو بيلي تيبتون الشرس. خرج چوشوا يورك من اللامكان، وعاد إليه مرة أخرى الآن. لم تولَد حلم فيڤر في أبريل، ولا وجود لها الآن على حد علم مارش. لا يصدق أي عاقل ما حدث؛ شرب الدماء، والتجمع ليلًا حول زجاجات مشروب خبيث الطعم. لم يكن كل هذا سوى حُلم محموم، لكنه برئ الآن من الحمى، وعليه أن يستكمل حياته في سانت لويس.

طلب مارش المزيد من القهوة، وفكَّر وهو يشربها في أنهم سيستمرون في القتل بلا رادِع. غمغم لنفسه: «لا يمكن ردعهم على أي حال».

لقد فعل كل ما في استطاعته، هو وچوشوا ومايك المُشعر والمسكين چيفرز الذي لن يلعب الشطرنج أو يرفع حاجبًا متعجبًا مرة أخرى. لم تؤدِّ بهم جهودهم إلى أي مكان، ولن يُجدي طلب مساعدة السلطات، ليس بقصة عن مجموعة مصاصي دماء سرقوا باخرته. لن يصدقوا سوى تفصيلة الحمى الصفراء، وسيعتبرون كل هذا هلوسة أدت إلى جنون، ولا بد من حجزه في مكان ما.

دفع أبنر مارش فاتورته، ثم عاد إلى مكتب خط بواخر نهر فيڤر. الشوارع مكتظة بالمارة، والسماء أعلاه زرقاء صافية، وتحته النهر لامع نظيف تحت ضوء الشمس، وللهواء رائحة الدخان والبخار، وصوت صافرات البواخر يملأ المكان، ترافقه دقات الأجراس النحاسية العملاقة تعلن مغادرة البواخر ذات الرفاسات الجانبية.

العُمال والحمالون يتصايحون ويغنون وهم ينقلون البضائع، فأنصت أبنر مارش وملأ بصره. هذه هي الحياة، أما الأخرى فهلوسة حمى بالتأكيد. لقد أخبره چوشوا أن مصاصي الدماء يقتلون منذ آلاف السنين، فكيف أمِل مارش في تغيير هذا؟ ربما كان چوليان على حق، والقتل طبيعته، أما طبيعة أبنر

مارش هي أن يكون رُبَّان بواخر لا أكثر. هو لم يكن قط مقاتلًا، وقد حاول يورك وچيفرز ودفعا الثمن غاليًا.

عندما دخل المكتب، توصل مارش إلى أن دان أولبرايت على حق. لا بد أن ينسى كل شيء عن حلم فيڤر، وعن كل ما حدث فيها. هذا هو قرار العقل. الأفضل أن يدير شركته ويكسب منها بعض المال، وقد يتمكن خلال عام أو اثنين من بناء باخرة أخرى، واحدة أكبر.

هرع إليه جرين وهو يهتف: «لقد أرسلت عشرين خطابًا يا كابتِن كما أمرت».

- جيد.

غاص مارش في المقعد. كاد قبلها أن يجلس على ديواني الشعر في جيبه، فأخرجهما وقلَّب صفحاتهما سريعًا، ثم وضعهما جانبًا. إنهما لا يحويان سوى قصائد على أي حال. زفر مارش ثم قال: «أحضر الكتابين يا سيد جرين. أريد إلقاء نظرة عليهما».

- أمرك يا كابتِن.

جلب الشاب الكتابين، لكنه لاحظ شيئًا آخر، فالتقطه وأعطاه لمارش.

- أوه، كدت أنسى هذا.

ناول مارش طردًا كبيرًا ملفوفًا في ورق بني، ومربوطًا بخيط.

- رجل ضئيل أحضر هذا منذ ثلاثة أسابيع، وقال إن المفترض أن تتسلم أنت هذا، لكنك لم تظهر. قلت له إنك بعد على متن حلم فيڤر، ودفعت له. أتمنى ألا أكون قد أخطأت.

عقد مارش حاجبيه ناظرًا إلى الطرد، ثم قطع الخيط بلفَّة من يده، ومزق الغلاف الورقي ثم فتح الصندوق. بداخله وجد سترة الربَّان الجديدة التي طلبها، بيضاء كالجليد الذي يغطي أعالي النهر في الشتاء. نظيفة نقية، ذات صفي أزرار فضية لامعة، واسم حلم فيڤر محفور على كل واحد منها. أخرجها من الصندوق، فسقط الأخير على الأرض، وفجأة، وأخيرًا، انهمرت الدموع. صاح مارش: «اخرج!».

نظر الموظف نظرة واحدة إلى وجهه، ثم غادر. قام أبنر مارش وارتدى السترة الجديدة، وأغلق أزرارها الفضية. المقاس مضبوط تمامًا. كانت باردة، أكثر برودة من سترة الربَّان الزرقاء الثقيلة التي كان يرتديها. لم يكن في

المكتب مرآة، لذا لم يستطع مارش رؤية شكله فيها، لكنه تخيله. في خياله بدا مثل چوشوا يورك، أنيقًا وسيمًا راقيًا. القماش أبيض إلى حد مدهش.

قال مارش بصوت عالٍ: «أبدو كما لرُبَّان لحلم فيڤر أن يبدو».

ضرب بعصاه الأرض، وشعر بالدم يتدفق إلى وجهه صاعدًا. وقف مكانه يتذكَّر. يتذكَّر كيف بدت وسط الضباب في نيو ألباني. يتذكر لمعة مراياها، يتذكر فضتها، يتذكر صوت صافرتها الجامح، وضجيج محركها الهادر كهزيم الرعد. يتذكَّر كيف جاوزت الباخرة الجنوبية، وكيف هزمت الباخرة ماري كاي. تذكَّر طاقمها أيضًا؛ فرام وحكاياته البذيئة، بليك الأشيب الملوث بالشحم، توبي ذابح الدجاج، مايك المشعر يصيح ويسب الحمَّالين والعمال، چيفرز ولعبة الشطرنج، وفوزه على دان أولبرايت للمرة المائة. لو أن أولبرايت ذكي كما يُقال، فكيف لم يهزم چيفرز ولو مرة؟

لكن مارش تذكَّر چوشوا أكثر من أي شيء أو شخص آخر. چوشوا يرتدي الأبيض، چوشوا يرشف الخمر، چوشوا يجلس في الظلام يجتر أحلامه. يتذكر عينيه الرماديتين وقبضته القوية وشِعره، وسمع همس الذكرى. «لكل منا اختياراته...».

حلَّ النهار وارتحل، ثم حل ولم يرافقه الصبح.

- جرين!

صاح مارش بأعلى صوته، فانفتح الباب ودس جرين رأسه في فرجته قلِقًا.

- أريد باخرتي. أين هي بحق الجحيم؟

ابتلع جرين ريقه وقال: «كابتِن، لقد أخبرتك أن حلم فيڤر...».

ضرب مارش الأرض بعصاه وهو يصيح: «ليست هذه! بل باخرتي الأخرى. أين باخرتي الأخرى وأنا الآن أحتاج إليها؟».

***

اثنان وعشرون



على متن الباخرة إيلي رينولدز
نهر المسيسبي
أكتوبر 1857

في مساء بارد من بدايات الخريف، غادر أبنر مارش وإيلي رينولدز ميناء سانت لويس أخيرًا، متجهين جنوبًا، بحثًا عن حلم فيڤر. كان في وسع مارش الإبحار قبل أسابيع، لكن توجَّب عليه إنهاء بعض الأمور. كان عليه انتظار عودة إيلي رينولدز من رحلتها إلى إلينوي، ثم التأكد من أنها ستتحمل الإبحار في جنوب النهر، واستئجار قبطانين خبيرين في نهر المسيسبي.

كان لمارش أيضًا ديونًا يسوِّيها لصالح من ائتمنوه على بضائعهم لنقلها على متن حلم فيڤر، وقد أثارهم خبر اختفاء الباخرة. كان مارش ليُصِر على مشاركتهم في خسائره، لكنه لطالما فخر بسمعته وعدله، لذا دفع لهم نصف ما عليه.

ثم كان عليه الانتهاء من مهمة إنباء أهل چيفرز بالخبر المشؤوم، وأدرك مارش صعوبة إخبارهم ما حدث بالضبط، لذا اختار حكاية الحمى الصفراء. أشخاص آخرون كانوا يبحثون عن مفقوديهم، وأمطروا مارش بالأسئلة التي عجز عن الإجابة عنها. توجَّب عليه أيضًا التعامل مع مفتش الحكومة ورجل من رابطة القباطنة، وتسوية الحسابات، والإعداد للرحلة، ومراجعة الكتب. نتج عن كل هذا تأخير شهر.

لكن خلال هذه الفترة، ظل مارش يبحث. عندما لم يتلقَّ ردًّا على الخطابات التي أرسلها جرين نيابة عنه، أرسل المزيد. قابل من رجال النهر ما استطاع مقابلته، وسألهم عن حلم فيڤر، وعن چوشوا يورك وكارل فرام ومايك دَن المُشعِر وتوبي لانيارد. استأجر مُخبرَين وأرسلهما إلى الجنوب مع تعليمات

بالبحث وراء أي خيط يجدونه، حتى إنه استعار حيلة من حيل چوشوا، وبدأ في شراء الصحف التي تصدر من كل مدن النهر، وأمضى ليالي يبحث في أعمدة أخبار السفن والإعلانات وقوائم وصول البواخر ومغادرتها من مواني سينسيناتي حتى مواني نيو أورلينز وسانت بول. زار فنادق وحانات أكثر من عادته، وسأل آلاف الأسئلة.

ولم يعرف شيئًا. اختفت حلم فيڤر على ما يبدو عن وجه النهر. لم يرها أحد ولم يتحدث أحد مع بليك الأشيب أو السيد فرام أو مايك المُشعِر، ولم يسمع بهم أحد. ولم ترد في الصحف أخبار رسوها في أي ميناء.

شكا مارش إلى ضباط إيلي رينولدز قبل أسبوع من المغادرة: «لا يُعقَل هذا. الباخرة بطول ثلاثمائة وستين قدمًا، جديدة، سرعتها تكفي للفت نظر أي من رجال البواخر. لا بُد أن تُلاحَظ باخرة كهذه».

قال أحد أفراد طاقم إيلي رينولدز: «إلا إذا ذهبت جنوبًا حيث مناطق أعمق في النهر قد تُغرِق قرى بأكملها. ربما غرقت بمن عليها».

- لا.

قالها مارش في عِند. هو لم يخبرهم القصةَ كاملة، ولم يكن أيُّهم على متن حلم فيڤر، ولن يصدقوه.

- كلا، لم تغرق. هي في مكان ما في الجنوب تختبئ مني. لكنني سأعثر عليها.

سأل يورچِر، قبطان إيلي رينولدز: «كيف؟».

- النهر طويل وله الكثير من الفروع ويمكن للبواخر أن تختبئ فيه ولا تُرى بسهولة. لكن لن يمر وقت طويل حتى يُعثَر عليها. يمكننا البدء من ناحية، ثم الانطلاق منها إلى الناحية الأخرى، ونسأل عنها على طول الطريق، ولو وصلنا إلى نيو أورلينز ولم نعثر عليها، يمكننا تكرار الأمر في أنهار أوهايو وميزوري وإلينوي والنهر الأحمر، وأي مكان لعين يمكن لباخرة أن توجد فيه.

- لكن كل هذا سيتطلب وقتًا.

- وماذا في ذلك؟

هزَّ يورچِر كتفيه، وتبادل باقي الطاقم نظرات متشككة. صاح أبنَر مارش: «لا تشغلوا عقولكم بالوقت الذي ستحتاج إليه الرحلة. فقط جهِّزوا باخرتي. مفهوم؟».

- نعم يا سيدي الكابتِن.

يورچِر طويل، طاعن، هزيل صوته هادئ، وكان يعمل على متن البواخر منذ اخترعوها، ولم يعد شيءٌ يفاجئه، فظهر هذا في الطريقة التي نطق بها عبارته السابقة.

عندما جاء اليوم المُختار، ارتدى أبنر مارش معطف الربَّان الأبيض الجديد، بصفي الأزرار الفضية. تناول عشاءً ضخمًا في بيت المزرعة –طاهي الباخرة غير مُتمرِّس ولا يصلح إلا لتنظيف أواني توبي- ثم اتجه إلى الميناء.

تصاعد البخار من مداخن إيلي رينولدز، فاستحسن مارش المنظر، لكنها لم تبدُ في بهاء كافٍ. الباخرة من بواخر جنوب النهر، صغيرة رفيعة منخفضة الارتفاع لتناسب الجداول الضحلة الضيقة حيث توصل حمولتها.

طولها يقارب رُبع طول المُختفية حلم فيڤر، وفي نصف عرضها، وتستطيع حمل 150 طنًّا بحد أقصى، ولا تُقارن بالبواخر الكبرى التي تحمل آلاف الأطنان. لرينولدز طابقان فقط، دون مهاجع للطاقم، إذ يسكنون النصف الأمامي من غرف طابق الغلايات؛ نادرًا ما يستقلها رُكاب على أي حال.

يدير رفاسها الوحيد غلاية واحدة ذات ضغط عالٍ، بدنها بلا زينة على الإطلاق. هي الآن بلا حمولة أيضًا، فاستطاع مارش رؤية الغلاية تعمل. صفوف أعمدة من الخشب الأبيض ترفع الطابق الثاني، وغطاء الرفاس الخلفي عبارة عن مكعب أبيض خشبي، أما الرفاس نفسه فيبدو في حال يرثى له، بطلاء أحمر بهت من كثرة الاستخدام.

مقصورة القيادة مجرد غرفة من الخشب والزجاج تقبع عند قمة الباخرة، والمداخن أنابيب حديدية سوداء. بان عُمر إيلي رينولدز عليها، بأخشابها البالية وطلائها القديم، وبدت كأنها ستميل فورًا على جانبها وتغرق.

لا تضاهي بالطبع حلم فيڤر الضخمة القوية، لكنها كل ما يملك أبنر مارش الآن، وستؤدي الغرض. مشى نحو الباخرة وصعد إليها عبر لوح خشبي بَلِيَ من سنوات احتكاك الأحذية به. قابله ضابط الباخرة كات جروڤ وأكد له أنهم مستعدون للإبحار. فقال مارش: «مُر القبطان بالانطلاق».

صاح جروڤ بالأوامر، فأطلقت إيلي رينولدز صافرتها الرفيعة غير المميزة كما سمعها مارش. صعد الدَّرج الضيق إلى القاعة الرئيسية المظلمة الخانقة، التي لا يجاوز طولها أربعين قدمًا. البساط مهترئ في عدة مواضع، والجداريات على الحوائط والأبواب بهتت متحولة إلى أشباح رسم. المكان كله يفوح برائحة الطعام الفاسد والخمر الرخيص والزيت والدخان والعرق، درجة حرارته تثير الضيق أيضًا، ومسقط الضوء الوحيد في السقف متسخ الزجاج، لا يُدخل ضوءًا كافيًا.

كان يورچر والقبطان الآخر يشربان القهوة السوداء حول مائدة مستديرة عندما دخل مارش. سألهما: «هل حمَّلتما شحم الخنزير خاصتي؟».

أومأ يورچِر إيجابًا. علَّق مارش: «لم تحمِّلوا بضائع أخرى كما أرى».

- ظننتك ستريد الباخرة على هذا الحال يا كابتِن. الحمولات ستُثقلنا وتُبطئنا، وسنضطر أيضًا إلى التوقف في عدة مواني لتفريغها.

استحسن مارش ما قيل.

- جيد. كلام معقول. هل وصل طَردي؟

- في غرفتك.

حياهما مارش وذهب إلى غرفته. صرَّ الفراش وهو يجلس على طرفه ليفتح الطرد، ويخرج منه البندقية والخراطيش. فحصها بحرص، واستشعر وزنها بين يديه. ربما البندقية أو المسدس العاديان لن يؤثرا في قوم الليل، لكن هذه شيء آخر، مصنوعة خصوصًا على يد أمهر صانع أسلحة في سانت لويس، ومصممة للإطلاق من فوق ظهر حصان، وللإطاحة بجاموس بري يعدو بأقصى سرعته. طلقاتها الخمسون أكبر من أي طلقات صُنِعت من قبل. شكا صانع الأسلحة فقال: «يا للجحيم. ستمزق هذه الرصاصات صيدك إلى أشلاء، ولن يتبقى منه ما تأكله».

أومأ مارش فقط. تصويب البندقية لن يكون دقيقًا -خاصة بين يدي مارش- لكن إن أطلقها عن قُرب، ستمحو ابتسامة دامون چوليان عن وجهه، بل ستطيح برأسه كاملًا من فوق كتفيه. جهَّزها مارش للإطلاق، ثم علَّقها على الحائط فوق فراشه حيث يمكنه أن يصل إليها بسهولة. وقتها فقط سمح لنفسه بالاستلقاء.

هكذا بدأت الرحلة. أبحرت إيلي رينولدز يومًا بعد يوم إلى الجنوب، عبر الأمطار والضباب، وتحت الشمس والحر، تتوقف عند كل بلدة وساحة أخشاب لتسأل سؤالًا أو اثنين. جلس أبَنر مارش في الطابق العلوي على مقعد خشبي جوار جرس الباخرة القديم المشقوق، وراح يراقب النهر ساعة تلو الأخرى. أحيانًا كان يتناول وجباته حيث هو. عندما يحتاج إلى النوم، كان القبطان يورچِر أو كات جروڤر أو الكاتِب يتولى مهمة المراقبة. عندما تمر بهم الزوارق والقوارب والبواخر الأخرى، ينادي مارش: «أنت، هناك! هل رأيت باخرة باسم حلم فيڤر؟». لكن الإجابة -لو حظي بإجابة- تكون دائمًا: «لا يا كابتِن. نحن متأكدون». ولم يخبره أي ممن يقابل في الموانى وساحات الأخشاب أي جديد.

النهر يعج بالقوارب والبواخر ليل نهار، بواخر كبيرة وصغيرة، تقصد الشمال أو الجنوب، أو تميل نصف غارقة عند الضفة، لكن أيها لم يكن حلم فيڤر.

إيلي رينولدز باخرة صغيرة بطيئة في نهر هائل، وكانت تزحف بسرعة تُخجِل أي رجل من رجال النهر. يؤخرها التوقف المتكرر والسؤال أكثر، لكن المدن والبلدات وساحات الأخشاب والغابات والبواخر تمر بها مَر الأيام والليالي عليها. يتركون خلفها تباب الرمال والجزر، ويتحاشى قباطنتها جذوع الأخشاب الطافية والمنحدرات والمنحنيات العنيفة، وينطلقون جنوبًا، نحو كل جنوب ممكن.

عبروا بموانى سانت چينيڤيڤ، وكيب چيراردو، وكروسنو، وباتوا ليلة في ميناء هيكمان ومكثوا أكثر في ميناء نيو مدريد. كانت بلدة كاروثرڤيل مخفية خلف الضباب، لكنهم وجدوها، وكانت بلدة أوسيولا هادئة، ومدينة ممفيس صاخبة.

عندما وصلت إيلي رينولدز إلى ميناء ڤيكسبرج في صباح يوم من أكتوبر، كان رجلان ينتظرانها عند الرصيف. أمر أبنر مارش بنزول كل الطاقم إلى المدينة، ومكث هو والقبطان يورچر وكات جروڤ ليقابلا الضيفين في قاعة الباخرة الرئيسية. أحد الرجلين كان ضخمًا، ذا سالفين أحمرين ورأس أصلع كبيضة حمامة، يرتدي بدلة سوداء. الآخر كان رجلًا أسود نحيفًا، أنيقًا ذا عينين ثاقبتين. أجلسهما مارش وقدَّم لهما القهوة، ثم سألهما: «حسنًا، أين هي؟».

نفخ الأصلع في قهوته ثم رشف منها وقال: «لا أعرف».

- لقد دفعت لكما لتعثرا على باخرتي.

قال الأسود: «لا يمكن العثور عليها يا كابتِن. أؤكد لك أنني وهانك بحثنا جيدًا».

أضاف الأصلع: «لا أقول إننا لم نجد شيئًا على الإطلاق، لكننا لم نعثر على الباخرة نفسها حتى الآن».

قال مارش: «حسنًا. أخبراني ما عرفتما».

أخرج الأسود ورقة مطوية من جيب سترته، وفتحها: «أغلب طاقمك وركاب باخرتك نزلوا في بايو سيرا بعد الفزع الذي أصابهم بسبب الحمى الصفراء. في اليوم التالي أبحرت حلم فيڤر إلى الجنوب بحسب ما عرفنا. عثرنا على بعض عمال ساحات الأخشاب من الزنوج، وأقسموا إنها اشترت منهم أخشابًا. ربما كانوا يكذبون، لكني لا أرى لهذا سببًا. لذا، استنتجنا اتجاه باخرتك بناء على شهادتهم. عثرنا أيضًا على شهود أكدوا أنهم رأوها تمر أو حسِبوا ذلك على أي حال».

أكمل شريكه: «لكنها لم تصل إلى ناتشيز بتاتًا التي تقع على بعد... ثماني لعشر ساعات من الإبحار جنوبًا».

قال مارش: «أقل. حلم فيڤر سريعة جدًّا».

- سريعة أو بطيئة، لا يهم. لقد اختفت في مكان ما بين بايو سيرا وناتشيز.

غمغم مارش: «النهر الأحمر يتفرع من هناك».

أومأ الرجل الأسود واستطرد: «لكن باخرتك لم تصل إلى مواني شريڤبورت أو أليكساندريا أيضًا، ولم يرها أي من العاملين في ساحات الأخشاب».

هتف مارش: «سحقًا».

قال كات جروڤر: «ربما غرقت».

فابتلع الأصلع ما يشرب من القهوة وأضاف: «لدينا المزيد. لم يرَ أحد باخرتك في ناتشيز كما أخبرتك، لكن بعضًا ممن تبحث عنهم كانوا هناك».

- أكمِل!

- أمضينا وقتًا طويلًا في شارع سيلڤر نسأل، وعرفنا أن رجلًا يُدعى رايموند أورتيجا -ممن تبحث عنهم- معروف هناك. عاد إلى المدينة في

ليلة من سبتمبر، وأجرى عدة اتصالات مع مواخير أعلى التل وأسفله. كان معه أربعة رجال، أحدهم يشبه وصفك للمدعو بيلي الشرس. مكثوا أسبوعًا تقريبًا، استأجروا خلاله عددًا من الرجال البيض والملوَّنين. أنت تعرف نوعية الرجال الذين يمكن استئجارهم من ناتشيز أسفل التل.

يعرف مارش بالطبع. ذُعِر بيلي تيبتون الشرس من طاقم مارش، واستبدل بهم مجموعة من رجال العصابات والمجرمين مثله. أضاف الأصلع: «زار تيبتون هذا (مُفترق الطرق)».

فسَّر زميله: «وهو سوق عبيد كبيرة».

- واشترى مجموعة عبيد، دفع ثمنهم بالذهب.

أخرج الأصلع قطعة ذهبية بقيمة عشرين دولارًا من جيبه ووضعها على الطاولة مضيفًا: «مثل هذه. واشترى بضعة أشياء أخرى من ناتشيز أيضًا دفع ثمنها بالطريقة نفسها».

سأل مارش: «أي نوع من الأشياء اشتراها؟».

أجاب الرجل الأسود: «ما يحتاج إليه العبيد. قيود، سلاسل، مطارِق».

وأضاف الآخر: «وطلاء أيضًا».

فجأة تجلَّت الحقيقة أمام مارش، فصاح: «يا يسوع! طلاء؟! لا عجب إذًا في أن أحدًا لم يرها. اللعنة. هم أذكى مما تصورت، وأنا أحمق لعين حتى إنني لم أتوصل إلى هذا التفسير من قبل!».

ضرب بقبضته الطاولة، فقفزت أكواب القهوة منها وكادت تنسكب. قال الأصلع: «توصلنا نحن أيضًا إلى استنتاجك نفسه. لقد طلوا الباخرة وغيروا اسمها».

اعترض يورچر: «بعض الطلاء لا يكفي لتغيير شكل باخرة معروفة».

قال أبنر مارش: «لا، لكنها ليست معروفة بعد. يا للجحيم. لقد أبحرت الباخرة مرة واحدة عبر النهر ولم تعد، فكم من الناس قد يتعرفون عليها؟ البواخر الجديدة تمر طوال اليوم، وتغيير اسمها مع ألوان مختلفة قد يجعلها واحدة من تلك البواخر الجديدة».

اعترض يورچر مرة أخرى: «لكن حلم فيڤر ضخمة وسريعة كما قلت».

- الكثير من البواخر الضخمة تبحر في النهر اللعين. أوه، هي أكبر من كل البواخر الأخرى عدا الباخرة شفق، لكن مَن قد يلاحظ هذا من مجرد

نظرة، ودون باخرة أخرى يقارنها بها؟ بالنسبة إلى سرعتها، سهل تخفيضها كيلا تلفت الأنظار.

حنق مارش؛ هذا ما سيفعلونه حقًّا. سيبحرون بها بسرعة منخفضة فلا يلحظها أحد. بدا هذا إهانة بشكل ما بالنسبة إليه.

قال الأصلع: «المشكلة أنه لا سبيل لمعرفة اسمها الجديد، لذا العثور عليها لن يكون سهلًا. يمكننا ركوب كل باخرة في النهر بحثًا عن الأشخاص الذين تريدهم، لكن...».

قاطعه مارش: «لا، سأجدها بطريقة أسهل من هذه. لا يمكن لأي طلاء أن يغير حلم فيڤر بحيث أعجز عن التعرف عليها. سنكمل طريقنا إلى نيو أورلينز بما عرفنا».

داعب مارش شعر ذقنه وهو يضيف: «سيد جروف، أحضِر لي قباطنتك. هم خبراء في جنوب النهر ويعرفون البواخر هناك جيدًا. اطلب منهم أن يفحصوا صحفي بحثًا عن اسم باخرة جديد عليهم».

- بالـتأكيد يا كابتِن.

التفت مارش إلى المُحقِّقَين: «لم أعد في حاجة إليكما أيها المُحترمان، لكن إن صادفتما الباخرة تعرفان كيف تصلان إليَّ. سأتأكد من أنكما ستحصلان على مكافأتكما».

ثم وقف مضيفًا: «والآن، إن ذهبتما إلى مكتب الكاتب، ستحصلان على ما أدين لكما به».

أمضوا باقي اليوم في ميناء ڤيكسبرج. أنهى مارش عشاءه –طبق دجاج مقلي للأسف شِبه نيئ، وبعض البطاطس- عندما جذب جروف مقعدًا إلى جواره، جلس عليه ممسكًا ورقة في يده.

- لقد احتاجوا إلى ساعات طويلة، لكنهم أنجزوا الأمر. في القوائم كثير من البواخر اللعينة، منها ثلاثون لا يعرفها أي منهم. لقد بحثت في الصحف بنفسي، وتحققت من الإعلانات كي أعرف ما يقال عن حجم البواخر ومُلَّاكها وما إلى ذلك. تعرَّفت على بعض الأسماء، واستبعدت البواخر ذات الرفاس الواحد وصغيرة الحجم.

- كم تبقى؟

- أربعة فقط. أربع بواخر ذات رفاسات جانبية لم يسمع بها أحد قَط.

ناول القائمة لأبنر مارش، الأسماء مكتوبة فيها بحروف كبيرة واحدة أسفل الأخرى.

ب. شرودر

مدينة الملكة

أوزيمانديا

ف. د. هيكنچر

حدق مارش إلى الورقة مطوَّلًا وهو عابس. لا بد أن فيها ما يعني له شيئًا. هو متأكد، لكنه عاجز عن تحديده.

- هل تعني لك تلك الأسماء شيئًا يا كابتِن؟

أجاب مارش فجأة: «ليست ب. شرودر، فقد كانوا يصنعونها في نيو ألباني في الوقت نفسه الذي كانوا يصنعون فيه حلم فيڤر».

حكَّ ذقنه مفكرًا، فقال جروف: «ماذا عن الباقيات؟».

ردد مارش الأسماء بصوت عال: «ف. د. هيكنچر، مدينة الملكة، أوز...».

هذا الاسم صعب، وسُر لعدم اضطراره إلى نطقه. فطن ذهن أبنر مارش البطيء الذي لا ينسى أي شيء إلى الإجابة تطفو كما يطفو جذع الشجر المقطوع فوق صفحة الماء. لقد مرَّ بهذا الاسم اللعين من قبل، ومنذ وقت قريب عندما كان يتصفح كتابًا.

قال لجروف: «لحظة». ثم قام متجهًا إلى غرفته حيث الكتب في آخر دُرج من أدراج خزانته. سأله جروف عندما عاد: «ما هذا؟».

- قصائد لعينة.

قلَّب صفحات قصائد بايرون، لم يجد شيئًا، فانتقل إلى كتاب شيلي ووجد ما كان يبحث عنه أمام عينيه. قرأ ما أمامه سريعًا، ثم استند بظهره إلى المقعد وقرأ مرة أخرى. سأله جروف: «كابتِن مارش، ماذا بك؟».

- أنصت إلى هذا.

وقرأ جهرًا:

اسمي أوزيماندياس، ملك الملوك.

انظر إلى صنعَتي، أيها العظيم، وابتئِس!

لا شيء سوى البقايا جانبه، وحوله الخراب.

ذاك الخراب الهائل، عار بلا نهاية.

تمتد الرمال منعزلة مستوية على مد البصر.

- ما هذا؟
- قصيدة. قصيدة شِعر لعينة.
- لكن ما معناها؟

أجاب مارش وهو يغلق الكتاب: «تعني أن چوشوا يشعر بالانهزام والأسف، لكنك لن تفهم السبب عمومًا يا سيد جروڤ. ما يهم هو أننا نبحث عن باخرة اسمها أوزيماندياس».

أظهر جروڤ قطعة ورق أخرى وقال مُضيِّقًا عينيه، ناظرًا إلى ما كتب: «كتبت بعض الأشياء نقلًا عن الصحف. لنرَ... هذه الأوزي... أوزي... أيًّا كان اسمها، تعمل في تجارة ناتشيز. رُبَّانها هو چ. أنتوني».

- أنتوني. يا للجحيم، اسم چوشوا الأوسط أنتون. تقول تعمل في تجارة ناتشيز؟
- من ناتشيز إلى نيو أورلينز يا كابتِن.
- سنبيت هنا الليلة، وغدًا نبحر إلى ناتشيز. أتسمعني يا سيد جروڤ؟ لا أريد أن أضيع لحظة نور. عندما تشرق الشمس اللعينة، جهزوا باخرتنا على الفور للإبحار.

ربما لم يتبق لچوشوا المسكين سوى البؤس، لكن لدى أبنر مارش ما هو أكثر من ذلك. ثمة ما يحتاج إلى وقفة، وعندما ينتهي لن يتبقى من اللعين دامون چوليان أكثر من الخراب المذكور في القصيدة.

***

ثلاثة وعشرون



على متن إيلي رينولدز
نهر المسيسيبي
أكتوبر 1857

لم ينم أبنر مارش تلك الليلة. أمضى ساعات الليل الطويلة على مقعده على سطح الباخرة، وظهره إلى أنوار ميناء ڤيكسبرج المُضببة، ينظر إلى النهر. الليل بارد هادئ، والماء كالزجاج الأسود. من وقت لآخر تلوح باخرة تجر وراءها الدخان والبخار والشرر، فيفسد الهدوء حتى تمُر، ويموت صوت صافرتها، فيعالج الظلام نفسه ويعود إلى نعومته. القمر دولار فضي يطفو فوق المياه. مارش يسمع صوت صرير يصدر من إيلي رينولدز المُنهكة، ومن وقت لآخر يسمع وقع أقدام أو صيحة أو أغنية تتناهى إلى مسمعه من البلدة. تحت كل هذا يستمر صوت النهر، وخرير المياه اللانهائية تتدفق دافعة باخرته، تحاول جرفها مع تيارها إلى الجنوب، حيث قوم الليل وحلم فيڤر في انتظاره.

شعر مارش أنه مفعم بجمال الليل، بجاذبية الظلام التي هام بها شاعر چوشوا الأعرج حبًّا. مال بمقعده مستندًا إلى عمود جرس الباخرة القديم، وحدق إلى القمر والنجوم والنهر، يفكر في أن لحظة السلام هذه التي يعيشها قد تكون الأخيرة؛ غدًا، أو اليوم الذي يليه على أقصى تقدير سيعثر على حلم فيڤر، وسيبدأ كابوس الصيف مرة أخرى.

رأسه يضج بالخواطر والذكريات والرؤى. لا ينفك يرى چوناثان چيفرز، بعصاه ذات السيف، بلا حيلة وهو يرى نصله لا يؤثر في چوليان. يسمع

صوت كسر عنق الكاتب إذ لواه چوليان. يتذكر كيف سقطت نظارة چيفرز تلمع على أرضية الباخرة.

كفه الضخمة تقبض على رأس عصاه، وهو يرى على الماء المظلم صورًا أخرى؛ تلك اليد الصغيرة المغروزة في طرف سكين، چوليان يجرع مشروب چوشوا الداكن، اللطخات المبتلة على هراوة مايك المُشعِر عندما أنهى مهمته في الغرفة. أبنر مارش خائف كما لم يخَف من قبل. لإبعاد الأشباح التي أفسدت ليلته، استدعى حلمه الخاص؛ صورته هو يحمل البندقية ويقف أمام غرفة الرُّبَّان. يسمع صرخة إطلاق الرصاصة ويستشعر رد الفعل، ويرى ابتسامة دامون الشاحبة وشعره المموج ينفجران متفرقان أحدهما عن الآخر، كبطيخة هوت من حالق... بطيخة ملآنة بالدماء.

لكن بطريقة ما، وبعدما زال الرأس وانقشع دخان إطلاق النار، ظلت عيناه في مكانهما، تحدقان، توقظان فيه مشاعر مظلمة من الغضب والكراهية. العينان حالكتان كالجحيم، مغرورقتان بالدماء، عميقتان بلا قرار، تناديانه، تُسعِران فيه الرغبة؛ ظمأه الأحمر.

طفت العينان أمامه، وحدق أبنر مارش إليهما، إلى السواد الدافئ، ووجد فيهما إجابته وطريقة إفنائهما. الطريقة الأفضل من السيوف والعصي والبنادِق.

النار. في النهر رأى حلم فيڤر تحترق. شعر أبنر مارش بكل تفاصيلها. الزئير المفاجئ المريع الذي يمزق الآذان، ولا يقارن بهزيم الرعد. اللهيب والدخان، كتل الخشب المحترقة، والفحم ينسكب في كل مكان، حار يُفجِّر سحب دخان الموت البيضاء فتحيط بالباخرة. تنفجر الجدران وتحترق، الأجساد تطير في الهواء مشتعلة نصف مطهوَّة. المداخن تتشقق، تنهار. الصرخات تعلو والباخرة تغرق في النهر فيتصاعد صوت الهسيس. الجثث المتفحمة تطفو مواجهة الماء وحولها الحطام. تتحول الباخرة العظيمة ذات الرفاسات الجانبية إلى هباء، لا يتبقى منها سوى أخشاب محترقة ومداخن مائلة مغمورة حتى نصفها في الماء.

في الحلم، وهي تحترق، كان الاسم المكتوب عليها: «حلم فيڤر».

عرف مارش أن الأمر سيكون يسيرًا. مجرد شحنة إلى نيو أورلينز لن يرتابوا في أمرها؛ براميل متفجرات توضع قرب الأفران المستعرة والغلايات الضخمة. يمكنه أن يدبر الأمر، ولتكن هذه نهاية چوليان وكل قوم الليل.

كل ما يحتاج إليه هو فتيل، ومؤقِّت، وسيتم كل شيء على أكمل وجه.

أغلق أبنر مارش عينيه، وعندما فتحهما مرة أخرى كانت الباخرة المحترقة قد اختفت، وأصوات الصرخات وانفجار الغلايات بهتت، وعاد الليل ساكنًا من جديد.

قال لنفسه: «لا يمكنني فعل هذا. چوشوا سيكون على متنها».

والآخرون أيضًا؛ بليك الأشيب، كارل فرام، مايك دَن المُشعِر وعُمَّاله. ثم إن غاليته نفسها ستحترق؛ الباخرة «حلم فيڤر».

لمح مارش -بعيني خياله- باخرتين ضخمتين تتسابقان عند منعطف، دخانهما يجري خلفهما، النار تتوج مداخنهما، رفاساتهما تدور وتدور. بينما تقتربان، سبقت إحداهما الأخرى بمسافة قليلة راحت تتسع حتى صارت في طول قارب. كانت تسرع بَعد عندما رأى مارش الاسمين على بدن الباخرتين، وكانت المُتقدمة هي حلم فيڤر، راياتها ترفرف وهي تقترب، ومن خلفها الباخرة شفق، تتألق حتى وهي مهزومة.

قال أبنر لنفسه: «سأحقق هذا الحلم».

عاد أغلب طاقم إيلي رينولدز عند منتصف الليل. راقبهم مارش، ورأى كات جروڤ يقود عملية التزويد بالأخشاب تحت ضوء القمر بسلسلة من الأوامر السريعة. بعد ساعات تصاعد أول خيط دخان من مداخن الباخرة إلى السماء. الفجر بعد ساعة، وظهر وقتها يورچر وجروڤ في طابق الباخرة العلوي ومعهما مقعديهما وإبريق قهوة. جلسا إلى جوار مارش صامتين، وصبَّا له كوب قهوة ساخنًا، شربه ممتنًّا. قال له يورچر بعد دقائق بوجه مرهق: «حسنًا يا كابتِن مارش. ألم يحن وقت إخبارنا حقيقة الأمر؟».

أضاف كات جروڤر: «منذ عدنا إلى سانت لويس، لم تتوقف عن الحديث عن استعادة باخرتك. غدًا على الأرجح سنعثر عليها. ثم ماذا سنفعل بعدها؟

أنت لم تخبرنا شيئًا يا كابتِن سوى أنك لا تريد تدخُّلًا من الشرطة. لماذا وباخرتك مسروقة؟».

- السبب نفسه الذي لم أخبركما لأجله بأي تفاصيل يا سيد جروڤ. هم لن يصدقوا قصتي ولو للحظة.

قال جروڤ: «الطاقم يتساءل. وأنا أيضًا».

- ليس من شأنهم. أنا مالك هذه الباخرة، أليس كذلك؟ أنت تعمل لدي وهم أيضًا. افعل فقط ما أطلب منك.

قال يورچر: «كابتِن مارش، كنت أنا وهذه الباخرة العجوز في النهر منذ سنوات. لقد ولَّيتني أمرها منذ بنيت باخرتك الثانية نِك بيروت في عام 1852. حافظت على هذه السيدة من وقتها، وأنت لم تُقدِّر هذا. لو أنك ستستغني عن خدماتي، فقط أخبرني. ولو أنني ما زلت قبطانك، أخبرني بما أنا مقبل عليه بباخرتي. أنا أستحق تفسيرًا».

قال مارش وذكرى نظارة لامعة تعود إليه: «لقد أخبرت چوناثان چيفرز ومات بسبب هذا. وربما مات للسبب ذاته مايك المُشعِر. لا أعرف».

مال كات جروڤ ليملأ كوب مارش بالقهوة الدافئة من الإبريق وقال: «من القليل الذي أخبرتنا به يا كابتِن، أنت لست واثقًا من موت مايك، لكن هذا ليس مهمًّا. أنت غير واثق من تفاصيل أخرى أيضًا؛ ما جرى لبليك الأشيب، ولقبطانك وكل من بقي في حلم فيڤر. هل أخبرتهم جميعًا؟».

- لا.

- إذًا لا تخشَ إخبارنا.

قال يورچر: «من حقنا أن نعرف لو أن خطرًا يتربص بنا في الجنوب».

فكر مارش فيما قال، ورأى أنهما محقان.

- أنتما على حق، لكنكما لن تصدقا، ولن أقبل برحيلكما. أنا أحتاج إلى هذه الباخرة.

قال جروڤ: «لن نرحل. احكِ لنا القصة».

زفر مارش، وحكى القصة مرة أخرى. عندما انتهى تطلع إلى وجهيهما.
قال يورچر: «صعب التصديق حقًّا».

أضاف جروف: «أنا أصدق. الأمر ليس أصعب من تصديق وجود أشباح. أنا رأيت أشباحًا بنفسي عشرات المرات».

سأل يورچر: «لقد تحدثت كثيرًا يا كابتن مارش عن العثور على باخرتك، لكنك لم تذكر ما سيحدث بعدها. هل لديك خطة؟».

فكر مارش في النار وانفجار الغلايات وصراخ أعدائه. دفع الفكرة جانبًا وأجاب: «سأستعيد باخرتي. لقد رأيتم البندقية. سأفجر بها رأس چوليان، وسيتولى چوشوا البقية».

- تقول إنك جربت هذا مع چيفرز ودَن، وقتما كنت تملك الباخرة وطاقهما. والآن إن كان مُخبراك على حق، فالباخرة ملآنة بالعبيد والمجرمين. لن تستطيع أن تصعد إلى الباخرة دون أن تُعرَف. كيف ستصل إلى چوليان؟

لم يفكر مارش بالفعل في هذا الأمر، لكن بعدما أثار يورچر المسألة، أدرك أنه لن يستطيع الصعود إلى سطح الباخرة وحده والبندقية بين يديه. هذا ما كان يخطط له. فكَّر في التنكر في هيئة راكب... لكن يورچر مُحِق. هذا مستحيل. حتى لو حلق لحيته، فلا يبدو أحد في النهر كله كما يبدو مارش بملامحه وطوله وعرضه.

قال مارش بعد تردد: «سندخل عنوة. سآخذ كل طاقم إيلي رينولدز. چوليان وبيلي الشرس يعتقدان أنني مت، وسنباغتهم نهارًا بالطبع. لن أغامر مرة أخرى. لم يرَ أي من قوم الليل إيلي رينولدز، وأعتقد أن چوشوا فقط سمع الاسم. سنبحر حتى نتوقف إلى جوارها في أي مكان نجدها راسية فيه، وسننتظر حتى النهار المشمس، ثم نهجم أنا وكل من يريد مرافقتي. الحثالة حثالة، ومن أخذهم بيلي الشرس من ناتشيز لن يغامروا بحيواتهم أمام البنادق والسكاكين. ربما الأفضل أن نتخلص من بيلي نفسه أولًا، ثم سيخلو لنا المجال. هذه المرة سأتأكد أن من سأقتله چوليان قبل أن أفجر رأسه. جيد؟».

قال جروف: «تبدو خطة جيدة».

بدا يورچر أكثر تشككًا، لكن لم يكن لدى أيهما اقتراحات أفضل، لذا بعد نقاش سريع اتفقا مع خطة مارش.

بزغ الفجر من خلف تلال ڤيكسبرج، وارتفع بخار إيلي رينولدز. قام مارش وتمطَّى، شاعرًا أنه في حال ممتاز بالنسبة إلى رجل لم ينم لحظة. صاح في القبطان الذي مر بهم في طريقه إلى مقصورة القيادة: «لننطلق. إلى ناتشيز!».

أرخت أيدي العُمَّال الحبال التي تربطها إلى الرصيف، ودار الرفاس بالعكس فرجعت الباخرة إلى الخلف، بينما أنوار الشروق الحمراء والرمادية تطاردها عبر الأفق.

قطعت الباخرة خلال الساعتين الأوليين مسافة معقولة، وعبرت بهم ثلاث أو أربع بواخر أخرى أكبر فسبقتهم، وهذا متوقَّع؛ لم تُبنَ إيلي رينولدز لتسابق.

رضي مارش بأدائها، فاطمأن وعاد إلى غرفته نصف ساعة، وهو وقت كاف ليتحقق من بندقيته ويــتأكد من أنها محشوَّة، ثم أكل وجبة سريعة مكونة من الفطائر الساخنة والتوت والبيض المقلي.

بين مينائي سانت چوزيف ورودني بدأت السحب تتناثر في السماء، ولم يعجب مارش هذا. بعد وقت قصير، تكوَنت عاصفة فوق الرؤوس بلا رعد أو برق أو مطر أو ريح قد يؤذي بعوضة، لكن القبطان أصر على تعليمات السلامة وأرسى الباخرة ساعة في ساحة أخشاب، بينما مارش يذرع الباخرة قلقًا وحنقًا. كان فرام أو أولبرايت ليتحركا وسط العاصفة، لكن لا يتوقع المرء الحصول على قبطانين مثلهما لباخرة مثل هذه.

المطر بارد رمادي، وعندما انتهى بزغ قوس قزح جميل في السماء، فتفاءل مارش؛ ما زال أمامهم وقت للوصول إلى ناتشيز قبل الظلام.

بعد خمس عشرة دقيقة من تكاثف الغيوم مرة أخرى ارتطمت إيلي رينولدز بعنف في حاجز رملي. كان هذا خطأً أحمق مثيرًا للغيظ، فقد حاول القبطان الشاب تعويض الوقت الضائع باتخاذ طريق مختصر بدلًا عن الالتزام بالقناة الرئيسية التي تنحني انحناءة كبرى غربًا. من شهر تقريبًا كانت هذه المناورة لتمر بسهولة، لكن النهر الآن منخفض حتى بالنسبة إلى باخرة صغيرة مثل إيلي رينولدز.

سبَّ مارش وتميَّز غيظًا، وضرب بقدميه الأرضية غاضبًا خاصة عندما وضح أمامه أنهم لن يستطيعوا إخراجها من حيث انغرزت في الرمال. أخرج كات جروف ورجاله العتلات والعِصي وبدأوا المحاولة. أمطرت السماء عليهم عدة مرات مما جعل المهمة أصعب، لكن بعد أربع ساعات ونصف مبتلة قلقة، بدأ القبطان يُدير المقود مرة أخرى وانطلقت إيلي رينولدز إلى الأمام ترش الطين والرمال على جانبيها، تهتز كأنها على وشك الغرق. ثم طَفت وصافرتها تعوي في انتصار.

استمروا في الإبحار عبر الطريق المختصر بحرص ساعة ونصف أخرى، وعندما وصلوا إلى المجرى الرئيسي حمل التيار إيلي رينولدز وازدادت سرعتها وهي تصخب وتهتز كأنها شيطان، لكن لم يكن من سبيل إلى تعويض الوقت الذي فقدته.

كان أبنر مارش جالسًا على الأريكة الصفراء الباهتة في مقصورة القيادة عندما لمحوا اقتراب المدينة. وضع كوب قهوته فوق الموقد الكبير ووقف خلف القبطان الذي كان منشغلًا في ضبط اتجاه السفينة للرسو عند الرصيف. لم يكترث له مارش، فقد كانت عيناه معلقتين على الضفة القريبة، حيث تصطف أكثر من عشرين باخرة على طول الميناء.

ها هي. كان متأكدًا من أنها هي.

تعرَّفها مارش على الفور؛ هي أكبر البواخر على الرصيف، وطولها يزيد على أقرب باخرة لها بخمس عشرة قدمًا. باقتراب إيلي رينولدز أكثر، أدرك مارش أنهم لم يغيروا فيها كثيرًا، فقد كانت مطلية باللونين الأزرق والأبيض بعد، إلا أنهم لوَّنوا غطاء الرفاسات بالأحمر كشفتي عاهرة من ناتشيز. اسمها مكتوب بحروف صفراء: أوزيمانداياس. قال مارش للقبطان وهو يشير نحوها: «هل ترى هذه الكبيرة هناك؟ قف في أقرب مكان منها. مفهوم؟».

- مفهوم يا كابتِن.

تطلع مارش إلى المدينة أمامه. الظلال تتكاثر في الشوارع، وماء النهر يرتدي لون الغروب الأرجواني والذهبي. السماء غائمة أيضًا. لقد أضاعوا وقتًا طويلًا في الرسو عند ساحة الأخشاب وفي الطريق المختصر، والغروب يأتي مبكرًا في أكتوبر عنه في الصيف.

دخل القبطان يورچر مقصورة القيادة ووقف إلى جانبه وهمس: «لا يمكن أن تذهب الليلة يا كابتِن مارش. الوقت تأخر. سيعم الظلام بعد أقل من ساعة. انتظر حتى الغد».

- أي أحمق تظنني؟ بالطبع سأنتظر. لقد اقترفت هذا الخطأ اللعين مرة ولن أكرره.

ضرب الأرض بعصاه في غضب، وبدأ يورچر في قول شيء آخر لكن مارش لم يكن ينصت. كان يفحص الباخرة الضخمة ذات الرفاسات الجانبية عند الشاطئ. صاح فجأة: «اللعنة!».

- ماذا حدث؟

أشار بعصاه وقال: «الدخان. اللعنة عليهم، إنهم يتهيؤون للرحيل!».

حذره يورچر: «لا تندفع. لو أنها سترحل، دعها ترحل، وسوف نلحق بها في مكان آخر».

- لا بد أنهم يبحرون ليلًا ويرسون نهارًا. كان عليَّ أن أتوقع هذا.

ثم استدار إلى القبطان الذي يقود الباخرة وقال: «سيد نورمان، لا ترسُ. استمر وتوقف عند أقرب ساحة أخشاب وانتظر حتى تمر تلك الباخرة هناك، ثم اتبعها. هي أكثر سرعة بكثير من رينولدز فلا تقلق إن فقدتها. فقط استمر وحاول أن تظل بينكما أقل مسافة».

- كما تشاء يا كابتِن.

وأدار العجلة الخشبية فأدارت إيلي رينولدز مقدمتها بدورها وبدأت تعود إلى القناة.

مكثوا في ساحة الأخشاب تسعين دقيقة، وكان الليل قد حل منذ ثلث ساعة عندما أبصروا حلم فيڤر تطلق البخار عند الأفق. اقشعر جسد مارش وهو يراها تقترب. تبحر الباخرة الضخمة على الماء في سلاسة ويسر وأناقة تذكره بحركة دامون چوليان. كانت مظلمة، فقط الطابق الرئيسي مضاء بإضاءة حمراء خافتة صادرة عن الأفران، وبعض نوافذ مهاجع الطاقم فقط. حتى غرفة القيادة كانت مظلمة. حسِب مارش أنه يرى شخصًا واحدًا فيها

يقف خلف المقود، لكنها كانت أبعد من أن يتأكد. ينير القمر والنجوم طلاءها الأبيض وزينتها الفضية، لكن غطاء الرفاسات الأحمر يبدو نشازًا.

مرت بهما، وظهرت أضواء باخرة أخرى تقترب من الجهة المقابلة، فنادت إحداهما الأخرى. عرفها مارش من صافرتها التي شعر الآن أنها صافرة باردة حزينة عن تلك التي سمعها من قبل. عويل كئيب يضج باليأس والإحباط.

قال مارش لقبطانه: «اتبعها، لكن حافظ على مسافتك».

فك أحد العمال الحبل الذي يربطهم بالضفة، وأبحرت إيلي يرنولدز خلف ابنة عمها الكبرى المتمردة. بعد دقيقة أو اثنتين، اقتربت الباخرة الغريبة ومرَّت بحلم فيڤر، ثم اقتربت منهم وهي تطلق صافرة مُنغَّمة، فأجابتها إيلي رينولدز لكن إجابتها بدت رفيعة ضعيفة مقارنة بصوت صافرة حلم فيڤر البرِّي الذي ملأ نفس مارش بالحزن.

توقع أن تبتعد عنهم حلم فيڤر بمسافة كبيرة خلال دقائق، لكن هذا لم يحدث.

أبحرت إيلي رينولدز جنوبًا ساعتين متلاحقتين، وفقدت الباخرة الكبرى عدة مرات عند المنعطفات، لكن سرعان ما كانت تلحقها خلال دقائق. اتسعت بعد ذلك المسافة بين الباخرتين تدريجيًّا حتى إنهم لم يعوا هذا في البداية. قال مارش ليورچر باسمًا: «أعتقد أنهم سيرسون في بايو سيرا، حيث سنلحق بهم. أليس كذلك؟».

تلتهم حلم فيڤر أطنان أخشاب -مقارنة بظلها الأصغر- لتغذية غلاياتها الثمانية عشر، فتوقفت عدة مرات للتزويد، وفي كل مرة كانت المسافة بينها وبين إيلي رينولدز تتناقص، لكن مارش حرص على أن يحافظ قائد باخرته على ألا يقترب منها أكثر من اللازم بينما تتزود بالأخشاب. توقفت إيلي رينولدز مرة واحدة للتزويد، وعندما عادت للإبحار كادت حلم فيڤر تختفي في الأفق، فأمر مارش ببرميل شحم خنزير يُلقى إلى الأفران، فتدفقت الحرارة والبخار لتزيد سرعة الباخرة وتقلص المسافة.

قرب مصب النهر الأحمر في المسيسبي، كان بين الباخرتين ميل. جلب مارش قهوة ساخنة إلى مقصورة القيادة وصب منها للقائد، لكن الأخير هتف

مضيقًا عينيه: «انظر يا كابتِن. يبدو أن تيارًا يدفعها إلى الجانب. لا توجد معابر هنا».

وضع مارش كوبه ونظر. بدت حلم فيڤر فجأة أقرب بكثير، والقائد محق. يستطيع أن يرى جزءًا كبيرًا من جانب الباخرة، وإن كانت لا تتجه نحو معبر، فلا بد أن الماء المندفع من النهر الأصغر سبب جنوحها، لكنه لا يعرف كيف يسمح قبطان ماهر بشيء كهذا. قال مارش غير واثق: «ربما تحاول الابتعاد عن عائق أمامها».

بدت الباخرة الضخمة تلف أكثر حتى تعامدت عليهم، وكأنها تنجرف، لكن الشرر والبخار المنبعثين منها يقولان غير ذلك. صاح مارش: «اللعنة!».

شعر ببرد كأنما سقط مرة أخرى في الماء.

- إنها تستدير. اللعنة على الجميع في الجحيم! إنها تستدير!

- ماذا نفعل يا كابتِن؟

لم يُجب مارش، وظل يراقب حلم فيڤر والقلق ينهش قلبه. للباخرة ذات الرفاس الخلفي مثل إيلي رينولدز طريقتان لعكس اتجاهها، وكلتا الطريقتين خرقاء. لو أن النهر أكثر عرضًا لاستدارت على هيئة قوس مفتوح، لكن هذا يتطلب مساحة كافية وجهدًا كبيرًا. الطريقة الأخرى أن تتوقف ثم تدير رفاسها بالعكس ثم تستدير، ثم تعيد تشغيل المجداف ليدور إلى الخلف كي تكمل طريقها إلى الاتجاه الآخر. كلتا الطريقتين تحتاج إلى وقت، ومارش غير واثق حتى في أنهم سيستطيعون الدوران. البواخر ذات الرفاسات الجانبية ماهرة في المناورة، إذ إنها تدير أحد جانبي الرفاسات بالعكس، بينما تستمر الرفاسات الجانبية الأخرى في دورانها إلى الأمام فتدور بسهولة كراقصة تلف على أطراف أصابعها.

يرى مارش الآن مقدمة حلم فيڤر، قرنا الوعل فوقها يشيران إلى السماء كنابين أبيضين، ومجموعة من شاحبي الأوجه ذوي الملابس الداكنة يتجمهرون عند السور.

اقتربت حلم فيڤر منهم أكثر، ضخمة، هائلة أكثر من أي وقت مضى، وما زالت إيلي رينولدز تتقدم من تلك الوجوه الشائهة، بأعينها الحمراء المتوهجة.

هدر مارش: «أيها الأحمق اللعين! أوقفها! تراجع إلى الخلف عليك اللعنة! استدِر! أليس لديك عينان؟ إنهم قادمون!».

نظر إليه القائد نظرة متشككة، ثم استدار ليوقف الرفاس ويستدير، لكن مارش كان يعرف أن الوقت قد فات. لن يدوروا في الوقت المناسب، وحتى لو فعلوا ستلحق بهم حلم فيڤر خلال دقائق. ظهرت قوتها والباخرتان تصارعان التيار. قبض مارش على ذراع القائد وهتف: «لا، استمر إلى الأمام! أسرَع! ضع المزيد من شحم الخنزير في الأفران بسرعة، عليك اللعنة، يجب أن نجاوزهم قبل أن يرتطموا بنا. أتسمعني؟».

حلم فيڤر تزحف نحوهم الآن، وطوابقها مزدحمة بقوم الليل. الدخان يتصاعد من مداخنها. مد القائد يده إلى الصافرة، لكن مارش أمسكها يمنعه وهتف: «لا!».

- سنتصادم! علينا أن نخبرهم يا كابتِن أيَّ جانب من النهر سنلزم.

- دعهم يخمنوا. اللعنة عليك، هذه فرصتنا الوحيدة! وضع الشحم في الأفران!

عبر المياه السوداء، صرخت حلم فيڤر منتصرة. صوت صافرتها في أذني مارش كصوت ذئب شيطاني يطارد فريسة.

***

أربعة وعشرون



على متن الباخرة أوزيمانديا
نهر المسيسبي
أكتوبر 1857

قال بيلي تيبتون الشرس: «حسنًا، حسنًا. هو قادم نحونا تمامًا. أليست هذه لفتة جميلة منه؟».

سأله دامون چوليان: «هل أنت واثق من أنه مارش يا بيلي؟».

- انظر لترى بنفسك.

ناوله منظارًا مقربًا وهو يضيف: «هناك، في غرفة قيادة هذا الحطام. لا يوجد من هو في مثل سمنته وتشوه وجهه. المهم أنني لاحظت أنهم يتبعوننا».

أنزل چوليان المنظار المقرب وقال مبتسمًا: «نعم، ماذا كنا لنفعل دونك يا بيلي؟».

ثم خبت الابتسامة وأكمل: «لكنك يا بيلي أكدت لي أن الكابتِن قد مات عندما سقط في النهر. أنا متأكد أنك تتذكر هذا، أليس كذلك يا بيلي؟».

نظر إليه بيلي في قلق وقال: «سنتأكد هذه المرة يا سيدي چوليان».

- حسنًا. أيها القبطان، عندما نمر بهم أريد أن نكون على بعد مسافة قدم منهم. مفهوم أيها القبطان؟

أبعد چوشوا يورك عينيه عن الماء لحظة دون أن يُرخي قبضتيه على المقود الأسود الضخم. التقت عيناه الرماديتان الباردتان عيني چوليان عبر ظلال مقصورة القيادة، ثم ابعدهما سريعًا وهو يغمغم: «سنمر بالقرب منهم».

على الأريكة وراء الموقد، انقلب كارل فرام في نومه، ثم قام ليقف وراء يورك، يحدق إلى النهر بعينين غائمتين نصف ميتتين. كان يتحرك ببطء كأنه ثمل أو عجوز ضعيف. بالنظر إليه الآن مستحيل أن يعرف المرء كم كان ممتلئًا بالحياة مثيرًا للشغب من قبل.

أحسن دامون چوليان معاملة كارل فرام منذ البداية، حتى جاء يوم عاد فيه فرام من الميناء ثملًا، وراح يتباهى بزوجاته الثلاث، فقال له دامون چوليان: «بما أنك لم تعد ترى الأخريات، سيكون لك ثلاث زوجات جديدات على متن الباخرة. للقبطان امتيازاته قبل كل شيء».

والآن تتناوب على الشرب من دمائه سينثيا وڤاليري وكارا، على ألا يشربن كثيرًا، فلا يمكن التضحية بقبطان الباخرة المُرخَّص رغم أن يورك هو من يعمل أغلب أعمال الإبحار الآن. لم يعد فرام عظيمًا ذا مكانة، ومثيرًا للشغب. هو بالكاد يتكلم، ويزحف في مشيه. تغطي آثار الأسنان والجروح ذراعيه النحيلتين، وتطل من عينيه نظرة محمومة.

رمش وهو ينظر إلى باخرة مارش المضعضعة، وابتسم وهو يقول: «ستقترب. أراهن على أنها ستقترب».

نظر إليه چوليان وسأله: «ماذا تعني يا سيد فرام؟».

- لا شيء. أتوقع فقط أن تنطحك. أراهن أيضًا على أن مارش ملأ هذه الباخرة القديمة بالمتفجرات قرب الغلايات. هذه حيلة نهرية قديمة.

أعاد چوليان نظره إلى النهر. الباخرة القديمة تندفع نحو حلم فيڤر وهي تنفث النار والدخان غير مكترثة لشيء.

قال بيلي الشرس: «إنه يكذب. دائمًا يكذب».

- انظر كيف تقترب بسرعة.

قالها فرام وهو صادق. الباخرة تدفع التيار خلفها في شراسة وتندفع كالشيطان ذاته. قال چوشوا يورك وهو يدير المقود الضخم بينما يتكلم: «سيد فرام على حق». وانحرفت مقدمة حلم فيڤر جانبًا، وبعد لحظة اندفعت الباخرة المواجِهة إلى الاتجاه الآخر مبتعدة عنهم، واستطاعوا أن يقرؤوا على جانبها اسمها بخط باهت: إيلي رينولدز.

صاح بيلي الشرس: «هذه حيلة لعينة! إنه يسمح لهم بتجاوزنا!».

قال چوليان ببرود: «لا متفجرات. اقترب منهم».

فأدار يورك المقود على الفور، لكن الوقت قد فات؛ لقد رأت باخرة مارش فرصتها وانطلقت بسرعة مدهشة إلى الأمام، والبخار يهس خارجًا من مداخنها. جاء رد فعل حلم فيڤر سريعًا، ودارت مقدمتها، لكن إيلي رينولدز كانت قد جاوزتها بثلاثين ياردة مبتعدة إلى جنوب النهر، وانطلقت منها رصاصة وهي تتقدم، علا صوتها فوق صوت محركات حلم فيڤر وضجة رفاساتها، لكن الرصاصة لم تصب شيئًا.

التفت دامون چوليان إلى چوشوا يورك متجاهلًا ابتسامة فرام الواسعة وقال: «ستلحق بهم من أجلي يا چوشوا. أو سأطلب من بيلي إلقاء زجاجاتك في النهر، وستعطش مثلنا. هل تفهمني؟».

- نعم.

أوقف كلا جانبي الرفاسات، ثم شغل رفاسات جانب التحميل ببطء إلى الأمام، ورفاسات الجانب الآخر إلى الخلف وبدأت حلم فيڤر تتحرك بمساعدة التيار. تمخر إيلي رينولدز أمامها، رفاسها الخلفي الوحيد يدور في جنون.

قال دامون چوليان: «جيد».

ثم التفت نحو بيلي الشرس مردفًا: «أنا ذاهب إلى غرفتي يا بيلي».

يمضي چوليان وقتًا طويلًا في غرفته، يتقلَّب وحيدًا في الظلام دون شمعة مضاءة حتى، يرشف خمر البراندي ويحدق إلى اللاشيء. مع مرور الأيام راح يمنح بيلي الشرس صلاحيات أكثر لإدارة الباخرة، كما ترك لبيلي إدارة المزرعة من قبل بينما يجلس هو في ظلمة مكتبته المتربة.

أكمل چوليان: «امكث هنا وتأكد من أن قبطاننا ينفذ ما أمرت به. عندما نلحق بهذه الباخرة، اجلب لي كابتِن مارش».

سأله بيلي: «ماذا عن الآخرين؟».

ابتسم چوليان مجيبًا: «أنا واثق من أنك ستفكر لهم في شيء».

عندما غادر چوليان، استدار بيلي لمراقبة النهر. أسرعت إيلي رينولدز إلى الجنوب في الوقت الذي كانت تدور فيه حلم فيڤر، وأصبحت على بعد مئات الياردات، لكن واضح أن هذا الفرق بينهما لن يدوم طويلًا؛ حلم فيڤر تنطلق إلى الأمام كما لم تفعل منذ أشهر، رفاساتها تدور بأقصى سرعة، أفرانها تهدر، طوابقها تهتز من حركة المحركات أسفلها. بينما يراقب بيلي، بدأت المسافة بين الباخرتين تقل، وحلم فيڤر تلتهم النهر. سرعان ما سيلبي

مارش دعوة دامون چوليان، وبيلي تيبتون الشرس يتوق إلى هذا في حماسة حقيقية.

ثم بدأ چوشوا يورك يجنح بالباخرة إلى اليسار ويدير المقوَد.

احتج بيلي: «أنت! أنت تسمح لهم بالهرب! ماذا تفعل؟».

مد يده إلى ما وراء ظهره واستلَّ سكينه، فنخز بها ظهر يورك.

- ماذا تفعل؟

أجاب يورك ببرود: «أعبر النهر يا سيد تيبتون».

- أدِر هذا المقود إلى الجهة الأخرى، مارش لا يعبر النهر كما أرى، ويبتعد عنا أكثر.

تجاهل يورك الأمر، فثارت ثائرة بيلي.

- قلت لك: استدر!

- منذ لحظة عبرنا بجدول مغلق بجذع شجرة. هذه هي العلامة، وعند هذه العلامة يجب أن أعبر النهر. لو أكملت في طريقي سأخرج من المياه العميقة وسنغرق. ثمة حيد عميق أمامنا يترك أثرًا على الماء، لكنه ليس بالعمق الكافي بحيث لا يحطم قاع باخرتنا. أليس هذا صحيحًا يا سيد فرام؟

- لم أكن لأقول أكثر مما قلت.

حدق بيلي الشرس إليهما في شك ثم قال: «لا أصدقكما. مارش لم يعبر النهر، ولم يتحطم قاع باخرته كما أرى».

ثم أشهر السكين مضيفًا: «لن تتركه يبتعد عنا».

وكانت إيلي رينولدز قد ابتعدت مائة ياردة أخرى عن حلم فيڤر، ووقتها بدأت الباخرة الصغرى تنحرف قليلًا إلى اليسار.

قال فرام مستحسنًا: «يا للجحيم. هذه الباخرة الصغيرة ذات الرفاس الخلفي التي نطاردها لن تتعثر، وبعد أمطار غزيرة يمكنها الإبحار نصف المسافة إلى نيو أورلينز دون أن يلاحظ أحد أنها غادرت مجرى النهر الرئيسي».

علَّق يورك: «أبنر ليس غبيًّا، وكذا قبطانه. هما يعرفان أن الحيد بالعمق الكافي الذي لن يعطلهما حتى في هذا المكان من النهر. لقد عبراه على أمل

أن نتبعهم ونحطم باخرتنا، أو على الأقل ننغرز مكاننا حتى الفجر. والآن، هل تفهم يا سيد تيبتون؟».

شعر بيلي الشرس فجأة كأنه أحمق. أعاد سكينه إلى غمدها، فضحك فرام ضحكة هي نوع من النخر، لكن صوتها كان كافيًا لجذب انتباه بيلي، فصاح: «اخرس، وإلا أرسلت في طلب زوجاتك».

اختفت إيلي رينولدز في الأفق، ولم يعد يظهر منها سوى خط دخان معلق في الهواء، وأضواؤها تنير جانب الأشجار على الضفة. ظل بيلي يحدق إلى الأضواء في صمت.

سأله يورك بهدوء: «لماذا تكترث لهرب أبنر مارش؟ ما الذي فعله الكابتِن وآذاك يا سيد تيبتون؟».

أجاب بيلي: «لا أحب ذوي البشرة المشوهة، وچوليان يريده، وأنا أفعل ما يريد چوليان».

قال چوشوا: «ماذا كان ليفعل دونك».

لم يعبأ بيلي بالطريقة التي قال بها عبارته الأخيرة، لكن قبل أن يتكلم، أكمل يورك: «إنه يستغلك يا بيلي. دونك لن يكون شيئًا. أنت تفكر بدلًا عنه. تنفذ نيابة عنه. تحميه نهارًا. أنت تخلق منه ما هو عليه الآن».

قال بيلي في فخر: «نعم».

هو يعرف مدى أهميته، ويعجبه هذا، خاصة مع الامتيازات التي حصل عليها على متن الباخرة. لقد أحب حياة النهر. العبيد الذين اشتراهم، وحثالة البيض الذين استأجرهم يرتعبون منه، وينادونه: «سيدي تيبتون». ويهرعون لتنفيذ ما يأمر به دون أن يرفع صوته أو حتى يسدد إليهم نظرات مهددة. بعض رجال الباخرة الأصليين تمردوا في البداية، فبقر بطن واحد منهم ودسَّ جثته في الفرن وأحشاؤه تتدلى منه، بعدها صار يحترمه الجميع. أما الزنوج فلم يسببوا أي مشكلات إلا وقت الرسو، حين يضطر بيلي إلى ربطهم بالأغلال إلى الباخرة كيلا يهربوا. وضعه هنا أفضل من أن يكون مشرفًا على العبيد في مزرعة. الجميع يرون المشرف الأبيض حثالة، بينما رجل النهر يحظى بمكانة أكبر ترقى إلى منصب الضابط النهري. شخص يُحترم.

قال يورك: «الوعد الذي وعدك به چوليان كِذبة. لن تصير واحدًا منا يا بيلي. نحن جنس مختلف. تشريحنا مختلف، لحمنا ودمنا مختلفان. لن يستطيع تحويلك مهما زعم».

قال بيلي: «لا بد أنك تظنني غبيًّا لعينًا. لا أعتمد على ما يقوله چوليان. لقد سمعت القصص وأعرف أن مصاصي الدماء يصنعون مصاصي دماء. أنت كنت مثلي من قبل يا يورك، مهما زعمت العكس، إلا أنك ضعيف، وأنا لست كذلك. هل أنت خائف؟».

بيلي يظن أن يورك يوسوس له كي يخون چوليان، فلا يحوِّله الأخير إلى مصاص دماء فلا يصير أقوى من يورك، أو ربما في قوة چوليان نفسها.

- أنا أرعبك يا چوش، أليس كذلك؟ أنت تظن أنك رائع، لكن انتظر حتى يحوِّلني چوليان، وسأجعلك تزحف أمامي. أتساءل عن طعم دمك. چوليان يعرف، أليس كذلك؟

لم يقل يورك شيئًا، لكن بيلي يعرف أنه لمس وترًا حساسًا. لقد ذاق دامون چوليان دم يورك عشرات المرات منذ ليلته الأولى على حلم فيڤر. الحقيقة هو لم يشرب من دم أي شخص آخر. كان يبرر هذا بقوله: «لأنك جميل للغاية يا عزيزي چوشوا». كان يقولها بابتسامة باهتة وهو يناول يورك كأسًا يترعه من دمه. بدا له إخضاع يورك مسليًا.

قال يورك بعد هنيهة: «هو يخدعك طوال الوقت، في كل يوم وليلة. يسخر منك، يحتقرك، ويرى أنك قبيح طامِع مهما كان نفعك له. ما أنت إلا حيوان بالنسبة إليه، وسيتخلص منك كالقمامة ما إن يجد وحشًا أقوى منك يخدمه. لكن وقتها ستكون قد فسدت وتعفنت حتى إنك ستظل تصدقه وتنتظر وعده».

- اخرس! چوليان لا يكذب!

- سله إذًا متى ينتوي تحويلك. اسأله كيف يفعل هذه المعجزة، وكيف سيجعل بشرتك شاحبة ويغير خلقة جسدك ويعلم عينيك أن تريا في الظلام. سَل چوليان لو أنك تظنه لا يكذب، وأصغِ يا سيد تيبتون. أصغِ إلى السخرية في صوته وهو يتحدث معك.

أطبق بيلي الشرس أسنانه في غضب. هذا كل ما يمكنه فعله كي يمنع نفسه من أن يستل سكينه ويغرزه في ظهر يورك العريض. لكنه كان يعرف أن يورك سينقلب على چوليان.

قال أخيرًا: «حسنًا. ربما سأسأله. هو أكبر منك عمرًا يا يورك ويعرف ما لا تعرف. ربما أسأله الآن».

نخر كارل فرام مرة أخرى، فالتفت يورك بعيدًا عن المقود مبتسمًا، وسأله: «ماذا تنتظر إذًا؟ سَله».

فانطلق بيلي الشرس إلى مهاجع الطاقم ليسأل.

كان دامون چوليان قد استولى على غرفة الرُّبان التي كانت غرفة چوشوا يورك. طرق بيلي الباب في أدب، فجاءته الإجابة: «نعم يا بيلي».

فتح الباب ودخل. الغرفة مظلمة لكن استشعر وجود چوليان على بعد بضعة أقدام منه. سأله الأخير: «هل أمسكتم كابتِن مارش؟».

- ما زال يهرب، لكننا نلحق به قريبًا يا سيدي چوليان.
- آه. لماذا أنت هنا إذًا يا بيلي؟ لقد طلبت منك أن تمكث مع چوشوا.
- أتيت أسألك عن أمر.

كرر عليه كل ما قاله چوشوا يورك، وعندما انتهى كان الصمت يغلف الغرفة. قال چوليان أخيرًا: «بيلي المسكين. هل تراودك الشكوك يا بيلي بعد كل هذا الوقت؟ لو أنك تشك، فلن تكمل التحدي يا بيلي. لهذا يورك معذَّب، فقد تركته شكوكه معلقًا، نصف سيد ونصف من القطيع. هل تفهم؟ يجب أن تتحلى بالصبر».

أصرَّ بيلي الشرس: «أريد أن أبدأ. لقد مرت سنوات يا سيدي چوليان. نحن الآن نملك هذه الباخرة، والأوضاع أفضل. أريد أن أكون منكم. لقد وعدتني».

تنهد دامون چوليان ثم قال: «أنا وعدتك. سنبدأ إذًا يا بيلي، أليس كذلك؟ لقد خدمتني بإخلاص، ولو كنت مُصرًّا، كيف أرفض لك طلب؟ أليس كذلك؟ أنت ماهر جدًّا، ولن أخسرك».

يكاد بيلي يصدق أذنيه: «هل تعني أنك ستحولني؟».

فكر بيلي: «ليكونن چوشوا يورك آسفًا للغاية على ما قاله».

- بالطبع يا بيلي. لقد وعدتك.
- متى؟
- لا يمكن للتحول أن يتم في ليلة واحدة. ستحتاج إلى وقت لتتحول يا بيلي. ستحتاج إلى أعوام.

- أعوام؟

قالها بيلي في هلع. لا يهمه أن ينتظر أعوامًا، لكن الأمر لا يتطلب كل هذا الوقت كما ذكرت القصص.

- أخشى هذا. كما كنت صبيًّا وصرت رجلًا ببطء، يجب أن تتحول من عبد إلى سيد بالبطء نفسه. سنغذيك جيدًا يا بيلي، ومن الدماء ستجني القوة، والجمال، والسرعة. ستشرب الحياة وستجري في عروقك حتى تولد من جديد من رحم الليل. لا يمكن أن نفعل هذا سريعًا، لكن يمكننا أن نفعله. سيكون الأمر كما وعدتك. ستحصل على الخلود والسيادة، وسيملؤك الظمأ الأحمر. سنبدأ قريبًا.

- قريبًا متى؟

- لنبدأ، يجب أن تشرب يا بيلي. لذا نريد ضحية.

ثم ضحك مضيفًا: «كابتِن مارش. منه ستتغذى يا بيلي. عندما تمسك بباخرته، اجلبه لي، وسيكون ملكك يا بيلي. سنقيده في قاعته الكبرى وستشرب منه ليلة تلو ليلة. رجل في حجمه ممتلئ بالدماء، وسيدوم طويلًا يا بيلي بما يكفيك حتى تتغير. أجل. ستبدأ بكابتِن مارش بمجرد أن تمسك به. أمسك به يا بيلي. لأجلي ولأجلك».

***

خمسة وعشرون



على متن الباخرة إيلي رينولدز
نهر المسيسبي
أكتوبر 1857

كان أبنر مارش يراقب من مقصورة القيادة، عندما قارع حلم فيڤر. ضرب بعصاه الأرض وهو يسب، لكنه لم يكن واثقًا ما إن كان أمله قد خاب، أو أنه ارتاح. كان ليتمزق قلبه لو أنه شهد تحطم باخرته العزيزة في أثناء خوضها الحيد. على الناحية الأخرى، ما زالت حلم فيڤر خلفهم، ولو أنها لحقت برينولدز سيمزقه دامون چوليان بلا شك.

بدا كلا الاحتمالين خسارة. وقف مارش مكانه عابسًا بينما قائد إيلي رينولدز يعبر النهر. منظر حلم فيڤر تتعقبهم في الظلام منظر مخيف. لقد بناها مارش كي تهزم الباخرة شفق، وكي تكون أسرع باخرة في تاريخ المركبات البخارية. الآن عليه أن يهزمها بأقدم البواخر وأكثرها إنهاكًا عبر النهر. قال وهو يلتفت نحو قبطانه: «لا فائدة. نحن في سباق. تأكد فقط من أنهم لن يلحقوا بنا».

نظر إليه الرجل كأنما ينظر إلى مجنون، وربما هذه هي الحقيقة.

نزل أبنر مارش إلى الطابق الرئيسي ليرى ما يمكنه فعله. كات جروڤ وضابطه ودوك تورني قد تولّيا الوردية. الطابق يلتهب حرارةً بالفعل، والأفران تستعر وتُطقطق وتلفظ اللهب بينما يضع فيها العمال مزيدًا من الأخشاب. استدعى جروڤ كل طاقمه، فراحوا يتصببون عرقًا وهم يطعمون هذا الفم البرتقالي الفاغر. حمل جروڤ وعاء ويسكي ومغرفة، يصب للعمال في أفواههم كيلا يتوقفوا عن العمل. العرق يغمر صدره العاري في سيل متصل، وجه محمر من الصهد.

راقب دوك تورني مؤشرات الضغط على الغلايات. مر بهم مارش وتحقق من المؤشرات أيضًا. الضغط يتزايد أكثر فأكثر. نظر إليه المهندس وصاح: «لم أرَ ضغطًا كهذا على هذه الباخرة منذ أربع سنوات».

كان عليه أن يصيح ليصل صوته عبر قرقعة الأفران. مد مارش يده بحذر إلى الغلاية ثم سحبها بسرعة. الغلاية ملتهبة لا يمكن لمسها. سأله تورني: «ماذا سنفعل بشأن احترازات الأمان يا كابتِن؟».

- دعك منها. نحن نحتاج إلى الباخرة يا سيدي.

عبس تورني ولم يرقه ما سمع. راقب مارش المؤشر وهو يتحرك إلى أعلى أكثر. البخار يخرج صارخًا من الأنابيب، لكن له تأثيره القوي. المحركات تهتز كأنما ستنفلق، والرفاسات تدور أسرع مما كانت تفعل طوال السنوات الماضية، *وابوابوابوابواب*... تدور وتنشر الرذاذ خلفها، فتهتز الباخرة وتُدفَع إلى الأمام كما لم تُدفَع من قبل.

ضابط الباخرة الثاني والعمال يتراقصون حول المحركات، يزودونها بالزيت والشحم. بدوا كقرود سوداء صغيرة غارقة في القار. ليس سهلًا تشحيم أجزاء متحركة بينما تتحرك، خاصة بسرعة حركة محركات إيلي رينولدز العتيقة.

صاح جروف: «أسرَع!».

ابتعد عامل ضخم ذو شعر أحمر عن فم الفرن، مترنحًا من أثر الحرارة. هوى على ركبتيه، فأخذ عامل آخر مكانه، وهرع جروف إليه يصب فوق رأسه مغرفة ويسكي. نظر الرجل إلى أعلى، ورمش مبتلًّا، ثم فتح فمه، فصب الرجل فيه مزيدًا من الخمر. بعد دقيقة نهض مرة أخرى ملطخًا بالشحم.

فتح المهندس أنابيب التنفيس فصفر البخار الملتهب خارجًا منها إلى الليل، مُخفضًا الضغط داخل الغلايات شيئًا. غرق مارش في العرق من حرارة البخار الرطبة، وصهد الأفران. الناس تجري من حوله في كل مكان، يتصارخون، يمررون بينهم الخشب والشحم، يُطعمون الأفران، يراقبون الغلايات، يصلحون المحركات. تصدر الرفاسات ضجة مريعة، تضيئها الأفران بألسنة لهبها. تحولت الباخرة إلى جحيم يتلظى، يضج بالصراخ والحركة والدخان والبخار والخطر. الباخرة تهتز وتسعل وترتجف على وشك السقوط ميتة، لكنها تتحرك، ولا يوجد أي شيء يعرفه مارش قد يجعلها تبحر أسرع.

ابتعد عن الحرارة اللاهبة راضيًا، متجهًا إلى مقدمة الباخرة، سترته وقميصه وسرواله يقطرون عرقًا كأنه خارج للتو من النهر. تحركت الرياح حوله، وشعر مارش ببرودة رائعة للحظات. على بعد أبصر الجزيرة التي تقسم النهر إلى قسمين، ومن خلفها ضوء عند الضفة الغربية يتحرك نحوه بسرعة.

- اللعنة! هذه الباخرة تبحر بسرعة عشرين ميلًا في الساعة، وربما نبحر نحن بسرعة ثلاثين ميلًا.

قال عبارته كأنما يصيح بها، وكأن صوته العالي سيجعل منها حقيقة. إيلي رينولدز تبحر عادة بسرعة ثمانية أميال في الساعة، والآن بالطبع تسابق الريح. هرع مارش يصعد الدرج، وعبر من القاعة الرئيسية إلى الطابق العلوي ليرى جيدًا من خلفهم. مداخن الباخرة العريضة تقذف الشرر في كل اتجاه، ورأى البخار يخرج حارًّا من أنابيب التنفيس كيلا تنفجر الغلايات بهم فترسلهم إلى الجحيم. الطابق العلوي غير ثابت تحت قدمي مارش كأنه جلد كائن حي. الرفاسات الخلفية تدور كأنما تقيء حائط مياه... كأنما هي شلال معكوس.

ومن خلفهم حلم فيڤر، يصل دخانها الصادر من مداخنها السوداء إلى منتصف المسافة إلى القمر. بدت أقرب بعشرين ياردة عما كانت عندما هبط مارش إلى طابق الغلايات.

وقف كابتِن يورچر إلى جوار مارش وقال بصوته الرمادي القلِق: «لا يمكن أن نسبقها».

- نحتاج إلى المزيد من البخار. المزيد من الحرارة.
- لا يمكن أن تدور الرفاسات أسرع يا كابتِن مارش. لو أن دوك عطس في توقيت غير مناسب لانفجرت الغلايات وقتلتنا جميعًا. عمر المحركات سبع سنوات، وسوف تتفكك من الاهتزاز، ومخزون الشحم يقل أيضًا. عندما ينتهي لن يكون معنا سوى الخشب. هذه سيدة مسنة يا كابتِن، وأنت تدفعها للرقص كأنه يوم زفافها، لكنها لن تستطيع الاستمرار.
- سحقًا.

نظر إلى ما وراء رفاساتهم الخلفية ليرى حلم فيڤر تتقدم أكثر. كرر: «سحقًا».

يورچر على حق. إنهم يندفعون نحو الجزيرة. النهر والمجرى الرئيسي ينعطفان شرقًا. الفرع الغربي أكثر ضيقًا وحتى من هذه المسافة يستطيع مارش أن يرى كم يضيق الفرع أكثر كلما توغَّل، إذ تميل الأشجار عبر الضفاف وتُمدد جذورها الضخمة. عاد إلى غرفة القيادة وقال للقائد: «اتخذ الفرع الغربي».

نظر القائد خلفه نصف مصدوم. جرى العرف في النهر أن يتخذ القائد مثل هذه القرارات. ربما يقدم الربان بعض المقترحات، لكنه لا يعطي أوامر.

أجاب القائد: «لا يا سيدي. انظر إلى الضفاف يا كابتِن مارش. النهر مغلق تقريبًا. أعرف هذا المنعطف ولا يمكن الإبحار خلاله في هذا الوقت من العام. لو اتخذته لمكثنا هناك حتى فيضان الربيع».

- ربما كلامك صحيح، لكن لو أننا لن نستطيع الإبحار خلاله، فحلم فيڤر لن تستطيع أيضًا. ستضطر إلى الدوران، وهذا أهم من أي شيء قد نواجهه في الفرع الغربي. هل تسمعني؟

عبس القائد وهو يقول: «لا حق لك في أن تقول لي كيف أقود باخرتي عبر النهر يا كابتِن. لي سمعتي ولم أدمر باخرة من قبل، ولا أريد أن أفعل هذا الليلة. سنظل في المجرى الرئيسي».

شعر مارش بوجهه يتحول إلى الأحمر. نظر خلفه. حلم فيڤر على بعد ثلاثمائة قدم، وتقترب.

- أنت أيها الأحمق اللعين. هذا هو أهم سباق في تاريخ هذا النهر، وقائد باخرتي أحمق! لو أن السيد فرام خلف مقودها فسيلحقون بنا قطعًا. حتى لو كان القائد أي واحد ممن يعرفون كيف يبحرون بها. انظر إليها، حتى وإن كنا نبحر بأقصى سرعتنا فستلحق بنا قريبًا، إلا إذا استخدمنا الحيلة. هل تسمعني؟ والآن اتخذ الفرع!

- يمكن أن أقدم فيك بلاغًا لدى الرابطة.

- يمكن أن ألقيك من فوق السور.

وتحرك تجاهه مهددًا. اقترح القائد: «أرسل قارب استطلاع أمامنا يا كابتِن، فيخبرنا ما يمكننا مواجهته هناك».

نخر مارش في اشمئزاز وهتف: «ابتعد عن طريقي».

ودفع القائد جانبًا بعنف. تعثر الرجل ثم سقط. أمسك مارش المقود وأداره نحو اليسار، فمالت إيلي رينولدز برأسها طائعة. هدد القائد وسبَّ، فتجاهله مارش وصب تركيزه في توجيه الباخرة حتى جاوزت الجزيرة الطينية العالية، وانعطفت إلى الفرع الغربي المنحني. نظر إلى ما وراء كتفه ليرى حلم فيڤر خلفهم بمائتي قدم، تبطئ سرعتها ثم تتوقف، وتبدأ في التراجع حانقةً. نظر مرة أخرى بعد لحظات، فتأكد من أنها تتجه إلى الفرع الشرقي. ثم لم يعد من وقت للنظر؛ ارتطمت إيلي رينولدز بشيء، بدا من صوته جذع شجرة. اصطكَّت أسنان مارش جراء الصدمة حتى كاد يقضم لسانه، واضطر إلى التشبث بالمقود كي يظل واقفًا على قدميه. سقط القائد أرضًا مرة أخرى بعدما قام قبل الارتطام، فأنَّ وتأوَّه. سرعة الباخرة جعلتها تصعد فوق العائق الذي رأى منه مارش لمحة؛ شجرة ضخمة سوداء نصف مغمورة. تمايلت الباخرة كأن عملاقًا مخبولًا يلعب بها، ثم ارتفعت وصدر صوت تهشم عنيف إذ تعثر الرفاص الخلفي بالجذع.

سبَّ القائد وقام واقفًا وهو يهتف: «هذه هي القاضية! أعطني المقود!».

- بكل سرور.

ابتعد مارش عن طريقه. تركت إيلي رينولدز الجذع وراءها، وراحت تقطع النهر الضحل كالمجنونة وهي تتعثر في التباب الرملية واحدة تلو الأخرى. أبطأتها إحداها، وأبطأها القائد أكثر وهو يدق جرس غرفة المحركات ويهتف: «أوقفوا المحركات تمامًا! أوقفوها!».

دارت الرفاسات عدة مرات، ثم توقفت، وخرج من أنابيب التنفيس بخار أبيض يهِس حتى سكت، لكن المقود ظل يدور من تلقاء نفسه بين يدي القائد.

قال والباخرة تعبر تبة أخيرة أوقفتها تمامًا: «لقد فقدنا الدفة».

هذه المرة عض مارش لسانه بالفعل وهو يتعثر نحو المقود. صرخ أحدهم بالأسفل، فقام وهو يبصق الدماء. لسانه يؤلمه كالجحيم، ومن حسن حظه أنه لم يقطعه.

صاح القائد: «اللعنة! انظر! فقط انظر».

لم تفقد إيلي رينولدز دفتها فقط بسببه، بل نصف عجلة الرفاسات أيضًا. ما زالت الأخيرة مثبتة إلى الباخرة، لكن متدلية ونصف مجاديفها مكسورة أو مفقودة. نفثت الباخرة البخار مرة أخيرة، ثم استقرت في الطين.

- قلت لك إننا لن نستطيع الخوض في هذا التفرع. لقد أخبرتك! لا شيء هنا في هذا الوقت من العام سوى الرمال والأشجار الميتة. هذا ليس نتيجة قراراتي، ولن أقبل أن يدعي أحد مسؤوليتي عنه!

صاح مارش: «أغلِق فمك الغبي!».

كان مارش ينظر إلى الخلف حيث النهر الرئيسي ما زال واضحًا خلف الأشجار. بدا النهر خاليًا، وربما ابتعدت حلم فيڤر. ربما.

- كم نحتاج لعبور هذا الفرع؟

- اللعنة! لماذا تكترث؟! لن نتحرك من هنا قبل الربيع. ستحتاج إلى دفة جديدة وعجلة مجاديف أيضًا، وستحتاج إلى من يُخرجنا من الرمال.

كرر مارش في إصرار: «كم من الوقت نحتاج لقطع هذه التفريعة؟».

- ثلاثين دقيقة، وربما عشرين لو كانت الباخرة تجري كما كانت تفعل. لماذا يهمك الأمر؟ أقول لك...

فتح مارش الباب وانطلق ينادي كابتِن يورچر. اضطر إلى مناداته ثلاثًا ثم الانتظار خمس دقائق حتى ظهر. قال: «معذرة يا كابتِن. كنت في الطابق الرئيسي. تومي الأيرلندي وچوهانسن الكبير مصابان بحروق عظيمة».

ثم رأى ما أصاب الباخرة، فغمغم كسيف البال: «أوه، يا فتاتي المسكينة».

سأله مارش: «هل انفجرت أنابيب البخار؟».

انتزع الرجل عينيه عن عجلة الرفاسات المحطمة وقال: «كثير منها. انفجر البخار في كل مكان، وربما كان الوضع ليكون كارثيًّا ما لم يُسرِّب دوك ضغط البخار في الوقت المناسب. الارتطام فكك كل شيء من مكانه».

تهدلت كتفا مارش؛ هذه هي الضربة القاضية. حتى لو أنهم استطاعوا إخراج أنفسهم من الرمال، وصنع دفة جديدة كيفما اتفق، والإبحار بنصف عجلة رفاسات، وإبعاد الجذع اللعين عن الطريق -وهي كلها مهام عسيرة- فأنابيب البخار مكسورة وربما أصاب العطب الغلايات.

ظل يسب ويصيح فترة طويلة.

قال يورچر: «لن نستطيع مطاردتهم يا كابتِن كما كنت تتمنى، لكننا الآن في أمان على الأقل. ستدور حلم فيڤر من حول الجزيرة فلا تجدنا، وسيظنون أننا ابتعدنا عن أنظارهم، وسيكملون طريقهم في عقبنا كما سيتصورون».

قال مارش: «لا، أريدك أن تحمل المصابين على نقّالات إلى المدينة. لا بد أن مدينة قريبة من هنا».

وأشار نحو الضفَّة التي تبعد عنه عشرة أقدام، تفصلها عنهم المياه الضحلة. قال القبطان: «نعم. ثمة مدينة على بعد ميلين».

- عظيم. انقلهم إليها إذًا. أريدكم جميعًا أن تذهبوا إلى المدينة، وبسرعة.

تذكر مارش لمعة إطار نظارة چيفرز وهي تسقط لتتهشم. هذه اللمعة المريعة. فكر مارش في أنه لن يسمح بتكرار حدوث الأمر ذاته، ليس بسببه.

- ابحث عن طبيب يعالجهم. ستكونون هناك في أمان. هم يريدونني أنا.

سأله يورچر: «ألن تأتي؟».

- معي بندقيتي. سأنتظر.

- تعالَ معنا.

- لو هربت، سيتبعوننا. ولو حصلوا عليَّ فأنتم في أمان. هذا هو الحل الوحيد.

- لو لم يأتوا...

- لو لم يأتوا سألحق بكم مع أول شعاع شمس.

ثم طرق الأرض بعصاه مضيفًا: «ما زلت الربَّان هنا، أليس كذلك؟ كفى مجادلة وافعل ما آمرك به. أريدكم جميعًا خارج باخرتي. مفهوم؟».

- كابتِن مارش، على الأقل دعني أنا وكات لنساعدك.

- لا.

- كابتِن...

صاح مارش بوجه محمر: «هيا!».

هرع يورچر يجذب القائد المذهول من ذراعه ويخرج به من مقصورة القيادة. عندما ابتعدا نزولًا إلى أسفل، نظر مارش إلى ما وراء الباخرة مرة أخرى، ولم يرَ شيئًا، لذا نزل إلى غرفته. أنزلَ البندقية عن الحائط وتأكَّد من أنها محشوة بالرصاص ومستعدة للإطلاق، ووضع باقي الرصاصات الخاصة المصنوعة بناء على طلبه في جيب سترته البيضاء.

عاد مارش مسلحًا إلى الطابق العلوي للباخرة، ووضع مقعده حيث يستطيع أن يجلس عليه ويبقي عينيه على النهر. لو أنهم أذكياء لعرفوا كم أن

منسوب النهر منخفض الآن، ولعرفوا أن إيلي رينولدز ربما تستطيع العبور، وربما تعجز، لكن على أقصى تقدير فلن تعبر إلا بسرعة بطيئة للغاية. لو أنهم أذكياء لعرفوا أنهم لو داروا من حول الجزيرة للحقوا بها قبل أن تخرج من الفرع الضيق. ولو أنهم عرفوا ذلك كله ما كانوا ليبحروا جنوبًا على الإطلاق، بل كانوا ليوقفوا حلم فيڤر قرب مخرج الفرع ويتربصون بإيلي رينولدز. وقتها سينزل قوم الليل ويركبون القوارب في حال توقفت إيلي رينولدز أو تعطلت. هذا ما كان أبنر مارش سيفعله لو كان مكانهم.

ما يراه من النهر لا يزال خاويًا. شعر برعدة وهو ينتظر ويتوقع أن يرى القوارب في أي لحظة تقترب من بين صفي الأشجار، ملآنة بالظلال السوداء ذات الأوجه الشاحبة الباسمة في خبث تحت ضوء القمر. اطمأن على بندقيته مرة أخرى، وتمنى لو يسرع يورچر.

كان يورچر وجروڤ وباقي طاقم إيلي رينولدز قد رحلوا من خمس عشرة دقيقة، ولم يكن من شيء يتحرك بعد عبر النهر.

في الليل أصوات كثيرة. تخرخر المياه حول باخرته، تُميل الريح الأشجار فتحتك، ينادي حيوانات الغابة بعضها بعضًا. قام مارش وإصبعه على زناد البندقية، يفحص المكان حوله بحرص. لا شيء سوى المياه الفضية تجري فوق تباب الرمال والجذور المتشعبة المكشوفة، والجذوع النخرة الطافية تضرب بدن الباخرة وعجلة رفاساتها.

غمغم من بين أسنانه: «ربما هم ليسوا بهذا الذكاء».

لمح مارش بركن عينيه شيئًا باهتًا على الجزيرة عبر الماء. التفت نحوه رافعًا سلاحه إلى كتفه، لكن لم يكن من شيء سوى الغابة المظلمة وطمي النهر السميك. عشرون ياردة من الماء الضحل بينه وبين الجزيرة المظلمة الساكنة.

كان أبنر مارش يتنفس بصعوبة. ماذا لو لم يركبوا القارب إليه، ومشوا تجاهه برًّا؟

صرَّت إيلي رينولدز تحته، وازداد قلق مارش. قال لنفسه إن مصدر الصوت خشب الباخرة الذي يرتاح أكثر فوق الرمال، لكن جزءًا آخر من نفسه كان يهمس له بأن صوت الصرير ناتج عن ضغط خطوات، وأنهم ربما تسللوا إلى الباخرة وهو يراقب النهر. ربما هم على متن الباخرة بالفعل. ربما داموں

جوليان يصعد الدرج الآن... يقطع القاعة الرئيسية -هو يعرف مدى خفة حركته- ويفتش الغرف، ثم يتجه نحو الدرج الذي يفضي إلى الطابق العلوي حيث هو.

أدار مارش مقعده ليواجه مدخل الدرج، في حال ظهر وجه شاحب فجأة. يداه تتعرقان وهو ممسك بالبندقية، فتنزلق بينهما. يمسح كفيه في بنطاله.

فكر مارش في أن صوت همسات يأتي من جهة الدرج، أشخاص يدبرون له أمرًا. هو حبيس هنا بالأعلى وحده. وحدته لا تهمه، فقد كان آخرون برفقته من قبل ولم يحدث هذا فارقًا. قام مارش متجهًا نحو الدرج، ونظر إلى الظلام الذي لا ينيره سوى ضوء القمر. قبض على السلاح. رمش. انتظر حتى يظهر شيء. انتظر أكثر وهو يصغي إلى الهمسات البعيدة ودقات قلبه تضطرب كاضطراب صوت محركات إيلي رينولدز. فكر مارش في أنهم يريدونه أن يسمعهم. يريدونه أن يخاف. لقد تسللوا إلى باخرته كالضواري كيلا يشعر بهم، وهم الآن يحاولون بث الرعب في نفسه.

صاح مارش: «اصعد إلى هنا. لدي شيء لك يا جوليان».

وصوَّب السلاح.

صمت...

- سحقًا لك.

تحرك شيء عند قاعدة الدرج. شيء شاحب سريع. حاول مارش إطلاق النار عليه لكنه اختفى سريعًا قبل أن يصوب. لعن وسبَّ وهو ينزل درجتين، ثم توقف وفطن إلى أن هذا ما يريدونه أن يفعل. إنهم يستدرجونه إلى أسفل حيث الغرف المظلمة والقاعة المتربة التي لا يصل نور القمر إليها عبر مسقط سقفها الزجاجي القذر. فوق السطح العلوي يمكنه أن يتعامل معهم جيدًا، ولا يمكن الظفر به بسهولة، فهو سيراهم إذ يصعدون الدرج أو جوانب الباخرة. لكن بالأسفل لن يناله منهم أي رحمة.

ناداه صوت هادئ من أسفل: «كابتِن. كابتِن مارش».

ضيق مارش عينيه وهو يصوب بندقيته.

- لا تطلق النار يا كابتِن مارش. هذا أنا. أنا فقط.

وخطت ڤاليري إلى حيث يراها. تردد مارش. كانت تبتسم له. ضوء القمر ينعكس على شعرها الأسود. كانت تلبس سروالًا وقميصًا رجاليًّا غير مُزرر

من الأمام. بشرتها ناعمة شاحبة، والتقت عيناها عينيه، كأنهما منارتان بنفسجيتان منيرتان، عميقتان، جميلتان، بلا نهاية. يمكنه السباحة في تلك العينين للأبد.

نادته ڤاليري: «تعال إليَّ يا كابتِن. أنا وحدي. أرسلني چوشوا. انزل كي نتحدث».

نزل مارش درجتين، مأخوذًا بتلك العينين. رفعت ڤاليري ذراعيها نحوه.

أنَّت إيلي رينولدز وصرَّت أخشابها وهي تميل نحو اليسار. تعثر مارش وارتطمت ذقنه بإفريز الدرج، فدمعت عيناه ألمًا. سمع ضحكة بعيدة من أسفل، ورأى ابتسامة ڤاليري تبهت.

رفع مارش بندقيته سريعًا إلى كتفه وهو يلعن، وأطلق النار. رد فعل الإطلاق كاد يمزق كتفه، ودفعه ليسقط جالسًا. كانت ڤاليري قد رحلت، اختفت كشبح. قام مارش على قدميه وفتش جيبه عن خرطوشة البارود وهو يتراجع صاعدًا. صاح في الظلام: «يا للجحيم يا چوشوا. لقد أرسلك چوليان، اللعنة عليه!».

عندما تراجع إلى الطابق العلوي شعر بشيء صلب يُضغط بين لوحي كتفيه، وسمع صوتًا من خلفه يقول: «حسنًا، حسنًا... وكأنه كابتِن مارش».

وظهر الآخرون واحدًا تلو الآخر، آخرهم ڤاليري عندما هوى السلاح من بين يدي مارش، ولم تنظر إليه. شتمها مارش ولعنها بكل الكلمات التي تعني كونها عاهرة خائنة، فنظرت إليه أخيرًا نظرة حزينة، وقالت في مرارة: «هل تعتقد أنه كان لي الاختيار؟».

فصمت مارش. لم تكن كلماتها هي التي هدَّأته، إنما نظرتها. لقد لمح في هاتين الفجوتين البنفسجيتين العميقتين الخزي والذعر... والظمأ.

صاح فيه بيلي تيبتون الشرس: «تحرك!».

- سحقًا لك.

***

ستة وعشرون



على متن الباخرة أوزيماندياس
نهر المسيسبي
أكتوبر 1857

توقع أبنر مارش الظلام، لكن عندما دفعه بيلي الشرس عبر باب غرفة الربان كانت الغرفة مضاءة بمصابيح الزيت، وكانت مُتربة أكثر مما يتذكرها مارش، لكن فيما عدا ذلك كانت كما تركها چوشوا. أغلق بيلي الشرس الباب، وصار مارش وحده مع دامون چوليان. قبض على عصا مَشيه بعدما تخلص بيلي من البندقية في النهر، لكن سمح لمارش بأخذ عصاه.

هتف مارش: «لو أنك تنتوي قتلي، تعالَ وحاوِل. لست في مزاج للعِب».

ابتسم دامون چوليان وهو يقول: «أقتلك؟ لماذا يا كابتِن؟ لقد خططت لإطعامك العشاء».

كانت صحفة فضية مُغطَّاة قد وُضِعَت على المنضدة الصغيرة بين المقعدين الجلديين الكبيرين. رفع چوليان غطاءها ليكشف عن طبق دجاج مقلي، وإلى جواره خُضرة، ولفت وبصل، وقطعة فطيرة تفاح تعلوها طبقة جبن.

- لدينا خمر أيضًا. تفضل بالجلوس يا كابتِن.

نظر مارش إلى الطعام، وشم رائحته، ثم قال موقِنًا: «توبي ما زال حيًّا».

- بالطبع حي. هلا جلست؟

تحرك مارش إلى الأمام في حذر. لم يكن قادرًا على تخمين نيات چوليان، لكنه فكر سريعًا وخلُص إلى أنه لا يكترث. ربما الطعام مُسمم، لكن هذا لا يُعقَل، فلديهم طرق أسهل لقتله. جلس والتقط قطعة من صدر الدجاج الساخن. قضمها بشهية مفتوحة وهو يحاول أن يتذكر آخر مرة آكل فيها وجبة جيدة. ربما سيموت قريبًا، لكنه سيموت ممتلئ المعدة.

شاهد دامون چوليان –الذي كان يرتدي بدلة بنية وصدرية ذهبية– مارش وهو يأكل بابتسامة رضا على وجهه الشاحب.

– هل تريد خمرًا يا كابتِن؟

ملأ كأسين وشرب من كأسه.

عندما أنهى مارش الفطيرة، أسند ظهره إلى ظهر المقعد وتجشأ، ثم قال: «وجبة جيدة. والآن لماذا أنا هنا؟».

– ليلة غادرت مسرعًا يا كابتِن، حاولت أن أخبرك أنني أود التحدث إليك ببساطة. أنت اخترت ألا تصدقني.

– وهذا صحيح. أنا لم أكن أصدقك، وما زلت لا أصدقك. ليس لدي ما أقوله بهذا الشأن. أكمل كلامك.

– أنت جريء يا كابتِن مارش. وقوي. أنا معجب بك.

– لا أريد أن أقول إنك بلا فائدة تمامًا بالنسبة إليَّ.

ضحك چوليان ضحكة هي موسيقى خالصة، ولمعت عيناه.

– ظريف. يا لك من لمَّاح.

– لا أعرف لماذا تتملقني، لكن هذا لن يفيدك في شيء. كل الدجاج المقلي في العالم لن يجعلني أنسى ما فعلته بالطفل المسكين، وبالسيد چيفرز.

– يبدو أنك نسيت أن چيفرز طعنني بسيف. هذا تصرف لا يمر ببساطة.

– ذاك الرضيع لم يكن معه سيف.

– هو عبد. ملكية خاصة بتصريح من قانونكم. لقد أعتقته من حياة العبودية يا كابتِن.

هتف مارش: «اذهب إلى الجحيم. لقد كان مجرد طفل، وأنت قطعت يده كأنك تقطع رقبة دجاجة، ثم سحقت رأسه. هو لم يفعل لك شيئًا».

– لا، ولم يفعل لك چين أردان شيئًا، ولا لقومك. ومع ذلك هشمتما رأسه أنت وزميلك بينما هو نائم.

– ظنناه أنت.

– آه. غلطة إذًا. لكن سواء أخطأتما أو لا، لقد قتلتما رجلًا بريئًا، ولا يبدو لي أنك تشعر بالذنب.

- لم يكن رجلًا. كان واحدًا منكم. مصاص دماء.

عقد چوليان حاجبيه وهو يقول: «رجاء. أنا أتفق مع چوشوا في كراهية هذا المصطلح».

هز مارش كتفيه غير مكترث.

- أنت تناقض نفسك يا كابتِن. تحكم عليَّ بأنني خبيث لأنني فعلت ما فعلت أنت دون تعاطف. أنت تقتل من هم على غير شاكلتك. أنت تدافع عن بني جنسك، بما فيهم السود. أنا معجب بهذا كما ترى. أنت تعرف من تكون وتفهم موضعك وطبيعتك. أنا وأنت متشابهان في هذا.

- لا أشبهك في شيء.

- آه، لكنك بالفعل تشبهني! أنا وأنت نتقبل طبيعتنا، ولا نسعى لتغيير أنفسنا إلى ما يستحيل أن نكونه. أنا أكره الضعفاء؛ أولئك الذين يحتقرون أنفسهم حتى ليتمنوا لو كانوا خلقًا آخر. أنت تشعر بالشيء ذاته.

- لا.

- لا؟ لماذا تكره بيلي الشرس إذن؟

- هو وضيع، ممسوخ.

بدا چوليان متحمسًا للغاية وهو يقول: «بالطبع هو كذلك. ضعيف، ويتوق إلى أن يصير أقوى. سيفعل أي شيء ليصير واحدًا من قومي. عرفت من كانوا مثله. هم مفيدون ومسلون، لكن غير مثيرين للإعجاب. أنت تكرهه لأنه يساند بني جنسنا، ويصطاد بني جنسه يا كابتِن مارش. يشعر چوشوا العزيز بالشعور ذاته ويرى في بيلي انعكاس صورته».

أكَّد مارش: «چوشوا وبيلي تيبتون لا يشبه أحدهما الآخر في شيء. بيلي ابن عرس لعين. ربما ارتكب چوشوا بعض الأفعال الشائنة، لكنه يحاول التكفير عنها. كان يريد أن يساعدكم جميعًا».

- كان يريد أن يغيرنا لنصير مثلكم. كابتِن مارش. أُمَّتكم نفسها منقسمة حول جواز العبودية؛ العبودية المبنية على العِرق. لنفترض أنك قادر على إيقافها. لنفترض أنك قادر على تحويل كل رجل أبيض في بلدك إلى أسود بلون القار بين عشية وضحاها. هل كنت لتفعل هذا؟

نخر مارش؛ لا تروقه فكرة التحول إلى لون القار الأسود، لكنه فهم ما يقوده إليه چوليان، ولم يشأ أن ينقاد خلفه، فلم يقل شيئًا.

رشف دامون چوليان من كأسه وابتسم وهو يقول: «هل تفهم الآن؟ حتى عدالتكم تُقِر بأن الأعراق السوداء أقل مكانة. لن يصبروا على عبد يتظاهر بأنه أبيض، وسيشمئزون من رجل أبيض أراد شرب خليط سحري لتحويله إلى الأسود. أنا لم أؤذِ الطفل العبد عبثًا يا كابتِن مارش. ليس في نفسي عبث. فعلتها لأصل إلى چوشوا العزيز. كم هو جميل، لكنه يثير الغثيان. أنت حالة مختلفة. هل ظننت حقًّا أنني كنت سألحق بك ضررًا في تلك الليلة من أغسطس؟ أوه، ربما كنت لأفعل ذلك في أثناء ألمي أو غضبي، لكن ليس قبل ذلك. الجمال يجذبني يا كابتِن مارش، وأنت خالٍ من أي جمال، لا أظنني رأيت من هو أكثر قبحًا منك. أنت مقرف، مغطى بالدهون والشعر الخشن والندوب، تفوح رائحتك بالعرق. أنفك أفطس وعيناك كعيني خنزير. أسنانك معوجَّة مبقعة. لا يمكنك أن توقظ فيَّ الظمأ أكثر مما يوقظه فيَّ بيلي. لكنك قوي، تتمتع بجسارة نادرة، وتعرف مكانتك جيدًا. هذا ما يعجبني فيك، بالإضافة إلى قدرتك على إدارة باخرة بالطبع. لا بد ألا نكون عدوين يا كابتِن. انضم إليَّ وقُد حلم فيڤر لأجلي». ثم ابتسم مضيفًا: «أو أيًّا كان اسمها الآن. قرر بيلي تغيير اسمها، واختار چوشوا اسمًا. لو وددت يمكنك تغيير اسم هذا الشيء».

- الباخرة ليست شيئًا. يدير بيلي تيبتون الباخرة، أليس كذلك؟

- بيلي مشرف على العبيد، لا رجل نهر. يمكنني التخلص من بيلي. هل يعجبك هذا يا كابتِن مارش؟ هذه ستكون أولى مكافآتك لو انضممت إليَّ. موت بيلي. سأقتله لأجلك، أو أدعك تفعل هذا بنفسك. هل تعرف أنه قتل زميلك؟

سرت القشعريرة في جسد مارش وهو يسأل: «مايك المشعر؟».

- نعم، ومهندسك أيضًا بعد بضعة أسابيع. ضبطه يحاول إضعاف الغلايات كي تنفجر. هل تريد أن تنتقم لقومك؟ في وسعك هذا.

مال چوليان إلى الأمام وعيناه تلمعان حماسة وأكمل: «يمكنك الحصول على أشياء أخرى أيضًا. الثروة... لا أكترث للمال، يمكنك الحصول على مالي كله».

- المال الذي سرقته من چوشوا.

ابتسم چوليان وهو يقول: «سيد الدماء يستقبل الكثير من الهدايا. يمكنني أن أمنحك النساء أيضًا. عشت وسط قومك سنوات طويلة، وأعرف شهوتكم؛ ظمأكم. منذ متى لم تضاجع امرأة يا كابتِن؟ هل تعجبك ڤاليري؟ يمكن أن تكون محظيتك. هي أجمل من أجمل نساء قومك، ولن تشيخ أو يزول حسنها. كل الباقيات مثلها، ولن يؤذوك. ماذا تريد أيضًا؟ الطعام؟ توبي ما زال حيًّا. يمكنه أن يطهو لك ست أو سبع مرات في اليوم لو أحببت، أنت رجل عملي يا كابتِن مارش، ولا تشارك قومك خرافاتهم الدينية. فكر فيما عرضت عليك. سيكون لك سلطة عقاب أعدائك وحماية أصدقائك، ومعدة ممتلئة، ومال، ونساء. كل هذا مقابل فعل ما تتوق حقًّا إلى فعله؛ إدارة هذه الباخرة. باخرتك؛ حلم ڤيڤر».

- لم تعد باخرتي. لقد أفسدتموها.

- انظر حولك. هل الأمور سيئة بحق؟ لقد أبحرنا بانتظام بين ناتشيز ونيو أورلينز، وركبها مئات الركاب دون أن يلاحظوا شيئًا مختلفًا. بعضهم اختفوا من المدن والبلدان التي نرسو فيها. يرى بيلي أن هذا أكثر أمانًا. لم يمت على متن باخرتك إلا ما يُحصى على أصابع اليد الواحدة، وكلهم من أصحاب الجمال والشباب الاستثنائي. عبيد أكثر يموتون كل يوم في نيو أورلينز، ومع ذلك لا يوقف أحد العبودية. العالم ممتلئ بالشرور يا أبنر. لا أطلب منك أن تقرَّها أو تشارك فيها. فقط شغِّل باخرتك واهتم بشؤونك الخاصة. نحن في حاجة إلى خبرتك. بيلي يُنفِّر الركاب، ونفقد المزيد من المال في كل رحلة. حتى تمويل چوشوا لن يكفي. تعالَ يا أبنر. ضع يدك في يدي. واِفق. أنت تريد أن توافق. أشعر بهذا في عينيك. إنه ظمؤك، رغبتك. اقبل. الخير والشر أكاذيب سخيفة. خرافات لإفساد عقول العاقلين. أعرفك يا أبنر وفي وسعي منحك ما تريد. انضم إليَّ. اخدمني. خذ بيدي، ومعًا سنهزم الباخرة شفق.

تأججت عيناه الداكنتان، ودارتا كدوَّامة بلا قاع، تصل إلى أعماق مارش، تمسَّه، تتحسسه بيد نجِسة، لكن مغوية. تناديه... تناديه... يده ممدودة. بدأ مارش يمد يده بدوره. ابتسامة چوليان جذابة، وكلماته منطقية. هو لم يطلب من مارش فعل شيء خبيث، فقط عليه أن يدير باخرته، ويحمي نفسه وأصدقاءه. يا للجحيم، لقد حمى چوشوا، وهو مصاص دماء أيضًا، أليس كذلك؟ وربما يُقتل بعض الناس على ظهر الباخرة، لكن الرجال يموتون دائمًا في أثناء رحلات البواخر لسبب أو لآخر، حتى في بواخره، ولم يُلَم على شيء؛ لقد كان يهتم

بشؤونه ويدير باخرته، ولم يقتل أحدًا بيديه. على الرجل أن يحمي أصدقاءه، لا العالم بأسرِه. سينال بيلي الشرس ما يستحق. بدا له الاتفاق عادلًا، عظيمًا.

عينا چوليان سوداوان، جائعتان، وبشرته باردة، صلبة كبشرة چوشوا، في تلك الليلة عندما...

ثم سحب أبنر مارش يده، وقال بصوت مسموع: «چوشوا. أنت لم تهزمه بعد، أليس كذلك؟ لقد عذبته لكنه حي، ولم تستطع إجباره على شرب الدم، ولم تجبره على أن يتغير. هذا هو السبب».

شعر مارش بدمائه تتدفق إلى وجهه وهو يضيف: «لا يهمك كم تجني هذه الباخرة اللعينة من مال، ولو غرقت غدًا لن تهز فيك شعره، وستجد لنفسك مكانًا آخر. ربما تريد التخلص من بيلي الشرس لسبب ما، وتستخدمني بدلًا عنه، لكن ليس الأمر كذلك بالضبط. أنت تريد كسر ما تبقى من عزيمة چوشوا بانضمامي إليك، لأنك تعرف تأثير هذا عليه».

كانت يد چوليان ممدودة بعد، وكفه تلمع بالخواتم. زعق مارش: «اللعنة عليك!» ثم ضرب اليد المعلقة في الهواء بعصاه وكرر: «اللعنة عليك!».

ماتت الابتسامة على شفتي دامون چوليان، وصار وجهه غير بشري. لم يعد في عينيه سوى الظلام والنار المتأججة بالشر العتيق. قام واقفًا ففاق أبنر طولًا، وجذب العصا من يد مارش قبل أن يطوحها نحو وجهه. كسرها بيديه العاريتين بسهولة كسر عود ثقاب بالنسبة إلى مارش. ألقاها بعيدًا، فتبعثرت شظاياها على البساط بعدما ارتطمت بالحائط.

قال چوليان ببرود مخيف: «ربما كان الناس سيعرفونك بأنك الرجل الذي سبقت باخرته الباخرة شفق، لكن بدلًا عن ذلك ستموت. وستموت على امتداد فترة طويلة يا كابتِن مارش. أنت أكثر قبحًا من أن تلائمني، لذا سأمنحك لبيلي لتعلمه طعم الدماء. ربما سنعطي چوشوا العزيز بعضًا من دمك أيضًا. سيفيده كثيرًا».

ثم ابتسم مضيفًا: «بالنسبة إلى باخرتك يا كابتِن مارش، لا تقلق. سأعتني بها بعدما ترحل. لن ينسى أحد حلم فيڤر».

***

سبعة وعشرون



على متن الباخرة أوزيمانديّاس
نهر المسيسبي
أكتوبر 1857

كان الفجر قد حل ومارش يُقاد خارج غرفة الربان. ضباب الصباح يرتفع في كسل فوق الماء، يغزل خيوطه حول الباخرة وأسوارها. بدا كمخلوق حي سرعان ما سيقتله شروق الشمس.

رأى دامون چوليان حُمرة الشرق، فمكث في ظلمات غرفته، ودفع مارش عبر الباب.

- خذ الكابتِن إلى غرفته يا بيلي، واحتفظ به حتى المساء. هل ستمنحنا شرف مشاركتنا العشاء يا كابتِن مارش؟ أعرف أنك ستفعل.

كانوا جميعًا يتنظرون بالخارج. بيلي الشرس في بدلة سوداء وصدرية بنقش المربعات، يجلس على مقعد مائل يستند إلى حائط مهاجع الطاقم، ينظف أظفاره بطرف سكينه. وقف عندما انفتح الباب، ونقل سكينه بخفة بين يديه.

- أمرك يا سيدي چوليان.

وثبت عينيه الباردتين بلون الجليد على مارش. كان برفقته آخرون من قوم الليل الذين ساعدوه في نقل مارش من إيلي رينولدز، لكنهم عادوا إلى غرفهم هربًا من لمسة النهار، لذا استدعى بيلي رجلين من حثالة النهر.

ما إن أغلق چوليان باب الغرفة، حتى تحرك الرجلان نحو مارش. واحد منهما شاب فقير ذو شارب بني أشعث، وهراوة خشبية تتدلى من حزامه، والآخر عملاق، أقبح شيء رآه مارش في حياته. لا بد أن طوله جاوز سبعة

أقدام، لكن رأسه صغير وعينيه ضيقتان، وأسنانه صفراء كالأخشاب، وأنفه مجدوع. حدق إليه مارش، فقال بيلي: «لا تحدق هكذا إلى عديم الأنف. ليس هذا من الأدب يا كابتِن».

وكأنه يوافق على هذه العبارة، جذب العملاق ذراع مارش ولواها خلفه بقوة حتى آلمته.

أوضح بيلي: «قضم تمساح أنفه. ليس هذا ذنبه. أمسك كابتِن مارش جيدًا يا عديم الأنف، فهو مغرم بالقفز إلى النهر، ولا نريده أن يفعل هذا».

تبختر بيلي نحو مارش، ووكز بطنه بطرف سكينه حتى شعر مارش بالوخزة.

- أنت تسبح بمهارة لم أتوقعها يا كابتِن. لا بد أن كل هذا الدهن يساعدك على الطفو.

أدار السكين بغتة، فقطع زِرًّا فضيًّا من أزرار سترة مارش. سقط الزر على الأرض وظل يدور ويدور حتى دعسه بيلي.

- لا سباحة اليوم يا كابتِن. ستخلد إلى فراشك في أدب. نحن خصصنا لك غرفة. لا تتصور أنك ستتسلل. ربما ينام قوم الليل نهارًا، لكنني وعديم الأنف سنكون مستيقظين طوال اليوم. والآن، تعالَ.

قلب بيلي سكينه في الهواء، ثم أمسكها ودسها في الجراب، واستدار يقودهم إلى مقدمة الباخرة. يجر عديم الأنف وراءه مارش، والرجل الثالث يدفعه من الخلف.

داروا عند منعطف، فكادوا يرتطمون بتوبي لانيارد. صاح مارش: «توبي!» حاول أن يتحرك نحوه، لكن عديم الأنف لوى ذراعه، فتأوه مارش ووقف مكانه. وقف بيلي الشرس أيضًا وهو يصيح: «ماذا تفعل بالأعلى أيها الزنجي؟».

لم ينظر إليه توبي. ظل متصلبًا، ويداه معقودتان خلفه، وعنقه منحنٍ، يحك حذاءه في الأرض. كرر بيلي بلهجة خطرة: «قلت: ماذا تفعل بالأعلى أيها الزنجي؟ لماذا لست مقيدًا بالأغلال في مطبخك. أعطني إجابة الآن وإلا ستندم أيها الزنجي».

هدر مارش: «مقيدًا بالأغلال؟!».

أخيرًا رفع توبي لانيارد رأسه، وأومأ وهو يقول: «السيد بيلي يقول إنني عبد مجددًا، ولم يهمه أن معي أوراق عِتق. إنه يصفِّدنا جميعًا إن كنا لا نعمل».

استل بيلي الشرس سكينه من وراء ظهره وسأل: «كيف تحررت من أصفادك؟».

- كسرت قيوده يا سيد تيبتون.

جاء الصوت من أعلى، فنظر الجميع إلى سطح مهاجع الطاقم، إلى چوشوا يورك الواقف يطل عليهم. بدلته البيضاء تتألق أمام شمس الصباح عند الأفق، ومعطفه الرمادي يتطاير في الريح. قال يورك: «والآن، أطلقوا سراح كابتِن مارش».

قال الرجل ذو الهراوة الخشبية هو يشير بها نحو الشمس مرتعبًا: «لقد جاء النهار».

قال بيلي ليورك وهو ينظر إلى أعلى: «ابتعد عن هنا. لو حاولت فعل أي شيء سأستدعي السيد چوليان».

- حقًّا؟

وابتسم بإيماءة نحو الشمس الظاهرة الآن، عين صفراء تصبغ السحب بالأحمر والبرتقالي.

- هل تتصور أنه سيأتي؟

تحرك لسان بيلي في عصبية بين شفتيه، ثم قال ملوحًا بسكينه: «أنت لا تخيفني. نحن في النهار وأنت وحدك تمامًا».

هتف توبي لانيارد: «لا، ليس وحده».

أخرج توبي يديه من وراء ظهره، يحمل في إحداهما ساطورًا، وفي الأخرى سكينًا كبيرة. حدق إلى بيلي تيبتون الشرس، وتراجع خطوة.

نظر مارش إلى ما وراء ظهره. عديم الأنف ما زال يحدق إلى چوشوا، وقد ارتخت قبضته بعض الشيء. اغتنم مارش الفرصة، فرمى نفسه بكل قوته نحو العملاق، فترنَّح الأخير وسقط. هجم مارش فوقه بوزنه الذي يربو على ثلاثمائة رطل، فخرج الهواء مندفعًا من معدة العملاق عبر فمه. حرر مارش ذراعه سريعًا، وتدحرج مبتعدًا عنه في اللحظة نفسها التي رشقت سكين في الأرض حيث كان رأسه. ابتلع مارش لعابه بصعوبة وابتسم. حرر النصل من

الأرض وقام واقفًا. اندفع ذو الهراوة خطوتين إلى الأمام، ثم توقف مفكرًا. والآن يتراجع إلى الوراء إذ قفز يورك بأسرع مما تصور مارش، وانتزع منه الهراوة. فجأة صار الشاب العفي على الأرض يتألم. لم يرَ مارش الضربة التي أدت به إلى هذا.

صاح بيلي الشرس: «دعني وشأني!».

كان يتراجع أمام توبي ونحو مارش الذي أمسك به، وأداره حول نفسه ثم دفعه نحو باب.

- لا تقتلني!

ضغط مارش حنجرته بذراعه ومال بوزنه عليها، ودفع السكين بين أضلع بيلي، فوق القلب. اتسعت تلك العينين بلون الجليد وتبدى فيهما الذعر. قال مختنقًا: «لا...».

- ولم لا بحق الجحيم؟

حذَّره يورك: «أبنر!» فالتفت مارش خلفه ليرى عديم الأنف يقوم، ويصدر عنه صوت حيواني، ثم ينطلق إلى الأمام. ثم تحرك توبي بأسرع مما رآه مارش يفعل من قبل، فتمايل العملاق وركع على ركبتيه مختنقًا بدمائه. مزق توبي حلقه بضربة واحدة من ساطوره. رمش عديم الأنف بعينيه الضيقتين، ورفع يده نحو عنقه كأنه يريد الإمساك به إن سقط، ثم أخيرًا هوى أرضًا.

قال يورك بهدوء: «لم يكن هذا ضروريًّا يا توبي. كان في وسعي إيقافه».

عقد توبي حاجبيه وهو يحمل الساطور والسكين، وقال: «لست طيبًا مثلك يا كابتِن يورك». ثم التفت نحو مارش وأضاف: «اذبحه يا كابتِن مارش. أراهن على أن السيد بيلي بلا قلب في صدره».

- لا تفعل يا أبنر. قتيل واحد يكفي.

سمع أبنر مارش كليهما. دفع السكين إلى الأمام بما يكفي لتمزيق قميص بيلي وإصابته بخدش نازف. سأله مارش: «هل يعجبك هذا؟».

ألصق العرق شعر بيلي بحاجبيه.

- أم يعجبك فقط أن تحمل أنت السكين؟

اختنق بيلي بإجابته، فخفف مارش الضغط على حنجرته الرفيعة بما يمكنه من الحديث.

قال بيلي بصوت رفيع مختنق: «لا تقتلني! لا ذنب لي. كل ما حدث من أفعال چوليان. هو من يجبرني على هذا. سوف يقتلني ما لم أطع أوامره».

قال توبي: «لقد قتل مايك المشعر العزيز، والأشيب أيضًا، وعذب آخرين. لقد أحرق أحدهم في الفرن، وصدح صوت صراخه في كل مكان. لقد قال لي إنني عبد مجددًا يا كابتِن مارش، وعندما أريته أوراق العِتق، مزقها وأحرقها. مزقه يا كابتِن».

- إنه يكذب! كل الزنوج الملعونين كاذبون!

قال چوشوا: «أبنر. اتركه. هو الآن عاجز عن إيذائنا. لو قتلته ستكون مثله. يمكنه مساعدتنا لو تحدانا أحد في أثناء رحيلنا. علينا بعد أن نركب القارب ونبتعد».

هتف مارش: «القارب؟ اللعنة على القارب. سأستعيد باخرتي». ثم ابتسم لبيلي وأضاف: «بيلي يمكنه إدخالنا إلى غرفة چوليان كما أعتقد».

توتر بيلي، وشعر مارش بتفاحة آدم في عنقه ترتفع وتنخفض وراء ذراعه.

قال چوشوا: «لو هاجمتما چوليان، فأنتما وحدكما. لن أساعدكما».

أدار مارش عنقه حتى استطاع أن يحدق إلى وجه چوشوا مدهوشًا.

- بعد كل ما فعل؟

بدا چوشوا فجأة ضعيفًا متعبًا. همس: «لا أستطيع. هو قوي للغاية يا أبنر. هو سيد الدماء، ويحكمني. حتى التجرؤ على فعلة كهذه يخالف تاريخ جنسي كله. لقد ربطني به أكثر من مرة، وأجبرني على إعطائه من دمي. كل مرة من هاته المرات تجعلني... أضعف، وفي قبضته أكثر. افهمني رجاء يا أبنر. لا يمكنني فعل هذا. سوف ينظر إليَّ بهاتين العينين، وقبل أن أخطو خطوتين سأكون خاضعًا له، وربما أقتلك أنت، لا هو».

- سأنفذ الأمر أنا وتوبي.

- لن تواتِيك الفرصة يا أبنر. أنصت إليَّ. يمكننا أن نهرب الآن. لقد خاطرت لأجل إنقاذك. لا تضحِّ بما فعلت.

نظر مارش مرة أخرى إلى بيلي قليل الحيلة، وفكر. ربما چوشوا على حق. لقد فقد بندقيته الآن، وليس معهم ما يقتلون به چوليان. السكاكين

والسواطير ليست كافية، ولا يتحرق مارش شوقًا إلى مصارعته بالأيدي. قال أخيرًا: «لنرحل، لكن بعدما أقتل هذا».

ناح بيلي بوجه مجدور مبلل بالعرق: «لا، دعني وسأساعدك. الأمر أسهل بالنسبة إليك. أنت تملك باخرة وكل شيء، وأنا لم يكن لي الخيار. لم أملك شيئًا قَط، لا عائلة ولا مال، وكنت مجبرًا على إطاعة الأوامر».

قال مارش: «لست الوحيد الذي ولِد وترعرع فقيرًا. هذا ليس عذرًا. أنت اخترت بعقلك اللعين أن تكون كما أنت».

ارتعشت يد مارش. كان يريد أن يطعنه بقوة حتى آلمته تلك الرغبة، لكنه لم يستطع، ليس بهذه الطريقة. غمغم مارش في غيظ: «اللعنة عليك».

حرر عنق بيلي، وابتعد عنه، فمال بيلي إلى الأمام يستند إلى ركبتيه.

- هيا. قدنا إلى هذا القارب اللعين.

أصدر توبي نخرة اشمئزاز، فنظر إليه بيلي الشرس في قلق وقال: «أبعد هذا الطاهي الزنجي عني بسكاكينه وسواطيره. أبعده عني».

نظر مارش إلى چوشوا الذي يضع يده على جبينه، فسأله: «هل أنت بخير؟».

- الشمس. يجب أن نسرع.

- ماذا عن الآخرين؟ ماذا عن كارل فرام؟ أما زال حيًّا؟

- نعم، وكذلك الآخرون، لكننا لن نستطيع تحريرهم جميعًا. ليس لدينا وقت.

عبس مارش وقال: «ربما. لكني لن أغادر دون السيد فرام. أنت وهو الوحيدان القادران على الإبحار بهذه الباخرة. لو رحلتما ستظل الباخرة عالقة هنا حتى نستطيع العودة».

- فرام عليه حراسة. بيلي، مَن معه الآن؟

انتصب بيلي فاردًا ظهره وأجاب: «ڤاليري».

تذكر مارش جسدها الشاحب، وعينيها المشعتين اللتين تجذبانه نحو الظلام.

قال چوشوا: «جيد. أسرِعوا».

تحرك الجميع، وأبقى مارش عينيه على بيلي الشرس، بينما يخفي توبي أسلحته في طيات معطفه. غرفة فرام في مهاجع الطاقم، عند طرف الباخرة الأقصى. نافذتها مغلقة مغطاة بالستائر، والباب مقفَل. حطم چوشوا القفل بضربة واحدة من يديه القويتين البيضاوين، ودفع الباب. دخل مارش خلفه وهو يدفع بيلي الشرس أمامه.

كان فرام بكامل ملابسه، منبطحًا على وجهه على الفراش، غائبًا عن العالم، إلى جواره هيئة شاحبة تحدق إليهما بعينين متسعتين غاضبتين.

- مَن؟ چوشوا؟

قامت بنعومة عن الفراش، ورداء نومها ينزل على ساقيها حتى الأرض.

- نحن في النهار. ماذا تريد؟

- أريده.

كررت ڤاليري: «نحن في النهار». ثم انتقلت عيناها إلى مارش وبيلي فأكملت: «ماذا تفعلون؟».

أجاب چوشوا: «سنرحل. والسيد فرام سيأتي معنا».

طلب مارش من توبي مراقبة بيلي، واتجه إلى الفراش. لم يتحرك كارل فرام، فقلبه مارش على ظهره ورأى جروحًا على عنقه، ودماء جافة تلوث قميصه وذقنه. جسده مرتخ لا يظهر عليه سمت الحياة، لكنه بالتأكيد يتنفس. قالت ڤاليري في حرج وهي تتنقل عينيها بين مارش وچوشوا: «باغتني الظمأ. بعد الصيد... لم يكن لي الخيار. منحني دامون إياه».

قال مارش: «سيتوجب علينا حمله. توبي، بيلي، انقلاه إلى القارب».

هتفت ڤاليري متوسلة: «چوشوا، أرجوك...».

بدت وهي واقفة مكانها برداء النوم منعدمة الحيلة، خائفة. صعب الاقتناع بأنها هي ذاتها التي كانت على متن إيلي رينولدز، أو تصورها تشرب من دماء فرام.

- عندما يكتشف دامون اختفاءه سيعاقبني. أرجوك، لا تأخذه.

تردد چوشوا قبل أن يقول: «يجب أن نأخذه يا ڤاليري».

- خذني أنا أيضًا! أرجوك.

- نحن في النهار.

- لو أنك تستطيع المغامرة بالخروج فيه، فأنا أستطيع. أنا قوية، ولست خائفة.

- الأمر خطر للغاية.

- لو تركتني هنا، سيتأكد دامون من أنني ساعدتك. سوف يعاقبني. ألم أعاقب كفاية؟ إنه يكرهني يا چوشوا... يكرهني لأنني أحبك. ساعدني. لا أريد أن... أن أظمأ. لا أريد ذلك! أرجوك يا چوشوا اسمح لي أن أذهب معكم!

استطاع أبنر مارش أن يرى ذعرها، وفجأة لم تعد تبدو واحدة منهم، بل مجرد امرأة بشرية ترجو المساعدة.

- دعها تأتِ يا چوشوا.

قال چوشوا: «ارتدي ملابسك إذًا. بسرعة. ارتدي شيئًا من ملابس السيد فرام فهي أثقل من ملابسك، وستغطي أغلب بشرتك».

أطاعته، فخلعت رداء النوم كاشفة عن جسد نحيل أبيض، ونهدين عاليين، وساقين قويتين. أخرجت من الدرج واحدًا من قمصان فرام، فلبسته وزرَّرته. في أقل من دقيقة كانت قد لبست السروال والحذاء والصدرية والسترة، واعتمرت قبعة كبيرة.

هتف مارش: «هيا».

حمل بيلي وتوبي فرام بينهما. كان القبطان لا يزال فاقد الوعي، وراح حذاؤه يحتك بالأرضية وهما يجرانه عبر الدَّرج. هرع مارش خلفهم، يده على السكين التي دسَّها في حزامه، وأخفاها تحت سترته، وتبعهم چوشوا وڤاليري في النهاية.

كانت القاعة الكبرى ملآنة بالركاب. رمقهم بعضهم في فضول، لكن الأغلبية لم تلتفت إليهم. اضطروا إلى العبور من فوق العمال الممدين على أرضية طابق الباخرة السفلي. لم يتعرف مارش على أيهم.

باقترابهم من قارب الاستطلاع، اقترب منهم رجلان. سألهم واحد منهما: «إلى أين تذهبون؟».

أجاب بيلي: «ليس من شأنك. سنأخذ فرام إلى طبيب. يبدو أنه ليس بخير. ساعدانا في نقله إلى القارب».

تردد أحد الرجلين ناظرًا إلى چوشوا وڤاليري، ثم سأل: «هل يعرف چوليان؟».

كان العمال الآخرون ينظرون من وراء سور الطابق الرئيسي كما رآهم مارش. قبض على السكين واستعد لذبح بيلي لو تفوَّه بكلمة واحدة ضدهم.

سأل بيلي ببرود: «هل تجادلني يا تيم؟ الأفضل أن تفكر فيما حدث لچورچ التمساح. والآن حرك مؤخرتك اللعينة وافعل ما أمرت به».

أجفل تيم وهرع يُلبي الأمر، تبعه ثلاثة آخرون. وفي لمح البصر صار القارب في الماء إلى جوار الباخرة، وكارل فرام ممدد فيه. ساعد چوشوا ڤاليري على العبور، وقفز توبي خلفهما. صارت المنصة الآن مزدحمة بالبحارة والعمال الفضوليون. اقترب مارش من بيلي تيبتون الشرس وهمس: «أحسنت صنعًا حتى الآن. اصعد إلى القارب حالًا».

نظر إليه بيلي الشرس وقال: «لقد قلت إنك ستطلق سراحي».

- لقد كذبت. ستظل معنا حتى نبتعد من هنا.

تراجع بيلي الشرس وهو يقول: «لا، أنت ستقتلني». ثم رفع صوته هاتفًا: «أوقفوهم! لقد أسروني وسيهربون. أوقفوهم!».

تملص مبتعدًا على مرمي يد مارش، فسبَّ الأخير وحرر السكين، لكن الأوان قد فات، واتجه نحوهم الرجال، واستَل اثنان منهما سكاكينهما الخاصة. صاح بيلي: «اقتلوه! استدعوا چوليان، استدعوا المساعدة. اقتلوه!».

جذب مارش الحبل الذي يربط القارب بالباخرة، ثم مزقه بالسكين، ثم قذف السلاح نحو فم بيلي المفتوح، لكنه لم يصبه إذ انحنى بيلي الشرس. جذب أحدهم سترة مارش، فلكمه ودفعه نحو الرجال الآخرين. انجرف القارب مع التيار، فهمَّ مارش بالقفز إليه قبل أن يبتعد عن طائلته. ظل چوشوا ينادِيه ليُسرع، لكن أحدهم أحاط عنقه بيديه وجذبه إلى الخلف. ركل أبنر مارش في غضب، لكن الرجل أمسك به والقارب يبتعد أكثر مع التيار. صرخ چوشوا، وظن مارش أنه قد أحيق به. ثم رأى ساطور توبي لانيارد يطير إلى جوار أذنه ويقطع جزءًا منها في طريقه، ثم تخلت عنه اليد حول عنقه، وشعر بالدماء تنتثر على كتفه. رمى نفسه إلى الأمام نحو القارب، فقطع نصف المسافة إليه وارتطم بالماء ببطنه أولًا. خرج الهواء من رئتيه من برودة النهر. ركل مارش ورفرف بذراعيه، وامتلأ فمه بالماء والطمي قبل أن يعتدل طافيًا. رأى القارب

ينجرف مبتعدًا بسرعة، فسبح نحوه. صخرة أو سكين أو شيء من هذا القبيل سقطت في الماء إلى جوار رأسه، وأخرى على بعد ياردة منه، لكن توبي غرز مجداف القارب في الماء كي يقلل السرعة بعض الشيء، حتى وصل مارش ورفع ذراعه من فوق حافة القارب محاولًا تسلقه، فمال حتى كاد ينقلب، لكن چوشوا أمسك ذراعه وجذبه، وقبل أن يلاحظ مارش ما يحدث كان ممددًا داخل القارب.

ابتعدوا عشرين ياردة عن حلم فيڤر، وانجرفوا أكثر بنعومة مع التيار. أحضر بيلي تيبتون الشرس مسدسًا من مكان ما، ووقف يصوب نحوهم ويطلق النار، لكنه لم يصب شيئًا.

غمغم مارش: «اللعنة عليه. كان الأفضل لو قتلته يا چوشوا».

- لو كنت قد فعلت، لم نكن لنهرب.

- يا للجحيم. ربما. ربما كان يستحق الأمر التضحية.

نظر إلى ما حوله ورأى توبي يجدف ويحتاج إلى مساعدة، فأخذ مارش المجداف الآخر. كان كارل فرام فاقد الوعي بعد، وتساءل مارش عن كمية الدماء التي استنزفتها منه ڤاليري. لم تبد الأخيرة على ما يرام، فقد بدت ضئيلة داخل ملابس القبطان، وقبعته التي تغطي وجهها، وبدت كأنما ترتجف من تأثير الضوء، وتحول ما ظهر من جلدها إلى اللون الوردي. تساءل إن كانوا قد ابتعدوا كفاية وهو يغمر المجداف في الماء ويريح ظهره. آلمته ذراعاه، وأذنه تنزف، والشمس باهرة، تكمل طريقها ارتفاعًا إلى سقف السماء.

***

ثمانية وعشرون



في نهر المسيسبي
أكتوبر 1857

لم يجدف أبنر مارش بقارب استطلاع منذ عشرين عامًا تقريبًا. العمل مرهق للغاية كونه يجدف هو وتوبي فقط، حتى لو كان تجديفهما مع اتجاه التيار. راح ظهره وذراعاه تشكي الألم بلا انقطاع بعد انقضاء نصف ساعة. أنَّ مارش واستمر في التجديف. اختفت حلم فيڤر عن أعينهم الآن. الشمس تتسلق السماء، ويتسع عرض النهر أكثر فأكثر.

قالت ڤاليري: «الشمس تؤلمني».

همس لها چوشوا: «غطي نفسك».

- أنا أحترق! لم أظن قط أن الأمر سيكون هكذا.

نظرت إلى الشمس، ثم تكورت على نفسها كأنها صُدِمَت. أفزع مارش لون وجهها الأحمر القاني. همَّ چوشوا يورك بالاقتراب منها، لكنه توقف فجأة وبدا غير متزن. وضع يديه على حاجبيه وحاول التنفس، ثم اقترب منها في حذر وقال: «اجلسي في ظلي. اخفضي قبعتك».

تكورت ڤاليري في قاع القارب، واندسَّت في جسد چوشوا. مد يديه يفرد ياقة قميصها إلى أعلى في حنان غريب، ثم أراح يده على مؤخرة رأسها.

لاحظ مارش أن الضفاف خالية من الأشجار الضخمة، إلا من صف واحد، من خلفها تمتد الحقول مسطحة إلى ما لا نهاية، لا يميزها إلا تناثر بيوت مَزارع هنا وهناك على الطراز اليوناني، تطل على النهر الهادئ الواسع.

عند الضفة الغربية كومة مخلفات زراعية وبقايا أعواد قصب بحجم المنزل، ينبعث منها دخان رمادي يعبق الهواء وينتشر على صفحة النهر. لم يرَ مارش لهبًا. قال لچوشوا: «أقترح أن نتوقف هنا. المزارع كثيرة حولنا».

كان چوشوا مغمض العينين، وفتحهما عندما تكلم مارش. قال له: «لا، نحن قريبون أكثر مما ينبغي. يجب أن نزيد المسافة بيننا وبينهم... ربما يتبعنا بيلي برًّا، وعندما ينسدل الليل...».

ترك باقي عبارته معلقة. تأوَّه مارش واستمر في التجديف. أغمض چوشوا عينيه مرة أخرى، وأنزل قبعته البيضاء عريضة الحواف على وجهه.

لأكثر من ساعة تحركوا جنوبًا في صمت، ولا صوت يرافقهم سوى صوت المجدافين يلطمان الماء، وأغنية عصفور مهاجر. جدف توبي لانيارد وأبنر مارش، بينما چوشوا وڤاليري متكوران كأنهما نائمان، وكارل فرام ممدد أسفل غطاء.

ارتفعت الشمس أكثر. طقس اليوم لطيف والهواء بارد، لكنه أيضًا يوم مشمس. امتنَّ مارش لوجود المزارع وأكوام المخلفات التي تنفث الدخان، إذ أمدَّتهم السحب الرمادية كريهة الرائحة بالظل الوحيد الممكن.

في مرة صرخت ڤاليري كأنما تعاني ألمًا رهيبًا. فتح چوشوا عينيه ومال عليها، يمسِّد شعرها الأسود الطويل ويهمس لها، فقالت نائحة: «ظننتك المختار يا چوشوا. الملك الشاحب الذي جاء ليغير كل شيء ويعيدنا... إلى المدينة». ارتجفت وهي تكمل: «أبي حكى لي عن المدينة. هل من مدينة يا چوشوا؟ المدينة المظلمة؟».

- اهدئي. أنت تضعفين نفسك.

- لكن، هل من مدينة حقًّا؟ ظننتك ستعيدنا إلى وطننا يا عزيزي چوشوا. لقد حلمت بهذا. لقد تعبت من كل شيء وظننتك ستأتي لإنقاذنا.

- اهدئي.

حاول أن يخرج صوته قويًّا، لكنه خرج مفعمًا بالحزن والقلق.

- أيها الملك الشاحب. خلِّصنا. ظننتك جئت لتُخلِّصنا.

قبَّل چوشوا برقة شفتيها المتقرحتين وقال في مرارة: «لقد ظننت الشيء ذاته». ثم وضع إصبعيه على فمها ليُسكتها، وأغلق عينيه مرة أخرى.

جدَّف أبنر مارش والنهر يتدفق حولهم، والشمس تقدح أدمغتهم، والريح تجرف الدخان والرماد نحوهم.

بعد ساعتين من الإبحار، بدأ چوشوا يتحدث وهو مغمض العينين، صوته متألم مبحوح.

- إنه مجنون. هل تعرف هذا؟ صحيح أنه استنزفني ليلة تلو الأخرى. نعم، لقد ظننت أنني الملك الشاحب، لكن چوليان كسرني مرة تلو الأخرى. عيناه يا أبنر. أنت رأيتهما. الظلام، ويا له من ظلام. والقِدَم. ظننته خبيثًا قويًّا ماهرًا، لكني عرفت أنه ليس كذلك. چوليان ليس... إنه مجنون يا أبنر، حقًّا. ربما كانت فيه يومًا كل الصفات التي ذكرتها، لكن الآن... كأنه ينام. أحيانًا يستيقظ، فيشعر المرء بما كانه في الماضي. أنت رأيت يا أبنر، في ليلة العشاء. رأيت چوليان في يقظته. لكن أغلب الوقت... أبنر، إنه لا يكترث للباخرة ولا للنهر ولا للناس من حوله. بيلي الشرس يدير حلم فيڤر، ويفكر في الخطط التي تُبقي قومي سالمين. نادرًا ما يأمر چوليان بشيء، وعندما يفعل تأتي أوامره ضعيفة، غبية. هو لا يقرأ ولا يتكلم ولا يلعب الشطرنج، ويأكل ولا يشعر بطعم شيء. منذ استيلائه على حلم فيڤر، وهو يغوص في حلم غامض. يمضي أغلب وقته في الغرفة وسط الظلام وحده. لقد لاحظ بيلي الباخرة التي كانت تتبعنا، وليس چوليان. ظننته خبيثًا في البداية. ملك فاسد يقود قومه إلى الهلاك. لكن بمراقبته... اكتشفت أنه هلك بالفعل. فارغ، أجوف، يتغذى على حياة أبناء جنسك لأن لا حياة له. حتى اسمه ليس اسمه حقًّا. في مرة تساءلت عما يفكر فيه وحيدًا وفي هذه الأيام والليالي التي يقضيها في الظلام. ربما يحلم. لو أنه يفعل، فربما يحلم بالموت، بالنهاية. ما ينفك يجول داخل هذه الغرفة المظلمة كأنها قبر، لا يخرجه منها إلا رائحة الدماء. كل ما يفعله محض تهور. لا يسعى سوى للدمار. لا بد أنه يرغب في نهاية، في راحة. هو مُسِن عتيق، مُتعَب.

قال مارش دون أن يتوقف عن عناء التجديف: «لقد قدم لي عرضًا».

وحكى ما طلبه دامون چوليان. قال چوشوا بعدما فرغ من حكايته: «معك نصف الحقيقة يا أبنر. نعم، كم يود لو يفسدك كي يلوي ذراعي. لكن هذا ليس كل شيء. ربما كنت لتوافق دون أن تعني هذا. ربما كنت لتسايره حتى

تتحين فرصة قتله. أعتقد أن چوليان يعرف كل هذه الاحتمالات. لقد غامر بموته بجلبك إلى الباخرة».

نخر مارش ثم قال: «إن كان يريد الموت، لتعاون أكثر».

فتح چوشوا عينيه الخابيتين الضعيفتين وقال: «عندما يكون الخطر حقيقيًّا وقريبًا حقًّا، يوقظ ذلك الوحش فيه. الوحش العتيق غير المبالي. لكنه إذ يستيقظ، يجاهد كي يعيش. هو قوي يا أبنر... وعتيق». ثم ضحك ضحكة واهنة مُرة وأردف: «بعد تلك الليلة، وبعد فساد مخططنا... سألت نفسي مرارًا، كيف حدث هذا؟ لقد أفرغ چوليان في جوفه كأسًا من عقاري. لا بد أن تكفيه وأن تقتل الظمأ الأحمر وأن... لم أفهم. لطالما كان العقار فعالًا. لكن ليس مع چوليان... ليس... ليس معه. في البداية ظننت السبب قوته وسلطته وشره. ثم... ثم في ليلة رأى السؤال في عينَي، فضحك وأخبرني. هل تتذكر يا أبنَر... عندما حكيت لك حكايتي وقت كنت صغيرًا؟ لم يمسسني الظمأ... هل تتذكر؟».

- نعم.

أومأ چوشوا ببطء. بشرته مشدودة على وجهه، حمراء ملتهبة.

- چوليان مُسِن يا أبنر. قديم. الظمأ... لم يشعر بالظمأ منذ سنوات... مئات أو آلاف السنوات، لهذا لم يؤثر العقار فيه. لم أكن أعرف، ولم يكن أينا يعرف. يمكننا النجاة من الظمأ، و... ولم يكن يشعر هو به لكنه كان يشرب الدماء لأنه يريد ذلك، وبسبب تلك الأمور التي أخبرنا بها تلك الليلة، هل تتذكر؟ القوة والضعف، السيادة والعبودية، وكل ما ذكر. أحيانًا أفكر في أن... في أن إنسانيته فارغة، قناع زائف. ما هو إلا حيوان عجوز، عتيق فقد كل شيء حتى مذاق الطعام، لكنه يفترس ويصطاد بعد، لأن هذا هو كل ما يتذكره. هذا هو كل ما تبقى منه. الوحش. أساطير بني جنسكم يا أبنر، قصص مصاصي الدماء، الموتى الأحياء، اللاموتى. أعتقد أن هذه الأسماء تصف چوليان بدقة. حتى لو زال الظمأ سيظل لا ميت. باردًا، خاويًا، لا ميت.

حاول أبنر مارش صياغة تعليق يزيل فيه كلمة (لا) من وصف لا ميت، التي وصف چوشوا بها دامون چوليان، لكن ڤاليري استقامت جالسة فجأة في ذعر. تحت قبعتها يبدو وجهها مسلوخًا كجرح حي، وقد تحول لون بشرتها من الأحمر القاني إلى البنفسجي الداكن. شفتاها مشققتان من بينهما تظهر

أسنانها البيضاء الطويلة. صرخت: «أنا أتألم!» ورفعت يداها الحمراوين في لون السلطعون لتقي بها رأسها من الشمس، ثم دارت عيناها في القارب حتى وقعت على كارل فرام، فهرعت نحوه مفتوحة الفم. صاح چوشوا: «لا!». ألقى بنفسه فوقها وأبعدها قبل أن تطبق أسنانها على حنجرة فرام. تملصت ڤاليري كالمجنونة وصرخت. ثبتها چوشوا. ظلت أسنانها تصطك مرارًا حتى شقَّت شفتها وسالت الدماء واللعاب من فمها. ثم فجأة خارت قوتها، فسقطت على ظهرها تحدق إلى الشمس بعينين بيضاوين.

هدهدها چوشوا بين ذراعيه في يأس وقال: «تحت مقياس الرصاص... لقد خبأته هنا ليلة أمس عندما خرجوا بحثًا عنك. أخرجه بعد إذنك يا أبنر».

توقف أبنر عن التجديف وأخرج مقياس الرصاص؛ الحبل بطول ثلاثة وثلاثين قدمًا ومربوط في نهايته أنبوب ممتلئ بالرصاص، ويستخدم في قياس عمق الماء. تحت المقياس وجد ما أراده چوشوا؛ زجاجة خمر بلا علامات. أعطاها ليورك فجذب سدادتها ودس فوهتها بين شفتي ڤاليري المتقرحتين. انسكب السائل على ذقنها، وبلل أغلبه قميصها، لكن چوشوا استطاع صب بعضه في فمها. بدا أنه ذو نفع، فقد بدأت فجأة في رشف السائل كطفل يرضع من أمه.

- تمهلي.

بحث مارش تحت المقياس، ثم عقد حاجبيه وسأل: «هل هذه هي الزجاجة الوحيدة؟».

أومأ يورك إيجابًا. وجهه الآن محترق كوجه عامل الباخرة الذي كان يقف قرب الغلايات عندما انفجرت.

- احتفظ چوليان بزجاجاتي في غرفته، وأعاطني منها واحدة كل فترة. لم أجرؤ على الاعتراض. لقد ظل يهددني بتدميرها.

أبعد الزجاجة عن ڤاليري بعدما شربت أكثر من نصفها، وأضاف: «ظننتها ستكون كافية حتى أستطيع صنع المزيد. لم أضع في حسباني أن ڤاليري ستأتي معنا».

ارتعشت يده. زفر ثم أخذ جرعة كبيرة من الزجاجة. تكورت ڤاليري متألمة، جسدها يرتعش، لكن النوبة مرت بسلام الآن. ناول چوشوا الزجاجة

لمارش مرة أخرى وقال له: «احتفظ بها يا أبنر. يجب أن تكفينا. يجب أن نقتصد في الشرب منها».

كان توبي لانيارد قد توقف عن التجديف وراح يرمقهما. تقلَّب كارل فرام في ضعف، وانجرف القارب مع التيار أكثر. أمامهم رأى أبنر مارش دخان باخرة تقترب. أمسك مجدافه وهتف: «جدف بنا يا توبي إلى الضفة. هيا. سأنادي هذه الباخرة اللعينة. يجب أن نحصل على مأوى».

قال توبي: «أمرك يا كابتِن».

مسَّ چوشوا جبينه، وأجفل ثم قال: «لا يا أبنر. لا تنادها. الأسئلة...» حاول أن يقف، لكن التيار غلبه فهوى على ركبتيه.

- أَحترِق... لا... أنصت إليَّ. لا تنادي الباخرة. استمر. بلدة... سنصل إلى بلدة... بحلول الليل... أبنر؟».

- يا للجحيم. لقد أمضيت تحت الشمس أربع ساعات فقط، وانظر إلى حالتك وحالتها. الظهيرة لم تحل بعد. سيحترق كلاكما ما لم نجد مأوى.

- لا، سيسألون عنا يا أبنر. لا يمكن...

- أغلق فمك الأحمق اللعين.

تحرك القارب عبر النهر، والباخرة تقترب، وترفرف راياتها في الهواء. الباخرة من أسطول نيو أورلينز النهري، متوسطة الحجم ذات رفاسات جانبية، اسمها هـ. إ. إدواردز. لوح مارش بالمجداف ونادى، بينما القارب يهتز ويتمايل، فلوح له ركاب الباخرة وأشاروا نحوه. أطلقت صافرة قصيرة، فنظر مارش حوله ليرى باخرة أخرى، بعيدةً حتى إنها بدت كنقطة بيضاء. غاص قلبه. إنهما تتسابقان، ولن تتوقف باخرة لتلبية نداء في وسط سباق.

مرت الباخرة هـ. إ. إدواردز بهما بأقصى سرعتها، رفاساتها تدور بسرعة موَّجت بهم الماء. سبَّها أبنر مارش وظل يناديها ويلوِّح بمجدافه مُهددًا. اقتربت الباخرة الأخرى ومرت بهم أسرع من الأولى، تجر خلفها الشرر. تُرِكوا في وسط النهر، تحيطهم الحقول الخاوية، ومن فوقهم الشمس، تظللهم سحب دخان احتراق مخلَّفات الزراعة. أمر مارش بأن يجدف توبي إلى الضفة الغربية. عندما وصلوا، قفز عن القارب وجذبه وهو يقف مغروزًا حتى ركبتيه في الطمي. فكر وهو ينظر حوله في أن الضفة اللعينة ليس بها أي ظل هي

الأخرى، ولا أشجار ولا ما يحميهم من قسوة الشمس. هتف مارش: «يجب أن ننقلهما إلى الضفة يا توبي، ثم نجر ذلك القارب اللعين ونقلبه فوقهما ليناما تحته».

أومأ توبي طائعًا. نقلا فرام أولًا إلى الضفة، ثم ڤاليري. عندما حملها مارش بين ذراعيه، ارتجفت بقوة، وبدا وجهها في حالة خشي معها أن يلمسه حتى لا يتقشر في يده.

عندما عادا إلى چوشوا وجداه قد خرج بالفعل من القارب. قال: «سأساعدكم. القارب ثقيل». أومأ مارش إلى توبي، وتعاون الثلاثة على حمله. كانت المهمة صعبة، وقد وضع مارش فيها كل قوته. حاربه طمي الضفة بقبضته المبتلة الثقيلة، لكنهم في النهاية نقلوا القارب من الضفة إلى الحقل، وقلبوه بسهولة. سحب مارش ڤاليري من تحت إبطيها ووضعها تحت القارب، ثم قال وهو يلتفت خلفه: «يمكنك أن تدخل تحته أيضًا يا چوشوا».

كان توبي يغسل وجه كارل فرام بالماء ويجبره على شرب بعضه، ولا أثر لچوشوا. دار مارش حول القارب ببنطال مُثقل بالماء والطمي وهو ينادي: «چوشوا. أين ذهبت...».

وجد چوشوا ملقى عند الضفة ويده الحمراء المحترقة تقبض على الطمي. صاح مارش: «لعنة الرب! توبي!».

جاء توبي يجري، وجذبا معًا يورك إلى الظل. كانت عيناه مغمضتين. جلب مارش الزجاجة وصب منها في فمه.

- اشرب يا چوشوا. اشرب. لعنك الرب على أي حال.

أخيرًا ابتلع يورك، ولم يتوقف عن الابتلاع حتى فرغت الزجاجة. رفعها مارش بين يديه عاقدًا حاجبيه. قلبها، فنزلت منها آخر قطرة من شراب چوشوا يورك الخاص وسقطت على حذاء مارش المتسخ بالطين. غمغم: «يا للجحيم». ثم طوَّح الزجاجة في النهر.

- ابقَ معهم يا توبي. سوف أذهب للبحث عن مساعدة. لا بد أن أحدهم هنا.

- أمرك يا كابتِن مارش.

مشى مارش بين الحقول. كان القصب قد حُصِد، وفوق حقل خال رأى مارش دخانًا منبعثًا، فاتجه نحوه على أمل أن يجد بيتًا، لا كومة مخلفات

محترقة أخرى. ضاع أمله هباء، لكن بعد دقائق مشي أخرى رأى مجموعة عبيد يعملون في الحقل. ناداهم وقد صار مشيه هرولة. أخذوه إلى منزل المزرعة حيث حكى للمشرف حكايته الحزينة عن انفجار الغلاية التي أغرقت باخرتهم وقتلت كل من كان عليها، إلا القليل الذين هربوا في قارب استطلاع. قال مارش: «معنا اثنان محترقان. يجب أن نسرع». بعد دقيقتين أو ثلاث، أخرج المشرف عربة تجرها الخيول وانطلق عبر الحقول معه.

عندما وصلوا إلى القارب المقلوب، وجدوا كارل فرام واقفًا في ضعف. قفز أبنر مارش من العربة وقال للرجال الذين أتوا معه: «هيا تحركوا. المُحترقان أسفل القارب. انقلوهما إلى العربة». ثم استدار نحو كارل فرام وأضاف: «هل أنت بخير يا سيد فرام؟».

ابتسم فرام بوهن وقال: «أنا أفضل يا كابتِن. لقد كنت في حالة يرثى لها».

حمل رجلان چوشوا يورك إلى العربة. بذلته البيضاء ملطخة بالخمر والطمي، وجسده مرتخ لا يتحرك. الرجل الثالث -وهو ابن صاحب المزرعة الأصغر- خرج من تحت القارب ومسح يديه في سرواله عاقدًا حاجبيه. بدا كأنما على وشك القيء وهو يقول: «كابتِن مارش، المرأة بالأسفل محترقة إلى حد أنني أظنها ماتت».

***

تسعة وعشرون



مزرعة جراي
لوزيانا
أكتوبر 1857

حمل شابان من خدم البيت چوشوا يورك من العربة إلى الدرج الضخم الملتوي الصاعد إلى غرفة نوم. صاح أبنر فيهما: «نريد حجرة مظلمة! وأسدلوا الستائر اللعينة، هل تسمعانني؟».

ثم التفت إلى مرافقيه، بينما صاحب المزرعة وأبناؤه وبعض العبيد قد عادوا إلى الخارج، إلى جثة ڤاليري. لف فرام ذراعه حول كتفي توبي ليصلب طوله.

- كُل شيئًا لعينًا يا سيد فرام.

فأومأ القبطان.

- وتذكر ما حدث. كنا على متن إيلي رينولدز، وانفجرت غلايتها، وقتلت الجميع إلانا، بعدها غرقت في النهر في مكان بلا قاع. هذا كل ما تعرفه. هل تسمعني؟ دعني أنا أحكي الباقي.

- هذا أكثر مما أعرف. كيف جئت إلى هنا بحق الجحيم؟

- لا تشغل بالك بهذا فقط أنصت إلى ما أقول.

دار مارش على عقبيه وصعد الدرج، بينما توبي يساعد فرام على الجلوس على مقعد.

كانوا قد أراحوا چوشوا على فراش عريض، وبدؤوا يبدلون ملابسه عندما دخل مارش. وجه چوشوا ويداه كانوا في أسوأ حال، وحتى جسده الشاحب

تحت ملابسه كان محمرًا. تحرك في وهن وهم يخلعون حذاءيه. قال أحد الخدم وهو يهز رأسًا أسفًا: «يا ربي. هذا الرجل محترق بشدة».

اتجه مارش إلى النوافذ المفتوحة عن آخرها، فأغلق مصاريعها، ثم أمر: «أحضروا لي غطاء أو شيئًا أغطي به النوافذ. الضوء كثير. أسدلوا ستائر الفراش أيضًا».

كانت أوامره أوامر ربان سفينة، لا تقبل النقاش.

فقط عندما صارت الغرفة مظلمة كما أرادها مارش، ودخلت زنجية عجوز لترعى جروح يورك بخلطات الأعشاب والكمادات الباردة، غادر أبنر مارش.

بالأسفل، وجد صاحب المزرعة، وهو رجل جامد الوجه ذو فكين شبيهين بقاعدة مصباح الغاز، قدَّم نفسه إليهم باسم آرون جراي. كان يجلس هو وابناه إلى مائدة مع كارل فرام. رائحة الطعام ذكَّرت أبنر مارش بالوقت الذي مر منذ آخر مرة أكل فيها.

قال جراي: «انضم إلينا يا كابتِن».

فسحب مارش مقعدًا في سرور، وتركهم يكوِّمون في طبقه الدجاج المقلي وخبز الذرة والبازلاء.

كان چوشوا يورك محقًّا بشأن الأسئلة، فقد أمطروه بوابل منها وهو يفتك بطعامه، وأجابها مارش جميعًا بأفضل ما يستطيع عندما لا يكون فمه ممتلئًا بالطعام.

استأذن فرام في الذهاب إلى الفراش، بينما مارش يعيد ملء طبقه للمرة الثانية. كلما أجاب مارش عن أسئلة أكثر، ازداد قلقه. لم يكن كاذبًا بطبيعته مثل أغلب رجال النهر الذين عرفهم، وظهر هذا أكثر مع كل كلمة يتفوه بها. بطريقة ما، استطاع النجاة من العشاء رغم دهشة صاحب المزرعة وابنه الأكبر. قال الابن الثاني وهم يغادرون طاولة العشاء: «زنجيُّك بخير، وذهب روبرت لاستدعاء الطبيب مور ليُعني بالآخَرين. ستعتني بهما سالي حتى يصل. لا عجب في أنك مرتبك يا كابتِن. أنت تحتاج إلى راحة بعد ما مررتم به. لقد رأيت الكثير وفقدت باخرتك وأصدقاءك».

- أجل.

بمجرد أن اقترح عليه الشاب أن يرتاح، نفَّذ مارش سريعًا رغبةً في الهرب من أسئلتهم، بالإضافة إلى أنه لم ينم منذ ثلاثين ساعة تقريبًا.

قال صاحب المزرعة: «أرشده إلى غرفته يا چيم. سيتصل روبرت بالحانوتي أيضًا يا كابتِن، لأجل تلك المرأة المسكينة. هذه مأساة. قلت ما اسمها؟».

- ڤاليري.

لم يستطِع تذكر اسمها كاملًا، ولا يتذكر إن كان قد ذُكِر أمامه، فأكمل: «ڤاليري يورك».

- ستحظى بدفن مسيحي لائق، إلا إذا رغبت في أن تنقلها إلى عائلتها بالطبع.

- لا... لا.

- حسنًا. خذ الكابتِن إلى الطابق العلوي يا چيم، وأسكنه غرفة قرب صديقه المسكين المحترق.

- أمرك يا أبي.

لم يعبأ مارش بالنظر إلى الغرفة التي أعطوها له، فنام كلوح خشب.

وعندما استيقظ، كان الظلام قد حل.

جلس مارش في فراشه متصلبًا، فقد أنهك التجديف عضلاته، وصلَّب مفاصله، وشنَّج ظهره. أنَّ وهو يزحف إلى طرف الحشية، وينزل قدميه الحافيتين إلى الأرض. كل خطوة تؤلمه، لكنه أكمل طريقه إلى النافذة وفتحها لتدخل نسمات الليل الباردة إلى الغرفة.

بالخارج شرفة حجرية، وراؤها زينة خزفية على هيئة أشجار، تليها الحقول الخاوية تحت ضوء القمر. من بعيد يرى مارش وهج حريق مخلفات خافت، ما زال الدخان ينبعث منه، وعند الأفق يلمع النهر.

ارتعش مارش، فأغلق النافذة وعاد إلى الفراش. الغرفة صارت باردة الآن، فجذب الأغطية فوقه وانقلب على جانبه. ضوء القمر يخلق الظلال في كل مكان، والأثاث الغريب عليه أمسى أكثر غرابة في الضوء الخافت. لم يستطِع أن ينام. وجد نفسه يفكر في دامون چوليان، وحلم فيڤر، وما إن كانت الباخرة في المكان نفسه الذي تركها فيه. فكر في ڤاليري أيضًا. كان قد نظر إليها جيدًا بعدما أخرجوها من أسفل القارب، ولم يكن المنظر جميلًا. لم يكن المرء ليتصور كم كانت جميلة ومغرية بعينيها البنفسجيتين المدهشتين. شعر أبنر مارش بالحسرة عليها، وتعجَّب من شعوره نظرًا إلى أنه بالأمس فقط كان

يحاول قتلها ببندقيته. العالم مكان غريب مروِّع، يمكن أن يتغير فيه كل شيء بين عشية وضحاها.

وأخيرًا نام مرة أخرى.

«أبنر...».

الهمسة قاطعت أحلامه.

«أبنر. دعني أدخل».

انتفض مارش. كان چوشوا يورك واقفًا في شرفته، يطرق زجاج نافذته بيد شاحبة مشوهة.

- انتظر.

ما زال الظلام حالكًا بالخارج، والمنزل هادئ. ابتسم چوشوا وهو يرى مارش ينزل من الفراش ويهرع إليه. كان وجهه مغطى بالقشور والجروح والجلد الميت. فتح مارش باب الشرفة، فدخل چوشوا مرتديًا بدلته البيضاء الحزينة المتسخة. لم يتذكر مارش الزجاجة التي طوحها في النهر إلا عندما دخل چوشوا إلى الغرفة. تراجع مارش فجأة هو يهمس في جزع: «چوشوا. أنت لست ظمآنًا، أليس كذلك؟».

رفرفت عباءة چوشوا الرمادية وسط الهواء وهو واقف أمام الشرفة المفتوحة.

- لا، لم أشأ أن أكسر القفل أو الزجاج. لا تخف يا أبنر.

- لقد تحسنت.

تفحصه مارش، ورأى أن شفتيه ما زالتا مشققتين، وعينيه غائرتين كحفرتين سوداوين، لكنه تحسن بالفعل. لقد بدا عند الظهيرة ميتًا.

- جئت يا أبنر لأخبرك أنني راحل.

- ماذا؟ لا يمكن أن ترحل!

- يجب أن أرحل يا أبنر. لقد رآني مالكو هذه المزرعة، وأعتقد أن طبيبًا زارني. غدًا سأكون قد شفيت. ماذا سيقولون وقتها عني؟

- وماذا سيقولون عندما يجلبون لك الإفطار فلا يجدوك؟

- بالطبع سيتعجبون، لكنهم لن يصلوا إلى استنتاج أبدًا. يمكنك أن تتعجب مثلهم يا أبنر. أخبرهم أن التفسير الوحيد هو أنني مشيت غير واعٍ في أثناء الحمى، وخرجت فضللت الطريق.

قال مارش: «ڤاليري ماتت».

- نعم، بالخارج عربة فيها تابوت أعتقد أنه لها.

زفر وهو يهز رأسه ويكمل: «لقد خذلتها. خذلت قومي كلهم. ما كان لي أن آخذها معنا».

- لقد اختارت. على الأقل تحررت منه.

كرر چوشوا في ألم: «تحررت. هل هذه هي الحرية التي قدمتها لبني جنسي؟ يا لها من هدية وضيعة. قبل ظهور دامون چوليان، كنت أحلم أن نصير أنا وڤاليري حبيبين يومًا ما، لا على طريقة قومي الملطخة بالدماء، بل علاقة نتجت عن حب ورغبة متبادلة. لقد تحدثنا عن الأمر». التوَت شفتاه ألمًا وهو يضيف: «لقد آمنت بي... وقتلتها».

- يا للجحيم. في النهاية قالت إنها تحبك، وما كانت مجبرة على الرحيل معنا. لقد أرادت ذلك. أنت قلت إننا جميعًا مُخيرون. أعتقد أنها أحسنت الاختيار. كانت امرأة خلابة.

اقشعر جسد چوشوا وهو يردد: «تسير مختالة مثل الليل... أحيانًا أتساءل يا أبنر إن كان لجنسنا ساعة. الليالي ملآنة بالدم والرعب، لكن النهار لا يرحم».

- إلى أين ستذهب؟

أجاب في وجوم: «سأعود».

هتف مارش: «لا يمكن!».

- ليس لي خيار آخر.

- أنت فررت للتو من هناك. بعد كل ما مررنا به وخسرناه، لا يمكنك أن تعود هكذا ببساطة. انتظر. اختبئ في الغابة أو اذهب إلى أي بلدة. سأنهي شؤوني هنا وألحق بك، وسنخطط معًا لاستعادة الباخرة.

هز چوشوا رأسه وقال: «مرة أخرى؟ لدي قصة لك أخبرك إياها يا أبنر. وقعت في أثناء أشهري الأولى في إنجلترا، عندما كان يزورني الظمأ الأحمر بانتظام، ويدفعني للبحث عن الدماء. في ليلة صارعته، وهُزِمت، فخرجت

أصطاد في الشوارع عند منتصف الليل. صادفني زوجان يهرعان إلى مكان ما. عادتي أن أختار من يمشون منفردين لأمان أكثر. لكن الظمأ كان رهيبًا، ومن بعيد كنت أرى المرأة حسناء شهية. جذبتني كما تجذب النار العث. فذهبت. هاجمت في الظلام، ولففت يديَّ حول عنق الرجل فمزقت أغلب حنجرته على ما ظننت، ثم ألقيته بعيدًا فسقط أرضًا. كان ضخمًا بحق. أخذت المرأة بين ذراعيَّ، خدرتها عيناي فتجمدت. كنت أذوق أولى قطرات دمها الدافئ عندما شعرت بمن يهاجمني من الخلف ويفرقنا. كان مهاجمي الرجل، الزوج. لم أقتله رغم كل شيء؛ عنقه غليظ محاط بالعضلات والدهون، ورغم أنني مزقته حتى نزف، ما زال الرجل واقفًا على قدميه. لم يقل كلمة. فقط لكم وجهي لكمة عنيفة قوية. صدمتني ضربته وجرحت ما فوق عيني. كنت قد تشتت بالفعل؛ إبعادي عن ضحيتي شعور سيئ، يصيبني بالدوار والشعور بالغرابة. ضربني الرجل مرة أخرى، فمزقت وجهه بأظفاري. سقط وخده ينزف، وإحدى عينيه منتزعة من محجرها. التفتُّ إلى المرأة وضغطت شفتاي على جرحها المفتوح. ثم هاجمني مرة أخرى. انتزعت ذارعه عني، وكسرت واحدة من ساقيه بركله. سقط أرضًا، لكنه تحمَّل الألم وقام مكورًا قبضتيه، مندفعًا نحوي. صرعته مرتين، وفي المرتين نهض مرة أخرى. أخيرًا، كسرت عنقه، ومات، ثم قتلت امرأته. بعدها، عجزت عن إبعاده عن عقلي. لا بد أنه عرف أنني لست بشريًّا بالكامل. ربما أدرك -وهو بهذه القوة- أنه لن يستطيع الصمود أمام قوتي وسرعتي وظمئي. شتَّتَتْنِي الحمى وجمال رفيقته، واضطررت إلى قتله. كان ليهرب أو يطلب المساعدة. كان ليبحث عن سلاح. لكنه لم يفعل. رأى امرأته بين ذراعيَّ، ورآني أجرحها، وكل ما استطاع أن يفكر فيه هو أن يهاجمني بقبضتيه الضخمتين الغبيتين. وجدت نفسي معجبًا بقوته وجسارته المجنونة وحبه لهذه السيدة. لكن رغم كل هذا يا أبنر، كان غبيًّا. لم ينقذ نفسه أو امرأته. أنت تذكرني بهذا الرجل يا أبنر. أخذ چوليان باخرتك منك، وكل ما تفكر فيه هو استعادتها، لذا تقوم مكوِّرًا قبضتيك وتهاجم، فيصرعك چوليان. في يوم لن تنهض مرة أخرى. أبنر، تخلَّ عنها!».

قال مارش بصوت غاضب: «ما هذا بحق الجحيم؟ لا بد لچوليان ومصاصي الدماء خاصته أن يقلقوا الآن. الباخرة اللعينة لن تذهب إلى أي مكان دون مَن يبحر بها».

- أنا أستطيع الإبحار بها.

- وهل ستفعل ذلك؟

- نعم.

شعر مارش بمرارة الغدر والخيانة والحنق.

- لماذا؟ أنت مختلف عنهم يا چوشوا.

- سأكون مثلهم ما لم أعُد. دون عقاري سيهاجمني الظمأ بقوة كل السنوات التي كبته فيها. وقتها سأقتل وأرتوي، وسأكون مثل چوليان. في المرة القادمة التي سأدخل فيها غرفة نوم، لن تكون بغرض تبادل الحديث.

- عُد إذًا! اجلب مشروبك اللعين! لكن لا تحرك تلك الباخرة اللعينة حتى أصل إليها.

- تصل إليها مع رجال مسلحين بأوتاد مشحوذة وقلوب عامرة بالكراهية. ســـتعود لتقتل، وأنا لن أسمح بهذا.

- في أي صف أنت؟

- في صف قومي.

قال مارش كأنه يبصق: «بل في صف چوليان».

- لا، اسمع يا أبنر وحاول أن تفهم. چوليان هو سيد الدماء، ويتحكم فيهم جميعًا. بعضهم مثله، فاسدون، خبيثون. كاثرين ورايموند والآخرون يطيعونه برضا، لكن هذا ليس الحال مع الباقين. أنت رأيت ڤاليري وسمعت ما قالته في القارب. لست وحدي. جنسانا ليسا مختلفين إلى هذا الحد. في كليهما الخير والشر، وكلنا نحلم. لو هاجمت الباخرة، أو تحركت ضد چوليان سيدافعون عنه مهما اختلفت آمالهم. سنوات العداء والكراهية ستقودهم. نهر الدماء الذي يجري بين الليل والنهار لا يمكن عبوره بسهولة، لو جئت يا أبنر أنت وقومك، لن يقع سوى الموت. ليس موت چوليان فقط، بل مَن يحرسونه، ومن يعاونونك من بني جنسك.

قال مارش: «أحيانًا يضطر المرء إلى المخاطرة. ومن يحرسون چوليان يستحقون الموت».

سأل چوشوا في حزن: «حقًّا؟ ربما يستحقون. ربما نستحق جميعًا الموت. لا مكان لنا في العالم الذي بناه جنسك. لقد قتلتم أغلبنا، وربما آن أوان ذبح آخر الناجين أيضًا. إن كان هذا ما تنتوي يا أبنر، فتذكر من أكون. أنت صديقي، لكنهم لحمي ودمي؛ قومي. إليهم أنتمي. لقد ظننت يومًا أنني ملِكهم».

صوته غارق في المرارة واليأس، حتى إن غضب مارش قد خبا أمامه، وحل محله الشفقة. قال: «لقد حاولت».

- لقد فشلت. خذلت ڤاليري وسيمون وكل مَن آمن بي. خذلتك أنت والسيد چيفرز وذاك الرضيع أيضًا. ربما خذلت چوليان نفسه، بطريقة أو بأخرى.

- لم يكن هذا خطأك.

ظهرت في عيني چوشوا نظرة وجوم بارد وهو يقول: «الماضي انتهى. كل ما يهمني الليلة، وليلة الغد، والليلة التي تليها. يجب أن أعود. إنهم يحتاجون إليَّ رغم أنهم على الأرجح لا يدركون ذلك. يجب أن أعود وأفعل ما يمكنني فعله مهما كان بسيطًا».

نخر مارش ثم قال: «وتطلب مني أن أتخلى عن الأمر؟ هل تظنني مثل ذاك المخبول الذي أصر على مهاجمتك؟ اللعنة يا چوشوا. ماذا عنك؟ كم مرة استنزفك چوليان حتى الآن؟ يبدو لي أنك غبي عنيد مثلما تظنني».

ابتسم چوشوا واعترف: «ربما».

- يا للجحيم. حسنًا. أنت عائد إلى چوليان كأي خائب غبي. ماذا تريدني أن أفعل بحق الجحيم؟

- غادر هذا المكان في أقرب وقت، وقبل أن يرتاب فينا مضيفونا أكثر.

- أعرف هذا.

- الأمر انتهى يا أبنر. لا تبحث عنا.

- لك أن تراهن على ذلك.

ابتسم چوشوا وقال: «يا لك من أحمق لعين. حسنًا، ابحث لو أردت. لن تجدنا».

- لنرَ.

- ربما ما زال فينا الأمل. سأعود وأروض چوليان، وأبني الجسر بين الليل والنهار، ثم نهزم الباخرة شفق أنا وأنت معًا.

نخر مارش مستهزئًا، لكن في قراره نفسه أراد أن يصدق الوعد.

- اهتم بباخرتي اللعينة. ليس في سرعتها باخرة أخرى، والأفضل أن أجدها سليمة عندما أعود.

عندما ابتسم چوشوا، تشقق الجلد الجاف حول فمه. رفع يديه إلى وجهه وقشِّر الطبقة الميتة كأنها قناع يضعه. من تحته ظهر الجلد أبيض كالحليب، بلا شائبة، وكأنه وجه جديد لبداية جديدة، وعالم مختلف.

سحق چوشوا وجهه القديم بين كفيه، فنزل الألم القديم والقشور والجلد الميت من بين أصابعه إلى الأرض. مسح كفه في سترته، ثم مدها مرتجفة تجاه أبنر مارش، فتصافحا.

قال مارش: «علينا جميعًا أن نختار. أنت أخبرتني بهذا يا چوشوا، وكنت على حق. الاختيار ليس سهلًا دائمًا. في يوم ستضطر إلى الاختيار ما بين قومك؛ أناس الليل، و... حسنًا، لندعوهم: الأخيار. ذوي الأفعال الطيبة. أنت تعرف ما أعنيه. اختر بعناية يا چوشوا».

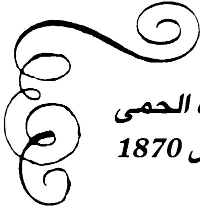
- وأنت يا أبنر. اختر بحكمة.

استدار چوشوا يورك، وعباءته تدور خلفه، ثم خرج. قفز من ارتفاع عشرين قدمًا بخفة، وهبط على الأرض، وكأنه اعتاد فعل هذا كل يوم. ثم رحل. اختفى في الليل. فكر مارش في أنه ربما حوَّل نفسه إلى ضباب لعين.

عند الأفق البعيد يلمع النهر. باخرة تطلق صافرتها الحزينة، الضائعة، الوحيدة. ليلة حزينة أخرى تمر على النهر. ارتجف أبنَر. أغلق الشرفة، ثم عاد إلى فراشه.

***

ثلاثون



سنوات الحمى
نوڤمبر 1857- أبريل 1870

التزم كلاهما بكلمته. ظل أبنر يبحث، لكنه لم يجد الباخرة.

غادروا مزرعة آرون جراي بمجرد أن تحسنت حالة كارل فرام، بعد أيام من اختفاء چوشوا يورك. سعد مارش لرحيله، إذ ازداد فضول جراي وابنيه حيث لم ترد في الصحف أي أخبار عن انفجار باخرة، ولم يسمع جيرانهم بخبر كهذا، وبالطبع كيفية اختفاء چوشوا وسببه، واختلاط أكاذيب مارش بعضها ببعض.

بعودته مع توبي وكارل فرام إلى النهر، كانت حلم فيڤر قد اختفت كما توقع، وعاد مارش إلى سانت لويس.

خلال الشتاء العاتي، ظل مارش يبحث. كتب مزيدًا من الخطابات، وجاب الحانات قرب المواني وصالات البلياردو، واستأجر المزيد من رجال التحريات. قرأ صحفًا كثيرة، وعثر على يورچر وجروڤ وباقي طاقم إيلي رينولدز، وأرسلهم إلى أعلى النهر وأدناه كركَّاب، يبحثون ويتقصون. لم ينتج عن كل هذا شيء. لم يرَ أحد حلم فيڤر ولا أوزيماندياس. فطن مارش إلى أنهم قد غيروا اسمها مرة أخرى. قرأ كل قصيدة لعينة كتبها بايرون أو شيلي، لكن بلا فائدة هذه المرة. ساء وضعه من كثرة البحث حتى حفظ تلك القصائد وراح يبحث في غيرها، لكن الشيء الوحيد الذي وجده وله صلة بالقصائد باخرة بائسة من ميزوري، ذات رفاسات خلفية اسمها هياواثا.

وصل مارش تقرير واحد من التحريات، ولم يكن فيه ما لا يعرف بالفعل. الباخرة أوزماندياس غادرت ناتشيز في تلك الليلة من أكتوبر، ومعها حمولة

أربعمائة طن، وأربعين راكبًا في الغرف، وضعفهم على منصاتها الثلاث. لم تصل الشحنة قَط، ولم ير أحد الباخرة ولا ركابها مرة أخرى. قرأ مارش هذا التقرير أكثر من عشر مرات وهو عابس. الأرقام منخفضة جدًّا، مما يعني أن بيلي الشرس لم يكن يؤدي عمله بكفاءة، إلا إن كان قد تعمَّد هذا حتى يحظى چوليان ورفاقه بحرية أكبر. مائة وعشرون شخصًا اختفوا. اكتسى جسد مارش بالعرق البارد. حدق إلى التقرير وقد تذكر ما قاله له دامون چوليان من أن أحدًا لن ينسى حلم فيڤر.

لأشهر تالية ابتُلي مارش بكوابيس رأى فيها باخرة تتحرك عبر النهر، سوداء بالكامل، كل فتحاتها مغطاة كيلا يظهر حتى ضوء نيران الأفران. باخرة مظلمة كالموت، سوداء كالخطيئة. ظل يشق الضباب وضوء القمر، بالكاد تُرى، سريعة هادئة. في حلمه رآها لا تصدر أي صوت وهي تتحرك، وأشباح بيضاء تجوب طوابقها وتسكن قاعتها الكبرى. الركاب مكومون مذعورون في الغرف، حتى تُفتَح أبوابها في ليلة، فيصرخون. في مرة أو مرتين استيقظ مارش صارخًا بدوره. حتى في ساعات صحوه لا ينساها. باخرة أحلامه مسربلة بالظلال والصرخات، تنفث دخانًا أكثر دُكنة من عيني چوليان، وبخارها بلون الدم.

بحلول وقت ذوبان الجليد عن شمال النهر، وُضع مارش أمام خيار صعب. لقد فشل في العثور على حلم فيڤر، وكاد بحثه المستمر يودي به إلى الإفلاس. دفاتره تحكي قصة مأسوية؛ إنه يملك شركة بواخر ليس فيها باخرة واحدة، وليس معه تمويل يكفي حتى لبناء واحدة متواضعة. لذا اضطر مارش إلى أن يتصل بوكلائه ومساعديه لوقف البحث.

بالمال القليل الذي تبقى، ذهب إلى الجنوب حيث تحطمت إيلي رينولدز. ركبوا لها دفة جديدة، وأصلحوا عجلة الرفاسات، ثم انتظروا فيضان الربيع. وجاء الربيع، وصار الفرع قابلًا للإبحار فيه. نقل يورچر وطاقمه الباخرة إلى سانت لويس حيث بدلوا بعجلة الرفاسات أخرى جديدة، وركبوا لها محركًا بضعف القدرة، وغلاية ثانية. حتى إنهم طلوها وفرشوا أرضية قاعتها الرئيسية ببساط أصفر فاقع. دشنها مارش بعد ذلك للعمل في تجارة نيو أورلينز، إذ كانت أصغر وأقدم من أن يتابع بها بحثه بنفسه.

عرف أبنر مارش قبل أن يبدأ أن الأمر مفقود فيه الأمل. بين كايرو ونيو أورلينز وحدهما أكثر من ألف ومائة ميل، ثم جنوب المسيسبي من بعد كايرو

إلى شلالات سانت أنتوني، ثم ميزوري، وأوهايو ويازو والنهر الأحمر، وقرابة خمسين فرعًا آخر يتحرك فيهم البواخر، وناهيك بالجداول والتفريعات والترع التي يمكن الإبحار فيها خلال أوقات معينة من السنة. يمكن لباخرة أن تختبئ في أي مكان، ولو أن إيلي رينولدز عبرت بها ولم تلاحظها، سيكون عليه البدء من جديد. آلاف البواخر تقطع المسيسبي، ويدخل إلى الشركات ملاك جدد كل يوم، يطالبون أحيانًا بتغيير أسماء البواخر عند نقل الملكية. لكن مارش عنيد. لقد بحث، وصارت إيلي رينولدز بيته.

لم تحظ الباخرة ببضائع كثيرة لنقلها، فقد تنافست البواخر الأكبر والأسرع والأكثر فخامة على التجارة ونقل الركاب، ولم تحظَ إيلي رينولدز بشيء. قال عميل نيو أورلينز لمارش في خريف 1858 بعدما استأذنه في البحث عن عمل آخر: «المشكلة ليست أنها في بطء الحلزون، وفي قبحه. بل المشكلة فيك أنت أيضًا. لأُلعَن لو أنني لا أقول الحقيقة».

صاح مارش: «أنا؟ ماذا تقصد بحق الجحيم؟».

- الناس في النهر يتكلمون كما تعرف. يقولون إنك أتعس رجال النهر وأسوؤهم حظًّا. يقولون إن عليك لعنة أسود من لعنة ديرنان وايت. غلاية إحدى بواخرك انفجرت كما يقولون، وقتلت الجميع. وواحدة احترقت بعدما أصيب من فيها بالحمى الصفراء. والأخيرة، يقولون إنك حطمتها بنفسك بعدما ضربت قائدها بهراوة.

- اللعنة على هذا الرجل.

- والآن دعني أسألك، من سيركب مع رجل ملعون مثلك؟ أو حتى يعمل معه؟ ليس أنا بالـتأكيد.

الرجل الذي وظفه مكان چوناثان چيفرز توسل إلى مارش كي يُخرج إيلي رينولدز من خط نيو أورلينز، وأن ينتقل للعمل في أعالي المسيسيبي أو في نهر إلينوي حيث ستلائمها الأوضاع هناك أكثر. حتى نهر ميزوري القاسي الخطِر قد يرحب بها وتتكسب من التجارة فيه ما لم يحولها إلى حطام أولًا. رفض أبنر مارش، وأقال الرجل عندما أصر. كان يعرف أن لا فرصة أمامه في العثور على حلم فيڤر في شمال النهر. إلى جانب هذا، كان يتوقف سرًّا في ساحات التزويد بالأخشاب على امتداد نهر المسيسبي ونهر أركانساس، ويتحدث إلى العبيد الفارين، وينقلهم إلى الشمال حيث الولايات الحُرة. أوصله توبي بجماعة تُسمى «سكة حديد الأنفاق» وهي التي تتولى كل

الترتيبات. لم يكن لمارش حاجة بالسكك الحديد، وكان يصر على أن يسميها «أنهار الأنفاق»، لكن التعاون مع هذه الجماعة أسعده، وكأنه يؤدي به داموان چوليان بشكل ما. اعتاد أن يجالس الفارين على سطح الباخرة الرئيسي، ويسألهم عن أناس الليل، وعن حلم فيڤر، وما إلى ذلك، على أمل أن يعرف السود ما لا يعرفه البيض، لكن أحدهم لم يخبره معلومة مفيدة.

استمر أبنر مارش في بحثه قرابة ثلاث سنوات قاسية، وبحلول عام 1860، كان مارش مغروزًا حتى عنقه في الديون التي سببها إبحار إيلي رينولدز. أجبِر على غلق المكاتب التي أبقى عليها مفتوحة في سانت لويس ونيو أورلينز ومدن النهر الأخرى. لم تعد تؤرقه الكوابيس كما كانت، لكنه انعزل أكثر مع مرور السنوات. أحيانًا يخيل إليه أن الوقت الذي أمضاه مع چوشوا يورك على متن حلم فيڤر هو الحياة الحقيقية الوحيدة التي عاشها، وأن الأشهر والأعوام التالية تجري كالحلم. في أوقات أخرى كان يشعر بعكس ذلك، وبأن ما يعيشه الآن هو الحياة الحقيقية، وسط السجلات المكتوبة بالحبر الأحمر، وأرضية إيلي رينولدز تحته، ورائحة بخارها، والبقع على بساطها الأصفر الجديد. أما ذكريات چوشوا والباخرة المذهلة التي بنوها معًا، ورعب چوليان الذي أفسد كل شيء ليسوا سوى حلم، ولا عجب أنهم اختفوا، وأن الناس على طول النهر يحسبونه مجنونًا.

أحداث عام 1857 بدت كالأحلام أكثر كلما ابتعد من شاركوه إياها عن حياته. سافر توبي لانيارد غربًا بعد شهر من عودتهم إلى سانت لويس. العودة إلى العبودية تلك المرة تكفيه، لذا أراد الابتعاد عن ولايات العبيد قدر المستطاع. وصل مارش خطاب قصير منه في بدايات 1858، ذكر فيه أنه عثر على وظيفة طاه في فندق في بوسطن. عمل دان أولبرايت على باخرة جانبية الرفاسات في نيو أورلينز. في صيف 1858، كان وباخرته في نيو أورلينز في أثناء تفشي الحمى الصفراء التي قتلت الآلاف من بينهم أولبرايت، لكن الوباء دفع المدينة لتحسين نظافتها فلم تعد كأنبوب مجارٍ مفتوح طوال الصيف. قاد القبطان يورچر الباخرة إيلي رينولدز لصالح مارش حتى انتهاء موسم 1859، ثم تقاعد وانتقل إلى مزرعته في ويسكونسن، حيث توفي في سلام بعدها بعام. بعد رحيل يورچر، تولى مارش إدارة الباخرة بنفسه لتوفير المال.

في ذاك الوقت لم يعد متبقيًا معه إلا بضعة أوجه من الطاقم القديم. قُتِل دوك تورني وسُرق في ناتشيز أسفل التل الصيف السابق، وغادر كات جروڤر النهر تمامًا وانتقل إلى الغرب، إلى دينڤر أولًا ثم إلى سان فرانسيسكو، ومنها إلى الصين أو اليابان أو إلى مكان ما مثلهما. وظف مارش چاك إيلاي؛ الضابط الثاني السابق لحلم فيڤر، مكان تورني، بالإضافة إلى آخرين ممن عملوا على متن الباخرة المختفية، لكن منهم من مات، ومنهم من سافر أو اتخذ عملًا آخر.

بحلول 1860 لم يتبقَّ إلا مارش نفسه وكارل فرام ممن عاشوا انتصارات وخيبات وخوف عام 1857. أبحر فرام بإيلي رينولدز رغم أن قدراته تلائم بواخر أضخم وأكثر شهرة. تذكر فرام أحداثًا كثيرة لم يحب أن يحكي عنها حتى لمارش. حافظ القبطان على شخصيته المرحة، لكنه لم يعد يقص الأكاذيب كما كان يفعل، ولاحظ مارش الكآبة في عينيه والتي لم يكن لها أي أثر من قبل. ظل فرام مسلحًا بمسدس طول الوقت، «في حال صادفناهم» على حد قوله.

- هذا السلاح الصغير لن يؤثر في چوليان.

كانت ابتسامة كارل فرام ما زالت منفرجة، تُظهر من بين شفتيه سِنه الذهبية اللامعة، لكن لم يكن في عينيه أثر مرح عندما قال: «السلاح ليس لچوليان يا كابتِن. بل لي. لن يحصلوا عليَّ حيًّا مرة أخرى».

ثم نظر إلى مارش معقبًا: «يمكنني فعل الشيء نفسه معك لو وصل الأمر إلى هذا».

- لن يصل الأمر إلى هذا.

ثم غادر مارش مقصورة القيادة. تذكر هذا الحوار بينهما طوال اليوم، كما تذكر حفل كريسماس في سانت لويس عام 1859، أقامه أحد ربابِنة باخرة ضخمة من بواخر أوهايو. حضر الحفل مارش وفرام، كما حضره كل رجال النهر في المدينة. بعدما شرب الجميع، بدؤوا يحكون حكايات النهر. عرف مارش كل تلك الحكايات، لكنه شعر بالراحة والسلام وهو يسمعهم يكررونها على مسامع المصرفيين والتجار والجميلات ممن لم يسمعوها من قبل. تكلموا عن آل العجوز، الملك القاطور، وعن الباخرة الشبح المسماة راكُّورتشي، وعن مايك فينك، وچيم بوي، چاك راسِل العاوي، وعن السباق العظيم بين الباخرة شفق، وبين أ. ل. شوتويل، وعن القبطان الذي كان يبحر عبر الضباب

رغم موته، وعن الباخرة اللعينة التي نشرت الجدري عبر النهر منذ عشرين عامًا مضت، وقتلت قرابة عشرين ألف هنديًا أحمر، ودمرت تجارة الفراء كما قال القاص، فضحك الجميع عدا مارش ورجلين آخرين. حكى آخر متفاخرًا عن البواخر العظيمة الأسطورية مثل هوريكانو، وإ. چينكينز وغيرهما، مما يزرعون على أرضية طابقها العلوي غابات لتزويدها بالأخشاب، وعن عجلات رفاساتها الهائلة التي تدور دورة كاملة خلال عام. وابتسم مارش.

دفع كارل فرام المتجمهرين ليدخل بينهم، وكأس براندي في يده وهو يهتف مخمورًا: «لدي قصة. قصة حقيقية عن باخرة اسمها أوزيمانديا‌س، ترون أنه...».

قال أحدهم: «لم أسمع بها من قبل».

ابتسم فرام ابتسامة باهتة وغمغم: «الأفضل ألا *تراها* أبدًا. إنها تبحر ليلًا فقط، وهي سوداء، كلها أسود في أسود. مطلية بالأسود... كل بوصة فيها إلا من الداخل. أبسطة قاعتها الكبرى حمراء كالدم، والمرايا الفضية في كل مكان لا تعكس شيئًا. كل مراياها خالية دائمًا رغم أن على متنها كثير. شاحبون هم، يرتدون أفخر الثياب، ويبتسمون كثيرًا... لكن صورهم لا تنعكس في المرايا».

ارتجف أحد الحضور، وصمت الجميع. سأل مهندس يعرفه فرام معرفة سطحية: «لماذا لا تنعكس صورهم في المرايا؟».

أجاب فرام: «لأنهم موتى. كل واحد لعين منهم ميت، لكنهم لا يرقدون. إنهم مجرمون، ملعونون بركوب هذه الباخرة للأبد. تلك الباخرة السوداء ذات الأبسطة الحمراء والمرايا الخاوية. تبحر شمالًا وجنوبًا ولا تتوقف أبدًا. لا يا سيدي، لا...».

سأل أحدهم: «أشباح؟».

أضافت امرأة: «الباخرة مسكونة، مثل تلك المسماة راكورتشي».

قال فرام: «لا بالطبع. يمكن للمرء أن يمر من خلال شبح، لكن ليس من خلال أوزماندياس وساكنيها. الباخرة حقيقية بما يكفي، ستعرفون هذا سريعًا وستندمون لو صادفتموها ليلًا. هؤلاء الموتى جوعى، يشربون الدماء، أتعرفون؟! الدماء الساخنة الحمراء. يتربصون في الظلام، وعندما يرون أضواء باخرة تقترب، يلاحقونها، ولو أمسكوا بها، يزحفون إليها، كل تلك الأوجه البيضاء الميتة، يبتسمون، يرفلون في الملابس الأنيقة. ثم يغرقون

الباخرة بعدها، أو يحرقونها، وفي الصباح التالي لا يتبقى منها إلا عودان خشبيان طافيان، أو حتى حطام ممتلئ بالجثث. إلا الخطَّاؤون... الخطاؤون يُنقلون إلى أوزيماندياس، ويسكنونها إلى الأبد».

رشف من البراندي وابتسم مردفًا: «لذا، إن كنتم في النهر ذات ليلة، ورأيتم ظلًّا يبحر من خلفكم، تحققوا منه جيدًا. ربما تكون الباخرة السوداء بالكامل، بطاقمها الأبيض كالأشباح. أوزيماندياس لا تضيء أي أنوار، لذا لا يمكن رؤيتها أحيانًا إلا وهي في أعقابكم. لو صادفتكم، الأفضل أن يكون معكم قبطان بارع، وبعض النفط أو شحم الخنزير، لأنها كبيرة وسريعة، ولو لحقت بكم في الليل لقضت عليكم. أنصتوا إلى صافرتها عندما تعثر عليكم، فإن سمعتموها، أحصوا آثامكم وصلوا لأجل مغفرتها».

- وكيف هي الصافرة؟

- كصراخ البشر تمامًا.

سأل قبطان شاب: «قلت ما اسمها؟».

- أوزيماندياس.

كان يعرف كيف ينطق الاسم بشكل صحيح.

- وما معنى الاسم؟

قام أبنر مارش هاتفًا: «اسم ذُكِر في قصيدة».

وشرع يردد الأبيات، والحشد ينظرون إليه خاوي الأبصار، وضحكت امرأة سمينة ضحكة عصبية. قال كاتب قصير: «ثمة لعنات وأشياء أسوأ في النهر العتيق اللعين».

بينما الرجل يتكلم، أمسك مارش بذراع فرام، وسحبه إلى الخارج.

- لماذا حكيت القصة بحق الجحيم؟

- لإخافتهم. لكي يحذروها لو التقوها في ليلة لعينة.

فكر مارش في الإجابة، ثم أومأ وقال: «أعتقد أنه لا بأس. أنت أشرت إليها بالاسم الذي أطلقه عليها بيلي الشرس. لو أنك ذكرت اسم حلم فيڤر أيها القبطان، للويت عنقك حتى كسرته. أتسمعني؟».

سمع فرام، ولم يهتم. لقد حكى القصة وخرجت من نفسه إلى الأبد. بعد شهر سمع مارش شذرات من الحكاية نفسها على لسان رجل آخر بينما كان

يتناول الغداء في بيت المزرعة، ثم مرتين تاليتين في الشتاء. تغيرت تفاصيل الحكاية عبر الألسنة، حتى اسم الباخرة السوداء أوزيمانديّاس كان عصيًّا على نطق أغلب الرواة، لكن القصة ظلت كما هي.

بعد نصف عام تالٍ، سمع مارش قصة أخرى غيرت حياته.

كان قد جلس إلى مائدة العشاء في فندق صغير في سانت لويس، أقل أسعارًا من بيت المزرعة، لكنه طعامه جيد، ولا يرتاده الكثير من رجال النهر مما لاءم مارش؛ فقد كان معارفه وزملاؤه القدامى ينظرون إليه نظرة غريبة خلال الأعوام القليلة الأخيرة، أو يتحاشونه خشية الحظ السيئ، أو يرغبون في الجلوس والتحدث عن سوء طالعه وخسائره، ولم يكن لمارش صبر على كل هذا. فضَّل أن يظل وحيدًا.

في ذاك اليوم من عام 1860 كان جالسًا في سلام، يشرب كأس خمر وينتظر أن يجلب له النادل البطة المشوية والخبز اللذين طلبهما، عندما قاطعه صوت يهتف: «لم أرك منذ عام».

كل ما تذكره مارش عن الرجل هو أنه كان يعمل في الباخرة أ. ل. شوتويل منذ أعوام. دون حماس دعاه للجلوس، فجذب الرجل مقعدًا على الفور. عرف منه أنه الآن مهندس ثانٍ على باخرة من نيو أورلينز لم يسمع بها مارش من قبل، ونفسه ملآنة بالحكايات والثرثرة. أنصت مارش في أدب، وهو يفكر في عشائه، فهو لم يأكل طوال اليوم.

وصلت البطة، وبدأ مارش يطلي قطعة خبز ساخن بالزبد، عندما قال المهندس: «أقول لك، هل سمعت عن العاصفة جنوب نيو أورلينز؟».

مضغ مارش خبزه، وابتلع، ثم قضم قضمة أخرى وقال: «لا». لم يكن مهتمًّا. في عزلته لم يسمع كثيرًا عن الفيضانات والعواصف والظواهر الطبيعية الأخرى.

أطلق الرجل صفارة من بين أسنانه الصفراء المتفرقة وقال: «يا للجحيم. كانت سيئة جدًّا. انخلعت عدة بواخر من مرابطها وطارت في الهواء. كانت الباخرة شفق واحدة منها. سمعت أنها تحطمت تمامًا».

ابتلع مارش الخبز، وأنزل السكين والشوكة اللتين رفعهما ليفتك بالبطة.

- شفق؟

- نعم يا سيدي.

- ماذا حدث لها؟ كابتِن ستورچن سيصلحها، أليس كذلك؟
- لقد دُمِّرت إلى حد لا ينفع معه الإصلاح. قيل إنهم استخدموا ما تبقى منها ألواح نجاة طافية، حتى وصلوا إلى ممفيس.
- ألواح طافية؟!

فكر مارش في كل البواخر الواقفة عند مواني نيو أورلينز وسانت لويس ومدن النهر الكبرى. انتزعت العاصفة المحركات والغلايات منها، وما بقي منها لم ينفع إلا كألواح طفو للنجاة.

غمغم مارش: «هي لا... هي...».

- بالنسبة إليَّ، أرى أنها تستحق ما حدث لها. كنا لنسبقها بالباخرة شوتويل، لولا...

تحشرج مارش وهو يصيح: «اخرج من هنا! لولا أنك أحد رجال الباخرة شوتويل لركلت مؤخرتك حتى الشارع لأجل ما قلته. والآن ابتعد!».

قام المهندس سريعًا وهو يغمغم في أثناء ابتعاده: «أنت مجنون كما يقولون عنك».

جلس مارش إلى المائدة طويلًا، طعامه كما هو أمامه، يحدق إلى اللاشيء، ونظرة كئيبة غائمة على وجهه. أخيرًا ظهر نادل وسأله بأدب: «هل البطة جيدة يا كابتِن؟».

أطرق مارش. بردت البطة وتجمد الدهن حولها.

- لم أعد جائعًا.

ودفع الصحن بعيدًا، ثم دفع حسابه ورحل.

أمضى الأسبوع التالي يفحص دفاتره، ويدوِّن ديونه الجديدة، ثم استدعى كارل فرام.

- لا فائدة. لن تسابق شفق حتى لو عثرنا عليها، وهو شيء لن يحدث. أنا سئمت البحث. سأنقل باخرتي إلى خط تجارة ميزوري يا كارل. يجب أن أجني بعض المال.

سدد إليه فرام نظرة مُتهمة وقال: «لكن ليس لي ترخيص للإبحار في نهر ميزوري».

- أعرف. سأطلق سراحك. أنت تستحق باخرة أفضل من إيلي رينولدز على أي حال.

امتص كارل فرام الدخان من غليونه، ولم يقل شيئًا. لم يستطع مارش النظر إلى عينيه، فقلَّب الأوراق أمامه وهو يقول: «سأدفع كل مستحقاتك».

أومأ فرام واستدار ليرحل، ثم توقف عند الباب وأضاف: «لو وجدت عملًا على باخرة أخرى، سأستمر في البحث عنها، ولو عثرت عليها سأبلغك».

قال مارش بحدة: «لن تعثر عليها».

بعدها أغلق فرام الباب، وخرج من باخرة مارش ومن حياته، وصار وحيدًا إلى حد غير مسبوق. والآن، لم يتبقَّ سواه، ولا يتذكر أحد حلم فيڤر، أو سترة چوشوا البيضاء، أو الجحيم الرابض وراء عيني دامون چوليان. تلك الأحداث تعيش فقط لأن مارش يتذكرها، وهو يهدف الآن إلى نسيانها.

وتمر السنوات.

تجني إيلي رينولدز بعض المال من تجارة ميزوري بعد عملها هناك عامًا، أدارها خلاله مارش، وتعب فيها وراعى حمولاتها وركابها ودفاترها. كسب خلال أول رحلتين لها ما يكفي لسداد ثلاثة أرباع ديونه الضخمة.

ربما صار أكثر ثراء، وربما انخرط في الأحداث الجسام التي دارت من حوله؛ انتخابات لينكولِن (صوَّت له مارش رغم كونه من الحزب الجمهوري)، وأحداث انشقاق أربع ولايات جنوبية، والهجوم على حصن سَمتر. فكر مارش فيما قاله چوشوا يورك؛ *الظمأ الأحمر يهاجم الأمة، ولن يرويه سوى الدم.*

تطلب إرواؤه دماء كثيرة. نادرًا ما تحدث عن الحرب أو خبراته فيها، ولم يكن يصبر على أولئك الذين يصرون على خوضها مرارًا والحديث عنها. قال جهرًا: «خضنا حربًا، وانتصرنا، ولا أعرف لماذا لا ننفك نعيدها مرة أخرى كأنها شيء نفخر به. الشيء الوحيد الجيد الذي خرجنا به هو إنهاء العبودية، أما الباقي فلا رغبة لي فيه. قتل الناس لا يُباهى به».

عاد مارش وإيلي رينولدز إلى أعالي المسيسبي خلال أولى سنوات الحرب، ونُقِل الجنود على متن الباخرة من سانت بول وويسكونسن وإيوا. لاحقًا خدم مارش ضمن أسطول مسلح تابع لجيش الاتحاد، وشهد معركتين نهريتين.

حارب كارل فرام في النهر أيضًا، وسمع مارش أنه لقي حتفه هو يحارب في ڤيكسبرج، لكنه لم يتأكد قط من صحة الخبر.

عندما انتهت الحرب، عاد مارش إلى سانت لويس وظلت إيلي رينولدز في تجارة أعالي المسيسبي. أنشأ رابطة صغيرة مع ربابنة ومُلَّاك أربع بواخر، وكوَّنوا معًا أسطولًا بجدول صارم، لمنافسة الشركات الكبرى التي تحكم شمال النهر. إلا أنهم جميعًا عنيدون متصلبو الرؤوس، وبعد نصف عام من الشجار والجدال، حُلَّت الشراكة. بعدها شعر مارش أنه فقد شهيته تجاه العمل في البواخر نهائيًّا. لقد تغير النهر بشكل ما. بعد الحرب لم يعد فيه أكثر من ثلث البواخر التي كانت تذرعه من قبل، لكن المنافسة ازدادت شراسة إذ سحبت السكة الحديد التجارة والنقل إليها. والآن عندما تبحر من سانت لويس، لا تجد حولك إلا بضع بواخر عند المرفأ، وفي الماضي كان المكان متخمًا لمسافة ميل. ثمة تغيرات أخرى أيضًا في السنوات التالية للحرب. تفوق استخدام الفحم على استخدام الخشب في كل مكان إلا المواضع الموحشة من نهر ميزوري، وسُنَّت القوانين الفيدرالية الخاصة بالأمان والأطقم وغيرهما، حتى إنهم جرَّموا السباقات النهرية بين البواخر.

تغير رجال البواخر أيضًا. أغلب من عرفهم مارش قد ماتوا أو تقاعدوا، ومن حلُّوا مكانهم غرباء بعادات أغرب. انقرض رجال النهر الذين يطلقون السباب ويضربونك على ظهرك ويقدمون لك الشراب طوال الليل، ويحكون لك الأكاذيب الباهرة. حتى ناتشيز أسفل التل صارت شبح نفسها القديمة كما سمع مارش، وهدأت حتى غدت أشبه بناتشيز أعلى التل، بمنازلها الأنيقة.

في ليلة من ليالي مايو عام 1868، بعد مرور أكثر من عشر سنوات منذ رأى مارش چوشوا يورك وحلم فيڤر آخر مرة، كان أبنر مارش يسير على امتداد المرفأ، يفكر في الليلة التي التقى فيها چوشوا أول مرة، وسارا معًا في المكان نفسه. كانت البواخر مصطفَّة. الكبير منها والصغير. الأنيق والمتواضع، وكانت شفق بينهم. والآن تحولت إلى ألواح طفو، وفي الميناء موظفون وقباطنة وعمال لم تقع أعينهم عليها قط.

المرفأ كان خاليًا حيث وقف مارش. ليس أمامه سوى خمس بواخر، أو ست لو أحصينا معهم إيلي رينولدز. كانت المذكورة قد بلغت من العمر ما يخشى معه مارش من أن يبحر بها في النهر. فكر مارش في كونها ولا بد أقدم باخرة لعينة في العالم، وهو أكبر الربابنة عمرًا، وكلاهما متعب.

تصدرت المشهد الباخرة المسماة «الجمهورية العظمى»، وهي باخرة جديدة ضخمة ذات رفاسات جانبية، بُنيت في إحدى ساحات بناء بيتسبُرج

قبل عام. قالوا إن طولها 335 قدمًا، مما جعلها أكبر باخرة في النهر الآن بعدما زالت حلم فيڤر وشفق، ونسيهما الجميع. رآها مارش أكثر من عشر مرات، وصعد إلى ظهرها مرة. غرفة قيادتها محاطة بكل أنواع الزخرفة، وفوقها قبة أنيقة. لوحاتها وزجاجها، أخشابها المصقولة وأبسطتها كافية لكسر قلبه. المفترض أن تكون أفخم وأجمل باخرة بُنيت، بحيث تتضاءل كل البواخر إذا قورنَت بها. لكنها لم تكن سريعة بشكل خاص كما سمع مارش، وقيل إنها تخسر المال بسرعة مرعبة.

وقف عاقدًا ذراعيه على صدره، كئيبًا عابسًا في معطفه الأسود المهترئ، وراقب حماليه ينقلون إليها البضائع. الحمالون من السود، جميعًا. هذا تغيير آخر. كل حمالي النهر من السود الآن. رحل المهاجرون الذين يعملون حمالين وعمالًا في الموانى، لا يعرف مارش إلى أين رحلوا، وأخذ مكانهم العبيد المُحررون.

غنى الحمالون وهم يعملون أغنية حزينة. «الليل مظلم، النهار طويل، ونحن بعيدون عن الوطن. ابكِ يا أخي، ابك...» كان مارش يعرف الأغنية، ومنها مقطع آخر يقول: «انقضى الليل، وانتهى النهار، وها نحن عائدون إلى الديار. صِح يا أخي، صِح». لكنهم لا يغنون هذا المقطع. ليس الليلة وهم ينقلون البضائع إلى باخرة جديدة رائعة، لكنها لا تجني مالًا كافيًا. رؤيتهم والاستماع إليهم جعلا أبنر مارش يشعر كأن النهر يُحتضر وهو يموت معه. لقد شهد ليالي مظلمة بما يكفي، وأيامًا طوالًا لا تنقضي، ولم يعد واثقًا حتى من أن له ديارًا.

ابتعد أبنر مارش ببطء عن الميناء متجهًا إلى الفندق. في اليوم التالي سرَّح موظفيه وطاقمه، وحلَّ شركة خط نهر فيڤر، وعرض إيلي رينولدز للبيع.

أخذ مارش ماله، وغادر سانت لويس، واشترى منزلًا صغيرًا في مدينة جالينا؛ مسقط رأسه، قرب النهر. لكنه لم يعد نهر فيڤر. منذ أعوام غيروا اسمه إلى نهر جالينا، والكل يطلق عليه هذا الاسم الآن.

للاسم الجديد معنى أفضل، كما يقول الناس. ظل مارش يستخدم اسم فيڤر كما كان يُدعى في طفولته.

لم يفعل الكثير في جالينا. قرأ كثيرًا من الصحف حتى صارت عادة لديه منذ كان يبحث عن چوشوا، وظل يتابع أخبار البواخر السريعة وأسماءها. ما

زال بعضها يُصنع. خرجت الباخرة روبرت إ. لي من ساحة بناء نيو ألباني عام 1866، وكانت سريعة بحق. يطلق عليها رجال النهر اسم بوب لي الجامح، أو بوب الخبيث.

دشن كابتن توم ليثرز –الملتوي القاسي الملعون كما يطلق عليه رجال النهر- الباخرة ناتشيز عام 1869، وهي السادسة التي تحمل الاسم نفسه. سمى ليثرز كل بواخره ناتشيز. الباخرة ناتشيز الأحدث هي الأسرع بينهم بحسب الصحف. تقطع الماء كالسيف، ويتباهى بها ليثرز أعلى النهر وأسفله، ويدعي أنه سيغيظ بها كابتن چون كانون وباخرته بوب لي الجامح. يستطيع مارش شم رائحة السباقات من أي مكان، وبدا السباق اللائح في الأفق مما سيتكلم عنه الناس سنوات.

قال مارش للمرأة التي استأجرها لتنظيف بيته: «سأود مشاهدة هذا السباق اللعين. لم يكن لأيهما فرصة لو واجهتا شفق رغم هذا. لكِ كلمتي».

قالت له مُشاكسة: «كلاهما في حال أفضل من عجوزتك شفق».

نخر مارش وهتف: «لا أقصد شيئًا. الأنهار أقصر الآن، وتقصر كل عام. قريبًا ستستطيعين قطع المسافة بين سانت لويس ونيو أورلينز مشيًا».

قرأ مارش ما هو أكثر من الصحف. الفضل لچوشوا في تذوقه الشعر، فبحث أيضًا عن الروايات. مارس حفر الخشب، وصنع لنفسه مجسمات تمثل بواخره، فقد كان يتذكرها جميعًا، وطلاها بكل التفاصيل، وراعى النسب الحقيقية، بحيث يمكنك صفهم لترى فارق الأحجام الحقيقي بينهم.

قال لمدبرة منزله فخورًا عندما أنهى نحت المجسم السادس: «هذه إليزابيث أ. ألطف باخرة أبحرت في النهر. كانت لتحرز أرقامًا قياسية لولا الجليد اللعين. هل ترين كم كانت كبيرة، بطول يناهز ثلاثمائة قدم؟ انظري كيف تبدو باخرتي نِك بيروت قزمة إلى جوارها؟ وهذه هي الباخرة فيڤر الحلوة، والباخرة دَنليث، واجهت مشكلات كثيرة مع محركها القديم. إلى جوارها ماري كلارك. انفجرت غلاياتها». ثم هز رأسه أسفًا وهو يضيف: «وقتلت الكثيرين. ربما كان الخطأ خطئي. لا أعرف. أفكر في الأمر أحيانًا. هذه الصغيرة هي إيلي رينولدز. لا تبدو رائعة، لكنها كانت فتاة قوية. استحقت ما أعطيتها وأكثر. هل تعرفين كم عاشت تلك القبيحة ذات عجلة الرفاسات الواحدة؟».

- لا، ألم تكن لديك باخرة أخرى؟ واحدة فخمة؟ سمعت...

- لا تكترثي لما سمعت. اللعنة. نعم. كان عندي باخرة أخرى. حلم فيڤر. أسميتها على اسم النهر.

أطلقت المرأة سبة، ثم قالت: «لا عجب أن هذه البلدة البائسة لن تتغير أبدًا ما دام أمثالك يدسون اسم فيڤر في كل شيء. سيظننا الناس جميعًا محمومون هنا. لماذا لم تسمها باسم النهر الصحيح؟ اسمه نهر جالينا الآن».

نخر مارش وهتف: «تغيير اسم النهر اللعين هو حماقة لعينة لم أسمع بها من قبل. اسمه نهر فيڤر وسيظل نهر فيڤر مهما قال العمدة اللعين. أو أقول لك ما هو الأفضل ليناسب اجتزاءهم للنهر من حين لآخر. لندعه إذًا شق مؤخرة جالينا!».

- ما هذه الألفاظ؟! رجل مثلك يقرأ الشعر لا بد أن يكون له لسان متحضر.

- لا شأن لك بلساني اللعين. ولا تتحدثي عن أمر الشعر في البلدة، أتسمعين؟ عرفت رجلًا يحب تلكم القصائد، ولهذا السبب معي الكتب. وكفي عن حشر أنفك في حياتي، ونظفي التراب عن بواخري.

- بالتأكيد. هل ستصنع مجسمًا للباخرة الأخرى؟ حلم فيڤر؟

جلس مارش على مقعد وثير وعقد حاجبيه: «لا، لا لن أصنع واحدًا. هذه باخرة أريد أن أنسى كل شيء عنها. أنهي التنظيف ولا تزعجيني بأسئلتك اللعينة الغبية».

ثم أمسك جريدة وبدأ يقرأ فيها عن الباخرة ناتشيز ومغامرات كابتن ليثرز الأخيرة، واستمرت مدبرة منزله في التنظيف المزعج.

لمنزله علية عريضة تُشرف على الجنوب. في المساء يصعد إليها مارش مع كأس خمر أو كوب قهوة وأحيانًا قطعة فطير. لم يعد يأكل كما كان، ليس منذ اندلاع الحرب. بدا له كل الطعام واحدًا. ظل رجلًا ضخمًا، لكنه فقد قرابة مائة رطل من وزنه أيام چوشوا وحلم فيڤر. تهدَّل جلده كأنه اشتراه مقاسين أكبر من جسده وتوقع أن ينكمش مع الغسل. يغمغم أحيانًا عندما ينظر إلى نفسه في المرآة: «هذا يجعلني أشد قبحًا مما كنت».

بجلوسه إلى جوار نافذة عليته، يستطيع مارش رؤية النهر. يمضي ليالي كثيرة بالأعلى، يقرأ، ويشرب، وينظر إلى الماء. النهر جميل في ضوء القمر، يجري أمامه، ويستمر في الجريان كما اعتاد من قبل أن يولد، وكما سيجري بعد موته ودفنه. رؤيته تجعل مارش يشعر بالسلام. أغلب الوقت يشعر بالحزن أو الضيق. أحب قراءة شعر كيتس الذي يقول فيه أن لا شيء أكثر حزنًا من موت الجمال، وبدا لمارش أحيانًا أن كل شيء جميل في حياته قد ذوى.

كان مارش وحيدًا أيضًا. لقد أمضى أغلب حياته في النهر فلم يكن له أصدقاء من جالينا. لم يزره أحد ولم يتحدث إلى أحد إلا مدبرة منزله اللعينة المثيرة للحنق. تظل تشاكسه طوال الوقت، لكن مارش لا يهتم. فهي كل ما تبقى له ليُبقي دماءه ساخنة. أحيانًا يظن أن حياته انتهت، فيغضب ويحمر وجهه؛ لقد كان لديه كثير لم يفعله، وكثير من الأمور التي لم يُنهها، لكن لا يمكن إنكار أنه يشيخ. اعتاد أن يحمل عصا المشي ليشير بها، ولأجل مسايرة الموضة، لكنه الآن يتكئ على واحدة ذات مقبض ذهبي تعينه على المشي. احتشدت التجاعيد على جانبي عينيه وحتى بين ندباته، وانتشرت النقاط البنية الغريبة على ظهر يده اليسرى. أحيانًا ينظر إليها ويتساءل كيف ظهرت، ثم يطلق السباب ويلتقط جريدة يقرؤها أو كتابًا.

كان مارش جالسًا في غرفة الاستقبال يقرأ كتابًا بقلم السيد ديكنز عن أسفاره عبر أنهار أمريكا، عندما جلبت له مدبرة منزله خطابًا. تعجب، وأنزل الكتاب وهو يغمغم: «بريطاني أحمق. أود لو أغرقه في النهر اللعين».

أخذ الخطاب ومزق ظرفه، وترك الأخير يسقط على الأرض. تلقِّي خطاب أمر لا يحدث له إلا نادرًا، لكن هذا هو الخطاب الأغرب، فهو مُرسل إلى شركة خطوط نهر فيڤر في سانت لويس وأُعيد إرساله إلى جالينا. فرد مارش الورقة المصفرة، فتهدجت أنفاسه. الورقة قديمة يتذكرها جيدًا، وقد أمر بطبعها منذ ثلاثة عشر عامًا لتوضع نسخة منها في كل غرفة من غرف باخرته. الطرف العلوي من الورقة منقوش برسم باخرة عظيمة ذات رفاسات جانبية، واسم «حلم فيڤر» مكتوب بخط مزخرف تحتها. هو يعرف جيدًا اليد التي كتبت هذا الاسم بهذا الخط النضيد. الرسالة قصيرة:

عزيزي أبنر...

لقد اتخذت قراري.

إن كنت بخير وموافق، قابلني في نيو أورلينز في أسرع وقت. ستجدني في الشجرة الخضراء، في شارع جالاتين.

چوشوا

هدر مارش: «لعنه الرب في الجحيم! بعد هذا الزمن يظن هذا الأحمق أنه يستطيع إرسال رسالة لعينة إليَّ يطلب مني قطع كل هذه المسافة اللعينة إلى نيو أورلينز؟ حتى دون كلمة تفسير واحدة! من يظن نفسه بحق الجحيم؟!».

قالت مدبرة المنزل: «أنا واثقة من أنني لا أعرف!».

هب أبنَر مارش واقفًا وهتف: «يا امرأة، أين وضعت سترتي البيضاء بحق الجحيم؟».

***

واحد وثلاثون



نيو أورلينز
مايو 1870

يبدو شارع جالاتين في الليل كطريق رئيسي إلى الجحيم. هكذا رآه أبنَر مارش وهو يهرع فيه بين قاعات الرقص والحانات وبيوت البغاء. كل هذه الأماكن مزدحمة، قذرة. الأرصفة تعج بالسكارى والغواني والمجرمين. نادته الغواني وهو يسير، دعواتهن الساخرة تحولت إلى سباب عندما تجاهلهن. الرجال الأشداء ذوو الأعين الباردة والسكاكين والقبضات النحاسية يعترضونه، وتمنى مارش لو لم يكن يبدو بهذا التهدل والشيخوخة.

عبر الشارع ليتفادى العصابة الواقفة أمام ملهى ليلي، يتحرشون بالمارة، فوجد نفسه أمام الشجرة الخضراء.

والشجرة الخضراء مرقص كأي مرقص آخر، حفرة جحيم محاطة بحفر جحيم أخرى. دفع مارش نفسه إلى الداخل المزدحم، الملوث بالدخان، المعتم. يتحرك الراقصون في أزواج وسط الظلال، يتمايلون على أنغام الموسيقى الصاخبة. أحد الرجال الضخام كان يذرع حلبة الرقص مع امرأة نصف واعية، يعتصر نهديها من فوق فستانها الخفيف وهو يسندها ويجرها معه. تجاهله الراقصون الآخرون. في الأرجاء راقصات محترفات في فساتينهن الشفافة القديمة وسراويلهن الداخلية المثقَّبة. بينما مارش ينظر، رمى الضخم شريكته على الأرض وتمدد فوقها وسط الضحكات. سبَّ وقام واقفًا، وظلت المرأة ملقاة مكانها. بينما الضحكات مستمرة، قبض على مقدمة فستانها وجذبها، فتمزق القماش، فرمى ملبسها بعيدًا. لم تكن تلبس شيئًا تحته إلا حزامًا تضعه حول فخذها اللحيمة، تدس فيه خنجرًا صغيرًا، مقبضه وردي على شكل قلب. بدأ الرجل يفتح أزرار سرواله عندما باغته حارسان ضخمان

يدسان أصابعهما في قبضات نحاسية، ويحملان هراوات. شتمهما الضخم وهو يترنح، ثم حمل المرأة على كتفه وخرج بها وسط الضحكات.

همس في أذن مارش صوت أنثوي ناعس: «هل تود أن ترقص يا سيدي؟». فالتفت خلفه وشهق. لا بد أن المرأة في مثل وزنه. بيضاء، عارية كيوم وُلِدت إلا من حزام جلدي يتدلى منه سكينان. ابتسمت وداعبت خد مارش قبل أن يبتعد عنها بسرعة وسط الزحام.

دار حول القاعة بحثًا عن چوشوا. في ركن صاخب بعينه رجال مجتمعون حول صندوق خشبي، يتجشؤون ويشتمون وهم يتابعون مصارعة فأريْن. حول المشرب رجال مدججون بالسلاح. غمغم مارش بالاعتذار وهو يبعد رجلًا غريب المظهر مسلحًا، يتحدث إلى قصير مسلح آخر. ظل الأول يرمق مارش في ضيق، حتى صاح الآخر بشيء جذب انتباهه إلى الحوار.

طلب مارش الوسيكي وهو يميل مستندًا إلى المشرب. قال له الساقي: «هذه الخمر ستثقب معدتك يا أبنَر». صوته هادئ عميق، يخترق الأذن مباشرة إلى العقل. ترك مارش فمه ينفتح والرجل خلف المنضدة يبتسم له، لابسًا سروالًا من قماش منسوج، يثبته إلى جسده بحمالتين من الحبال، وقميصًا أبيض تحول إلى الرمادي من شدة القذارة، وصدرية سوداء. لكن الوجه ما زال كما كان منذ ثلاثة عشر عامًا. شاحب، بلا تجاعيد، مؤطَّر بشعر أبيض صار مشعثًا الآن. بدت عينا چوشوا يورك كأنما تبرقان وسط ظلام المرقص. مد يده عبر المنضدة، وقبض على ذراع مارش وهو يقول متعجلًا: «هيا إلى أعلى حيث نستطيع أن نتحدث».

دار حول المنضدة، فنظر إليه الساقي الآخر ذو وجه العرسة وسأله: «إلى أين أنت ذاهب بحق الجحيم؟ عُد إلى مكانك وصب لهم الويسكي!».

قال له چوشوا: «أنا مستقيل».

- مستقيل؟! سأشق حنجرتك!

- حقًّا؟

وانتظر ينظر حوله إلى القاعة الصامتة، يتحداهم جميعًا بنظراته. لم يتحرك أحد. قال لعشرات الحراس الواقفين خلف المشرب: «سأكون مع صديقي بالأعلى إن أراد أحد محاولة شق حنجرتي». ثم قاد مارش ممسكًا بكوعه عبر حشد الراقصين إلى سلم خلفي ضيق. بالأعلى ردهة قصيرة

مضاءة بمصباح كيروسين واحد متراقص الضوء، تصطف على جانبيها الغرف، يخرج من خلف أبوابها أصوات نخير وأنين. باب واحد كان مفتوحًا، ورجل ممدد أمامه، نصفه داخل الغرفة ونصفه خارجها. لاحظ مارش وهو يخطو فوقه أنه الرجل الضخم الفظ الذي كان بالأسفل. سأل مارش: «ماذا حدث له بحق الجحيم؟».

- يبدو أن بريچيت أفاقت، فضربته حتى فقد الوعي وسرقته. يا لها من عزيزة. أعتقد أنها قتلت أربعة رجال على الأقل بسكينها الصغيرة. إنها تجيد التصويب إلى القلب. لو جئنا إلى القتل يا أبنَر، بنو جنسي ليس لديهم الكثير مما يعلمونكم إياه.

فتح چوشوا باب غرفة خالية وقال: «هنا بعد إذنك». ثم أغلق الباب خلفهما بعدما أضاء المصباح.

جلس مارش على الفراش وهو يغمغم: «اللعنة. يا له من مكان استدرجتني إليه يا چوشوا. المكان أسوأ مما كانت عليه ناتشيز أسفل التل منذ عشرين أو ثلاثين عامًا. اللعنة عليَّ إن كنت قد أتصور وجودك في مكان كهذا».

ابتسم چوشوا يورك وجلس بدوره على مقعد ذي مسندين كالحين.

- ولن يتصور بيلي الشرس أو چوليان هذا أيضًا. هذه هي الفكرة. إنهما يبحثان عني. أعرف هذا. حتى لو فكرا في تفتيش شارع جالاتين، سيكون صعبًا. سيُهاجم چوليان لأجل مظهره الثري، وسيعرفون بيلي بالنظر. لقد أخذ نساء كثيرات ولم يعدهن. الليلة في الشجرة الخضراء رجلان على الأقل مستعدان لقتله لحظة رؤيته. الشوارع بالخارج مملوكة لعصابة أولاد البلوط الذين قد يضربون بيلي حتى الموت لمجرد التسلية، إلا إذا قرروا مساعدته. حتى الشرطة لن تأتي إلى شارع جالاتين. أنا آمن هنا أكثر من أي مكان آخر، وحركتي غير الملحوظة في الليل لا تجذب الانتباه.

قال مارش في نفاد صبر: «المهم. أرسلت إليَّ خطابًا وذكرت فيه أنك اخترت. أنت تعرف لماذا سأحضر، لكنني لست واثقًا من سبب مراسلتك. ربما الأفضل أن تخبرني».

- بالكاد أعرف من أين أبدأ. لقد مر وقت طويل يا أبنر.

- على كلينا.

ثم لانت نبرة مارش وهو يضيف: «لقد بحثت عنك يا چوشوا سنوات لعينة طويلة لا أعرف عددها. حاولت العثور عليك وعلى باخرتي، لكن النهر امتد أمامي إلى ما لا نهاية، ولا وقت أمامي ولا مال».

- حتى لو كان لديك كل المال والوقت في الدنيا يا أبنر، ما كنت لتعثر علينا في النهر. طوال ثلاثة عشر عامًا الماضية، ظلت حلم فيڤر على البر، مخفية خلف أحواض النيلة القديمة في مزرعة چوليان، على بعد خمسمائة ياردة من المرفأ، مخفية تمامًا.

- كيف بحق الجحيم...

- دعني أبدأ من البداية وسأخبرك كل شيء. يجب أن أعود إلى ثلاثة عشر عامًا مضت، منذ الليلة التي رحلت فيها عنك.

- أتذكر.

- عدت إلى النهر بأسرع ما أمكنني، أتحرق إلى العودة، وأخشى أن يباغتني الظمأ الأحمر. السفر كان عسيرًا، لكني وصلت إلى حلم فيڤر في الليلة الثانية بعد افتراقنا. كانت قد ابتعدت قليلًا، ووقفت بعيدًا عن الشاطئ، تجري المياه السوداء حولها وتحتها. كان الجو باردًا والليل مضببًا عندما اقتربت منها. بدت مظلمة ميتة، لا ينبعث منها بخار أو دخان أو لهب. ساكنة تمامًا حتى كدت أفوِّتها وسط الضباب. لم أكن أريد أن أعود، لكني مجبر. سبحت نحوها.

تردد هنيهة قبل أن يُكمل: «أنت تعرف يا أبنر نوع الحياة التي عشتها. لقد رأيت وارتكبت شنائع كثيرة، لكن لم يؤهلني أيها لرؤية الباخرة كما رأيتها تلك الليلة».

جمد وجه مارش وهو يقول: «أكمِل!».

- قلت لك من قبل إنني ظننت دامون چوليان مجنونًا.

- أتذكر هذا.

- مجنون يائس يحلم بالموت. وقد أكد هذا. أوه، نعم، لقد أكد هذا. عندما صعدت إلى الباخرة الهادئة كالقبر. لا صوت ولا حركة إلا صوت خرير النهر. جُلت في أرجاء الباخرة وحدي.

كانت عيناه مثبتتين على أبنر مارش، لكن شاردتان كأنه يرى شيئًا آخر أمامه.

- أخبرني يا چوشوا.

- الباخرة كانت عبارة عن مذبحة يا أبنر.

ترك العبارة معلقة بينهما للحظة، قبل أن يكمل: «الجثث في كل مكان، في كل مكان. سرت عبر الطابق الرئيسي، ووجدت جثثًا، بين البضائع وخلف المحركات. أشلاء هنا وهناك، أذرع، سيقان، أعضاء أخرى ممزقة من... من العبيد والعمال الذين جلبهم بيلي الشرس، أغلبهم مُكبل بعد، وحلوقهم ممزقة. المهندس معلق مقلوبًا فوق الأسطوانات ومبقور الـ... لا بد أنه نزف الكثير في... كأن دماءه حلت محل زيت المحرك». هز رأسه في أسف وأضاف: «عدد الموتى يا أبنر. لا يمكنك تخيله، ولا تخيل كيف مُزِّقوا ومُثِّل بهم. تزايد الضباب حول الباخرة فلم أكن أرى المشهد كاملًا. مشيت، جُلت، التفاصيل تظهر فجأة أمامي حيث كان الضباب يغطي بصري منذ لحظة، فأرى الرعب المخفي، أبتعد، أمشي، فأجد بالضباب ينقشع بعد خطوتين عن فظائع أخرى. وأخيرًا، وبقلب حانق محموم بالغضب، صعدت الدرج الرئيسي إلى طابق الغلايات. القاعة الرئيسية، كانت مثل باقي الأماكن. جثث وأشلاء. دماء بللت البساط حتى ظل مبللًا وقت وصولي. في كل مكان آثار صراع. عشرات المرايا المكسورة، أربع أبواب غرف مهشمة، مناضد مقلوبة. على منضدة سليمة رأس بشري في طبق فضي. لم أر رعبًا مثل الذي رأيته وأنا أقطع القاعة، ثلاثمائة قدم من الفظاعة. لا شيء يتحرك في الظلام ووسط الضباب. لا شيء حيًّا. ذرعت الباخرة جيئة وذهابًا ولا أعرف ماذا أفعل. توقفت قرب مبرد الماء؛ ذلك الوعاء الفضي المزخرف الذي وضعته أنت قرب نهاية القاعة. كان حلقي جافًّا. أمسكت كوبًا فضيًّا وأدرت مقبض الصنبور، نزل الماء ببطء يا أبنر، ببطء شديد. حتى في حلكة القاعة رأيته داكنًا مخيفًا، نصف متجلط. وقفت والكوب في يدي أنظر حولي كأنني أعمى، تفعم أنفي الرائحة. الرائحة الرهيبة، أعتقد أنك تفهم وتتخيل. وقفت وسط كل هذا أرمق الهول الذي يقطر من الصنبور. شعرت كأنني أختنق. رعبي، غضبي، شعرت بهما يفوران في نفسي. رميت الكوب عبر القاعة وصرخت. وبدأت الأصوات تتصاعد. همسات، طرقات، أصوات توسل، انتحاب، تهديدات. أصوات يا أبنر، أصوات أحياء. نظرت حولي وغثياني يتزايد وكذلك غضبي. دستة غرف على الأقل مغلقة بالمسامير، قاطنوها مسجونون فيها، ينتظرون الليلة أو التي تليها. قطيع چوليان. ارتجفت وأنا أتحرك نحو أقرب الأبواب، وأنتزع الألواح التي تثبتها.

انخلعت مصدرة صوتًا كأنه صرخة لوعة. كنت أكمل ما أفعل عندما سمعت مَن يقول: «عزيزي چوشوا. لا بد أن تتوقف. عزيزي چوشوا الضال. عُد إلينا». استدرت فرأيت چوليان يبتسم لي، وبيلي إلى جواره، والآخرون خلفهما. كل الآخرين حتى أصدقائي؛ سيمون وسميث وبروان، كل من تبقى منهم ينظرون إليَّ. صرخت فيهم جميعًا صرخة حارة مدوية. لقد كانوا قومي، أصدقائي، ومع ذلك فعلوا هذا؟! امتلأت روحي بذلك البُغض يا أبنر. بعد أيام تلت، سمعت القصة كلها، وعرفت مدى عمق جنون چوليان. ربما الخطأ خطئي. بإنقاذي لك ولتوبي والسيد فرام جلبت كل هذا الموت على أكثر من مائة راكب بريء».

نخر مارش ثم قال: «لا تقل هذا. مهما كانت بشاعة ما حدث، چوليان هو السبب، وعليه تحمل هذا الوزر. أنت حتى لم تكن هناك، لذا لا تلم نفسك. هل تسمعني؟».

- هكذا قلت لنفسي كثيرًا. دعني أنهي القصة. ما حدث هو أن چوليان استيقظ في تلك الليلة ليجدنا قد رحلنا. ثار. غضب. الكلمات لا تصف ما شعر به وقتها. ربما ما استيقظ فيه هو الظمأ الأحمر بعد كل تلك القرون، بعدما شعر أن تدميره صار قريبًا. رحل كل قباطنته، ولن تتحرك الباخرة. لا بد أنه عرف أنك تنتوي العودة لمهاجمته صباحًا وقتله، لكنه لم يكن ليتوقع أنني أنا الذي سأعود، لكن لإنقاذهم. لا شك أن خيانتي وهرب ڤاليري ملآه خوفًا وقلقًا مما سيحدث لاحقًا. فقد السيطرة. لقد كان سيد الدماء، ومع ذلك تصرفنا على غير رغبته. لم يحدث هذا على مر تاريخ قوم الليل. أعتقد أن دامون چوليان رأى في تلك الليلة الموت الذي يتوق إليه ويخشاه. عرفت لاحقًا أن بيلي الشرس ألحَّ في أن يعودوا إلى البر ويفترقوا، فيجوبوا البلاد منفردين، على أن يلتقوا مرة أخرى في ناتشيز أو نيو أورلينز أو أي مكان مشابه. هذا منطقي، لكن تفكير چوليان تعدى حدود المنطق. دخل القاعة الرئيسية وجنونه يتأجج في عينيه. عندما جاءه راكب يشكو تأخر الباخرة عن مواعيدها، وأنها لم تتحرك طوال اليوم، قال له: «آه، لا بد إذًا أن نتحرك على الفور». ونقلها إلى نقطة بعيدة بحيث يعجز أي شخص عن الوصول إلى الضفة. عندما أتمَّ ذلك، عاد إلى القاعة الرئيسية حيث يتناول الركاب عشاءهم، واتجه إلى الساقي وقتله أمام الجميع. وبدأت المذبحة. صرخ الناس بالطبع، وحاولوا الفرار،

واختبؤوا، وأغلقوا على أنفسهم الغرف، لكن لم يكن لهم من مكان يذهبون إليه. استخدم چوليان قدراته وصوته وعينيه، وأرسل الرفاق إلى القتل. كان على متن حلم فيڤر ليلتها مائة وثلاثون راكبًا، وعشرون من قومي، بعضهم دفعه الظمأ الأحمر، وبعضهم تحكم فيه چوليان. لكن الظمأ قد يكون غير محتمل في ظروف كهذه. كأنه حمى تنتقل من واحد إلى آخر حتى استعروا جميعًا. اشترك المجرمون الذين جلبهم بيلي الشرس من ناتشيز أسفل التل في المذبحة. قال لهم إن كل هذا جزء من خطة قتل الركاب وسرقتهم، ووعدهم بنصيبهم من الغنيمة. ثم انقلب قومي على مساعديهم البشريين. حدث هذا بينما أنا وأنت نتكلم تلك الليلة الأخيرة يا أبنر. الصرخات والتوسلات ومذبحة چوليان. لم تسر الأمور كما أراد بالضبط، فقد قاوم الركاب، وقيل لي إن كل قومي أصيبوا، لكنهم بالطبع شُفوا. أطلق الرصاص على عين ڤينسنت، ومات. أمسك إطفائيون كاثرين وأحرقوها في الفرن حتى ماتت قبل أن يتدخل كُرت وآلين. لذا، لقي اثنان من قومي حتفهما. اثنان منا مقابل مائة من قومك. أما الأحياء فقد حُبسوا في غرفهم. بعدما انتهت المذبحة، جلس چوليان وانتظر. ملأ الخوف الآخرين ورغبوا في الهرب، لكن چوليان لم يسمح بهذا. أعتقد أنه أراد أن يُكتشف. قيل لي إنه تكلم عنك يا أبنر.

- أنا؟!

- قال إنه وعدك بأن النهر لن ينسى باخرتك حلم فيڤر. ضحك وهو يؤكد أنه أوفى بوعده على أكمل وجه.

تصاعد الغضب إلى صدر مارش، لكنه قال بهدوء عجيب: «لعنه الرب في الجحيم!».

- بالطبع لم أكن أعرف أيًّا من هذا عندما عدت إلى حلم فيڤر تلك الليلة. عرفت مما رأته عيناي وشممته وخمنّته وفهمته. رُحت أمزق الألواح الخشبية كالمجنون حتى وصل چوليان، وفجأة صرخت. رغبت في الثأر وفي قتله ببشاعة كما لم أرغب في قتل أحد من قبل. أردت تمزيق عنقه الأبيض وتذوق دمه اللعين! الكلمات أضعف من أن تصف غضبي. انتظر چوليان حتى توقفت عن الصراخ، ثم قال بهدوء: «ثمة لوحان متبقيان بعد يا چوشوا. انتزعهما وأخرجه. لا بد أنك ظمآن». لم أقل شيئًا بينما ضحك بيلي. أضاف چوليان: «هيا يا چوشوا. الليلة تنضم

إلينا حقًّا، كيلا تهرب مرة أخرى. هيا يا عزيزي چوشوا. حرره. اقتله». والتقت أعيننا، فشعرت بقوتها إذ تجذبني إلى ما بداخله، تحاول إرغامي على طاعته. بمجرد أن أذوق الدم مرة أخرى سأكون ملكه، جسدًا وروحًا، للأبد. لقد كسرني مرارًا وأرغمني على الركوع أمامه، وأجبرني على السماح له بشرب دمي، لكنه لم يجبرني من قبل على القتل. كانت هذه آخر حماية لنفسي ولمعتقداتي ولما أحاول فعله، والآن عيناه تمزقان هذه الحماية التي تخفي وراءها الذعر والموت والدم، وليالي خاوية طوال ستبتلع حياتي القادمة».

توقف چوشوا يورك عن الحكي وأشاح بنظره. في عينيه شيء غير واضح، ورأى مارش لدهشته يدي چوشوا ترتعشان، فقال: «چوشوا. مهما حدث، فقد مر عليه ثلاثة عشر عامًا، ومثله كمثل مَن آذيتهم في الماضي. لم يكن لك خيار على الإطلاق. أنت من أخبرتني أن حرية الاختيار هي ما تفرق بين الخير والشر. أنت لست چوليان، حتى لو قتلت ذلك الرجل».

نظر إليه چوشوا مباشرة وابتسم له ابتسامة غريبة وهو يقول: «أنا لم أقتل ذلك الرجل يا أبنر».

- حقًّا؟ لماذا إذًا...

- قاتلت. كنت جامحًا يا أبنر في قتالي. نظرت إلى عينيه وتحديته. قاتلته، وفي هذه المرة انتصرت. وقفنا يحدق أحدنا إلى الآخر عشر دقائق كاملة، حتى استسلم وهو يزأر ويتراجع إلى غرفته ومن خلفه بيلي الشرس. وقف باقي قومي ينظرون إليَّ ذاهلين. خطا رايموند أورتيجا إلى الأمام وتحداني. خلال أقل من دقيقة كان راكعًا أمامي وهو يردد مطرق الرأس: «سيد الدماء». بعد ذلك ركع الباقون واحدًا تلو الآخر. أرماند وكارا وسينثيا وحتى كُرت. كلهم. بدا على وجه سيمون الانتصار، وكذلك الآخرون. لقد كانت فترة سيادة چوليان وبالًا على أغلبهم. والآن قد تحرروا. لقد هزمت چوليان رغم قوته العاتية وعمره الطويل. صرت قائد قومي مرة أخرى. أدركت وقتها أنني واجهت اختيارين. لو أنني لم أتصرف بسرعة، لانكشف أمر ما حدث في حلم فيڤر، ولقُتِل قومي جميعًا.

- وماذا فعلت؟

- عثرت على بيلي الشرس خارج غرفة چوليان، حائر قلق. وليته إدارة الطابق الرئيسي، فقد عمل على متن الباخرة وصار من طاقمها، وطلبت من الآخرين إطاعته. وعملوا جميعًا تحت إمرة بيلي نصف المذعور حد الموت، حتى تصاعد البخار أخيرًا. زودنا أفرانها بالأخشاب والشحم والجثث. هذا شيء مريع، أعرف، لكن كان علينا التخلص من الموتى، ولن يمكننا التوقف في أي مكان دون مخاطرة. صعدت إلى مقصورة القيادة وتوليت الدفة. بالأعلى –على الأقل- لم يمت أحد. أبحرنا وكل الأضواء مطفأة كيلا يرانا أحد وسط الضباب. أحيانًا كنا نحتاج إلى استطلاع ما أمامنا، ثم الزحف ببطء، وأحيانًا أخرى كنا نطفو منطلقين بنعومة وسرعة. مررنا ببواخر أخرى في الظلام، أطلقت صافرتنا فردُّوا علينا بصافراتهم، لكن لم يقترب أحد ليقرأ اسم الباخرة. كان النهر شبه خال تلك الليلة بسبب الضباب، وأنا قبطان متهور، لكني لم أرد أن ينكشف أمرنا بالمخاطرة. عندما بزغ الفجر كنا بعد في النهر. لم أتركهم ليرتاحوا. فرد بيلي الأقمشة المُشمعة للحماية من الشمس، ومكثت أنا في مقصورة القيادة. عبرنا نيو أورلينز قبل الظهر، وأكملنا إلى الجنوب ثم انعطفنا إلى الجدول الضحل الضيق، وكانت هذه هي أصعب مرحلة من الرحلة. أخيرًا وصلنا إلى مزرعة چوليان القديمة، وقتها فقط سمحت لنفسي بالعودة إلى غرفتي والاحتماء في ظلامها. احترقت بشرتي بقوة مرة أخرى، ويبدو أن الاحتراق صار من عاداتي. في الليلة التالية مسحت مزرعة چوليان. كنا قد ربطنا الباخرة إلى المرفأ القديم البالي، لكنها ستثير الشكوك. إن كُتب لك أن تأتي إلى أرض السرو، سوف تجدها بسهولة. كرهت أن أدمرها إذ ربما نحتاج إليها في التحرك، لكني كنت أعرف أيضًا أن الأفضل لو اختفت. وجدت إجابتي سريعًا. كانت المزرعة مُكرسة من قبل لاستخلاص صبغة النيلة، ولم يستخلص چوليان أو يزرع شيئًا على الإطلاق، لكن جنوب المنزل وجدت أحواض نيلة قديمة ضخمة على ممر مائي موصول بالجدول. الممر المائي راكد تنبت فيه البوص، نتن الرائحة، لكنه بعرض كاف يسمح بعبور حلم فيڤر، لكنه ليس عميقًا، لذا قررت أن أحفره أكثر لأزيد عمقه. أنزلنا حمولة حلم فيڤر وبدأنا ننظف الممر ونقطع الأشجار حوله. أمضينا شهرًا من العمل الليلي المستمر يا أبنر حتى استطعت قيادة الباخرة من الجدول إلى الممر المائي بصعوبة

شديدة، وحشرها فيه حتى احتك باطنها بالقاع، لكنها صارت مخفية تمامًا. خلال الأسابيع التالية، ردمنا مدخل الممر المائي الموصول بالجدول، ثم نزحنا الماء من حولها. خلال شهر آخر صارت حلم فيڤر فوق اليابسة الطينية، محاطة بالسرو والبلوط، ولم يعد في إمكان أحد أن يخمن وجود ممر مائي هنا في الماضي.

عبس مارش وهو يقول مستنكرًا: «هذه ليست نهاية لعينة تليق بباخرة، ناهيك بحلم فيڤر. إنها تستحق ما هو أفضل».

- أعرف. لكن تأمين قومي كان نصب عينَيَّ. لقد اخترت يا أبنر، وعندما أنجزت ما اخترته ارتحت وشعرت بالنصر الحقيقي. لن يعثر علينا أحد الآن. أحرقنا أغلب الجثث ودفنا ما تبقى. لم يعد أحد يرى چوليان منذ ليلة انتصاري عليه، ولم يعد يخرج من غرفته إلا للطعام. بيلي الشرس هو الوحيد الذي يتحدث معه، لكنه كان مذعورًا مني، مطيعًا لي. تبعني الآخرون وشربوا معي من عقاري بعدما أمرت بيلي بإخراج مخزوني من غرفة چوليان ونقله إلى المشرب في القاعة الكبرى. شربنا كل ليلة مع العشاء. ظلت مشكلة واحدة أمامي قبل أن أنتقل إلى التفكير في مستقبل قومي؛ أسرانا، الركاب الذين نجوا من المذبحة. ظلوا محبوسين خلال الرحلة وأيام عملنا في المزرعة، لكن لم يؤذَ أيهم. كنت أتأكد من إطعامهم ومعاملتهم بالحسنى. حاولت الحديث معهم بالعقل، لكن لم يفلح هذا. بمجرد أن دخلت غرفهم أصيبوا بالهستيريا والذعر. لم أكن من مشجعي سجنهم بالطبع، لكنهم رأوا كل شيء، والإفراج عنهم سيهدد أمننا. ثم حُلَّت المشكلة. في ليلة ظلماء، غادر دامون چوليان غرفته. كان يعيش على متن الباخرة بعد، هو ومن كانوا مقربين منه. كنت على البر ليلتها مع آخرين، نعمل على إصلاح المنزل الذي سمح لنا چوليان باستخدامه وهو مرغم. عندما عدت إلى حلم فيڤر، وجدت اثنين من أسرانا قد أُخرِجا من غرفهما وقُتِلا. كان رايموند وكُرت وأدريان جالسين في القاعة الكبرى حول الجثتين، وچوليان مُنكبًّا عليها.

هتف مارش: «اللعنة يا چوشوا. كان الأفضل لو قتلتهما وقت كانت لديك فرصة».

وافقه چوشوا يورك ففوجئ أبنر بهذا. أكمل الأول: «هذا صحيح. ظننتني قادرًا على السيطرة عليه. خطأ فادح. حاولت تلك الليلة تصحيح الخطأ. كنت

غاضبًا مشمئزًّا. تبادلنا كلمات قاسية، وقررت أن هذه ستكون آخر جرائم حياته الطويلة المتوحشة. أمرته أن يواجهني وأن يركع أمامي ويقدم لي من دمه مرة تلو الأخرى حتى يصير ملكي، حتى يستَنزف ويضعف ويُكسر ويصير بلا حول. لكنه قام وواجهني، و...».

ضحك چوشوا ضحكة يائسة، فسأله مارش: «وهزمك؟».

- بسهولة. كما كان يفعل من قبل باستثناء تلك الليلة. استجمعت كل شجاعتي وإرادتي وغضبي، لكني لم أستطع مضاهاته. لا أعتقد أن چوليان نفسه توقع هذا. چوشوا يورك، ملك مصاصي الدماء. لقد خذلتهم مرة أخرى. لم يصمد عرشي إلا شهرين، وطوال ثلاثة عشر عامًا الماضية ظل چوليان سيدنا.

سأله مارش وهو يعرف الإجابة، لكنه أمِل في أن يكون مخطئًا: «ماذا عن السجناء؟».

- ماتوا. تغذى عليهم واحدًا تلو الآخر خلال الأشهر التالية.

- ثلاثة عشر عامًا. يا له من وقت طويل يا چوشوا. لماذا لم تهرب؟ لا بد أن فرصة واتتك أو فرصتين.

- بل أكثر. أعتقد أن چوليان يفضِّل اختفائي. لقد كان سيد دماء منذ آلاف السنين. أقوى وأفظع مفترس سار على وجه الأرض، وقد استعبدته شهرين. لا أنا ولا هو تقبلنا انتصاري قصير العمر هذا، ولم ننسه. تقاتلنا كثيرًا على مر السنوات، وفي كل مرة يكاد چوليان يتخطى الأمر فيها، أرى في عينيه لمحة شك، خوف من أن أنتصر عليه تلك المرة، لكن هذا لم يحدث. ومكثت. إلى أين سأذهب يا أبنر؟ وماذا سأفعل؟ مكاني مع قومي. أملت في يوم أن أستعيدهم من قبضته. حتى في أثناء هزيمتي آمنت أن وجودي شوكة في ظهر چوليان. كنت دائمًا أطالب بحق في السيادة، ولم يطالب هو بشيء. لم يحاول دفعي للقتل. عندما قل مخزون مشروبي، جلبت أدوات وصنعت المزيد، ولم يتدخل چوليان. حتى إنه سمح لبعضهم بالانضمام إليَّ. سيمون وسينثيا وميشيل وعدد قليل آخر. شربنا معًا، وأخمدنا الظمأ. من جانبه، احتفظ چوليان بغرفته في الباخرة، ولم يكن يخرج منها إلا أحيانًا قليلة ولا يسمح بزيارة أحد إلا بيلي الشرس، ولمدة أسابيع متصلة، لكن وجوده خيم علينا. مرت السنوات على هذا النحو، وچوليان هائم في أحلامه، يحصل

على الدم مرة على الأقل شهريًّا. يذهب بيلي إلى نيو أورلينز، ويعود بضحية. أمة قبل الحرب، أو راقصة أو غانية أو أي امرأة يصادفها بعد الحرب. ازدهر چوليان في تلك الأيام، إن ساحات المعارك تمد قوم الليل بالضحايا، لكنها أيضًا خطرة. هاجمت كارا أحد جنود الاتحاد في نيو أورلينز، قتلته بالطبع، لكن كان معه رفاق، وكانت أول من يموت منا في الحرب. اعتقلوا فيليب وآلين للاشتباه فيهما وحُبِسا في زنزاتين في العراء حتى وقت الاستجواب. أشرقت الشمس عليهما وماتا. مات أرماند وچورچ ومايكل محترقين أيضًا. تراجع من تبقى منا إلى حلم فيڤر، وصارت دارنا من وقتها. مرت السنوات وبيني وچوليان هدنة من نوع ما. لم يتبق منا إلا دستة بالكاد، فانقسمنا. يشرب أتباعي عقاري، ويشرب أتباع چوليان الدم. سيمون وسينثيا وميشيل معي، والآخرون ملكه. بعضهم يظن أنه سيد الدماء، وبعضهم يحسبه كذلك. كُرت ورايموند أقوى حلفائه. وبيلي، بيلي آكل لحوم بشر يا أبنَر. لثلاثة عشر عامًا أقنعه چوليان بأنه يحوِّله إلى واحد منا، وبعد كل هذا الوقت ما زال الدم يُمرِض بيلي، لكنه الآن يأكل لحم البشر بشراهة، لكنه يطهوه أولًا. يرى چوليان أن هذا مسلٍّ.

- ليتك تركتني أقتله.

- ربما. لكن دون بيلي كنا لنموت في الباخرة في ذاك اليوم. عقله نابه، لكن چوليان تلاعب به كما تلاعب بكل من أنصت إليه. دون بيلي ستنهار حياة چوليان. بيلي من يذهب إلى المدينة ويجلب له الضحايا، بيلي من يبيع الفضة من الباخرة وكل ما يمكن بيعه للحصول على المال، وبشكل ما هو سبب لقائنا مرة أخرى.

- كنت لتفعل هذا عاجلًا أو آجلًا. لقد مكثت مع چوليان طويلًا دون أن تفسد أو تفعل ما يرغمك عليه. لكنك الآن هنا، وچوليان وبيلي يبحثان عنك. الآن فقط تكتب لي خطابك اللعين. لماذا الآن؟ ما الذي تغير؟

قبض چوشوا على مسندي مقعده وأجاب: «الهدنة التي ذكرتها انتهت. لقد أفاق چوليان مرة أخرى».

- كيف؟

- بيلي. بيلي هو حلقة الاتصال بيننا والعالم الخارجي. عندما يذهب إلى نيو أورلينز، يجلب معه الصحف والكتب، إلى جانب الطعام والخمر

والضحايا. ينصت بيلي أيضًا إلى كل الحكايات التي تشاع في المدينة وفي المواني على امتداد النهر.

- ثم؟

- أغلب هذه الحكايات دارت حول موضوع واحد، وامتلأت الصحف بذكره أيضًا. الموضوع محبب إلى قلبك يا أبنر. البواخر. باخرتان تحديدًا.

قال مارش: «ناتشيز وبوب لي الجامح». ولم يفهم ما يُلمِّح إليه چوشوا.

- بالضبط. قرأت الصحف وسمعت ما حكاه بيلي، وشعرت كأن السباق يقترب.

- نعم! قريبًا سيُقام. ليثيرز يفاخر بالأمر في كل مكان، وبدأ يقطع طريق تجارة الباخرة بوب لي كما سمعت. لن يوافق كابتِن كانون على مرور تحرش كهذا مر الكرام. سيكون سباقًا ملتهبًا. لكن لا أعرف ما علاقته بچوليان وبيلي وقوم الليل اللعينين.

ابتسم چوشوا وقال: «تحدث بيلي كثيرًا، مما أثار اهتمام چوليان، فتذكَّر يا أبنر الوعد الذي وعده لك. لقد أوقفته عند حده مرة، لكن من سيوقفه الآن؟».

- مذبحة أخرى؟

- سيعيد صنع المذبحة التي شهدتها من قبل. هذه المسألة بين ناتشيز وروبرت إ. لي جذبت انتباه الأمة. ذكرت الصحف أن الرهانات من أوروبا ارتفعت للغاية على هذا السباق. لو تسابقا من نيو أورلينز إلى سانت لويس، فيستمر السباق أربعة أيام. ثلاث أو أربع ليال يا أبنر. ثلاث أو أربع *ليال*!

أخيرًا فطن مارش إلى ما يلمح إليه چوشوا، وهبط عليه البرد من حيث لا يعرف.

- حلم فيڤر.

- عوَّموها مرة أخرى بعدما فتحو الممر المائي وملؤوه. يجمع بيلي الشرس المال، وفي نهاية هذا الشهر سيذهب إلى المدينة ويجمع لها طاقمًا ليساعدوه في تجهيزها ويبحروا بها عندما يحين الوقت. يظن چوليان أن هذا سيكون مسليًا. سيبحر بها إلى نيو أورلينز ويرسو بها هناك حتى موعد السباق. سيترك ناتشيز وروبرت إ. لي تغادران أولًا، ثم يلحق بهما. وعندما يخيم الظلام، سيقترب من الباخرة المتقدمة

ويتوقف إلى جوارها، ثم... أنت تعرف ما سيحدث. ستكون الباخرتان بلا ركاب أو حمولة، ولن تكون مهاجمتهما صعبة، وسيدفعنا جميعًا للمشاركة. أنا قبطانه.

ثم ضحك وأضاف: «أو كنت كذلك. أول ما سمعت جنونه هذا، تمردت عليه وخسرت أمامه مرة أخرى. في الفجر التالي سرقت حصان بيلي وهربت. ظننت أنني قد أغيظه بهربي. دون قبطان لن يمكنه الإبحار. بمجرد أن شفيت من حروقي، أدركت أن بيلي سيجلب له قبطانًا».

شعر مارش بعقدة في معدته. جزء من سبب هذه الحالة حنقه من خطة جوليان لتحويل حلم فيڤر إلى باخرة شيطانية، وجزء بسبب تعريف كانون وليثرز من تكون حلم فيڤر، وبل وتعريف العالم كله. قال مارش: «أي قبطان. تلك الباخرتان أسرع شيء في النهر اللعين يا چوشوا. لو سمح لهما بالإبحار قبله لن يلحق بهما ولن يقتل أحدًا».

- يرى چوليان أن هذا بالضبط ما يجعل الأمر مسليًا. لو بقيا أمامه ولم يلحق بهما ستنجوان، أما لو لم يستطيعا... يقول إنه يؤمن بباخرتك أشد الإيمان يا أبنر، وينتوي أن يذيع صيتها. بعد تدمير الباخرتين، يقول چوليان إننا سنهرب جميعًا إلى الشرق، إلى فيلادلفيا أو ربما نيويورك. ادعى دامون أنه مَلَّ النهر، والحقيقة أنه ملَّ الحياة. لو أكمل خطته ستكون نهاية بني جنسي.

نهض مارش عن الفراش وضرب بعصاه الأرض في غضب وهو يهتف: «لعنه الرب في الجحيم! ستلحق بهما. أعرف أنها ستفعل هذا. لو مُنِحت فرصة لكانت قد سبقت شفق نفسها. أقسم على هذا. لن تجد أي مشكلة في اللحاق بناتشيز وبوب. لن يفعل هذا بباخرتي. أقسم إنه لن يفعلها!».

ابتسم يورك ابتسامة خطرة، وعندما نظر مارش إلى عينيه، رأى الإصرار الذي رآه فيهما يوم التقيا في فندق بيت المزرعة، والغضب البارد الذي أخافه من يورك ذاك اليوم.

- لا، لن يفعلها. لهذا كتبت لك يا أبنر، وتمنيت أن تكون حيًّا بعد. فكرت مليًّا في هذا الأمر. لقد قررت. سنقتله. لا حل سوى هذا.

- يا للجحيم. لقد احتجت إلى وقت طويل للغاية للتوصل إلى هذه الحقيقة. لقد أخبرتك منذ ثلاثة عشر عامًا لعينًا. حسنًا. أنا معك. فقط... ما لم

نؤذ الباخرة. هل تسمعني؟ المشكلة الوحيدة في خطة چوليان اللعينة قتل الجميع. أما الباقي فلا مشكلة فيه. سيفاجأ كانون وليثرز مفاجأة لعينة لن يصدقاها.

- سنفعل كل ما نستطيع يا أبنر. أعدك أن أحاول الحفاظ على حلم فيڤر. حذر رجالك.

عقد مارش حاجبيه متسائلًا: «أي رجال؟».

خبت الابتسامة على وجه يورك وهو يجيب: «طاقمك. أظنك جئت إلى هنا على متن واحدة من بواخرك، ومعك رجالك».

تذكر مارش أن چوشوا أرسل خطابه إلى مكتب خط بواخر نهر فيڤر في سانت لويس.

- سُحقًا. لم يعد لدي أي بواخر يا چوشوا، ولا أي رجال. جئتك على متن باخرة، لكنني كنت راكبًا عاديًّا.

- كارل فرام. توبي. الآخرون. أين الرجال الذين كانوا معك في إيلي رينولدز؟

- مات من مات، ورحل من رحل. كدت أموت أنا شخصيًّا.

قال يورك واجمًا: «كنت أظننا سنهاجم نهارًا. هذا سيغير كل المخططات يا أبنر».

غام وجه مارش كأنه عاصفة رعدية موشكة.

- بالطبع. لكنه لا يغير من الواقع اللعين شيئًا. ربما كنت تظن أننا سنباغته بجيش، لكن لدي فكرة أفضل. سأموت في أي وقت يا چوشوا، ودامون چوليان لم يعد يخيفني. لقد اغتصب باخرتي سنوات طوالًا، ولا يعجبني ما فعله بها، وسأستعيدها أو أموت وأنا أحاول. كتبت في خطابك أنك اخترت. والآن ما هو الاختيار؟ ستأتي معي أو لا؟

أنصت چوشوا بهدوء إلى عبارات مارش الغاضبة، ثم عادت الابتسامة تدريجيًّا إلى وجهه الباهت. أخيرًا قال: «حسنًا. سنفعلها وحدنا».

***

اثنان وثلاثون



مزرعة چوليان، لويزيانا
مايو 1870

غادرا نيو أورلينز عند منتصف الليل، يقطعان الطرقات في عربة اشتراها چوشوا يورك. بدا الأخير أنيقًا ببدلته وعباءته البنية، كما كان في الماضي. جلس مارش في كآبة إلى جواره وهو يحث الخيل على العدو، يهتز ويتأرجح وهما يعبران فوق الوهدات والحفر، يقبض بقوة على مسدسه ذي ماسورتي الإطلاق، وجيباه منتفخان بالخراطيش.

انحرف چوشوا عن الشارع الرئيسي بمجرد أن خرجا من المدينة، ثم غادرا الطريق الثانوي بأسرع ما يمكن كي يتحركا بسهولة أكثر وسط الطرقات الخالية تمامًا الآن. تحولت الطرقات إلى أزقة ملتوية، تختلط فيها رائحة الأشجار ذات القمم المتشابكة، فبدت العربة كأنما تقطع نفقًا طويلًا أسود. أحيانًا تحجب الأشجار أي ضوء من القمر، فيشعر مارش للحظات أنه أعمى تمامًا، لكن لعيني چوشوا القدرة على الرؤية في الظلام.

عن بعد ظهرت بداية الجدول على يسارهما، والطريق يجري موزايًا إياه. أشرق القمر شاحبًا، تنعكس صورته على المياه السوداء الساكنة. تطير اليعاسيب وسط الليل الناعس، وينصت مارش إلى نقيق الضفادع العميق، ويشم رائحة زنابق الماء التي تنمو بكثافة على الضفاف. ربما تكون هذه آخر ليالي حياته، لذا استمتع بكل التفاصيل حلوها ومُرها.

نظر چوشوا يورك إلى الأمام محافظًا على تقدمهما السريع وسط الليل، وجهه جامد، شارد في خواطره الخاصة.

قرب الفجر، ظهر ضوء غامض عند الشرق، وبهت لمعان بعض النجوم، مرا بشجرة ميتة مكسوة بالطحلب الإسباني، خيوط الطحالب الداكنة تتدلى من أغصانها الجافة، وعند الأفق حقل. رأى مارش صف أكواخ على مبعدة، كأسنان سوداء نخرة، بالقرب منها بيت متداع، نوافذه الخاوية تحدق إليهما.

أوقف چوشوا يورك العربة وقال: «سنترك العربة هنا ونكمل سيرًا. المزرعة ليست بعيدة».

ثم نظر نحو الأفق، حيث ضوء الفجر ينتشر ببطء ويهزم النجوم.

- عند الشروق نهاجم.

نزل مارش بصعوبة عن العربة وهو يتأكد من وجود سلاحه ويقول: «سيكون يومًا رائعًا. ربما هو مجرد تافه مبهرج».

ابتسم چوشوا وهو يُنزل القبعة أكثر على عينيه ويقول: «مِن هنا. تذكر الخطة. سأكسر الباب وأواجه چوليان، وعندما يصب تركيزه كله عليَّ، أطلق النار على وجهه».

- لن أنسى بحق الجحيم. لقد كنت أطلق النار على هذا الوجه سنوات في أحلامي.

مشى چوشوا بسرعة، وبخطوات واسعة، وتحرك مارش بجهد كبير إلى جواره، محاولًا اللحاق بخطواته. ترك عصاه في نيو أورلينز، فقد شعر هذا الصباح -بخلاف كل الصباحات الماضية- أنه صار شابًّا مرة أخرى. الهواء بارد لطيف مفعم بالروائح، وسوف يستعيد سيدته مرة أخرى؛ باخرته حلم فيڤر.

جاوزا منزل المزرعة وأكواخ العبيد، وعبرا حقلًا آخر حيث كانت النيلة تُزرع مزهرة، حتى وصلا إلى أيكة عظيمة تداعب أغصانها المتدلية وجه مارش بنعومة كيد امرأة، ثم مساحة من غابات السرو والنباتات العشبية الأخرى من كل لون تنبت عند قواعدها. الأرض رطبة وتزداد رطوبة كلما توغلا. شعر مارش بالبلل يتسرب إلى داخل حذائه القديم.

انحنى چوشوا أسفل أستار الطحالب الإسبانية المتدلية من غصن منخفض ملتوٍ، فحذا مارش حذوه، وها هي...

قبض مارش على سلاحه وهو يهمس: «يا للجحيم!».

عادت المياه إلى القناة القديمة وغمرت ما حول حلم فيڤر، لكن لم تكن بالعمق الكافي، ولم تكن الباخرة طافية فيها، بل واقفة على خليط طين وطمي ورمال، ومقدمتها متجهة إلى أعلى، مائلة تجاه جانبها الأيسر عشر درجات. رفاساتها عالية جافة. كانت في الماضي بألوان الأبيض والأزرق والفضي، وأصبح أغلبها الآن رماديًّا بلون الأخشاب القديمة النخرة التي تعرضت للشمس والجفاف فترات طويلة. بدت كأن چوليان ومصاصي دمائه اللعينين قد امتصوا الحياة منها. فوق غطاء رفاساتها استطاع مارش أن يرى آثار الأحمر الماجن الذي طلاه بها بيلي الشرس، وحرفي ألف وواو باهتين من اسمها الأخير، وزال باقي الاسم وبدا من تحته الاسم القديم حيث تقشر الدهان.

رأى مارش هنا وهناك لطخات خضراء معلقة بأخشابها، ونظر إليها في هلع. الرطوبة والحر والعفن ينخرون في بدنها العزيز، والطحالب الإسبانية تتهدل من فوق مداخنها المعوجَّة بسبب ميل الباخرة، وتغطي مقصورة القيادة والصواري والأسوار، سلالمها الضخمة الفاخرة زلقة ملوثة بالعفن والطحالب، والأزهار البرية تنمو من شقوق الأخشاب قرب الأرض.

- اللعنة يا چوشوا! كيف تركتها حتى وصلت إلى هذه الحالة بحق الجحيم؟ كيف...

لكن صوته خانه، ولم يجد في صدره كلمات تصف مشاعره. وضع چوشوا كفه برفق على كتف مارش وهمس: «أنا آسف يا أبنر. لكني حاولت».

- أوه، أعرف. هو من حوَّلها إلى هذا. أفسدها كما أفسد كل شيء يلمسه. أعرف هذا، بل أنا واثق منه. كل ما أسأل عنه هو سبب كذبك عليَّ يا سيد يورك بشأن سباق الباخرتين. اللعنة، هذه الباخرة لن تذهب إلى أي مكان.

صار وجهه أحمر كالبنجر وهو يضيف بصوت مرتجف: «لعنة الرب عليهم جميعًا في الجحيم. سوف تظل هنا حتى تتعفن تمامًا، وأنت تعرف هذا!».

ثم أسكت نفسه قبل أن يصرخ ويصيح ويوقظ مصاصي الدماء اللعينين. قال چوشوا معترفًا بحزن عميق في عينيه: «أعرف هذا».

أشرقت الشمس من خلفه، فبدا أكثر شحوبًا وضعفًا وهو يُردِف: «لكني أحتاج إليك يا أبنر. لم أكذب بشأن كل شيء. چوليان خطط بالفعل لما أخبرتك

به، لكن بيلي قال له إن الباخرة في حالة سيئة، فتخلى عن الفكرة على الفور. باقي ما حكيت لك حقيقي».

قال مارش بصوت لا حياة فيه: «كيف أصدقك بحق الجحيم؟ بعد كل ما مررنا به، تكذب عليَّ. لعنك الرب في الجحيم يا چوشوا يورك. أنت شريكي اللعين، ومع ذلك كذبت عليَّ!».

- اسمعني يا أبنر. رجاء، دعني أفسر لك.

وضع چوشوا يده على جبينه ورمش.

- هيا... أخبرني. أنا أستمع لك عليك اللعنة.

- أنا في حاجة إليك. لا طريقة أهزم بها چوليان وحدي. أما الآخرون، حتى مَن في صفي، لن يستطيعوا الصمود أمامه. يمكنه أن يدفعهم لفعل أي شيء. أنت أملي الوحيد يا أبنر. أنت ورجالك الذين ظننتهم معك حتى الآن. يا لها من سخرية مقيتة. نحن قوم الليل عشنا آلاف السنين نصطاد قوم النهار، والآن أنا مضطر إلى اللجوء إليك لأنقذ بني جنسي. چوليان سيدمرنا. ربما تعفَّن حلمك وتآكل يا أبنر، لكن حلمي حي! لقد ساعدتك مرة ولم تكن لتبنيها دوني، والآن ساعدني.

- كان عليك فقط أن تطلب هذا. كان عليك أن تخبرني فقط بالحقيقة اللعينة.

- لم أكن واثقًا من أنك ستوافق على المجيء لإنقاذ قومي، لكنني كنت أعرف أنك ستأتي لأجلها.

- كنت سآتي لأجلك، عليك اللعنة. نحن شريكان، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟!

نظر إليه چوشوا وهز رأسه إيجابًا. حدق مارش إلى الحطام الرمادي المتعفن الذي كان يومًا باخرة مهيبة، ورأى طائرًا لعينًا قد بنى عشه على محركها. الطيور الأخرى ترفرف حول الأشجار، وتزقزق فيغيظ صوتها مارش إلى أبعد حد. نزل ضوء النهار على هيئة ألواح صفراء براقة تضيء الباخرة، تسبح فيها ذرات الغبار، ويسرق النور آخر الظلال من الليل، ويسحبها إلى ما تحت الأشجار. سأل مارش رفيقه مرة أخرى: «إن لم يكن الأمر بشأن سباق الباخرتين، فما الأمر؟ ما الذي يجعل اليوم مختلفًا عن أي يوم آخر في ثلاثة عشر عامًا الماضية؟ فجأة تهرع وتكتب لي خطابًا؟».

- سينثيا حُبلى. حُبلى بابني.

تذكر مارش ما حكاه يورك منذ سنوات، وسأله عاقدًا حاجبيه: «هل قتلتما أحدًا معًا؟».

- لا، أول مرة في تاريخنا، يخلو التناسل من تأثير الظمأ الأحمر. لقد تغذت سينثيا على عقاري سنوات حتى... حتى صارت مُهيَّئة جنسيًّا... حتى دون دماء أو حمى. استجبت لها. ما شعرت به كان قويًّا يا أبنر، أقوى من الظمأ، لكنه مختلف، أكثر نقاء. ظمأ للحياة لا للموت. ستموت عندما تلد، إلا لو تدخل قومك للمساعدة. لن يسمح چوليان بهذا أبدًا. ماذا عن الوليد؟ لا أريد أن يتحكم فيه دامون چوليان ويفسده. أريد لهذه الولادة أن تكون بداية جديدة لبني جنسي. لا بد أن أتصرف.

فكر مارش في أن مصاص دماء طفلًا على وشك الوجود في الحياة، والمفترض أن يخاطر بمواجهة دامون چوليان لأجل طفل قد يكبر ليصير دامون چوليان آخر. لكن ربما لا. ربما يكبر ليصير چوشوا. قال مارش: «إن كنت تريد أن تفعل شيئًا، فلماذا لسنا بالداخل بدلًا عن أن نثرثر هنا في كلام فارغ؟».

ثم وجَّه سلاحه نحو حطام الباخرة العملاق. ابتسم چوشوا يورك وقال: «أعتذر عن الكذب. لا مثيل لك يا أبنر. لك كل شكري».

غمغم مارش بحدة وقد أخجله امتنان چوشوا: «لا لزوم لهذا الكلام الآن».

خرج من ظل الأشجار إلى حلم فيڤر وأحواض استخلاص النيلة القديمة الجافة. عندما اقترب من الماء قبض الطمي على حذائيه، وأصدر صوت شفط فاضح وهو يحاول جذبهما. تأكد مارش مرة أخرى من أن المسدس ممتلئ بالطلقات، ثم بحث حتى عثر على لوح خشبي قديم، فأسنده إلى بدن الباخرة وتسلقه إلى الطابق الرئيسي. لحق به چوشوا بخفة وسرعة.

واجههما الدرج الكبير المؤدي إلى طابق الغلايات والغرف ذات الستائر التي يسكنها أعداؤهما، والقاعة الكبرى الكئيبة. لم يتحرك مارش على الفور.

- أريد أن أرى باخرتي.

واتجه إلى غرفة المحركات. كان البخار قد فجَّر غلايتين، والصدأ التهم المواسير. المحركات العظيمة صارت بنية وتفتت بعض أجزائها. خطا مارش بحذر كيلا تتسبب خطواته في تحطيم الأرضية الخشبية الهشة. مشى نحو

الأفران، بداخلها رماد قديم وأشياء أخرى مصفرة وبنية ومسودَّة هنا وهناك. مد يده وأخرجها ممسكًا عظمة.

- عظام في أفرانها؟ حتى طوابقها تتعفن. أغلال العبيد ما زالت على الأرض. يا للجحيم! يا للجحيم!

- لقد أخبرتك.

- أردت أن أراها فقط.

عادا إلى المقدمة المنيرة. نظر مارش إلى ما وراء كتفه، إلى المكان المظلم العفن الذي كان في يوم حلمه الوحيد. قال بألم: «ثماني عشرة غلاية ضخمة. لطالما أحب الأشيب هذه المحركات».

- هيا يا أبنر. يجب أن نفعل ما أتينا لأجله.

صعدا الدرج بحذر. الطحالب على الدرجات خبيثة الرائحة، زلقة. استند مارش إلى درابزين عريض، فانخلع في يده.

دخلا القاعة الكبرى، وفُجِع مارش من منظر الأقدام الثلاثمائة المتآكلة، اليائسة، المتحللة، وقد زال جمالها. البساط قذر مهترئ، أكلته الفطريات والعفن. تنتشر على سطحه بقع خضراء كالسرطان، تلتهم روح الباخرة. أحدهم طلى مسقط النور باللون الأسود. المشرب الرخامي الطويل مغطى بالتراب. أبواب الغرف مهشمة، وإحدى الثريات سقطت من السقف. مشيا حول أكوام الزجاج المهشم إلى جوار مرايا مشروخة أو مفقودة. كل شيء تحول إلى الأسود.

عندما وصلا إلى الطابق العلوي، سُر مارش بالنور ورؤية الشمس. مهاجع الطاقم أمامهم، أبوابها مغلقة تنتظر. سأل مارش: «هل يعيش بعد في غرفة الربان؟».

فأومأ جوشوا. صعدا الدرج القصير إلى الغرف، واتجها إلى الغرفة المقصودة. في ظل شرفة المهاجع، رأيا بيلي تيبتون الشرس ينتظر.

لم يتعرف عليه مارش للوهلة الأولى. لقد صار بيلي الشرس حطامًا مثل الباخرة. لطالما كان نحيفًا، لكنه الآن هيكل عظمي متحرك، عظامه تبرز من خلف جلده الأصفر المريض. وجهه جمجمة لعينة مصفرة. سقط أغلب شعره، وغطَّت صلعته قشور وقروح. كان يرتدي أسمالًا سوداء، ونمت أظفاره البنية إلى طول أربع بوصات. إلا أن عينيه كانتا كما هما، بلون الجليد، محمومتين،

محدقتين، تحاولان بث الرعب في نفوس الناظرين. تحاول أن تتظاهر بأنها عيني مصاص دماء.

عرف بيلي الشرس أنهما قادمان. لا بد أنه سمعهما. وقف شاهرًا سكينه في يده المُتمرسة الخطرة.

- حسنًا...

رفع مارش بندقيته وأطلق الرصاص من الماسورتين إلى صدره. لم يكترث مارش لسماع كلمة «حسنًا» أخرى. ليس هذه المرة.

صدحت البندقية ودفع رد فعلها كتف مارش بقوة. تحول صدر بيلي إلى الأحمر في مائة موضع، فسقط إلى الخلف، وانهارت معه أسوار الشرفة الصدئة، فهوى إلى أرضية الطابق العلوي. ظل متمسكًا بسكينه، وحاول أن يقوم مرة أخرى، لكنه تعثر وترنح كالسكارى. قفز مارش إليه وأعاد ملء بندقيته. مد بيلي يده إلى مسدس مثبت إلى حزامه، فأطلق مارش عليه ملء ماسورتين أخريين، حتى ألقاه خارج الطابق كلية. طار المسدس من يده، وسمع مارش صرخة بيلي وهو يرتطم بشيء في أثناء سقوطه. أطل مارش من أعلى على مقدمة الباخرة ليرى بيلي منطرحًا على بطنه، وأطرافه ملوية في أوضاع غير طبيعية، ومن تحته تتسع بقعة دم. كان بعد متمسكًا بسكينه اللعينة، لكنه لن يؤذي بها أحدًا بعد الآن.

زفر مارش، ووضع ذخيرة جديدة في بندقيته، ثم عاد إلى مهاجع الطاقم. باب غرفة الربان مفتوح، ودامون چوليان يقف في شرفة المهاجع، يواجهه چوشوا. شاحب متلاعب خبيث، بعينين سوداوين ثاقبتين. أما چوشوا فكان ثابتًا كالمُنوَّم.

انتزع مارش عينيه عنهما، وحولهما إلى بندقيته والذخيرة في يده. أمر نفسه بأن يتظاهر بأنه ليس هنا. أنت تحت الشمس، لا يمكنه أن يقترب منك. لا تنظر إليه. ضع الذخيرة في البندقية فقط وصوبها إلى وجهه اللعين بينما چوشوا متماسك بعد.

ارتعشت يداه، فثبتهما ودس رصاصة في مكانها.

وضحك دامون چوليان، فنظر مارش نحوه والرصاصة الثانية بين أصابعه. في ضحكة چوليان موسيقى ودفء وخفة يصعب معها أن تخاف، أو أن تتذكر من يكون والفظائع القادر على فعلها.

خرَّ چوشوا على ركبته.

سبَّ مارش، وانطلق ثلاث خطوات إلى الأمام، فاستدار چوليان وهجم عليه. أو حاول الهجوم. همَّ چوليان بالقفز عبر سور الشرفة المهشم إلى طابق الباخرة العلوي. رآه چوشوا، فنهض وقفز نحوه فأمسكه من الخلف. سمعه مارش يصرخ في ألم، فدس الرصاصة الثانية بسرعة، ثم نظر إلى أعلى ليرى چوليان يتقدم، وجهه الأبيض يطل عليه، وأسنانه البيضاء المريعة تلمع. ضغط إصبعه الزناد تلقائيًّا قبل أن يصوب البندقية اللعينة، فطاشت الرصاصة. رد فعل الإطلاق أسقط مارش إلى الخلف، وربما هذا ما أنقذه. لم يصبه هجوم چوليان، الذي استدار مرة أخرى ليعاود الهجوم، لكنه تردد عندما رأى چوشوا يتقدم وأربع خدوش دامية على خده تنزف. قال چوشوا بهدوء: «انظر إليَّ يا چوليان. انظر إليَّ».

لم يتبق مع مارش إلا رصاصة واحدة في البندقية. رفع السلاح وهو ممدد بعد، لكنه تأخر، فقد انتزع چوليان عينيه عن چوشوا ورأى الماسورة المصوبة نحوه. تنحى، وانطلقت الرصاصة تخرق الهواء. ساعد چوشوا صديقه على النهوض، وكان چوليان قد هرب إلى ما تحت الدرج. هتف چوشوا: «اتبعه! وانتبه! ربما يتربص بك».

- ماذا عنك؟

- سأتأكد من أنه لن يغادر الباخرة.

ثم استدار وقفز عبر حافة الطابق إلى مقدمة الباخرة بخفة قط وسرعته. هبط على بعد ياردة من بيلي الشرس، وتدحرج مرة قبل أن يقوم وينطلق إلى الدرج الرئيسي.

أعاد مارش حشو البندقية، انطلق إلى الدرج، وهبط ببطء وسلاحه في يده. صرَّ الخشب تحت قدميه، لكن لم يكن من أصوات أخرى حوله. يعرف مارش أن هذا لا يعني شيئًا، فهم جميعًا يتحركون بلا صوت.

باغته حدس أنه يعرف مكان اختباء چوليان. في القاعة الكبرى أو إحدى الغرف المشرفة عليها. أبقى مارش إصبعه على الزناد واستمر في التقدم ببطء ليتيح لعينيه فرصة للتكيف مع الظلام.

عند نهاية إحدى الغرف تحرك شيء. صوب مارش نحوه وتجمَّد لحظة، ثم ارتخى جسده. إنه چوشوا. قال وهو يمسح المكان بعينيه: «لم يفر من الباخرة».

- أعتقد هذا.

فجأة بردت القاعة وسكنت تمامًا كأنها مقبرة مغلقة منذ قرون. لم يعد مارش يرى إلا ظلالًا.

- اللعنة. أحتاج إلى بعض الضوء.

صوب بندقيته إلى أعلى وأطلق رصاصة نحو مسقط الضوء الزجاجي. انطلق صدى الرصاصة مدويًا في القاعة المغلقة، وانهمر الزجاج كوابل فوق رؤوسهم، ومعه بعض الضوء. فحص مارش المكان على قدر ما يرى، وبدا له خاليًا ساكنًا. ربما چوليان مختبئ خلف المشرب، فتحرك مارش ببطء إلى هناك.

التقطت أذناه صوت رنين خافت، كأنه صوت كؤوس تصطك. صاح چوشوا: «أبنر! فوقك!».

نظر مارش إلى أعلى، فتخلى چوليان عن الثريا التي كان يتعلق بها، وهوى فوقه. حاول مارش النهوض وتصويب سلاحه، لكن الوقت قد فات. أطاح چوليان بالبندقية وهو يجثم فوقه. حاول التملص، لكن شيئًا جذبه، فطوَّح قبضته في الهواء. فاجأته ضربة كادت تهشم رأسه. للحظات رقد ذاهلًا، وذراعه مثبتة إلى ظهره بقوة. صرخ مارش. حاول النهوض لكن ذراعه لُويت بقوة عاتية. سمعها تُكسر، فصرخ مرة أخرى والألم يستشري في جسده. دُفِع ووجهه إلى أسفل نحو البساط المتعفن، وسمع صوت چوليان المغوي يقول: «تملَّص أيها العزيز، وسأكسر ذراعك الأخرى. ابق ساكنًا».

صاح چوشوا: «ابتعد عنه!».

رفع مارش عينيه، ورآه يقف على بعد عشرين قدمًا. قال چوليان: «لا أظن هذا. لا تتحرك يا عزيزي چوشوا. لو اقتربت سأمزق حلق صديقك كابتِن مارش قبل أن تصل إليَّ. ابق مكانك وسأعتِقه. هل تفهمني؟».

حاول مارش أن يتحرك، فعض شفته ألمًا. لزم چوشوا مكانه، ويداه متصلبتان أمامه كالمخالب. قال: «نعم، أفهم».

بدت عيناه خطرتين، لكن غير واثقتين. بحث مارش بعينيه حوله عن البندقية، وجدها على بعد خمسة أقدام، بعيدًا عن طائلته.

قال دامون چوليان: «عظيم. والآن، لماذا لا نرتاح؟».

سمع مارش چوليان يجذب مقعدًا، وجلس عليه خلفه مباشرة.

- سأجلس هنا في الظل، ويمكنك أن تجلس أنت تحت النور الذي سمح له صديقك بالدخول إلى القاعة. هيا يا چوشوا. افعل كما أقول، إلا إذا أردت أن تشاهده يموت.

- لو قتلته، لن يتبقى شيء بيننا.

- ربما أود أن أجرب هذه المخاطرة. ماذا عنك؟

نظر چوشوا يورك حوله ببطء، ثم حرك مقعدًا نحو شعاع الضوء، وجلس تحت الشمس على بعد خمس عشرة قدمًا منهما.

- اخلع قبعتك يا چوشوا. أريد أن أرى وجهك.

خلع چوشوا قبعته ذات الحواف العريضة، ورماها فطارت عبر الظلال.

- جميل.

ثم ضحك بخفة وأضاف: «والآن يمكننا الانتظار معًا بعض الوقت يا چوشوا. حتى حلول الظلام».

ثلاثة وثلاثون



على متن الباخرة حلم فيڤر
مايو 1870

فتح بيلي تيبتون الشرس عينيه، وحاول الصراخ، لكن لم يخرج منه إلا أنين مكتوم. تنفس فابتلع الدماء. لقد شرب بيلي دماء تكفي ليميز الطعم. لكن هذه المرة هي دماؤه. صدره يشتعل ألمًا، ويرقد فوق بلل، دم.

صاح بصوت ضعيف: «النجدة». لن يستطيع أحد سماعه لو كان على بعد أكثر من ثلاثة أقدام. ارتجف، ثم أغلق عينيه كأنما لو نام، لزال الألم.

لكن الألم استمر. ظل بيلي الشرس مكانه وقتًا طويلًا، تتهدج أنفاسه فيتألم ويصرخ. لم يستطع أن يفكر في شيء سوى في الدم الذي ينزف منه، والخشب أمام وجهه، والرائحة. ثمة رائحة بشعة حوله. أخيرًا ميزها؛ لقد تغوط في سرواله. لم يكن يشعر بشيء، لكنه يشم. وبدأ يبكي.

أخيرًا لم يقدر بيلي تيبتون الشرس على البكاء أكثر. جفت دموعه، وتعاظم ألمه. حاول أن يفكر في شيء آخر غير الألم، فربما يتركه الأخير وشأنه.

استعاد تدريجيًّا رؤية مارش وچوشوا، والبندقية المصوبة إلى وجهه. لقد جاءا ليلحقا الأذى بچوليان وحاول منعهما، لكنه هذه المرة لم يكن سريعًا كفاية.

حاول الاستغاثة مرة أخرى.

- چوليان!

جاء صوته أعلى قليلًا من ذي قبل، لكن ليس عاليًا بما يكفي.

لم يتلق ردًّا. ناح بيلي تيبتون الشرس، وفتح عينيه مرة أخرى. لقد سقط من ارتفاع طابق، وها هو ممدد عند مقدمة الباخرة.

والشمس ساطعة.

لن يستطيع دامون چوليان سماعه. حتى لو سمعه، فلن يخرج في النهار. لا يستطيع چوليان الخروج نهارًا، ولو انتظر حتى الليل لمات.

- سأكون قد مُت بحلول الليل.

سعل، ثم ابتلع مزيدًا من الدماء. نادى بصوت ضعيف: «سيدي چوليان...».

استراح قليلًا وفكر، أو حاول أن يفكر. صدره مثقوب، مجرد لحم مفروم. المفترض أنه ميت، فقد كان مارش يقف قربه. لكنه ليس ميتًا. إنه يعرف لماذا لم يمت. لقد كاد أن يتحول إلى واحد منهم. هكذا أكد له چوليان وشعر به هو نفسه. في كل مرة ينظر إلى المرآة يظن أنه صار أكثر شحوبًا، وعينيه أكثر شبهًا بعيني دامون چوليان. يقول لنفسه إن قدرته على الرؤية في الظلام تحسنت خلال آخر عامين. فكر في أن هذا هو مفعول الدم، ولو أنه لم يُمرضه هكذا حتى تتقلص معدته ويقيء لشرب حتى صار أقوى بكثير. هذا ما أخبره إياه چوليان.

لقد أطلق عليه النار، وهوى من حالق، لكنه لم يمت. إنه يتشافى مثل چوليان. لقد كاد أن يكون واحدًا منهم الآن. ابتسم بيلي الشرس وقرر أن يمكث مكانه حتى يُشفى، بعدها يقوم ليقتل أبنر مارش. يستطيع أن يتخيل ذعر مارش لمرآه بعدما قتله.

ليت فقط الألم يخفت.

تساءل بيلي إن كان چوليان قد تألم هكذا يوم طعنه الكاتب المتفاخر اللعين. لقد انتقم منه چوليان. بيلي أيضًا سينتقم من بضعة أشخاص. فكر في الأمر حينًا، وفي كل ما قد يفعله. سيسير في شارع جالاتين وقتما يشاء، وسيحترمه الجميع. سيحظى لنفسه بنساء جميلات من الكريوليات بدلًا عن غواني المراقص، وعندما ينتهي منهن، سيمتص دماءهن بطريقة لم يفعلها قبله أحد. لن يسخرن منه مرة أخرى كما سخرن أحيانًا في الماضي.

راق لبيلي تيبتون الشرس التفكير فيما سيكون. لكن بعد بضع دقائق أو بضع ساعات، لم يكن واثقًا، لم يستطع الاستمرار. ظل يفكر في الألم بدلًا عن ذلك، وكيف يتزايد كلما حاول التنفس. المفترض أن يقل الألم، لكن هذا لا يحدث، وما زال ينزف بغزارة حتى إنه شعر بدوار قوي. لو أنه يُشفى، فلماذا ينزف؟

خاف بيلي. ربما لم يتحول بالقدر الكافي. ربما لن يشفى أبدًا ولن ينتقم من أبنر مارش. ربما سينزف حتى الموت.

نادى: «چوليان». بأعلى صوت استطاع أن يُخرجه. چوليان سيُتم التحول، وسيشفيه وسيجعله أقوى. لو أنه استطاع فقط أن يصل إلى چوليان، سيكون بخير. سيجلب له چوليان الدماء ليصير أقوى. چوليان سيعتني به. بيلي الشرس متأكد من هذا. ماذا سيفعل چوليان دونه؟ نادى مرة أخرى. صرخ حتى كادت حنجرته تنفجر ألمًا.

لا شيء. صمت. أنصت إذ ربما يسمع صوت خطوات چوليان أو غيره تقترب. لا شيء. إلا... أنصت بيلي الشرس مرة أخرى، فقد ظن أنه يسمع أصواتًا، صوت منهم صوت چوليان! إنه يستطيع سماعه!

إلا أن چوليان لم يستطع سماعه، وحتى لو سمع فلن يأتي والشمس ساطعة. أرعب الخاطر بيلي الشرس. چوليان لن ينجده إلا ليلًا، لكن الليل بعيد.

قرر بيلي الشرس أن يذهب هو إليه. عليه أن يتحرك حتى يصل إلى چوليان فيساعده.

عض بيلي على شفته واستجمع قواه، وحاول النهوض.

صرخ.

الألم الذي فجر جسده عند الحركة غير محتمل، كسكين ملتهبة تنزع منه كل أمل، حتى لا يتبقى في أحشائه سوى الهلع. صرخ وظل مكانه، جسده ينبض، وقلبه يدق بجنون. والألم... الألم يخفت تدريجيًا.

هنا أدرك بيلي تيبتون الشرس أنه لم يعد يشعر بساقيه. حاول تحريك أصابعه، فلم يشعر بأي شيء بالأسفل.

إنه يموت. فكر بيلي الشرس في أن هذا ليس عدلًا. لقد أوشك على التحول بعد أربعة عشر عامًا من شرب الدماء واكتساب القوة. كان ليعيش للأبد، والآن حياته تُغتصب منه، تُسرق. لطالما سرقوه حتى لم يعد لديه شيء. هذا خداع. لقد خدعه العالم مرة أخرى بزنوجه وكريوليونه وأثريائه. كلهم خدعوه وسخروا منه، والآن يخدعونه ويسرقون منه حياته وانتقامه وكل شيء.

عليه أن يصل إلى چوليان. لو استطاع أن يصل إليه لحوَّله وصار كل شيء على ما يرام. وإلا سيموت هنا، وسيسخرون منه، ويقولون إنه أحمق

وحثالة وكل ما يطلقون عليه من صفات وضيعة. سوف يبولون على قبره ويضحكون.

لا بد أن يصل إلى چوليان ليكون هو من يضحك في النهاية.

أخذ بيلي الشرس نفسًا عميقًا. يستطيع أن يشعر بسكينه في قبضته. حرك يده ودس السكين بين أسنانه وارتجف. ها... الأمر لم يعد يؤلم كما كان. ذراعه سليمة. أصابعه مفرودة على الأرضية الزلقة بالعفن والدم.

جر نفسه بذراعيه إلى الأمام. صدره يحترق وظهره يصرخ. يعض أكثر على المعدن بين أسنانه ويرتجف، ثم ينهار من التعب والألم. لكن بعد لحظات يبتسم وقد أدرك أنه تحرك بالفعل. لقد جر نفسه إلى الأمام مسافة قدم كاملة. خمس أو ست محاولات أخرى وسيصل إلى بداية الدرج الكبير، ثم يمكنه أن يتشبث بالدرابزين المزخرف ويسحب نفسه إلى أعلى. الأصوات تأتيه من أعلى. يمكنه أن يصل إليهم. يجب أن يصل إليهم!

مد بيلي تيبتون الشرس ذراعيه، وغرز أظفاره في الخشب، وعض على سكينه.

أربعة وثلاثون



على متن الباخرة حلم فيقر
مايو 1870

مرت الساعات في صمت، وغُزِل الصمت بالخوف.

جلس أبنر مارش قريبًا من دامون چوليان، مسندًا ظهره إلى المشرب الرخامي الأسود، يضم يده المكسورة إلى صدره ويتعرق. سمح له چوليان أخيرًا بالنهوض بعدما فاق ألمه حد تحمله، وبدأ يئن، لكنه كان يعرف أن الألم سيشتد لحظة محاولته الحركة. لذا جلس مارش ساكنًا وراح يفكر.

لم يكن مارش ماهرًا في الشطرنج كما أثبت چوناثان چيفرز مرات عديدة. أحيانًا كان ينسى كيف كانت القطع اللعينة تتحرك من لعبة إلى أخرى، لكنه يعرف حتى الآن الطريق المسدود (كِش ملك) عندما يراه.

جلس چوشوا متصلبًا على مقعده، عيناه غير مقروءتين من هذه المسافة. شعاع الشمس يضربه، يشوي روحه، يبدد قوته كما يبدد ضباب النهر في الصباح. لم يتحرك بسبب مارش، لأنه يعرف أنه إن تحرك سيكون مارش مختنقًا بدمائه قبل أن يصل إلى چوليان. ربما يستطيع چوشوا وقتها قتل دامون چوليان، وربما لا، لكن في الحالتين لن يشكل هذا مع مارش فارقًا.

چوليان في طريق مسدود أيضًا. لو قتل مارش، سيضحي بحمايته، وسيكون چوشوا حرًّا في الهجوم عليه. واضح أن چوليان يخشى هذا. يعرف مارش الشعور الذي تسببه الهزيمة للرجل، حتى لذلك الشيء المدعو دامون چوليان. كسر چوليان چوشوا عشرات المرات، وأدماه حتى يوثِّق الخضوع، وانتصر عليه يورك مرة واحدة، لكنها كانت كافية. ضاعت ثقة چوليان، وعاش الخوف فيه كدودة في جثة.

شعر مارش بالضعف وقلة الحيلة. ذراعه تؤلمه كالجحيم، ولا شيء يستطيع فعله. عادت عيناه إلى البندقية. قال لنفسه إنها بعيدة للغاية، وبجلوسه جوار المشرب ابتعد أكثر عنها. سبع أقدام على الأقل. الوصول إليها مستحيل، خاصة بيد مكسورة. عض شفتيه وراح يفكر في حل آخر.

لو أن چوناثان چيفرز يجلس مكانه، لتوصل إلى حل ذكي مدهش ماكر. لكن چيفرز مات، ومارش ليس سوى نفسه غير القادرة على شيء سوى التفكير المباشر الغبي، كيف يصل إلى البندقية اللعينة. لو وصل إليها سيموت.

سأل چوليان مرة بعد وقت طويل، وابتسامته تتسع: «هل تؤلمك الشمس يا چوشوا؟ لا بد أن تعتادها لو أنك تريد أن تكون واحدًا منهم. كل القطعان تحب الشمس». ثم اختفت ابتسامته فجأة. لم يُجب چوشوا، ولم يتكلم چوليان مرة أخرى.

لاحظ مارش كم تحلل چوليان نفسه، بالضبط مثل الباخرة وبيلي الشرس. صار مختلفًا الآن، بل وأكثر إرعابًا. بعد ذلك السؤال الوحيد فرغ من الكلمات ومن كل شيء. لم ينظر إلى چوشوا يورك أو مارش أو أي شيء تحديدًا. حدقت عيناه إلى الفراغ، باردتين سوداوين ميتتين، تستعران بالسواد تحت حاجبيه الكثيفين. لكنهما لم تبدوا بشريتين، ولا چوليان أيضًا.

تذكر مارش يوم زار چوليان حلم فيڤر أول مرة. عندما نظر إلى عينيه وقتًا، بدا له كأن فيهما أقنعة تتساقط واحدًا تلو الآخر حتى القاع، حيث الوحش الكاسر. الأمر الآن مختلف. لا أقنعة. لطالما كان دامون چوليان أكثر المخلوقات التي قابلها مارش شرًّا، لكن جزءًا من شره كان شرًّا بشريًّا. خبثه، أكاذيبه، ضحكته الموسيقية المريعة، قسوته وعشقه للتعذيب، حبه للجمال وتحطيمه. اختفى الآن كل هذا، ولم يتبقَّ سوى الوحش الرابض في الظلام، بعينيه الخبيثتين، وجنونه ورعبه. چوليان لا يمازح الآن چوشوا، ولا يتلاعب بموازين الخير والشر، والقوة والضعف، ولا يملأ أذني مارش بالوعود العفنة.

هو الآن يجلس وينتظر، مسربل بالظلام، ووجهه العتيق بلا تعبير، وعيناه خاويتان.

أدرك مارش وقتها أن چوشوا كان مُحقًّا. چوليان مجنون، أو ما هو أسوأ. چوليان شبح، والشيء الذي يسكن هذا الجسد بلا عقل.

على ذلك، ظن مارش في مرارة أنه سيفوز. ربما يموت دامون چوليان كما ماتت أقنعته الأخرى عبر القرون، لكن الوحش استمر في العيش. يحلم چوليان بالظلام والسِنة، لكن الوحش لن يموت. لطالما كان حاذقًا، صبورًا، عاتيًا.

نظر أبنر مارش إلى البندقية مرة أخرى. لو كان فقط في قوته وسرعته منذ أربعين عامًا. لو أن چوشوا يستطيع جذب انتباه الوحش فترة كافية. لكن لا فائدة. لن تلتقي عينا الوحش وعينا چوليان، ومارش ليس سريعًا ولا قويًّا، وذراعه مكسورة، ويتعذب ألمًا. لن يستطيع النهوض والوصول إلى السلاح في وقت مناسب.

ماسورة البندقية موجهة أيضًا في الاتجاه الخاطئ، نحو چوشوا. لو أنها موجهة نحو چوليان لبدت المخاطرة ممكنة. كان لينطلق نحو البندقية ويرفعها بسرعة ويطلق الرصاص، لكن في هذه الحالة سيضطر إلى لفها أولًا قبل أن يقتل الشيء المدعو چوليان، كل هذا بذراع مكسورة.

لا. الوحش سريع للغاية.

فرَّت أنَّة ألم من بين شفتي چوشوا. وضع يده على حاجبه، ثم مال إلى الأمام ودفن وجهه بين كفيه. بشرته صارت وردية بالفعل، وسوف تصير حمراء، ثم سوداء محترقة. يستطيع مارش أن يرى الحياة تنساب منه. تساءل مارش عما يبقيه تحت دائرة الشمس هذه.

چوشوا جسور، ويعرف ذلك. فجأة خطر لمارش أن يصيح قائلًا: «اقتله. ابتعد عن الشمس واقتله، اللعنة! لا تعبأ بي».

نظر إليه چوشوا وابتسم وهو يقول: «لا».

- لعنك الرب في الجحيم أيها الأحمق العنيد! افعل كما أقول! أنا رجل لعين مسن، وحياتي لا تعني شيئًا. افعل كما أقول يا چوشوا!

هز چوشوا رأسه ودفن وجهه بين كفيه مرة أخرى.

حدق الوحش إلى مارش متعجبًا، كأنه لا يفهم كلماته، كأنه نسي كل الكلام الذي تعلمه. نظر مارش إلى عينيه وارتجف. سبَّ ولعن حتى احمر وجهه، ذراعه تؤلمه والدموع محبوسة خلف عينيه. هذا أفضل من أن ينتحب كامرأة لعينة. صاح أخيرًا: «لقد كنت شريكًا وفيًّا يا چوشوا. سأتذكرك طوال عمري».

ابتسم چوشوا. حتى ابتسامته متألمة كما رآها مارش. چوشوا يضعف بشكل ملحوظ. سيقتله النور، ثم سيبقى مارش هنا وحده.

ما زال أمامهم ساعات وساعات من النهار. لكن الوقت يمر، والليل يقترب. لن يستطيع مارش منع الليل ولا الوصول إلى البندقية اللعينة. ستغرب الشمس وسيزحف الظلام على حلم فيڤر، وسيبتسم الوحش وينهض. ستُفتح الأبواب على طول القاعة الكبرى بعدما يستيقظ الآخرون؛ أبناء الليل، مصاصو الدماء، أبناء الوحش وبناته وعبيده. سيخرجون من خلف اللوحات الباهتة والمرايا المكسورة. صامتون، بابتساماتهم الباردة ووجوههم البيضاء وأعينهم الفظيعة. بعضهم كانوا أصدقاء چوشوا، وواحدة منهم تحمل ابنه، لكن مارش متأكد من أن هذا لن يشكل فارقًا. كلهم مِلك الوحش. كان لچوشوا الكلمات والعدالة والحلم، لكن للوحش السلطة، وستستدعي الوحوش الكامنة فيهم، وتوقظ ظمأهم الأحمر، وتربطهم بمشيئته. هو لم يعد ظمآنًا، لكنه يتذكر.

وعندما تُفتح هذه الأبواب، سيموت أبنر مارش. ذكر دامون چوليان عِتقه، لكن الوحش لا ينصاع لوعود چوليان الحمقاء، فهو يعرف مدى خطورة مارش. سواء كان قبيحًا أو لا، سيتغذون عليه الليلة، وسيموت چوشوا، أو ما هو أسوأ، سيصير واحدًا منهم، وسيكبر ابنه ليكون وحشًا، وسيستمر القتل، وسيغرق الظمأ الأحمر القرون القادمة، وستتحول كل الأحلام المحمومة الجميلة إلى مرض، وستتعفن.

كيف يمكن أن ينتهي الأمر بنهاية مختلفة؟ الوحش أعظم منهم؛ قوة من قوى الطبيعة. الوحش أبدي كالنهر، بلا شكوك ولا أفكار ولا أحلام ولا مخططات. ربما يهزم چوشوا چوليان، لكن الوحش سيحيا، غير قابل للتحطيم. روَّض چوشوا وحشه، لذا لم يعد فيه سوى الإنسانية لمواجهة الشيء الذي يعيش داخل چوليان. والإنسانية لا تكفي.

لا يمكن أن يأمل في انتصاره.

عقد مارش حاجبيه وقد لفت انتباهه شيء في أفكاره. حاول أن يعرف ما كان، لكنه تملص منه. ذراعه تنبض ألمًا. تمنى لو حصل على بعض من مشروب چوشوا اللعين. طعمه بشع، لكن چوشوا ذكر من قبل أن فيه مخدرًا، وقد يساعد هذا في تخفيف الألم، والكحول لن يضر أيضًا.

تغيرت زاوية سقوط الضوء من أعلى، وعرف مارش أنهم في وقت ما بعد الظهيرة. أمامهم بضع ساعات بعد، بعدها تنفتح الأبواب. نظر إلى چوليان، ثم إلى البندقية. ضغط ذراعه كي يخفف الألم قليلًا. فيمَ كان يفكر من قبل؟ في بعض من مشروب چوشوا... لا... في الوحش، وكيف أن چوشوا لن يهزمه بناء على...

ضيَّق أبنر مارش عينيه ونظر إلى چوشوا. لقد هزمه چوشوا مرة، وفي وجود الوحش. لماذا لا يستطيع فعل ذلك ثانية؟ لماذا؟ أمسك مارش ذراعه وتأرجح إلى الأمام والخلف ببطء وحاول الابتعاد عن الألم ليفكر بوضوح. لماذا، لماذا، لماذا؟

وباغته التفسير كعادته. ربما كان بطيء التفكير، لكنه لا ينسى. الشراب.. لقد صبَّ آخر ما تبقى منه في حلق چوشوا عندما فقد الوعي من الشمس. غادر چوشوا بعد ساعات، واستطاع أن يُخضع چوليان. كم احتاج من وقت حتى يصل إليه؟ أيام. لقد مرت أيام حتى عاد إلى الباخرة. كان يهرع إلى زجاجاته، يهرب من الظمأ الأحمر. ثم وجد الباخرة والقتلى فيها، وبدأ ينتزع الألواح التي تغلق الأبواب، وجاء چوليان. تذكر مارش كلمات چوشوا... *وفجأة صرخت. رغبت في الثأر وفي قتله ببشاعة كما لم أرغب في قتل أحد من قبل. أردت تمزيق عنقه الأبيض وتذوق دمه اللعين! الكلمات أضعف من أن تصف غضبي.*

فكر مارش في أن الغضب لم يكن المحرك الرئيسي، بل الظمأ. كان چوشوا غاضبًا إلى حد أنه لم يدرك أنه في مرحلة الظمأ الأحمر الأولى! لا بد أنه شرب من عقاره بمجرد أن أخضع چوليان، لذا لم يدرك الأمر، ولم يعرف سر اختلاف هذه المرة.

شعر مارش وقتها ببرد حقيقي وهو يتساءل إن كان چوشوا يعرف السبب الحقيقي وراء انتزاعه تلك الألواح، أو فكر فيما قد يفعل لو لم يتدخل چوليان. لا عجب أن چوشوا انتصر تلك المرة فقط. حروقه، مخاوفه، الدمار حوله، ظمؤه... لا بد أنه الظمأ حقًّا. استيقظ وحشه تلك الليلة، وكان أقوى من وحش چوليان.

سرعان ما زال حماس مارش لما اكتشفه، فقد لا يكون ذا فائدة لهما الآن. ربما شرب چوشوا من شرابه ما يكفي منذ وقت قريب، وشرب نصف زجاجة في نيو أورلينز قبل أن يرحلوا إلى مزرعة چوليان. رأى مارش أنه لا طريقة

لإيقاظ الظمأ في چوشوا. كانت الحمى هي فرصتهم الوحيدة. وانتقلت عيناه إلى البندقية عديمة النفع.

غمغم: «يا للجحيم». وقال لنفسه: يجب أن تنسى تلك البندقية اللعينة، فهي لن تنفعك. فكِّر... فكِّر كما كان چيفرز ليفكر لو أنه مكانك. ابحث عن حل.

فكر مارش في أن الأمر أشبه بسباق بواخر. لا يمكن أن تسبق باخرة مسرعة بالعبور من جوارها فقط. يجب أن تكون ذكيًّا. يجب أن يكون معك قبطان ماهر يعرف الوصلات والطرق المختصرة، ربما تخدعهم، ربما يكون معك بعض شحم الخنزير... الخدع!

فتل مارش شعيرات ذقنه بيده السليمة وهو يفكر. لا يمكنه أن يفعل شيئًا. الأمر كله بيد چوشوا. چوشوا يضعف بمرور الوقت، ولن يتحرك ما دامت حياة مارش على المحك. ليت هناك طريقة لإيقاظ ظمأ چوشوا... متى يزوره الظمأ الآن؟ كل شهر تقريبًا ما لم يتناول مشروبه الذي يمنعه تمامًا. هل من شيء آخر؟ شيء يجلب عليه الظمأ؟ مارش عاجز عن التفكير.

ربما للغضب علاقة بالظمأ؟ لكنه ليس كافيًا. الجمال؟ الأشياء الجميلة حقًّا تغويه حتى مع انتظامه على الشراب. قال مارش لنفسه: ربما اختارني شريكًا لأنني أكثر رجال النهر قبحًا. لكن هذا ليس كافيًا. دامون چوليان جميل بما يكفي، لكنه لا يستفز في چوشوا سوى الغضب... لذا...

بدأ مارش يفكر في كل الحكايات التي حكاها له چوشوا، حكايات الليالي الحالكة والموتى والوقت المرير الذي استولى فيه الظمأ الأحمر على روحه وجسده.

تذكر قول چوشوا: «... أصابت الرصاصة معدتي، ونزفت كثيرًا. لكن بعد ذلك بدأ النزف يقل بسرعة، واختفى الألم. قمت. لا بد أنه كان منظرًا مريعًا إذ كنت غارقًا بالدماء ووجهي شاحب. ثم غمرني شعور غريب، شعور لم أختبره من قبل...».

وتذكر قول چوليان: «هل ظننت حقًّا أنني كنت سألحق بك ضررًا في تلك الليلة من أغسطس؟ أوه، ربما كنت لأفعل ذلك في أثناء ألمي أو غضبي، لكن ليس قبل ذلك...».

تذكر ڤاليري تحترق حية في القارب، تذكر كيف صرخت واندفعت نحو كارل فرام...

تذكر چوشوا وهو يحكي له حكاية الرجل الذي دافع عن امرأته...

فكر مارش في أن استنتاجه صحيح. لا بد أن الشيء الوحيد الذي يستفزهم هو الظمأ.

نظر مارش إلى مسقط الضوء. صارت زاوية سقوط الضوء حادة الآن، والشعاع نفسه أكثر حُمرة. چوشوا في الظل جزئيًّا الآن. منذ ساعة كان مارش ليرتاح لرؤية هذا المنظر، لكنه الآن ليس واثقًا.

ثم سمع صوتًا يقول: «النجدة». مجرد همسة مكسورة مختنقة بالألم. لكنهم سمعوها جميعًا وسط الظلام والهدوء التام حولهم.

تقدم بيلي تيبتون الشرس زاحفًا نحوهم من وسط الظلام، يلطخ الأرض خلفه بالدماء. لم يكن يزحف بالضبط، بل يجر جسده. يغرس السكين اللعينة في الأرضية ثم يجذب جسده إلى الأمام. ظهره ملوي بطريقة غريبة. بدا بيلي بشريًّا بالكاد وهو مغطى بالطحالب والقاذورات والدم المتجلط. جر نفسه إلى الأمام قدمًا أخرى. صدره منبعج، والألم يغطي ملامحه بقناع مرعب.

قام چوشوا يورك من مقعده كرجل في حلم، ووجهه محمر ملتهب. همس: «بيلي...».

قال الوحش: «امكث مكانك يا چوشوا».

نظر إليه چوشوا ببرود وهو يلعق شفتيه المتقرحتين وقال: «لن أهددك. دعني أقتله. قتله رحمة».

ابتسم دامون جوليان وهز رأسه وقال: «اقتل بيلي المسكين، وسأضطر إلى قتل مارش».

بدا كأنه عاد چوليان مرة أخرى، بصوته الراقي وهدوء كلماته، ونبرة التسلية في عبارته.

تحرك بيلي الشرس قدمًا أخرى ثم توقف وجسده يرتجف. الدماء تنزف من فمه وأنفه. همس: «چوليان...».

- يجب أن تتكلم بصوت أعلى يا بيلي. لا نسمعك جيدًا.

قبض بيلي على سكينه وأجفل ألمًا، ثم حاول رفع يديه قدر استطاعته: «أنا... ساعدني... أنا مصاب. بقوة. بالداخل... يا سيدي چوليان...».

قام چوليان من مقعده وهو يقول: «أرى هذا يا بيلي. ماذا تريد؟».

ارتعشت زاويتا فم بيلي بقوة وهو يهمس: «النجدة. حوِّلني... أنهِ التحوُّل... يجب أن... أنا أموت...».

راقب چوليان بيلي وچوشوا أيضًا. كان چوشوا واقفًا بعد، وانتهز مارش الفرصة ونظر إلى البندقية. مستحيل أن يدير البندقية ويصوبها نحو چوليان بالسرعة الكافية وهو واقف هكذا. لكن ربما... نظر إلى بيلي الذي أنساه عذابه ألم ذراعه. بيلي يتوسَّل...

- أعيش للأبد... چوليان... حوِّلني... واحد منكم...

- آه... أخشى أن لدي نبأ سيئًا لك يا بيلي. لا يمكنني تحويلك. هل ظننت حقًّا أن في وسع كائن مثلك أن يصير واحدًا منا؟

همس بيلي في ذعر: «وعدتني... لقد وعدتني... أنا أموت!».

ابتسم دامون چوليان وقال: «ماذا كنت سأفعل دونك؟».

ثم ضحك بخفَّة، وعرف مارش على الفور أن الوحش سمح لچوليان بالظهور على السطح مرة أخرى. هذه ضحكة چوليان الغنية الموسيقية الحمقاء. سمع مارش الضحكة ورأى وجه بيلي الشرس ورعشة يده وهو ينتزع السكين من الأرضية.

هدر مارش موجهًا صيحته لچوليان: «أجحمك الرب!».

استدار چوليان مدهوشًا. كتم مارش ألمه وانطلق نحو البندقية عبر الغرفة. تفوق سرعة چوليان سرعته مئات المرات. جثم مارش فوق البندقية والألم يعميه، وقبل أن يشعر ببرودتها تحت بطنه، شعر بيدي چوليان البيضاوين تنطبقان حول عنقه. ثم ارتختا، وصرخ دامون چوليان.

تدحرج مارش على ظهره، فرآه يترنح ويداه تغطيان وجهه، بينما سكين بيلي الشرس منغرزة في عينه اليسرى، والدم يجري من بين أصابعه الشاحبة. صاح مارش وهو يضغط الزناد: «مُت عليك لعنة الرب!» طرحت الطلقة چوليان أرضًا، وصرخ مارش من رد فعل البندقية التي ركلت كتفه بعنف. للحظة غامت الدنيا عن عينيه، وعندما تنبَّه حاول أن ينظر حوله من

مكانه، لكنه عافر حتى قام واقفًا، وعندها سمع صوت كسر حاد كغصن مبتل يُهشَّم.

قام چوشوا يورك من جوار جثة بيلي تيبتون والدم يلطخ يديه.

- لم يكن فيه أمل.

عبَّ مارش الهواء وقلبه يضرب صدره بعنف وقال: «لقد فعلناها يا چوشوا. قتلنا الـ...».

ضحك أحدهم.

استدار مارش وهو يتراجع إلى الخلف.

ابتسم چوليان. لم يكن ميتًا. فقد عينًا لكن السكين لم تغُص إلى عمق كاف، ولم تمس مخه. كان نصف أعمى، لكنه ليس ميتًا.

أدرك مارش خطأه متأخرًا جدًّا. لقد أطلق النار على صدره، على صدر چوليان اللعين، وكان عليه أن يمحو رأسه من الوجود. تعلقت بقايا رداء چوليان من صدره الدامي، لكنه لم يمت. قال والدم يحتشد في محجر عينه ثم ينزف على خده: «لست سهل القتل يا بيلي المسكين، ولا قتلي في سهولة قتلكم». وتقدم نحو مارش ببطء متعمد. حاول مارش رفع البندقية بيده المكسورة، وهو يُخرج بيده الذخيرة من جيبه. دسها تحت ذراعه وهو يتراجع، لكن الألم جعله يتخبط، وتسقط منه إحدى الرصاصتين على الأرض. ألصق مارش ظهره إلى عمود، فضحك چوليان.

خطا چوشوا يحول بينهما بوجه أحمر ملتهب وهتف: «لا. أنا أمنع هذا. أنا سيد الدماء. توقف يا چوليان».

قال چوليان: «آه... مرة ثانية يا چوشوا تتحداني؟ مرة ثانية إذًا، لكنها ستكون الأخيرة. بيلي عرف حقيقته، ودورك أن تعرفها أنت أيضًا يا عزيزي چوشوا».

عينه اليسرى مسدودة بالدم المتجلط، واليمنى هاوية حالكة محدقة.

ثبت چوشوا في مكانه. صاح مارش: «لا يمكنك هزيمته. الوحش اللعين يا چوشوا...».

لكن چوشوا لم يكن ينصت. سقطت البندقية من أسفل ذراع مارش المكسورة. انحنى يلتقطها بيده السليمة، ووضعها على المشرب وراءه، وبدأ

يحشوها بيد واحدة وببطء. أصابعه زلقة خرقاء. الرصاص ينزلق من بينهما مرارًا، لكنه أخيرًا ينتهي ويرفعها إلى ما تحت ذراعه السليمة.

دار چوشوا يورك ببطء كما كانت حلم فيڤر تدور ليلة مطاردتها إيلي رينولدز. اقترب من مارش خطوة، فهتف مارش: «چوشوا... لا...» لكنه اقترب أكثر بعد.

- ابتعد عن مرماي. دعني أصوب.

لم يبد أن چوشوا يسمع. على وجهه نظرة ميتة مروعة. إنه ملك للوحش الآن. ارتفعت يداه الشاحبتان القويتان. هتف مارش: «يا للجحيم. يجب أن أفعل هذا يا چوشوا. لقد فكرت كثيرًا. هذا هو الحل الوحيد».

قبض چوشوا يورك على عنق أبنر مارش، عيناه الرماديتان متسعتان شيطانيتان. دس مارش ماسورة البندقية تحت إبط چوشوا وضغط الزناد. دوى الانفجار العظيم وفاحت رائحة الدماء والدخان. ترنح يورك وسقط وهو يصرخ ألمًا بينما مارش يبتعد عنه. ابتسم دامون چوليان ساخرًا، وتحرك كالأفعى المجلجلة ليجذب البندقية من يد مارش.

- والآن، لم يعد سوانا. نحن فقط أيها الكابتِن العزيز.

كان يبتسم بعد، عندما أطلق چوشوا صوتًا هو نصف صرخة ونصف فحيح، ورمى نفسه على جسد چوليان من الخلف ليسقطه أرضًا. تدحرجا معًا، كل منهما يحاول تحطيم الآخر حتى ارتطما بالمشرب الرخامي وافترقا. قام دامون چوليان أولًا، تلاه چوشوا. كانت كتف يورك محطمة دامية، وذراعه مرتخية إلى جانبه، لكن عينيه الرماديتين مستعرتان بحُمى الوحش. يورك يتألم، والألم يوقظ الظمأ.

تقدم چوشوا ببطء، وچوليان يتراجع مبتسمًا وهو يقول: «ليس أنا يا چوشوا. الكابتِن هو من آذاك. الكابتِن».

توقف چوشوا لحظة ونظر إلى مارش للحظات طالت، في انتظار أن يعرف إلى أي اتجاه سيوجهه ظمؤه. تساءل مارش أيهما سيتحكم فيه، چوشوا أم الوحش. أخيرًا ابتسم يورك لدامون چوليان ابتسامة خافتة، وبدأ الصراع الصامت.

استجمع مارش قوته ليلتقط البندقية من حيث رماها چوليان. وضعها على المشرب وبدأ يحشوها ببطء لكن بإصرار. عندما حملها تحت ذراعه

وصوبها، كان دامون چوليان راكعًا. مد يده إلى محجر العين الدامي وانتزع عينه بأصابعه، ثم رفعها داخل كفه إلى چوشوا الذي انحنى ليقبَل القربان. خطا مارش إلى الأمام بسرعة، ودفع البندقية إلى صدغ چوليان بين خصلات شعره الأسود المموج، وأطلق كلتا الرصاصتين.

بدا چوشوا ذاهلًا، كأنه انتُزِع من حلم. زفر مارش وألقى البندقية وقال لچوشوا: «أنت لا تريد هذا. تماسك. لدي ما تريد...».

مشى مارش إلى ما خلف المشرب، ووجد الزجاجات العارية من أي علامة، فالتقط واحدة ونفخ عنها التراب. هنا نظر إلى أعلى ليرى الوجوه البيضاء تراقب من الأبواب المفتوحة. لا بد أن صوت الطلقات قد أيقظهم.

وجد مارش صعوبة في انتزاع سدادة الزجاجة بيد واحدة، فاستخدم أسنانه. تحرك چوشوا نحو المشرب كأنه منوَّم، وفي عينيه يستمر القتال. مد مارش يده إليه بالزجاجة، فقبض چوشوا على ذراعه. ثبت مارش مكانه وهو يتساءل في ذعر؛ هل سيأخذ الزجاجة، أم سيمزق شرايين ذراعه. قال برفق: «علينا جميعًا أن نختار لأنفسنا اللعينة يا چوشوا».

حدق إليه چوشوا لما بدا كنصف الأبد، ثم جذب الزجاجة من يد مارش، ورفع رأسه وأفرغها في جوفه. نزل السائل الداكن يتدفق ويغرق ذقنه. أخذ مارش زجاجة أخرى، وكسر عنقها على حافة المشرب، ثم رفعها وهتف: «في صحة حلم فيڤر اللعينة!».

وشربا معًا.

***



تعقيب

المقابر عتيقة، ممتلئة، تضج بأصوات النهر. ترتفع عالية فوق جرف، ومن تحتها يمتد المسيسبي، يجري ويجري كما كان منذ آلاف السنين. يمكنك أن تجلس عند حافة الجرف وتدلي ساقيك، وتنظر إلى النهر، فترتشف منه السلام والجمال. للنهر آلاف الوجوه هنا. أحيانًا يكون ذهبيًّا، وأحيانًا يموج سطحه بأسراب الحشرات التي تطوف حول الأغصان نصف الطافية. يتحول النهر إلى اللون البرونزي مع الغروب، ثم إلى الأحمر، وينتشر الأحمر يصبغه، حتى ليدفعك للتفكير في موسى ونهر آخر بعيد بعيد. في ليلة صافية تتدفق المياه سوداء رقراقة كالحرير، تحت سطحها يتألق انعكاس النجوم وضياء القمر السحري الذي يبدو أكبر وأجمل مما هو في السماء بالأعلى. يتغير النهر بتغير المواسم أيضًا. في الربيع تجتاحه الفيضانات، فيتعكر بالطمي ويصير بنيًّا، ينهش الضفاف وجذوع الأشجار على الجانبين. في الخريف يهدهد أوراق الأشجار بألف لون، ويتلقاها في حضنه. في الشتاء يتجمد النهر، وتنهمر فوقه الثلوج وتغطيه، فتحوله إلى طريق أبيض موحش، يعكس الضوء إلى حد يؤلم الأعين. تحت الجليد يجري الماء، باردًا لا يهدأ ولا يكل. في الصيف ينتعش النهر أخيرًا، ويتكسَّر الجليد بصوت تشقق مهيب مدوٍّ.

يمكنك أن ترى كل أحوال النهر من المقابر. من هناك، يبدو النهر كما كان منذ آلاف السنين. تتابعه لساعات ولا ترى إلا هنديًّا يمر على زورقه. اليوم تتابعه ولا ترى إلا صندلًا نهريًّا يدفعه مركب ذو محرك ديزل.

بين هذا وذاك، مر وقت ضج فيه النهر ورتعت فيه البواخر والقوارب، بصافراتها وضجيج محركاتها. اختفت البواخر الآن، وعمَّت السكينة. لن يعجب موتى المقابر هذا الوضع، فنصف من فيها من رجال النهر.

المقابر هادئة أيضًا، أغلب قبورها مُلئت منذ زمن، وأحفاد ساكنيها قد ماتوا هم أيضًا. الزوار نادرون، ومن يزورونها يأتون فرادى.

لبعض القبور شواهد ضخمة، بتمثال فوقها يمثل هيئة قبطان، يمسك جزءًا من عجلة قيادة وينظر إلى الأفق. بعض الشواهد مكتوب عليها إنجازات أصحابها وطريقة وفاتهم، بعضهم مات في انفجار غلايات، وبعضهم في الحرب، وبعضهم مات غرقًا. لكن لم يأت الزوار لهؤلاء، بل جاءوا لقبر بسيط للغاية. مر على شاهده مئات الأعوام لكنه صمد. الكلمات المكتوبة عليه مقروءة. مجرد اسم وبعض التواريخ، وبيتي شعر.

كابتِن أبنر مارش

1873-1805

لذا لن نستمر أكثر في تجوالنا

حتى ساعات الليل الأخيرة.

الحجر فوق الاسم محفور بدقة متناهية، وبتفاصيل دقيقة، يجسد باخرتين عظيمتين ذواتي رفاسات جانبية في سباق. أكل الزمن والطقس تفاصيلهما، لكن يمكنك رؤية البخار يتصاعد من مداخنهما، فتستشعر السرعة التي يبحران بها. لو ملت أكثر واقفًا على أطراف أصابعك، لرأيت نقش اسميهما. الباخرة في الخلف تحمل اسم شفق، إحدى أشهر بواخر زمنها، والأخرى غير معروفة لدى أغلب مؤرخي النهر، واسمها حلم فيڤر.

الزائر الوحيد الذي يزور القبر يلمس نقش السفينتين كأنه يستمد منه الحظ.

والغريب أنه يأتي دائمًا ليلًا.